384
يناير
2012

الغرابة
المفهوم وتجلياته في الأدب

تأليف: د. شاكر عبدالحميد

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978

أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

384

الغرابة

المفهوم وتجلياته في الأدب

تأليف: د. شاكر عبدالحميد

يناير 2012

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	15 د.ك
للمؤسسات	25 د.ك

دول الخليج

للأفراد	17 د.ك
للمؤسسات	30 د.ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون: 22431704 (965)
فاكس: 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw
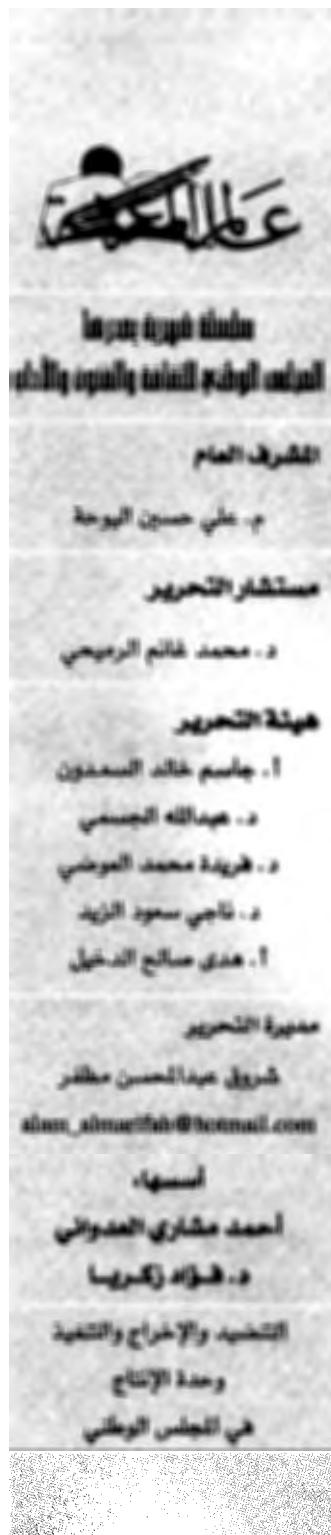
ISBN 978 - 99906 - 0 - 353 - 8

رقم الإيداع (2011/792)

الغرابة
المفهوم وتجلياته في الأدب

تأليف: د. شاكر عبد الحميد

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

صفر 1433 هـ - يناير 2012

المحتوى

توطئة

«الأكثر غرابة من هذه الغرابة نفسها أن تتحول الأشياء، التي كان ينبغي النظر إليها على أنها غريبة، إلى أشياء عادية ومألوفة»

المؤلف

الغرابة ضد الألفة، نوع من القلق المقيم، حالة بين الحياة والموت، التباس بين الوعي وغياب الوعي، حضور خاص للماضي في الحاضر، وحضور خاص للآخر في الذات، قلق غير مستقر بين الزمان والمكان، إقامة عند التخوم؛ تخوم الوعي والوجدان، إفاقة ليست كاملة، حالة حدودية، أو بينية، تقع بين انفعالات الخوف والرهبة والتشويق وحب الاستطلاع والمتعة والطمأنينة والتذكر والرعب والتخيل والوحشة والالتباس والفقدان لليقين: مازال الغموض يلف معنى الغرابة، أدرك ذلك جيدا، فماذا نقصد بالغرابة أيضا؟

الغرابة نوع من الخيال، لكنه الخيال المرتبط بالخوف وانعدام الأمن والوحشة والتوجس. إنه باختصار: خيال الوحشة،

وليس خيال التفاؤل والبهجة وأحلام اليقظة، وسـرعة تحقق الأمنيات في خيال البهجة، أو ما أسـميه «الخيال المضـيء». قد نفرك مصباح علاء الدين فيخرج لنا المارد منه ويحقق لنا المسـتحيلات، أما في خيال الغرابـة، أو ما أسـميه «الخيال المعتم»، فإن ذلك المـارد - إذا خرج - سيكون مصدرا لخوفنا منه، بل قد يقتلنا هذا الخوف أيضا. مجازيا أو حتـى ماديا في الحياة أنواع كثيرة من هؤلاء المردة، يحاول الأدب والفن أن يجسدهم على أنحاء شتى.

يكمـن جوهر الغرابة فـي الحياة، وفي الفن، وفـي الأدب في تلك العلاقـة التي توجد بين المـوت والحياة، وكذلك في آليـة التكرار، في انتفاء الألفة، وغياب الشـعور بالأمـن، وحضور الخوف في الحياة. كل ما هو ضد الأمن غريب، وكل ما هو ضد الألفة غريب، وكل ما هو ضد الفرح غريب، والأكثر غرابة من هذه الغرابة نفسـها أن تتحول الأشياء، التي كان ينبغي النظر إليها على أنها غريبة، إلى أشياء عادية ومألوفة. فمثلا في إحدى قصص الكاتب التشـيكي جوزيف كافكا تحول شخص إلى حشـرة مخيفة مقـززة، وكانت هذه الغرابة الأولـى، غرابة المظهر الخارجـي ولم تكن هي الغرابة المقصودة في ذلك العمل الأدبي، بل كان يكمن جوهر الغرابة في أن أسـرته قد أصبحت تتعامل مع ما حدث له على أنه شـيء عادي، لقد أصبح غير المألوف الذي حدث لابنهم شيئا مألوفا اعتادوه، مثلما تصبح سكنى المقابر في بعض البلدان أمرا مألوفا بالنسبة إلى الأحياء من البشر.

والغرابة حياتية وإبداعية، وقد تتجاوز الغرابة الحياتية فعلا الغرابة الفنية والأدبية، والغرابة الأدبية - والفنية - نوعان: غرابة غير المألوف، وغرابة المألوف وكما سنوضح ذلك في هذا الكتاب.

والخوف أساسي في حدوث الإحساس بالغرابة؛ لأنه نقيض الأمن وعدو الطمأنينة، فقد ينتابك شـيء، يداهمك، يراودك، يشـاغلك، يوجد على مشـارف وعيك، وكأنه شـيء يوشك على الحدوث، وقد يحدث أو لا يحدث. ولكن، ولأنه غامض، غير معروف، لا نعرف متى سيظهر، وكيف، وأين. تتولد لدينا مشاعر الخوف منه، مثلا: توقعك

عندما تنام أنك سترى أشباحا. ترتبط هكذا الغرابة أيضا بعالم الليل: عالم الكوابيس والأشباح والمقابر والموت، وكذلك كل ما هو مكبوت في أعماق لاوعينا الجمعي، ولا نعرف عنه شيئا، أو نعرف عنه بعض الأشياء، ولكننا لا نعرف متى يظهر، فإذا ما ظهر كان غريبا، لكن الغرابة ترتبط أيضا بعالم النهار: عالم اليقظة، بكل ما يزخر به هذا العالم من خوف وفقدان للأمن، وموت كامن أو ظاهر في الحياة.

هكذا تجسد الغرابة ذلك الموت الموجود في الحياة، وكذلك تلك الحياة التي في الموت، ذلك التردد بين الموت والحياة (كما تمثلها فكرة الشبح والأشباح مثلا)، وأيضا ذلك الموت الذي في الحياة (كما يتجلى في ذلك التكرار والحركة الآلية التي تسم كل ما كان ينبغي أن يكون حيا متدفقا متجددا، كالبشر، الأحياء مثلا).

ووفقا لما استعرضناه في كتابنا هذا فإن «الغرابة» ليست مصطلحا أحادي البعد، بسيط المعنى؛ بل إنه مصطلح متعدد الأبعاد، مركب المعاني، متنوع الدلالات، وإن من معانيه: حضور الموت في الحياة وحضور الحياة في الموت. ومن معانيه أيضا ظهور المألوف في سياق غير المألوف، ظهور المألوف من الأفكار والتصورات والانفعالات القديمة التي اعتقدنا أننا تجاوزناها أو كبتناها، ظهورها الآن، في الحاضر، في سياق زماني ومكاني غير مألوف لظهورها، وهذا هو المعنى الذي أطلق فرويد عليه مصطلح: عودة المكبوت. ومن معانيها: ظهور غير المألوف في سياق مألوف، ظهور أشباح الماضي وأفكاره وسلوكياته في الحاضر وربما المستقبل، ظهور غير المتوقع، المخيف الغريب عن البيت، الأجنبي عنه في سياق البيت الأليف المألوف. ومن معاني الغرابة أيضا: تحول الساكن إلى متحرك، والمتحرك إلى ساكن، عودة الموتى إلى الحياة، ودخول الأحياء عالم الموتى، هذه الحيرة المعرفية والالتباس الذي لا نعرف معه، ما إذا كان شخص ما حيا أو ميتا، هي أيضا أحد المعاني الخاصة للغرابة. وثمة معانٍ أخرى ستتجلى لنا خلال هذا الكتاب.

يشـــتمل هذا الكتاب على تســـعة فصول: قدمنا في الفصل الأول منها تحديدا لغويا وفلســـفيا وســـيكولوجيا لمعنى الغرابة، وقارنا بينه وبـــين المعاني الخاصة بمفاهيم أخرى تلتبـــس معه أحيانا مثل الغربة والاغتـــراب والتغريـــب وغيرها. وفـــي الفصل الثانـــي طرحنا بعض التصورات الخاصة حول تلـــك العلاقات الممكنة بين «عالم الأدب» - القصة القصيرة والرواية خاصة - ومفهوم الغرابة وركزنا في الفصل الثالـــث أيضا على تلـــك العلاقات الموجودة بين إحساســـات الخوف والفزع والرعب من الإحساسات المخيفة وبين الإحساس بالغرابة. أما الفصل الرابع فقد كرسناه للحديث عن مفهوم الذات وعن تطور هذه الذات - وارتقائها - نحو الســـواء أو نحو التفكك والاختلال والمرض، ومـــا يصاحب هذه الحالات من مشـــاعر خاصـــة بالغرابة. وقد كان الفصـــل الخامس هو الفصل الذي ركزنا فيه على الجذور الفلســـفية والســـيكولوجية والأدبية لفكرة الازدواج. وفي الفصل السادس ركزنا علـــى فكرة القرين أو الشـــبيه في الأدب، وقلنـــا خلاله إن الاختلال عندما يتفاقم قد يـــؤدي إلى الازدواج، وقد يحدث هذا الازدواج عند مستوى الوعي فتظهر الشـــخصية المتناقضة المدعية المنافقة أو ذات الحياة الســـرية... إلخ. وقد يخرج الأمر الخاص بهذا الاختلال على السيطرة فتظهر ظاهرة القرين. وفي الفصل السابع تحدثنا عن روح المكان، وعن الروح المهوِّمة في المكان، وعن مفاهيم الأشباح والأطياف والمـــراودة وعـــن معاني هذه المفاهيـــم القديمة والحديثـــة وعلاقتها بموضـــوع الغرابة. وفي الفصـــل الثامن قدمنا ترجمـــة لقصة «رجل الرمـــال»، وهي من تأليف الكاتب الألمانـــي أي. هوفمان والتي قامت على أساسها أفكار فرويد جميعها حول الغرابة، وهي تلك الأفكار التي مازالت تتردد أصداؤها في الدراســـات النقدية والتحليلية والنفسية حتى الآن. أما الفصل التاســـع فقد خصصناه لعرض ومناقشة بعض الدراســـات النقدية الحديثة التي أجريـــت على قصة هوفمان، وعلى دراسة هوفمان حولها، وهو ما يمكن أن يندرج الآن تحت ما يسمى بـ «نقد النقد».

كنت أفضل أن أسـمي هـذا الكتاب «الأدب والغرابة» لولا خشـية أن يختلـط هذا العنوان مع عنـوان كتاب مماثل للناقد المغربي المعروف عبدالفتـاح كليطو، وهو أشـهر منـي بطبيعة الحال، علـى الرغم من محدوديـة تصوره الـذي قدمه في كتابه: «الأدب والغرابة - دراسـات بنيوية في الأدب العربي» (2006)، ومن ثم فقد قررت أن أسـمي هذا الكتاب أولا «الغرابة في الأدب»، كما اقترح عليّ ذلك الصديق الشـاعر المصـري عبدالمنعم رمضان، ثم وجدت، بعد ذلـك، أنه من الأفضل أن أسـمي هذا الكتاب «الغرابة: المفهوم وتجلياته فـي الأدب»، وذلك لأن الغرابة هي المفهوم الأشمل، بينما الأدب هو أحد تجلياتها، وقد يضاف إلى هذه التجليات الخاصة بها أيضا: الفن التشكيلي والعمارة والسينما والمسرح والكثير والكثير من حقول الثقافة والحياة.

لا بـد لـي هنا أن أتقـدم بجزيل الشـكر وعميـق الامتنان لجميع الأصدقاء الأعزاء الذين أسـهموا معي، من خلال تشـجيعهم ومودتهم وإحتفائهـم بكتابي الأول عن «الفن والغرابـة»، وكذلك في خروج هذا الكتـاب بالصورة اللائقة التي أرجوهـا وأتمناها، وأخص منهم بالذكر الأصدقـاء: الناقد والكاتب المسـرحي الدكتور فـوزي فهمي، والمؤرخ الدكتـور صابر عرب، والكاتب المعروف والمفكر الراحل الأسـتاذ أنيس منصـور، والروائـي الصديق إبراهيـم عبد المجيـد، والصديق الناقد التشـكيلي سـمير غريب، والكاتب الصحافي القاص أسامة الرحيمي، والصديق الشاعر محمد آدم، والصديق الناشر محمد هاشم، والصديق الشـاعر والمترجـم محمد عيـد إبراهيم، والصديق الشـاعر جرجس شـكري الذي أمدني بمعظم النصوص المسـرحية التي وردت في هذا الكتاب، وكذلك الفنان عادل السـيوي، والشـاعر عبـد المنعم رمضان، والشاعر محمد كشيك، والشاعر محمد سليمان والشاعر محمود خير الله، والصديق الصحافي سـيد محمود، والصديق الروائي أشرف عبد الشـافي، والشـاعر محمد الحمامصي، والدكتورة هبة عزت والدكتور خالد سـراج، ومكتبة الأسرة، والدكتور سـعيد توفيق، أستاذ الفلسفة وعلم الجمال، والصديق الصحافي خالد بيومي. وكذلك الدكتور طارق

النعمان على حواراته المثمرة وإضاءاته الثقافية المهمة خلال وجودنا معا فـــي مملكة البحرين، وأيضا الأصدقاء أحمـــد رمضان، وصابر أحمد، وحامد القلعاوي، من أكاديمية الفنون بمصر، والصديقين فهد الشـــيخ وماجد كامل من المملكة العربية الســـعودية، والصديق راشـــد زايد من مملكة البحرين، وأخيرا إلى أســـرتي الصغيرة على ما تحملته معي من صبر وعناء.

شاكر عبد الحميد
القاهرة - المنامة
2011 - 2009

I

حول معنى الغرابة

«فـي هـذا الطريـق يكمن الجنون»

الملك لير (1)

كان السندباد البحري في «ألف ليلة وليلة» موجودا في جزيرة ما، بعد أن غرقت سفينته، وكان متعبا خائفا، وحيدا، وفي خوفه وتعبه نام، ثم في الصباح مشى بين الأشجار، وعند ساقية وماء عين جارية رأى شيخا مليحا جالسا، رأى إنسانا مألوفا، سلم عليه فرد عليه ذلك الشيخ السلام بالإشارة ولم يتكلم، فسأله السندباد عن سبب جلوسه في هذا المكان، فلم يرد عليه، بل حرك رأسه وأشار إليه بيده طالبا منه أن يحمله من مكانه هذا إلى مكان آخر بجوار ساقية أخرى، فحمله السندباد وقال لنفسه: أعمل معروفا مع هذا الشيخ لعل صوابا يحصل لي، ثم عندما وصل إلى الساقية الأخرى طلب منه النزول فلم ينزل عن كتفي السندباد؛ بل لف رجليه على رقبته. وتستمر الحكاية: «فنظرت إلى رجليه فرأيتهما مثل جلد الجاموس في السواد

والخشـــونة، ففزعت منه وأردت أن أرميه من فـــوق كتفي، فقرط على رقبتي برجليه وخنقني بهما حتى اسودت الدنيا في وجهي، وغبت عن وجودي، ووقعت على الأرض مغشـيا عليَّ مثل الميت، فرفع ساقيه وضربني على ظهري وعلى كتفي، فحصل لي ألم شديد، فنهضت قائما به وهو راكب فوق كتفي وقد تعبت منه، فأشـار لي بيده أن ادخل بين تلك الأشـجار فدخلت إلى أطيب الفواكه، وكنت إذا خالفته يضربني برجليه ضربا أشـد من ضرب الأسـواط، ولم يزل يشير إلي بيده إلى مكان أراده وأنا أمشي به إليه، وإن توانيت أو تمهلت يضربني وأنا معه شبه أسـير، وقد دخلنا في وسط الجزيرة بين الأشجار، وصار يبول ويغـوط على كتفي ولايزال ليلا ونهارا، وإذا أراد النوم يلف رجليه على رقبتي وينام قليلا، ثم يقوم ويضربني، فأقوم مسرعا به ولا أستطيع مخالفته من شدة ما أقاسي منه، وقد لمت نفسي على ما كان مني من حمله والشفقة عليه، ولم أزل معه على هذه الحالة وأنا في أشد ما يكون من التعب، وقلت في نفسي أنا فعلت مع هذا خيرا فانقلب عليَّ شرا، والله ما بقيت أفعل مع أحد خيرا طوال عمري، وقد صرت أتمنى الموت من الله تعالى في كل وقت وكل ساعة من كثرة ما أنا فيه من التعب والمشـقة، ولم أزل على هـذه الحالة مدة من الزمان إلى أن جئـت به يوما من الأيام إلى مكان فـي الجزيرة فوجدت فيه يقطينا كثيرا ومنه شيء يابس، فأخذت منه واحدة كبيرة يابسة وفتحت رأسها وصفيتها مما فيها، وحملتها إلى شجرة العنب فملأتها وسددت رأسها ووضعتها في الشمس وتركتها مدة أيام حتى صارت خمرا صافيا، وصرت كل يوم أشرب منه لأستعين به على تعبي مع ذلك الشـيطان المريد، وكلما سكرت منها تقوى همتي، فنظر في يوم من الأيام وأنا أشرب فأشار إلي بيده ما هذا؟ فقلت له هذا شيء مليح يقوي القلب، ويشرح الخاطر، ثم إني جريت به ورقصت بين الأشجار، وحصلت لي نشوة من السـكر فصفقت وغنيت وانشرحت، فلما رآني على هذه الحالة أشـار إلي أن أناوله اليقطينة ليشـرب منها، فخفت منه وأعطيتها له، فشرب مـا كان باقيا فيها ورماها علـى الأرض، وقد حصل له طرب فصار يهتز على كتفي، ثم إنه سـكر وغرق في السـكر وقد ارتخت جميع أعضائه وفرائصه، وصار يتمايل من فوق كتفي، فلما علمت سـكره، وأنه غاب عن الوجود مددت يدي إلى رجليه وفككتهما عن رقبتي، ثم ملت به إلى الأرض وألقيته عليها، فما

صدقت أن خلصت نفسي ونجوت من الأمر الذي كنت فيه، ثم إني خفت منه أن يقوم من سكره ويؤذيني، فأخذت صخرة عظيمة من بين الأشجار وجئت إليه فضربته على رأسه وهو نائم، فاختلط لحمه بدمه، وقد قتل، فلا رحمة الله عليه»(2).

تذكرني هذه الحكاية بالقول السائر الذي أحيانا يطلقه العامة في مصر على الشخص الذي لا يكف عن الحركة والتململ والانتقال من هنا إلى هناك، مع كثرة الكلام الذي يتناثر منه، بعيدا وقريبا، فيقولون عنه «كأنه راكبه عفريت»، أو كما يقال في دول عربية أخرى كمملكة البحرين مثلا «كأنه راكبه جني»؛ مما يدل على هذه الغرابة التي تبدو أحيانا في سلوكيات بعض الناس، وبما يتجاوز المألوف إلى حد بعيد.

لقد طلب ذلك الشيخ الذي بدا، أولا، في صورة مألوفة، من السندباد أن يحمله على رقبته وينقله إلى جانب ساقية ثانية، وأراد السندباد أن يساعده، فحمله، فإذا بذلك الإنسان المألوف الضعيف الواهن المليح يتحول إلى شيطان غير مألوف، قوي عنيف قبيح، له رجلان تشبهان أرجل الجاموس، ثم إنه أرهق السندباد بمطالبه، بل إنه بدأ يضربه برجليه «ضربا أشد من ضرب السياط»، وصار يبول عليه ويمنعه من النوم ليلا، وإلى غير ذلك من الأمور القاسية. لقد أراد السندباد أن يفعل خيرا فانقلب عليه شرا، ولم يكن أمامه من وسيلة سوى أن يحتال على ذلك الشيطان المريد وأن يسكره، ثم أن يتخلص منه ويقتله - كما ورد في القصة - فمن هذا الشيطان - وما علاقته بموضوع كتابنا الحالي حول الغرابة؟

1 - قد يقول أحد التفسيرات إن الشيطان هنا دلالة ورمز لكل شيء أو إنسان، كان مألوفا بالنسبة إلينا، لكنه يصبح بعد ذلك غير مألوف، عندما نقترب منه أكثر فأكثر، عندما نطيعه، ونستجيب لرغباته، عندما نعتقد أننا نساعده، فإذا بنا نصبح نحن المحتاجين إلى المساعدة، عندما يتحول ما نقوم به من أجل مصلحتنا أو مصلحة الآخرين ضدنا، عندما يصبح الخير شرا، والمساعدة استعانة، والقوي ضعيفا - كما حدث بالنسبة إلى السندباد - والضعيف قويا - كما حدث للشيطان - وتعد آلية التحول إلى النقيض هذه من المحاور الأساسية في موضوع الغرابة.

2 - قد يقول تفسير آخر: ليس فقط أن المألوف قد أصبح غير مألوف، بل إن المألوف قد عاد من غيابه، قد عاد من كبته، إنه مألوف بالنسبة إلينا، موجود في لاشعورنا، في مخاوفنا ومتاعبنا وهواجسنا، وإنه في عزلتنا ووحشتنا وتعبنا ووحدتنا - كما كان شأن السندباد في تلك الجزيرة - قد تخرج هذه المحتويات اللاشعورية وتهيمن علينا، نجسدها في شكل أشباح وشياطين، وقد نبالغ في تجسيدنا لآخرين نكرههم ونعاني منهم في شكل أشباح وشياطين، نخلع عليهم مخاوفنا وعزلتنا وهشاشة ذواتنا، نرى أننا قد نستطيع مساعدتهم، في حين أننا نريد أن نساعد أنفسنا، نجسدهم في أشكال مخيفة، أو في كائنات تبدو كأنها تحتاج إلى مساعدتنا، أو ربما نجسدها في حكايات كما فعل السندباد، وكما يفعل الأدباء والفنانون، وإنه من خلال هذه الحكاية ومن خلال الخيال واجه السندباد شيطان عزلته، حاول أن يتجاوز شعوره بالغربة والغرابة في ذلك العالم الغريب، وقد تكون الخمر التي شربها السندباد هنا، خمرا حقيقية، وقد تكون هي خمر الخيال، خمر الحكي، خمر الإبداع، أو خمر الحيلة والاحتيال على الحياة وعلى مواقفها القاسية، إنها الخمر الفعلية أو الرمزية التي تخلص السندباد من خلالها وتحرر من ذلك الشيطان المريد وقتله، فمن خلال الخيال والإبداع نواجه الخوف، من خلالهما قد نتخلص من شعورنا بالغرابة أو الغربة.

3 - قد يقول تفسير ثالث، طرحه قبلنا الناقد المعروف الدكتور جابر عصفور، فقال إن الشيطان هنا هو سلطة التراث، أو سلطة ما هو قديم، والتي يسيطر من خلالها على الحاضر، على كل ما هو جديد، وإنه ليس هناك من خلاص من تلك الهيمنة العنيفة لذلك الجانب المخيف المعتم القاتم من التراث إلا بمزيد من إلقاء الضوء على جوانبه المضيئة المشرقة [3]، وقد كانت الخمر التي سقاها السندباد للشيطان هي ذلك الضوء، ضوء الوعي والاستنارة والمعرفة والتنقية والمواجهة لكل ما هو غامض أو مخيف أو غريب. هكذا تطرح هذه الحكاية أمامنا سؤال الغرابة، وهو السؤال الذي كرسنا من أجل الإجابة عنه صفحات هذا الكتاب كلها.

معنى الغرابة؟

وصف الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر الغرابة بأنها ذلك «الحيز المكاني الفارغ أو الخاوي الناتج من فقدان الإيمان بالصور المقدسة. فالإنسان العاجز عن الإيمان يترك غريبا في الفراغ والعدم» (4). ولدى الفيلسوف هيدغر أيضا «الغرابة هي ذلك الطابع الجوهري لوجودنا في العالم؛ لأننا لسنا في بيتنا، عالمنا، بل في حالة دائمة من القلق والغرابة». ولدى الفيلسوف الألماني شيلنغ - الذي استمد فرويد منه أفكاره الأساسية هنا - الغرابة هي «اسم لكل شيء كان ينبغي أن يظل خفيا وسريا، لكنه - مع ذلك - يتكشف ويتجلى ويظهر». وفي كتابه «إرادة القوة»، تحدث الفيلسوف نيتشه عن العدم الأوروبي فقال: «إن العدم يقف على الأبواب، ومن ثم كانت تلك الغرابة من كل نوع». كذلك فسر المحلل النفسي «أوتو رانك» في دراسته حول «المقدس» كلمة «الغرابة»، في اللغة الألمانية، على أنها تشير في جوهرها، إلى حاجة الإنسان إلى أن «يجسد خوفه في أشكال غير طبيعية» (5). ولدى فرويد الغرابة هي: تلك المشاعر الخاصة تجاه شيء معين، شيء لا يكون ببساطة، غامضا وعجيبا، وعلى نحو غير عادي؛ بل يكون - وعلى نحو أكثر تحديدا - مألوفا على نحو غريب. ومن معاني الغرابة لدى فرويد أيضا: ظهور غير المألوف في سياق مألوف، وكذلك: الغريب عن البيت، وأيضا: تحول المألوف إلى غير مألوف؛ ومن ثم غريب. وأخيرا : الموت الذي في الحياة والحياة التي في الموت (6).

ولدى فالتر بنيامين تنشأ الغرابة عن ذلك «التراكب» - وليس التركيب - الذي يحدث بين القديم من الأفكار والصور والمباني وبين الجديد منها، فيتعايشان معا على نحو غريب يجمع بين المألوف وغير المألوف في سياق واحد (7).

وفي بحث فرويد عن معنى كلمة «الغرابة» قال إنها تشير إلى «الغريب الأجنبي» عن البلد، وفي اللاتينية إلى «المكان الغريب»، وفي لغات أخرى كثيرة ارتبط معنى هذا المصطلح بكل ما هو مخيف ومثير للرهبة، وبما يتجاوز مجرد الإثارة للرعب المؤقت أيضا (8).

و«الغرابة» Das unheimliche هو عنوان المقال الذي كتبه فرويد في العام 1919 في أثناء تأليفه لكتابه «فيما وراء مبدأ اللذة»، وهذه كلمة ذات طابع خاص في اللغة الألمانية، حيث تحتوي بداخلها على معانٍ

ودلالات متعارضـــة مختلفة، فالجذر الخاص بها - Heim - يعني «البيت»، أو «المنزل»، أو «الوطن»؛ ومن ثم تشير الصفة Heimliche نفسها إلى كل ما هو مألوف، يتعلق بمسقط رأس الإنســـان، وبكل ما يقوم بالحماية، ويحقق الراحة والطمأنينة. لكن هذه الكلمة Heimliche نفســها تشـــير أيضا إلى فنون السحر الأسود، وإلى الحسد، وكذلك ما تقوم به العين الشريرة، وإلى القيام بالمؤامرات ووضع الخطط لقتل أحد الأشخاص، أو التسبب في موته وكل ما هو ضد الألفة والبيت والأمن والوطن. هكذا تحمل هذه الكلمة هذه المعاني المتعارضة كلها، وقد يســتخدمها بعض الناس لوصف ما هو مألوف وحميم بالنسبة إليهم، في حين يطلقها آخرون - وفق السياق - لوصف ما هو غير مألوف ومخيف بالنسبة إليهم [9].

إنهـــا كلمة مزدوجة الطابع، متعددة المعاني، ومن ثم فإنها هي أيضا، في جوهرها، كلمة غريبة، فهي قد تســتخدم لوصف أنحاء شـــتى، من ظواهر الحيـــاة، وظواهـــر الفن والأدب أيضـــا، ومنها تمثيلا لا حصـــرا ما يظهر: عندما تبدو الدمى والآلات كأنهـــا ذات أرواح تحركها، عندما تظهر الصور الشـــخصية واللوحات الفنية كأنها مفعمة بحياة مخيفة، عندما يمكن قراءة أفكار الآخرين أو تكون عقولهم قادرة على تحريك الأشـــياء وفعل أي شيء، عندما تتحرك أطراف أشـــخاص أصحاء وتستقل عنهم وتصبح لها حياتها الخاصة، كما في قصة الأنف لدى غوغول (مثلا)، أو عندما يتحول الإنسان كله إلى حشرة (لدى كافكا مثلا)، وعندما يدفن بشر وهم مازالوا بعد أحياء، فـــي هذه الحالات كلها هناك أمـــور لاعقلانية، غير منطقية، تتحدى العقل الحديث المنطقي؛ ومن ثم فإنها تكون غريبة [10].

هكـــذا قد تجتمع الميـــول العقلانية واللاعقلانية معـــا، وتتصادم ميول التقدم إلى الأمام وميول النكوص إلى الخلف معا، مثلما قد يحدث في بعض تلك الحالات المرضية التي تتنازع المريضَ فيها رغبات الشفاء والخلاص من المـــرض، ثم القلق والرغبة الدائمة المتكررة في العودة إليه؛ وذلك لأن المرض قد يجتذب اهتمام الآخرين ورعايتهم إليه. وتؤكد النظرية الثقافية الحديثة ضرورة الحاجة إلى وجود إحساس ما بالتغريب، ونزع الألفة عن المألوف، من أجل التمكن من تحمل ذلك الاختلاف الذي سيقوم بدوره ببناء شكل جديد

من المجتمع ينتمي إلى ثقافة ما بعد الحداثة، هنا الاختلاف والتغريب مهمان، ليس الاتفاق والتكرار والعود الأبدي إلى نموذج قديم مغلق قد تجاوزه الزمن، هكذا تكون درجة ما من التغريب والابتعاد أو الانسلاخ بعيدا عن ثقافة المرء وتاريخه ضرورية من أجل أن يكون له موقف ما، أو موضع ما في عملية الاتصال الكونية الخاصة بالعولمة الآن كما يقول غيلروي [10].

عن المعنى اللغوي للغرابة

وفقا لما جاء في قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية، فإن أول تسجيل للكلمة بمعنى «ليس آمنا كي تتم الثقة به» قد ظهر العام 1773، وفي العام 1785 كانت الكلمة تعني «المكان الخطير وغير الآمن». كما حدد لويس بورخس أول ظهور لهذه الكلمة في القصة والرواية في عمل كتبه وليم بيكفورد يسمى «فاتك» Vattek؛ حيث جاء فيه الحديث عن ذلك «القوطي الشرقي الغريب» العام 1784، وقد تكرر ظهور المصطلح مرات كثيرة خلال القرن التاسع عشر لدى كتاب كثيرين مرتبطا بمقابلات مع الظل أو الشيطان. وقد وُصفت قلعة «دراكيولا» في الرواية المعروفة التي كتبها «برام ستوكر» المعروفة على لسان الراوي بأنها «قلعة غريبة، بحيث سيطر الخوف عليَّ، وأخذ بتلابيبي». بل لقد ظهرت روايات بعد ذلك تحت عناوين مثل: المنزل الغريب The uncanny House لماري بندرد Mary Pendared العام 1929، وغيرها [12]. وظهرت الإشارات إلى الغرابة قبل ذلك أيضا لدى أدباء أمثال هوفمان، وماري شيللي، ولدى مفكرين أمثال ماكس شتيرنر، وماركس وغيرهما، كما سنوضح ذلك في الفصول التالية من هذا الكتاب.

وقد ذكر فرويد في بداية مقالته عن الغرابة أن القواميس لا تخبرنا شيئا محددا عن طبيعة الغريب؛ وذلك لأن اللغة - ذاتها - تصبح دائما غريبة، وإن دورنا أن نبعث الحياة في هذه الجثة، التي هي النص، محاولين أن نجعل الغريب مألوفا. ومثلما أشار ديفيد بونتر كذلك، فإنه في كل قصة نسمعها، وكل قصيدة نقرؤها، نشعر دائما بوجود حالة من الانتياب Haunting أو «الحضور» أو «السكن» أو المراودة، أي ينتابنا شعور ما بأن هذه الأعمال الفنية «مسكونة» بحضور ما، بروح ما، بشبح ما، لكنه حضور غائب، وغياب

حاضر. وليس الغياب الموجود حاضرا - أمامنا - متعلقا بقصة محددة، أو قصيدة محددة، أو لوحة محددة، بل إنه متعلق بقصة أخرى ما، وقصيدة أخرى ما، ولوحة أخرى ما، نريد أن نسمعها أو نقرأها أو نشاهدها، وهي قصة (أو قصيدة أو لوحة .. إلخ) قد تتفق مع الحالة الخاصة بنا، ومع رغباتنا أيضا. إنها قصة أكثر دقة وثباتا، حكاية تستطيع أن تحمينا من مشاعر الخوف والفقدان أو الضياع التي نشعر بها عندما ندرك أن الصوت الذي في العمل الفني ليس صوتنا، وندرك - كذلك - أنه صوت غير مدرك أو قابل للفهم، أو أنه ليس صوتا إنسانيا على الإطلاق. إنه الصوت الحجري أو الشبحي الخاص بنقش ما، وإن دورنا أن نبعث الحياة في هذه الأعمال التي نراها أو نقرأها أو نسمعها، وأن نعيد الحياة والحرية إلى الأشباح المقيدة بداخلها [13].

وهكذا فإنه بعد أن استعرض فرويد ما يرتبط بكلمة الغرابة في الألمانية، وفي اللاتينية، واليونانية القديمة، والإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، بل حتى في العربية والعبرية؛ حيث يمتزج معنى الغرابة بالشيطاني والرهيب أو المخيف والمثير للحزن، وبعد أن يستغرق في كل هذه اللغات القديمة والحديثة، يذكر في صفحات عدة تربو على عشر العديد من معاني الكلمة، وما يرتبط بها، وجذورها اللغوية، في القواميس والكتب التراثية الألمانية؛ فإنه يخلص إلى أن الكلمة قد أصبحت ثنائية الطابع، أو ذات تناقض وجداني ومعرفي متزايد، وأنها ذات صلة كذلك بكلمة «بيت» أو «منزل»، وذات صلة كذلك بمعاني الغربة والاغتراب والغرابة والبعد عن المألوف وعن المنزل، ثم يستعرض ما قدمه ينتش قبله، وما قاله عن الالتباس الذي يسيطر علينا حين «نشك» في أن شيئا يتحرك ظاهريا هو - فعليا أو واقعيا - شيء حي، وكذلك ما إذا كان شيء فاقد الحياة قد يتحرك، وما أشار إليه ينتش كذلك عن الانطباعات التي تتوالد لدينا عندما نرى الشخصيات المصنوعة من الشمع، والدمى المصنوعة بشكل بارع، وكذلك الأوتوماتا Automata أو الأدوات والآلات المتحركة التي تشبه البشر والحيوانات، وأيضا هذه التأثيرات الغريبة التي تحدثها النوبات الصرعية والتجليات الخاصة بالجنون؛ وذلك لأنها

تستثير لدى المشاهد لها أفكارا غامضة عن بعض العمليات الأوتوماتيكية - أو الآلية - التي قد تكمن خلف هذه الصورة المألوفة للشخص الحي أو للأشياء المألوفة [14].

لقد ترجم ريتشارد هاورد R.Howard كلمة الغريب etrange في الفرنسية على أنها تعادل Uncanny في الإنجليزية، وقد حدث ذلك لأن تودوروف نفسه خلال كتابته عن النوع الخيالي، قد استحضر أيضا تصور فرويد عن غير المألوف Unheimliche أو الغريب، وقد حدث هذا على الرغم من أن تودوروف نفسه قد لاحظ أنه ليس هناك اتفاق تام بين استخدام فرويد للمصطلح واستخدامه - أي تودوروف - له [15].

في اللغة الإنجليزية يشير مصطلح الغرابة إلى نوع من الخبرات المثيرة للقلق والخوف التي يختل فيها الشعور بالأمن والاستقرار. وفي الألمانية يرتبط المصطلح بالبيت الأليف الذي يتحول تدريجيا، إلى نقيضه، غير الأليف الموحش، بل حتى المخيف. وفي العربية يرتبط هذا المفهوم بالوحشة، التي من معانيها: الوحدة والعزلة والخوف والتوحش والجوع وغيرها، وكلها أمور يهتم الأدب بتجسيدها والتعبير عنها. أما المصطلح الفرنسي inquietante etrangete الذي يترجم إلى «الغرابة المقلقة» فهو أقل وسيلية أو فاعلية في هذا السياق؛ لأنه لا يعطينا أي إلماعة أو تلميح إلى الجانب الخاص بالألفة المرتبط بالغرابة، كما تقول ديزي كانون Daisy Cannon. بل إن هناك من اعتبر هذا المصطلح: «الغرابة المقلقة»، نوعا من التحديد الشاذ، الناقص، بل المزعج الذي يصعب تضمينه في الخطاب الأدبي الخاص بالغرابة. وفي سياق التحليل النفسي، غالبا ما يترجم المصطلح إلى الغرابة أو الغريب etrange، أو يترك كما هو مستخدم في الألمانية Unheimliche. هكذا قامت هيلين سيكسو بالتعليق غير الودي على هذه الترجمة غير الملائمة، التي تعوزها الدقة، لمصطلح «الغرابة»، إلى «الغرابة المقلقة» في الفرنسية بقولها: إن هذه الترجمة بعيدة عن «روح المصطلح»، كما أنها تعزى إلى نوع من المقاومة لدى من ترجمه أو استخدمه من الفرنسيين لأي محاولة للتخلي عن بنية التفكير الديكارتية النمطية [16].

قد نفهم من دراسة فرويد للجذور اللغوية للمصطلح في اللغات الإنسانية أنه يدل على شعور الإنسان بأنه ليس في بيته في هذا العالم، أي ليس في مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه. ومن ثم فإن الغرابة هي هكذا نوع من القلق الذي يرتبط بصور عقلية خيالية لدى المرء، وكذلك بحياته الواقعية أو الفعلية، وتهدد الغرابة استقرار الذات وتقلق راحتها. والغرابة إحساس يختل عنده الشعور بالتمايز بين ما هو مألوف وما هو غير مألوف، وهي تتعلق أيضا بوجود شيء غريب، لكنه يومئ إلينا أيضا ويذكرنا بشيء مألوف، كان قد أبعد عن الذات، كان قد كبت، نُسي، لكنه يعود الآن من جديد، ومن ثم فإن الغرابة هي مصطلح متعدد المعاني، ليس له معنى محدد، وهذا أحد جوانب غرابته أيضا؛ إنه يتعلق بالشك والالتباس العقلي، ويرتبط كذلك بعودة المكبوت، بالعلاقة بين الحياة والموت، بالموت الذي في الحياة، والحياة التي في الموت، بالتكرار والآلية والدمى، بالبشر الذين يكررون أقوالهم وأفعالهم حتى يصبحوا أمواتا مثل الدمى، بلا روح، وتماثيل شمعية، بالأفكار القديمة التي اعتقدنا أنها ماتت فإذا بها تعود وتصبح أكثر حضورا من الحياة والأحياء، بالتكنولوجيا التي تتحدث وتوجه وتراقب وتعاقب، بالقلق الذي ينتفي عنده اليقين، بتحول الأشياء إلى نقائضها، بوجود الأشياء مع نقائضها، بكل ما يبدو لنا غريبا، بعد أن كان مألوفا، بكل ما يظهر لنا موحشا، مع أنه كان لنا - من قبل - أليفا [17].

يفضل بعض الباحثين العرب ترجمة مصطلح uncanny الذي في الإنجليزية - والذي ترجمناه على أنه يقابل: «الغرابة الموحشة» في العربية - من خلال مصطلحات مثل: «الغرابة المحيرة»، كما يفضل ذلك أستاذ علم الجمال والنقد الفني التونسي محمد بن حمودة [18]. أما الناقد المغربي حسن المودن - ومعه آخرون - فيفضل استخدام مصطلح «الغرابة المقلقة»[19]، وقد فعل ذلك قبله الناقد المغربي «محمد برادة» في تقديمه لترجمة الصادق بوعلام لكتاب تودوروف عن الأدب العجائبي وترجمها بوعلام نفسه مرة بـ «الغرابة المقلقة» ومرة بـ «الغريب» ومرة أخرى بـ «الغرابة» ومرة بـ «الغرائبية»، ولكننا نظرا إلى ما أكدناه كثيرا خلال هذا الكتاب وكذلك خلال كتابنا السابق عن «الفن والغرابة»[20] فإننا نرى إمكان أن يترجم هذا المصطلح من خلال

كلمتي «الغرابة الموحشة»، مع ضرورة أن يضع القارئ في حسبانه أيضا تلك السياقات المعرفية المتنوعة للمصطلح التي تربطه بالخوف والحيرة والقلق والشك والالتباس والوحشة، فالغرابة - بطبيعتها - ليست مريحة، ولا مثيرة للشعور بالأمن والاطمئنان؛ بل محيرة ومقلقة، وربما مخيفة أيضا.

الغرابة في العربية

في الدراسات العربية القديمة والحديثة، هناك اهتمام بغريب الألفاظ، «وغريب القرآن»، وغريب الحديث، أي غريب الألفاظ، منها الحوشي والشارد والوارد. ولدى ابن منظور في «لسان العرب»: الغريب هو البعيد عن أرضه وعن ناسه، وقد قالت العرب: «قذفته نوى غربة، أي بعيدة»، وأصابه سهم غرّب، أي لا يدري راميه، واغترب فلان إذا تزوج من غير أقاربه، وقالوا: وجه كمرآة الغريبة، لأنها في غير قومها، فمرآتها أبدا مجلوة؛ لأنها ناصح لها في وجهها. وقالوا: «وخد كمرآة الغريبة»، والغريبة هنا هي المرأة التي لم تتزوج في قومها، فلا تجد في نساء ذلك الحي من يعنى بها، ويبين لها ما تحتاج إلى إصلاحه من عيب ونحوه؛ فهي محتاجة إلى مرآتها التي ترى فيها من ينكره من رآها، فمرآتها دائما مجلوة [21].

والغربة: النزوح عن الوطن والاغتراب والتغرب، وفي الحديث أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سُئل عن الغرباء، فقال: الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي. وفي حديث آخر: «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء»، والمقصود: إن الإسلام كان في أول أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل عنده، لقلة المسلمين يومئذ، وسيعود غريبا كما كان، أي يقل المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغرباء. وطوبى للغرباء أي الجنة لهم. ويقال كذلك رجل غريب: ليس من القوم، والغرباء: الأباعد. وفرس غرب: كثير العدو، وأغرب الرجل في منطقه إذا لم يُبقِ شيئا إلا تكلم به، وأغرب به: أي صنع به صنعا قبيحا. وأغرب الرجل إذا اسود وجهه من مرض أو غيره، وقال الأصمعي: أغرب الرجل إغرابا، إذا جاء بأمر غريب، والغربة: الحدة، واستغرب الدمع: سال، والإغراب: كثرة المال وحسن الحال. والغَربُ: الذهب، وأسود غرابي وغربيب: شديد السواد.

هكذا جمع معنى الغربة - في العربية - بين الحدة في النشاط والتمادي والماء والدمع الغزير واسوداد اللون، وكثرة أو اشتداد الضحك أو المرض أو الكلام، أو اللون، أسود أو أبيض أو أحمر... إلخ [22].

ومن معاني الغريب أيضا: الذهب والفضة والماء الذي يقطر بكثرة، والغرب والغياب وغروب الشمس، أو العدم، والنزوح عن الأهل، وغير ذلك من المعاني التي تشير إلى المبالغة في حدة قول أو انفعال أو حدث، وهي - في معظمها - معانٍ ترتبط بمفردات الحياة اليومية العربية القديمة كالإبل والماء والطيور والارتحال والعودة؛ وكلها معان مهمة أيضا في تفسير الغربة بالمعنى المكاني، واللغوي، وكذلك المعنى الاجتماعي المرتبط بالاستبعاد والنفي والتجاهل كما كانت الحال لدى التوحيدي مثلا، وقد تفيد كثيرا كذلك في تفسير الغرابة المرتبطة بكل ما هو غير مألوف، لكنها غير مفيدة في تفسير الاغتراب بالمعنى الفلسفي والوجودي، ولا الغرابة بالمعنى الانفعالي والجمالي الذي نقصده في كتابنا الحالي. لكن أقرب المعاني إلى «الغرابة» في العربية هو مفهوم الوحشة.

الغرابة والوحشة

فوفقا لما جاء في المعاجم العربية، وتحديدا «لسان العرب» لابن منظور، فإن كل شيء لا يستأنس بالناس هو وحشي، كما أنه: إذا أقبل الليل استأنس كل وحشي، واستوحش كل إنسي. والوحشة: الفَرَق أي الخوف من الخلوة والعزلة، ويقال: أخذته وحشةٌ، أي احتاج إلى من يستأنس به، واستوحش منه: لم يأنس به، فكان بالنسبة إليه كالوحش.

كما ارتبطت الوحشة لدى العرب كذلك بعالم السحر والجن، وبطبيعة المكان فقالوا: مكان موحش: خالٍ، وأرض وحْشة (بالتسكين): قَفْرٌ، وأوحش المكان من أهله وتوحش: خلا، وذهب عنه الناس، ويقال كذلك للمكان الذي ذهب عنه الناس: قد أوحش. وتوحشت الأرض: صارت وحِشة، أي خالية. وهكذا، فإن الوحشة ضد الأنس، ولا يكون أنس إلا بوجود البشر، وعندما يغيب البشر يصبح المكان قفرا خاليا؛ ومن ثم فإن الوحشة هي صفة للمكان الموحش، وصفة كذلك لشعور الإنسان في ذلك المكان الموحش عندما يكون وحده في عزلة.

وهناك معان أخرى للوحشة نذكر بعضها، فالوحش والموحش: الجائع من الناس، وكذلك الحيوان، لخلوه من الطعام، ويقال: توحش جوفه، أي خلا من الطعام، وبات وحْشا ووحِشا: أي جائعا، وأوحش الرجل وتوحش: جاع، وبتنا أوحاشا: أي جياعا. والوحشة كذلك: الهم، والخلوة والخوف والأرض المستوحشة الخالية، ويقال كذلك، وحش الرجل: إذا ألقى بثوبه وسلاحه، وجرى مخافة أن يُلحق به [23].

ويكون للمكان الموحش تأثيره البالغ في انفعالات الإنسان في حالات العزلة والجوع والخوف والافتقار إلى الأمن، فيبالغ في تصويره للأشياء وفي إدراكه لها، فيما سُمِّي بالتوهم، وهي حالة تحدث للإنسان والحيوان، وقد ذكرها الجاحظ في كتاب «الحيوان» في نص مهم نذكره باختصار، فقد ذكر الجاحظ في كتاب «الحيوان» ما قاله أبو إسحاق من أن أصل هذا الأمر وابتداءه، أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش، عملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعد من الإنس استوحش، ولا سيما مع قلة الأشغال والمذاكرين. والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى أو التفكير، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة.. وإذا استوحش الإنسان تمثَّل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرق ذهنه، وانتقصت أخلاطه، فرأى ما لا يُرى، وسمع ما لا يُسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيم جليل [24].

هنا يربط الجاحظ بين المكان الخالي الموحش وعمل العقل ونشاط التوهم وهيمنة الخوف وحضوره، حين تتغير أبعاد المدركات، وتتمثل الأشياء الصغيرة «للمتوحش» في صور كبيرة، فيرى «ما لا يُرى»، وقد يستسلم لخوفه ويصيبه الرعب، يزداد شعوره بالوحشة، يستوحش، وقد يصبح شاعرا، أو قد يكون بطبيعته كذابا، فيصبح «أصدق الكلام» - لديه - أكذبه»، فيصور في قصائده الغيلان والسعلاة وكل تلك الكائنات الخرافية، ويقول كيف صاحبها، أو قتلها، أو تزوجها.. إلخ؛ في محاولة منه لتحويل خوفه إلى طمأنينة، ووحشته إلى أنس وائتناس، وتوهمه إلى إبداع.

ليست الفروق بين الوحشة والغرابة حاسمة، لكن الوحشة ليست هي الغرابة، الوحشة قد تمهد الطريق لحدوث الغرابة، الوحشة حالة من الشعور

بالعزلة والخوف، قد تحدث معها الغرابة أو لا تحدث، الوحشة حالة ترتبط بالمكان الخاوي الخالي من البشر الذي يكون تربة خصبة لنمو مشاعر الخوف والتوجس والريبة والالتباس والغرابة، الغرابة خطوة تالية للوحشة، لكن الغرابة قد تحدث من دون إحساس سابق لها بالوحشة، الغرابة ترتبط بالخوف والرؤية أو السماع لغير المألوف المثير للفزع، غير الآمن، الغربة حياتية وفنية والوحشة غالبا حياتية، وقد تكون فنية أو أدبية، ليست هناك متعة جمالية خاصة في الوحشة الحياتية، في حين أن هناك مثل تلك المتعة في الغرابة الموحشة، أي في تلك الوحشة التي تتحول إلى إبداع. بعبارة أخرى، قد تمهد الوحشة لظهور الإبداع الجمالي، كما في الشعر مثلا، مثلما أشار الجاحظ - لكن الغرابة قد ترتبط أيضا بالتلقي والاستجابة - على نحو خاص - إلى أنواع معينة من الإبداع، وقد توجه من يشعر بها أيضا نحو الإبداع؛ ومن ثم فإن الترجمة الدقيقة التي نقترحها لمصطلح الغرابة Uncanny هنا، ونعتقد أنها أدق من غيرها هي: الغرابة الموحشة، حيث «الوحشة» تعلو على «الحيرة» التي اقترحها بن حمودة؛ وذلك لأن، الحيرة - بطبيعتها - معرفية أكثر منها وجدانية، ويعلو أيضا على «القلق» الذي قرن «المودن» بينه وبين الغرابة؛ وذلك لأن القلق قد يستثار من دون شعور ضروري ملازم له بالغرابة كما في حالات القلق العادية أو حتى المرتفعة التي قد نعانيها في الحياة، والوحشة إحساس وجودي مخيف، يرتبط بالفقد والفقدان والافتقاد والخوف من الموت أو الضياع أو من الإحساس المهيمن بالخوف نفسه.

وهناك مصطلحات أخرى كثيرا ما يخلط الناس - وكذلك النقاد - بينها وبين مفهوم الغرابة، ولعل أهم هذه المصطلحات ما يلي: الغربة، التغريب، الاغتراب.

الغربة والتغريب والاغتراب

«الغربة» غربة عن المكان بالسفر، أو النفي، أو الهجرة، لكنها قد تكون أيضا غربة في المكان كما كانت حال أبي حيان التوحيدي في حديثه عن الغريب بين أهله، وفي أهله، وفي وطنه [25]، أما التغريب فهو تكنيك فني

أشـــار إليه الشـــكلانيون الروس ونَظّروا حوله، كما فعل ذلك شكلوفســـكي وزملاؤه، وقد استخدمه أيضا - على نحو خاص - الكاتب المسرحي الألماني المعروف برتولت بريشت كي يكسر فكرة الإيهام الأرسطي في المسرح. ثم إن الاغتراب هو تلك الحالة من فقدان السيطرة على الذات وقدراتها وملكاتها عندما يصنع الإنسان شيئا معينا: آلة مثلا، أو نظاما أو فكرة... إلخ، ثم يجد أنه بدلا من أن يسيطر على ما صنعه، يصبح ما صنعه مسيطرا عليه، وهكذا يتحول السيد إلى عبد، والعبد إلى سيد، كما أشار إلى ذلك هيغل، وماركس، وماكس شتيرنر، وماركوزه، وغيرهم.

وفي مبحثـــه «الفن كتكنيك»، قال الناقد الشـــكلاني الروســـي فيكتور شكلوفســـكي: إن إدراكنا، حتى للفن، يكون في البداية معتادا؛ ومن ثم آليا؛ ومـــن ثم فإننا «لا نرى» حقيقة الموضوعات التي نصفها؛ ولذلك فإن الغرض من الفن هو أن «يمنحنا ذلك الإحساس بالأشياء كما ندركها، وليس كما هي معروفة بالنسبة إلينا». ويكمن جوهر التكنيك في الفن في ضرورة أن يجعل الأشـــياء غير «مألوفة»، أن يجعل الجوانب الخاصة بها صعبة، من أجل أن يزيد من صعوبة وإطالة أمد إدراكها؛ وذلك لأن عملية الإدراك في جوهرها عملية ذات غاية جمالية في ذاتها؛ ومن ثم فإنها ينبغي أن تكون طويلة الأمد، فالفن هو طريقة للمعايشة للجوانب الجمالية من أي موضوع» [26]؛ ومن هنا فإن ذلك الجهد الشـــاق الذي يبذل في إنتاج قصيدة أو لوحة هو أمر ينبغي أن يشعر به القارئ أو المشاهد أيضا.

والإبعاد أو التغريب أو الانسلاخ هو التقنية التي ابتدعها برتولت بريشت كأسلوب للتمثيل ضمن أساليب المسرحة، يؤكد من خلاله الممثل على مسرحيته، نافيا أي إيهام من أي نوع، بأنه هو الشـــخصية الممثلة، وهي كمصطلح تعني اغتراب الاغتراب، أو نفيه وعزله، سلبه غرابته وشذوذه كحالة إنسانية عامة، وبالتحديد كوضع اقتصادي، وليس كحالة تمثيلية (أي كمفارقة) تشير فقط إلى المسافة القائمة بين الممثل والشخصية. والتغريب يسعى إلى تأكيد فصل شـــخصية المؤدي بوساطة سلســـلة من العوائق أو الوقفات التي تثير دهشة المتفرج وتثير عقله بدلا من إثارة خوفه وشحن وجدانه، ومن هنا كانت دعوة بريشت ضد المسرح الأرسطي الاندماجي الإيهامي [27].

لقد انتقد شكلوفسكي الرؤية الخاصة للفن التي تعتبره نوعا من التقديم للمجهول في ضوء شـــروط المعلوم، وقال إن الأمر ينبغي أن يكون - بدلا من ذلك - نوعا من السعي من أجل توجيه انتباهنا إلى تلك الجوانب الغريبة في حياتنا، والتي لا نهتم بملاحظتها، وإنه بينما تشـتمل الخبرات العادية على عمليـــات خاصة بالاعتياد والألفة، تجعل عملية الإدراك للأشـــياء تتم بأقل جهد ممكن، فإن الفن والأدب، ينبغي لهما أن يطورا تكتيكات من أجل إبطاء أو إعاقة عملية التفحص أو التبين أو الإدراك للعادي، والتي تتم بشكل مريح ومألوف، وأن يتم ذلك من خلال وسائل تنزع هذه الألفة والاعتيادية والراحة عن كل ما هو مألوف، بأن تجعله غير مألوف، وربما غريبا [28].

في ضوء تعريف فرويد للغرابة، الذي ذكرناه من قبل، يكون «الغريب هو شيئا مألوفا، شـــيئا قديما راسخا في العقل»، أصبح مغتربا عنه من خلال عملية الكبت. لاحظ - أيها القارئ العزيز - الفرق، وكذلك العلاقة هنا بين غريب uncanny ومغترب alienated، ومن ثم بين الغرابة والاغتراب، فالشيء الذي أبعد عن العقل، والذي كان من نتاجاته، والذي كان موجودا معه، مألوفا له، تم إبعاده، تغريبه، كبته، لم يعد مألوفا له، لم يعد من ممتلكاته، لكنه مع ذلك يعود إليه، لأسباب عدة، مرة أخرى، يعود إليه في شكل مختلف يسيطر عليه، ومن ثم فإنه يصبح مخيفا، فنحن - مثلا - نحاول من خلال كل شيء نفعلـــه في الحياة أن نبعد عن أنفســـنا فكرة الموت، لكـــن هذه الفكرة كثيرا ما تعاود ظهورهـــا لدينا كل يوم، ثم في النهاية، يصبح هذا التكرار مهيمنا، وتصبح هذه الفكرة مخيفة، وأحيانا مرعبة.

وهـــذا هو جوهـــر فكرة الاغتـــراب أيضا كما شـــرحها هيغل وماركس وشـــيلنغ، ولكن في إطار تحليلي نفســـي، وفي تطبيق على أعمال إبداعية، وهو تطبيق ســـيفتح المجـــال لتطبيقات أخرى كثيرة في مجالات الفلســـفة والأدب والفن والسياســـة والعمارة. هكذا فإن المألوف، أو الذي كان مألوفا على مســـتوى الفرد (في طفولته خاصـــة)، أو الجماعة (في المراحل المبكرة من تطورها وتاريخها الماضي البعيد)، يعود في شـــكل غير مألوف، غامض، مخيـــف، غريب، من خلال هذه الحركة المتكررة الخاصة بالكبت ثم العودة. هكذا لا تتعلق الغرابة بعودة شيء مختلف غير الذي تم كبته أو نسيانه، لكن

بعودته هو نفسه، بألفته السابقة، فإنه يكون وبسبب الكبت الذي تم بالنسبة إليه، قد اكتسب الطبيعة المزدوجة الخاصة بشيء مألوف، لكنه مع ذلك يبدو لنا غريبا وغير مألوف، ربما بسبب الكبت، البعد الزماني، النسيان، وربما بسبب عودته بعد أن ظننا أنه لا رجوع له.

ويعد سول نيومان هذه الفكرة جوهرية في السياسة، فالسياسة هي محاولة لتكوين شيء جديد، ولكن من خلال الاستحضار أيضا للقديم، فالسياسة الأصولية مثلا مسكونة دائما بأشباح الماضي، بذلك التراث الثوري الذي مات، لكنه الذي ظل أيضا غير مدفون، لم يدفن بعد، جرى كبته أو إبعاده، لكنه يظل مصرا على العودة أيضا في أشكال مألوفة على نحو غريب.

في سياق آخر كتب فريتزمان A.J.Fritzman، عن الحنين إلى الماضي أو النوستالجيا أيضا، فقال إن نضالات الحركات العمالية وسردياتها - وكذلك التراث الخاص بالحركات الثورية - هي المكبوت الذي يظل يعود في أشكال جديدة متكررة ضد القمع، وحيث النضال ضد الظلم هو في الغالب سلوك ثوري، بمعنى أنه يشتمل على احتمالات عودة المكبوت، عودة المظلوم، عودة المكظوم، والمبعد الذي تم إقصاؤه أو نفيه [29].

هكذا قد تكون الغرابة هي المميزة أيضا لبعض الاتجاهات السياسية المحافظة، التي تعود إلى الماضي المكبوت وتبعثه بأشكال مألوفة (ملابس. كلمات. نصوص... إلخ) تبدو غريبة بمنطق العصر الذي تعود فيه. والثورات غالبا هي محاولة للعودة إلى نظام قديم، وأشكال قديمة من السلطة (الفاشية مثلا، القوميات مثلا). ويصاحب الغرابة نوع من الغموض الجوهري، ومثلما توجد حيرة معرفية تصاحب الغرابة، بالمعنى الفرويدي، فإن الغرابة السياسية هي دائما غير محددة، لا يمكن التنبؤ بها وفقا لمصطلحات دريدا؛ وذلك لأن تأثيراتها لا يمكن التنبؤ بها أيضا.

لدى هيدغر «الغرابة» - كما قلنا - هي كل ما يدفعنا ويلقي بنا بعيدا عن بيوتنا، بعيدا عن عالمنا، بعيدا عن كل ما هو مألوف ومعتاد وآمن، كما أن الغريب عن البيت unhomely غير المألوف، هو أيضا ما يعوقنا عن الوجود في بيتنا، وأن أكثر الموجودات غرابة هو الإنسان نفسه، وأن الكون نفسه

بكل كائناته غريب، وليس هناك من بين هذه الكائنات ما هو أكثر غرابة من الإنســـان. ولا يرجع ذلك فقط إلى أنه يقضي حياته وســـط كل هذه الغرابة الموجودة بهذا المعنى، أي وســـط كل ما هو غير مألوف ومخيف، ولكن أيضا لأنه هو نفسه يبعد عن كل تلك الحدود المعتادة والمألوفة الخاصة به، وكذلك لأنه أكثر الكائنات عنفا، الكائن الذي يتوجه دوما نحو الغريب، نحو السيطرة أو الهيمنة وتجاوز حدود المألوف [30].

عندما يصبح الإنســـان غريبا، بلا بيت مألـــوف، فإنه يصبح في حاجة إلى أن «يبني» مكانا آخر خاصا به، بيتا، مدينة، قانونا، كل ما يضع الأسس الراســـخة لوجوده، وهي تلك الأسس التي قد تصبح أيضا بعد ذلك، قيودا عليـــه تحاصره، ومن ثم تصبح غريبـــة عنه، ويصبح هو غريبا عنها. إنه قد يخلق مكانه الخاص، ويعلو فوق حالة فقدانه المأوى أو التشرد السابقة، لكنه قـــد يفقد أيضا طبيعته، حريته، يكتب مقدمات موته؛ ومن ثم قد يكون بيته الجديد هذا هو الشاهد الخاص الموضوع فوق قبره.

هكـــذا تكون الغرابة - في أحد معانيهـــا - نوعا من المواجهة بين الألفة الاجتماعية الحالية والغرابة القديمة المكبوتة أو الغريزية. والغرابة - هكذا - هي تلك العودة، لما كان مكبوتا داخل اللاشعور الفردي أو الجمعي، العودة التـــي هي جوهر عملية الانتياب، أو المراودة، أو تكـــرار الزيارة، العودة التي تحمل معها أشباح الماضي وظلاله، بالمعنى المخيف السلبي المهدد للاستقرار، وبالمعنى الإيجابي أيضا المرتبط بالإبداع، فقد يكون معنى الغرابة، ســـلبيا، لمن هم مستقرون اجتماعيا؛ وذلك لأنه قد يتناقض مع أفكارهم وانفعالاتهم الراهنة، وقد يكون إيجابيا - كذلك - لأنه قد يحمل معه قوة إبداعية تدفع نحو التغيير الاجتماعي للراكد، والمعتم، والمضطرب. هكذا قد يكون الغريب هـــو أيضا آخر مخيفـــا، والغرابة هي الخوفَ الناتجَ مـــن ظهور هذا الآخر المخيـــف أو المبعد وعودته - مـــرة أخرى - في البيت، والديار، أو في العقل، في الواقع، في الحياة.

هكذا يعتمد مشـــروع فرويد ومبحثه حول الغرابـــة على نوع خاص من التقريـــب للبعيد، فيـــه يحضر الماضي فـــي الحاضر، والطفولـــة في فترة الرشد، والميت داخل الحي أو معه، وفي ضوء ذلك الحضور الخاص للغائب،

والماضي، والموت، تظهر الغرابة وتتجسـد وتنمو في عوالم شـبحية، بينية، طيفيـة، لا يمكن أن نحكم عليها بقوانين الواقع المحددة، ولا أن نطرح - من خلالها - أسئلة محددة حول ذلك الواقع المادي المحدد الخاص بها.

وثمـة مصطلح آخر وثيـق الصلة بالغرابة، وشـديد التداخل معه، وهو مفهـوم «الجليل»، حيث قد تصل هذه العلاقة بينهما - في تصور البعض - إلى حـد الخلط بينهما، كما فعل هارولد بلوم مثلا الذي اعتبر الغرابة هي الجليل الخاص بعصرنا.

الجليل والغريب

ظهر مفهوم الجليل Sublime في الفكر الغربي في النصف الثاني من القرن السابع عشر، عندما تُرجِمَ مبحث لونجينوس المعنون «حول الجليل» مـن الإغريقية إلى الإنجليزية، ثـم تطور هذا المفهوم بعد ذلك من خلال كتابات إدموند بيرك، وكانط، وهما من شكلت كتاباتهما في علم الجمال جانبا مهمّا من هذا العلم في القرن الثامن عشر. فقد ميز بيرك مثلا بين الجميل والجليل، وقال: إن الفرق بينهما يشـبه الفرق بين النور والظلام، حيث جوهر الظلام غياب الضوء وحضور الرهبة والخوف والرعب، وكل ما يجعل عالم العتمة والظلام ملتبسـا، مخيفا، غامضا، غريبا، محيرا، غير مؤكد[31].

وقد ظهرت فكرة الجليل - كفكرة ليست بالضرورة جمالية فقط، ولكن كخبرة تتعلق بالوجود الإنساني عامة - في كتابات شيللر (حول الجليل)، ثم بعد ذلك في كتابات نيتشه، وعند نهاية القرن العشرين حدث اهتمام يشبه النهضة المفاجئة المتعلقة بهذا الموضوع، وبخاصة في أعمال ليوتار ودريدا وغيرهما من المفكرين ما بعد الحداثيين الذين أصبح هذا المفهوم - وإن بتنويعـات مختلفة - مفهوما جوهريـا في تفكيرهم، حيث أصبح الجليل هو القضية أو السؤال المتعلق بكل ما لا يمكن قوله أو تمثيله، لكنه الـذي يكـون - مع ذلك أيضا - موجودا ومتضمنـا في كل تمثيل، فلدى ليوتـار - مثلا - الجليل هو الحالـة المطلقة أو الكلية لما لا يمكن تمثيله، والـذي يوضع - داخل عملية التمثيل له - في الأعمال الفنية والأدبية أو

الفلسـفة مثلا، كعلامة على وجود «نقص في الواقـع»، و«افتقاد ما في الواقع» وهذا النقص والإحساس به ومحاولة فهمه، ومحاولة تجاوزه، هو جوهر ما بعد الحداثة في رأي ليوتار.

فـي النقد الثالث لدى كانـط - في كتابه «نقـد الحكم» (1790) - وفي قسـم بعنوان «تحليل الجليل»، مَيَّزَ هذا الفيلسـوف الكبير بين الحكم الخاص بالجميل، والذي يكون موضوعه غالبا هو غائية الشكل، تلك الغائية التي بلا غاية سـوى الرغبة في الاسـتمتاع بهذا العمـل الفني أو الطبيعي وبشـكله الجميل، ميز بينه وبين الجليل الذي لا موضوع محددا له في الفن أو الطبيعة، «فالجليل لا يمكن أن يحتوي داخل أي شـكل على حس محدد، لكنه يتعلق بأفكار العقل» .. هكذا فإن المحيط الشاسع الذي تتلاطم أمواجه بفعل عواصف عاتية لا يمكن أن يسـمى جليلا. إن منظره المرعب لا يكفي وحده لتكوين الإحساس بالجليل. إن المرء لا بد أن يكون قد امتلأ عقله فعلا حينئـذ بكل أنواع الأفكار المرتبطة بمثل تلك الحدوس حتى يناغم بينها معا في إحساس ما نسميه الجليل [32].

وهكـذا فإنه بينما يتعلق الإحسـاس بالجميل بموضوع معين، وخبرة ذاتية معينة، هي الإحسـاس الجمالي، أو حكـم الذوق المرتبط بموضوع جميل (لوحـة . منظر طبيعي... إلخ)، فإن الموقـف مختلف - على نحو جوهـري - فيما يتعلق بالجليل، فنحن لا نسـتطيع أن نقول عن موضوع معين إنه جليل، لكننا نقول عنه إنه مخيف، أو مقبض، أو مثير لمشـاعر التهديد... إلخ. في الجميل، هناك شـيء يناسـب ذوقنا الجمالي، شيء خاص بلونه، أو شكله، أو حركاته، أو كل ما يسميه كانط الغائية الخاصة بالشـكل الموجودة في الجميل، حتى لو كانت تلـك الغائية بلا غاية، أي بلا هدف نفعي محدد. في الجليل ليسـت هنـاك هذه الغائية الخاصة بالشكل، فليسـت هناك أشكال محددة في الطبيعة أو الفن يمكن القول عنها إنها هي الأساس الذي يمكن أن نتنبأ من خلاله بالجليل، حيث هنا وعلـى نحو واضح نقص تام في الاتفاق بين الأشـكال الطبيعية والمبادئ الموضوعية التي ترتب هذه الأشكال من «الحدوث» وتنظمها. في الجميل ثمـة نظام يمكن تحديده، أو التنبؤ به، ثمة ثبات نسـبي، أما في الجليل

فليـــس هناك مثل هذا النظام أو القابلية للتنبؤ، أو التحديد، ثمة فوضى مـــا، غموض ما، عبور للحدود ما ومن خلال ذلك كله، تســـتثير الطبيعة لدينـــا أفكارنا الخاصة بالجليل، وقد يحدث هذا أيضا في تلك الحالات التي تكون الطبيعة فيها أكثر جموحا وتخريبا وتدميرا كالزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات وغيرها.

هكذا يتعلق الجليل بالأفكار والخبرات غير المحددة، لكنها أيضا المثيرة للقلق، الغامضة، المتعلقة باللحظة الراهنة، الخاصة بالمجرد، غير المحدد، كحالات في الطبيعة، وفي الفن أيضا (ومن هنا كانت جاذبية هذه الأفكار تلك لأنصار الاتجاهات التجريدية في الفن). والوصف العام لحالة الجليل عند كانط وصف قريب من ذلك الوصف العام للغريب كما سيلي تفسيره عند فرويد بعد ذلك، إلا في بعض الفروق التي سنذكرها في حينها.

هكذا يكون الإحساس بالجليل - وفقا لكانط - هو خبرة جمالية، لكنها خبرة غير ســـارة، غيـــر ممتعة بالمعنى المألوف لكلمة متعـــة كما هي الحال فيما يتعلق بالموضوعات الجميلة، إنها خبرة تقوم على أساس القلق والخوف وانعدام اليقين، خبرة تحدث عندما يفشـــل الخيـــال في القيام بالحدس أو الفهم المباشـــر لموضـــوع جليل. وكذلك فإنه عندما يفشـــل العقل في تكوين تمثيـــلات محددة خاصة به، هنـــا يدخل الانفعال الذي هـــو مزيج هنا من الخيال والعقل والحساسية، كي يتفهم هذه الخبرة غير المريحة، ومن خلال هذا التفهم الحدســـي لســـيطرة القوة العقلانية الخاصة بنا - على كل تلك القـــوى اللاعقلانية الخاصة بالحساســـية والانفعال - قـــد تصبح خبراتنا بالجليل في النهاية ممتعة [33].

وقـــد عـــرف فرويد الغرابة فـــي العام 1919 أيضـــا بأنها: «حالة انفعالية، إحســـاس، خبرة تتعلق، من دون شـــك بمـــا هو مخيف، بما يستثير الفزع والرعب». ووفقا لما قاله هارولد بلوم وآخرون بعد ذلك، فإن مفهوم فرويد عن الغرابة هو - على نحو جوهري - نفســـه مفهوم «الجليل»، وإن الخبرة المخيفة التي وصفها فرويد من خلال هذا المفهوم هي الخبرة نفســـها التي وصفها بيرك أو كانط أو غيرهما من خلال مفهوم الجليل أيضا [34].

على كل حال، هناك أوجه تشابه لا يمكن إنكارها بين الجليل والغريب من المشاعر والخبرات، وذلك لأنهما - كليهما - خبرات جمالية تقوم على أساس «علم نفس الخوف»، لكن ذلك الخوف في حالة الغرابة قد لا يمتزج دائما بالمتعة أو السرور، كما هي حال الشعور بالجلال لدى بيرك؛ وذلك لأن الخوف - أو على الأقل الحيرة - يكون هو المهيمن على الغرابة في الفن والأدب، وفي الحياة أيضا، حيث قد لا تنتهي تأثيرات الغرابة بانتهاء مصدرها الذي أثارها، فهي قد تكون حالة مقيمة مع الفرد تنام معه، وتصحو معه، وترتحل بارتحاله؛ وذلك لأنها ليست مجرد حالة مزاجية وجدانية انفعالية، تدرك على بعد، ومن مسافة، كما هي حال الجلال؛ بل خبرة مزاجية انفعالية ومعرفية، والجانب المعرفي فيها يشبه الجانب الانفعالي، أي أنه غير محدد، غير واضح، غير مستقر، ولا يسكن بيتا خاصا به، إنه هائم عابر للحدود، بيني، ملتبس وشكوكي، يتعلق بالحيرة وفقدان اليقين كما أشار ينتش إلى طبيعته، وقبل أن يقوم فرويد بذلك بعدة سنوات.

وهكذا فإن الجلال أو الجليل - في ضوء ما قاله بيرك وكانط - خبرة تشتمل على مواجهة بين الذات المدركة وموضوع قوي مهيمن، وكذلك على اختلاط وتداخل للحدود بين الذات والموضوع، ثم أخيرا على وصول إلى رؤية كلية ناتجة من الخلط أو التداخل أو التضبيب أو الغموض لهذه الحدود. ووفقا لبيرك، تختفي الذات لا إراديا، هنا، داخل الموضوع، في حين أن الذات - وفقا لكانط - تؤكد هنا تفوقها على الموضوع من خلال احتوائه في عقلها. وما هو مهم هنا، سواء لدى بيرك أو كانط، هو أن تلك الفروق بين الذات والموضوع تُمّحَى أو تُطْمَس بدرجة ما. وهذا المحو للحدود هو جوهر خبرة الجلال كما حددها هذان المفكران الكبيران، وجوهر خبرة الغرابة لدى فرويد أيضا.

هكذا فإن أي شيء يوحي لنا بالأفكار المخيفة المتعلقة بالألم والرعب أو الموت هو جليل، مع ملاحظة أن الذعر هنا إنما ينبعث أو يصدر من مجال أو ميدان الأفكار، وليس من المواجهات المادية الفعلية مع ما تمثله هذه الأفكار في الواقع.

ووفقا لما قاله بيرك كذلك، فإن الألم والخطر والموت ليست أمورا جليلة في ذاتها، لكن الأخطار الخاصة بها هي التي تلهمنا، وتولد لدينا الشعور بالخبرة أو المشـاعر الجليلة؛ فنحن نعلو بالخوف، نجعله عاما وكونيّا وميتافيزيقيّا، يتحـول إلى تهيب غير محـدد زمانيّا أو مكانيّا، ومن ثـم فإنه يصبح غير مصاحب لنا على نحو خاص، كما أننا نبتكر وسائل أيضا لمواجهته أو الألفة معه، بـل والحصول على مكافآت خاصة من خلاله أيضا، وفي ضوء أفكار الثواب والعقاب، وهذه تفرقة مهمة بين وجود مصادر الخوف في الواقع فعلا (الرعـب أو الخوف الحقيقي) وبين وجـود هذه المصادر على نحو تصوري، كمـا في ذلك الرعب أو الخوف المتخيل من خلال الأدب والفن خاصة [35]. وسوف نخصص قسما كبيرا من الفصل الثالث من هذا الكتاب للحديث عن انفعال الخوف وعن السرد المخيف أيضا.

وتظـل الفروق موجودة بين الجـلال والغرابة، فالجلال - بوصفه خبرة متصورة - خبـرة قد تكون أحيانا ممتعة وأحيانا مؤلمة، ليس هو ذاته خبرة الغرابة، فالغرابة - في رأينا - أوسـع مدى، وأكثر عمقا من الجلال؛ وذلك لأن الجلال يرتبط بمصادر خـارج الذات، أما الغرابة فترتبط بأمور داخل هذه الذات وخارجها أيضا، وفيها عبور للحدود، واجتيازها، بشـكل يفوقه على نحو بعيد.

عن المواجهة مع الجليل الغامض المخيف عامة، والسياسـي منه خاصة، ومـا يحدثه من خواء، قال ليوتار: «ليس هناك، هنا، سـوى الرعب، الرعب المتعلق بالفقدان، فقدان الضوء ورعب الظلام، فقدان الآخرين ورعب الوحدة، فقدان اللغة ورعب الصمت، فقدان الموضوعات ورعب الخواء، فقدان الحياة ورعـب الموت. ما هو مخيف هنا، هو أن ما يحدث لا يحدث، بل إنه يتوقف عن الحدوث أيضا»[36].

ولـدى ليوتـار أيضا، فإنه من أجل أن نفهم أنسـاق الممارسـات الفنية للنـداء الباطنـي الخاص بالجليـل، ينبغي أن يتعلق المـرء - أو يفكر - في تلك الممارسـات على أنها تنشـأ أصلا نتيجة تلك الحالة الخاصة المتمثلة في عدم تكافؤ الواقع - أو تناسـبه - مع مفهوم معين أو عدم كفاءة مفهوم معين، أي عجزه عن تفسير بعض جوانب الواقع أو مظاهره، وكما جاء ذلك

- ضمنا - في تصور كانط للجليل. هكذا اتخذ ليوتار مفهوم الجليل لدى كانط بوصفه استعارة دالة على البرنامج - أو الأجندة - ما بعد الحداثية الكلية، هكذا أصبح لمفهوم كانط حول الجليل - بعد تطويره بأشكال عدة - دور أساسي في الخطاب ما بعد الحداثي، حيث رُبط بينه وبين حالة «اختلال الشعور بالواقع» Derealization (كما سنتحدث عنها في الفصل الرابع من هذا الكتاب)، كما أقيمت صلات بينه وبين الطرائق الإبداعية المبتكرة الخاصة بالتجسيد أو التصور لفكرة «التمثيل لما لا يمكن تمثيله»، كما في محاولة التمثيل أو التمثل للموت أو الخوف أو الرعب أو القلق مثلا، من خلال استخدام التكنيكات التصويرية (في حالة الرسم وفن التصوير)، أو التكنيكات النصية في حالة الأدب، وهكذا فإن هناك شيئا ظاهريًا - أو غير حقيقي - يتعلق بالمستحيل الخاص بالجليل، ويتعلق كذلك بعرضه من خلال بنيات دالة وهو أمر جوهري فيما يتعلق بالغرابة أيضا [37].

فرويد ونظريته حول الغرابة

في مقالة حول «الغرابة» (1919)، طرح فرويد نظريته حول تلك الحالة الخاصة من التفكير، التي تكون قريبة من الخوف والألم والرعب، ولكنها التي يصعب أيضا تعريفها أو تحديدها على نحو دقيق، «إنها فئة المخيف التي تعود بنا إلى شيء مألوف كان مألوفا منذ وقت طويل». وكي يعرف فرويد هذا المفهوم على نحو أكثر دقة؛ لجأ إلى المفهوم المقابل: غير المألوف، وقال إن الغرابة مفهوم ملتبس أو مزدوج يجمع بين المألوف وغير المألوف، الآمن والمخيف، كالبيت الذي قد يكون آمنا مطمئنا مريحا، أو يكون مهجورا، مخيفا، مثيرا للاضطراب. والغرابة هي - هكذا - ذلك المزيج بين هاتين الحالتين، وهي أيضا تحول إحدى هاتين إلى نقيضها، أي تحول المألوف إلى غير مألوف، وتحول غير المألوف إلى مألوف، حضور الحي في الميت، والميت في الحي، حضور الماضي في الحاضر، والحاضر في المستقبل [38].

هكذا يغطي مفهوم «الغرابة» سلسلة من الفئات الدلالية؛ فمن ناحية يرتبط هذا المفهوم ببيت الإنسان، بوطنه، بمكانه، بالمجال المألوف والحميم الخاص به، لكن، من ناحية أخرى، يتعلق هذا المفهوم أيضا بكل ما يبعد

الإنســـان عن وطنه، عن مكانه، عن مجالـــه الحميم والمألوف والآمن؛ ومن ثم فإنه يرتبط بالسري والمراوغ الغامض، بشيء ينبغي أن يظل خفيّا، لكنه يظهر - فجأة - كشـــيء غريب أو دخيل، أو أجنبي، داخل ســـياق أو مناخ مألوف، أي أنـــه مفهوم متناقض معرفيّا، ووجدانيّـــا، يحتوي على الحالةً ونقيضهـــا، أي على الحالة (الألفة مثلا) التي تتحول تدريجيا إلى نقيضها (فقدان الألفة مثلا). وتكون الغرابة موجودة في أقصى درجاتها في علاقتها بالموت وأجساد الموتى، بفكرة عودة الموتى إلى الحياة، وكذلك بفكرة الأشباه والظلال والأرواح والأشباح.

إذن، الغريب شيء كان ينبغي أن يظل خفيّا، لكنه يظهر الآن - كشيء دخيل. داخل ســـياق مألوف، داخل المجال الحميم المعروف، وهكذا، فإنه ووفقـــا لفرويد أيضا، فإنه «خلال الاســـتخدام لكلمة «بيت» يحدث تغير في المنظـــور المتعلق بها: تغير من حميمية «البيت» التي داخله، في اتجاه الموضع الخاص بشـــخص ما، أو شـــيء آخر خارجه، شخص أو شيء قد يجعل ذلك البيت يتحول من شيء آمن أليف إلى بيت يكون عرضة للتهديد والمؤامرات، بحيث يصبح «مســـكونا» بالأســـرار المرتبطة بالخوف وليس الأمن، كما كانت حاله من قبل [39].

وقـــد يصبح هذا الانتقال من المألوف إلـــى غير المألوف والخفي، تحولا محفوفا بالأخطار عندما تصبح هذه الأسرار مرئية، أي عندما تنتج عملية تحول للمألوف إلى شـــيء ما نميزه على أنه قابل للتعرف عليه، لكنه غريب أيضا، أو شـــبح، وهكذا فإن أهم ما يميز الغرابة هو ذلك الغموض المشـــوب بالخوف نوعا ما، المصاحب له.

ويتفق هذا مع ما ذكره ينتش قبل فرويد من أن الشرط الجوهري لظهور الغرابة هو تلك الحيرة المعرفية، حالة الالتباس والشك والافتقار إلى اليقين المصاحبة لها، وهكذا فإن الغموض الملازم للغرابة إنما ينشأ أيضا عن ذلك التداخـــل بين الفئات المعرفية ودلالاتها، حيـــث غير المألوف ينبغي أن يكون النقيض المعاكس للمألوف.

ولكن، وحتى على مستوى اللغة والمعنى، فإن البيت المألوف، بيت ينبغي أن يظل خفيّا أيضا، ســـريّا أيضا، له أســـراره أيضا، غير مألوف أيضا،

لمن هم ليسوا من أصحابه، لمن هم خارجه، حيث تكون سريته الخفية هذه غير المألوفة - لمن هم خارجه - مألوفة، أو هكذا ينبغي أن تكون بالنسبة إلى أهله، لكن «غرابة الغرابة» هنا هو أن هذا البيت المألوف، قد يصبح أحيانا، وربما فجأة، غير مألوف حتى بالنسبة إلى أهله، لماذا؟ لأن هناك أسرارا خفية كان أهله قد اعتقدوا أنها اختفت أو نُسيت، ثم سرعان ما يكتشفون - فجأة - أنها قد عادت إليهم من جديد، ربما لتكرار الألفة والسرية (عوامل داخلية)، أو لظهور آخر غريب عن العائلة والبيت جاء من بعيد (عوامل خارجية)، أو ربما كان ذلك الآخر ينتمي إلى البيت من قبل، ثم تم كشف الغطاء عن بعض الأسرار الخاصة به أمام قاطني ذلك البيت، فجأة أو تدريجيّا، ومن ثم يصبح هذا البيت المألوف غير مألوف، كما أن أسراره الخفية لن تعود - هكذا - خفية؛ بل ستكون مؤججة لأحاسيس الغرابة الناتجة من هذا الكشف الخاص للأسرار، وربما حدث هذا الكشف الخاص للأسرار بفعل عوامل داخلية، أو بفعل عوامل خارجية - كما قلنا لفورنا - وأحيانا بفعل عوامل تجمع بين الداخل والخارج؛ وذلك لأن البيت في جوهره كتيمة أو وحدة معرفية أو معمارية أو جمالية، إنما يجمع في جوهره وتكوينه بين هذه الثنائية الخاصة بالداخل والخارج، الداخلي الأليف المألوف الذي يتحول إلى داخلي غير أليف ولا مألوف، والخارجي غير المألوف الذي قد يصبح تدريجيّا - أو فجأة - مألوفا، ولكنه قد لا يصبح أليفا أيضا، بل يظل هو الغريب الموجود في الداخل، وبدرجات عدة من الألفة والتآلف، وبتكوينات تشتمل على الغزاة المستعمرين، وعلى الزائرين المغادرين أو المقيمين، وعلى أشباح الأفكار والذكريات والمشاعر التي تنتاب المنازل أو البنيات المعرفية والوجدانية لأصحابها [40].

هكذا، فإنه مثلما قد تسكن الأشباح البيوت المهجورة أو المأهولة، فإنها قد تسكن أيضا الفئات المعرفية والانفعالية، قد تسكن الأفكار والتصورات والانفعالات الوجدانية والأبيات الشعرية، وكل ما يبقى بعد غياب أصحابه الأصليين، الأوائل، آهلا بهم، مثل منازل أحبة أبي الطيب المتنبي التي أقفرت منهم، لكن سكانها، أصحابها، أحبة الشاعر،

لا يزالون يســـكنون قلبه، لا تزال أشـــباحهم تروده وتربطه بهم، وهناك علاقة ما بين البيت الذي نســـكنه، والبيت الذي يؤلفه شاعر كالمتنبي، حين يقول:

لـــك يـــا مـــنـــازل فـــي الـــقـــلـــوب مـــنـــازل
أقــفــرتِ أنـــتِ وهـــنَّ مـــنـــكِ أواهـــلُ

وحيث إن الغرابة إنما ترجع في جوهرها إلى أن «الغريب قد أصبح يسكن داخل المألوف»، وأنه لم يعد هناك يقين لدى المرء بخصوص كل ما يحدث له أو حوله، فإن هذا الغريب عندما يظهر داخل المجال الأليف والبيئي، وبالقدر الذي يهز عنده حالة الاســـتقرار واليقين، فإنه يكون مثيرا لمشاعر الخوف، وممثـــلا أيضا لعنصر مهدد منذر بالخطر. باختصـــار، الغرابة - كما يقول بعض النقاد. أمثال ديل فيلانو فيلاشـــيني - أشـــبه بالهيكل العظمي الذي يظهر ويتحرك في غرفة خاصة يخلو فيها امرؤ إلى نفسه، إنها الشبح الذي ينتاب البيت، أو العقل، فيسكن الآخر داخل الذات. ووفقا لما جاء في بعض القواميس، وذكره فرويد أيضا، فإن «غير المألوف» قد يكون هو المكان الذي تسكنه الأشباح.

تجاهل وتذكر مفاجئ

الجدير بالذكر هنا أنه بعد ذلك التجاهل الطويل لذلك المقال الذي ظهر في العام 1919، أصبح ينظر إليه على أنه أحد الأعمال المفككة لذاتها، بل المدمرة لذاتها أيضا، حيث تمت فيه المعادلة أو المساواة بين الغرابة في ذاتها والجوهر الخاص بالأدب. كما تم اعتبار الأدبية، أو جوهر الأدب، من خلاله أيضا، قوة مزعزعة، تهز الاســـتقرار، كان مقدرا لها أن تلحق الفشـــل بكل تلك المحاولات التحليلية النفســـية الاختزاليـــة لفهم الغرابة. ومنذ منتصف ســـبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، وفي ضوء التأثيرات المهمة لكتابات هيلين سيكسوس، وسارة هوفمان، وليز مولر، وغيرهن، بدأ النقاد يرون في ذلك المقال الذي كتبه فرويد ليس مجرد نص كتب حول موضوع يتعلق ببعض الاهتمامات السيكولوجية، بقدر ما يمثل نوعا من الخيال الأدبي (كما قالت سيكسوس)، أو حتى «الرواية النظرية» (كما قالت هوفمان)، إضافة إلى كونه

أيضا سلاحا يمكن أن يفتح الباب أمام الدراسات الجمالية عامة، والنقدية والأدبية خاصة. إن هذا النص حول الغرابة هو في ذاته نص غريب، إنه نص ينتهي به الأمر إلى أن يحاكي الموضوع الذي حاول أن يستكشفه، أو يفهمه، ويحيط به. لقد انتهى به الأمر وبصاحبه إلى أن يقعا تحت طائلة الغرابة ذاتها، وهي غرابة لا تزال تلقي بظلالها وثمارها على كثير من الدراسات الجمالية والأدبية، بل السياسية والاقتصادية والمعمارية والثقافية بشكل عام، كما عرضنا لذلك في كتابنا «الفن والغرابة» [41].

الغرابة - لدى فرويد - ليست شيئا جديدا أو أجنبيًا، لكنها شيء مألوف راسخ منذ القدم في العقل، قد غُرِّبَ أو أُبعِد، منذ وقت طويل، بفعل التربية، والحضارة، والأعراف الاجتماعية، والدين، وعمليات الكبت له على نحو خاص، لكنه يعود - مرة أخرى - إلى الحياة، يكرر حضوره وظهوره، ذلك الذي يكون غريبا على الرغم من اعتراف فرويد بأنه في بعض ميادين السرد التي يحدث فيها وقف أو تعليق مؤقت لحالة عدم التصديق (كما في الحكايات الخرافية مثلا، والفكاهة المرتجلة، وملحمة دانتي، وبعض أعمال شكسبير التراجيدية... إلخ) تكون هناك أشياء كثيرة ليست غريبة، لكنها ربما تكون كذلك غريبة، لو حدثت في الحياة الواقعية؛ وذلك لأن الأشياء تتغير لحظة أن يتظاهر الكاتب بأنه يتحرك في عالم الواقع المألوف، بحيث يكون تحركه هكذا غير مألوف؛ ومن ثم يقدم لنا السرد الخيالي فرصا كثيرة لخلق تلك الأحاسيس بالغرابة، أو تكوينها، أكثر من الفرص الممكنة الخاصة بها في الحياة الواقعية [42].

ومن المهم هنا أن ننتبه إلى أن الجانب الخاص بالآلية، بالتكرار، وكذلك التكنيك، هو جوهر الغرابة، إنه آلية، أي ميكانزم خاص بالتركيبات الميكانيكية؛ وذلك وفقا لما يقوله بونتر، أن ما يواجهنا عندما ننظر إلى الأعماق، أعماق العمل الفني، أعماق المحيط في قصيدة «الملاح القديم» لكولريدج مثلا، أيّا ما كان ما يبدو عليه ذلك العمق من تلألؤ خادع للوهلة الأولى، ليس هنا هو وفرة أو غزارة من الوحوش الآلية؛ بل سلسلة من الآلات تتدفق بنعومة تحت السطح، كما هي الحال في كثير من أعمال الخيال العلمي وقصص الرعب. وكما هي حال «السيبورغ» الكائن المهجن من إنسان وآلة، يلجأ الشاعر والفنان إلى المزج بين الميت والحي، مجموعة من الكلمات والصور والألوان

والأشكال والنغمات يربط بينها، يبث فيها الحياة بالإيقاع والوزن والموسيقى، ومن ثم فالسـيبورغ موجود في جوهر الفن، ربط بين إنسـان وآلة، بين حي وميت. هنا يتخلق كائن جديد، غريب، وأقرب إلى طبيعة الأشباح (43).

في مقاله عن «الغرابة»، أشار فرويد - فيما يشبه الشكوى والتعجب - إلى أن علم الجمال لم يهتم كثيرا قبله، بهذه الجوانب غير السوية أو الشاذة أو المنحرفة، وكذلك الأمور الكريهة أو البغيضة أو المنفرة (أو المتنافرة) في الأعمال الفنية.

وقد كان فرويد - من جانبه - كأنه كان يشـعر بمتعة خاصة وهو يقول ذلـك، وكأنه أول من انتبه إلى هذا الأمـر، وكأن موضوع الغريب لم يكن له أدنى تـراث قبله، ومع ذلك فقد كان فرويد مضطرا إلى أن يذكر اسـتثناء وحيـدا في هذا الشـأن، وقد ذكره على مضض، وفي نوع من الاسـتعلاء، وقد كان ذلك الاسـتثناء متعلقا بإرنست ينتش E. Jentsch، وهو عالم نفس ألماني ولد في العام 1867، وكانت له اهتمامات ثقافية وسيكولوجية متعددة ظهرت في أعمال كثيرة له لا نعرف عنها في العربية شيئا، ومنها - تمثيلا لا حصرا - دراسات حول الهيستيريا، وحول الموسيقى والعصابية، وقد ظهرت هذه الدراسة الأخيرة بين عامي 1904 و1911، وأشار خلالها إلى أن هذه التأثيرات الغريبة في السلوك إنما تظهر على نحو خاص في الموسيقى، وقد ترجم ينتـش كذلك بعض أعمال هافلوك إليس، ولومبـروزو، إلى الألمانية، وكثيرا ما تشـير الدراسـات الخاصة بالغرابة إلى دراسته التي ظهرت في العام 1906 على أنها ذات أهمية ثانوية مقارنة بدراسة فرويد الشهيرة التي ظهـرت في العام 1919، هذا مع أن كثيرا مـن الأفكار التي طرحها ينتش مبكـرا قد تـرددت أصداؤها لاحقا، صراحة أو ضمنا، في دراسـة فرويد الشهيرة عن «الغرابة».

ووفقا لما قاله ينتش، فإن الإحسـاس بالغرابة هو شعور ينشأ عن خبرة معينة تتعلق بحالة من الالتباس أو عدم اليقين، أو عدم القدرة على الحسم أو التحديد، وهو تفسـير اعتبره فرويد غير دقيق؛ ومن ثم فإنه قال إن غير المحدد أو الملتبس لا يمكن تحمله أو قبوله كتفسير نظري لحالة الغرابة، هذا مع أن هذه الفكرة ذاتها، قد ترددت أصداؤها مع غيرها في كتابات فرويد، إضافة إلى أفكار أخرى مهمة له (44).

وعلـــى الرغم من هذه الأفكار المهمة، فإن فرويد قال إنه غير مقتنع تماما بما قاله ينتش، لكنه اعتبر ما قدمه نقطة البداية له فقط؛ وذلك لأنه قد ذكره بكاتب آخر كان مهتمّــا أكثر من غيره بخلق تأثيرات غرائبية لدى قارئه، وهو الألماني هوفمـــان E.T.A. Hoflmann الذي نجح في أن يجعل القارئ يتعجب ويدهش حول ما إذا كانت شـــخصية معينة شـــخصا حقيقيّا أو دمية مخلقة تتحرك، وقد كان يفعل ذلك ببراعة فنية تجعل انتباه القارئ لا يتركز على نحو مباشر على حالة اللايقين هذه. وقد استخدم هوفمان تلك المناورة السيكولوجية بنجاح كبير في كتاباته الخيالية، كما أشار ينتش قبل فرويد أيضا.

في دراسته هذه عن «الغرابة»، كرس فرويد قسما كبيرا منها للحديث عن قصة «رجل الرمال» للكاتب الألماني هوفمان، وقد ركز على الشخصية المحورية فيها، وهي شـــخصية: ناثانيل، الشاعر، وعلاقاته بتجليات عدة من صورة الأب أو شخصيته كما ظهرت في شخصية الأب الفعلي لناثانيل، وظهرت أيضا في شـــخصية المحامي وصديق العائلة المسمى كوبوليوس، وصانع عدســـات يسمى جيوسبيبي كوبولا (والذي يبدو وكأنه ليس سوى كوبوليوس، ولكن تحت قناع آخر)، ثم أستاذ يسمى سبالانزاني. ويعد والد ناثانيل الفعلي، وكذلك ســـبالانزاني، من الشخصيات الطيبة الخيرة، أما كوبوليوس/كوبولا فهما من الشـــخصيات الشـــريرة، وقد كان ناثانيل في طفولته يشعر بالرعب من مجرد ذكر اسم كوبولا، فهو «رجل الرمال»، أو «المنّـــوم» الذي يجيء في أثناء الليل ويذر الرمال في عيون الأطفال الذين يرفضـــون النوم، فتُقتلع عيونهم من محاجرها، ويحملها معه إلى أطفاله الذين يسكنون القمر كي يطعمها لهم، وقد كانت تلك مجرد حكاية، حكاية خرافيـــة تحكيها الأمهات لأطفالهن حتى يخافوا ويســـتغرقوا في النوم، لكن خلال النوم، تتجســـد تلك الصور المخيفة في أحلامهم وكوابيسهم، ثـــم تبقى معهم حتى يفاعتهم، وعبر مراحـــل أعمارهم التالية أيضا [45]، ولســـوف نقدم ترجمة كاملة قمنا بها لهذه القصة في الفصل الثامن من هذا الكتاب، وكذلك بعض القراءات النقدية الحديثة لها ولدراسة فرويد حولها في الفصل التاسع منه.

والخلاصة أنه، في ضوء تعريف فرويد لها فإن الغرابة تنطوي على فئتين، أو أنها تأخذ شكلين هما:

1 - إما أنها تتصل بمراحل من التطور الثقافي للإنسان يفترض أنها انقضت ومضت (كما في حالة المعتقدات البدائية التي تستحضر وتؤكد مرة أخرى بسبب بعض الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما نلاحظ ذلك في أماكن كثيرة من العالم الآن من خلال ذلك التزايد في النزعات المحافظة والأصولية).

2 - وإما أنها تتصل بمراحل ماضية سابقة من نمو الفرد السيكولوجي، كما يحدث مثلا عندما تحدث استثارة استعادة أو تذكر لبعض العقد الخاصة بمرحلة الطفولة بواسطة بعض المواقف الحالية، أو بعض الانطباعات الحسية، أو الإدراكية، فتُبعث حية من جديد لدينا.

وقد اهتم فرويد - إلى حد ما - بتلك الخبرات الغريبة التي تتعلق بالنوع الأول، المعتقدات البدائية التي يتم استحضارها، أو التي تحضر، وتظهر أمامنا، في وعينا، أو لاوعينا، والتي ترتبط - أكثر من غيرها - بعالم الروح، وعالم الأرواح، وبالقدر، والمصير، والموت، لكنه وجه اهتمامه الأكبر نحو ذلك النوع من المخاوف والخبرات الغريبة. كما أنه قام أيضا بالربط بينها كذلك وبين الخوف الجماعي، الذي ينتمي إلى الماضي البعيد للإنسان[46].

عن التكرار

إحدى الظواهر المسؤولة عن تحول المألوف والعادي إلى غير عادي وغريب، هي ذلك الحدوث المتكرر له، ذلك التكرار الذي يفرض نفسه على الذات مرة بعد أخرى، مثلا: قد يمشي شخص في مدينة صغيرة ويجد نفسه، كأنه كان - ضد إرادته - يعود إلى الشارع الضيق نفسه الذي بدأ منه، الشارع الخالي من البشر، هنا قد يصاب ذلك الشخص الحالم بصدمة يسميها فرويد: الغرابة، وخاصة عندما يجد نفسه للمرة الثالثة - كما حدث

بالنســبة إلى فرويد - في الشارع نفسه، الذي حاول جاهدا أن يبتعد عنه. إنها تلك «الإرادة الأخرى» other will التي تحول الآليات الميكانيكية للمشي إلى شيء آخر، ليس بريئا، وليس ضد إرادة المرء أيضا؛ إنه نمط من الحدوث المتكرر لسـلوك ما، أو شـعور ما، أو حدث ما، يميل الفرد إلى تفسيره على أنـه ذو معنى معين، على أنه يحمل دلالة غامضة أو سـرية بالنسـبة إليه. هكـذا يمكن القول إن التكرار هو ذو طبيعة متناقضة؛ وذلك لأنه يعلو حياة المرء ذاتها، يوجد وراءها، يوجد فوقها، ليس جزءا أساسـيّا من طبيعتها؛ بل أشـبه بالتجريد أو القاعدة العامة لها، قاعدة تقوم على أساس التكرار، بل التكرار الإجباري أيضا، ويظهر هذا في السلوكيات البيولوجية كتناول الطعام والتنفس والنوم وضربات القلب... إلخ، كما يظهر في سلوكيات كثيرة كالمشي والتفكير والانفعال والقلق ومشاهدة التلفزيون، وغيرها من الموضوعات ذات الطبيعة المتكررة الحدوث، إنها آلية وتكرارية قد ترتبط بما هو ضد الحياة، بالمـوت على وجه خاص، الموت الناتج من تحول حركة الحياة إلى ما يشـبه حركة الآلة، تلك الحركة التي تتكرر وتتكرر من دون روح أو انفعال أو بهجة، ومن ثم فإنها - هنا - حركة الحياة، حركة تلك الحياة، التي تتحول - ذاتها - إلى حركة آلية قريبة من الموت، أو دالة عليه.

هكذا قد يكمـن التناقض الكامن في التكرار في أنه يعلو فوق الحياة، يكون مصاحبا لها، ويعمل معها، لكنه يعمل ضدها أيضا، وإلى الدرجة التي قد يظهر لدينا عندها شـعور غريب نتيجة لذلك التكرار، وهو شـعور قد يكـون دالا على حضور دافع آخر، دافع يكون موجـودا وراء دافع المتعة أو الحياة، ألا وهو دافع الموت، وهكذا وصل الأمر بجاك لاكان إلى أن يقول إن «كل دافـع في الحياة، هو بالفعل، دافع نحو الموت»، وكأنه يردد هنا مقولة شهيرة ذكرها فرويد ذات مرة، وهي: «إن هدف الحياة هو الموت»؛ وذلك لأن كل دافع إنما يجعل المرء ينهمك في التكرار حتى يحققه، كما أن كل دافع هو محاولة للذهاب إلى ما وراء مذهب اللذة، إلى ما وراء الشـعور بالاستمتاع المصحـوب بالمعاناة والألم، حيث الأقوال المتكررة لذة الكفاح، ومتعة الإرادة والمقاومة للرغبات والمغريات، حيث هناك سعي دائم إلى التخفف من هذا الألم والتحرر منه، ربما من خلال الموت ذاته [47].

ومثلما تكون هناك رغبة دائمة لدينا في كل ما هو مفتقد أو غائب أو غير متاح لدينا، أي ذلك البعيد، الآخر، فإنه قد تحقق هذه الرغبة أيضا على نحو متخيل من خلال الأدب أو الفن، أو على نحو واقعي، في الحياة، بأشكال مختلفة؛ ومن ثم فإن الصورة التي تظهر في موضع الفقد، موضع الموت، الصور الداعمة له، البديلة لما فقد أو من فقد، قد تكون ممتعة أو مريحة، لكنها قد تكون أيضا مثيرة للقلق أو الرعب أيضا، هكذا يكون القرين أو الظل أو الشبح، وكذلك الأحلام، هي البدائل لما نتمناه ونفتقده، ويكون غائبا بالنسبة إلينا ومفقودا.

هكذا ثمة بدائل تظهر، وصور تحل فجأة، لتذكرنا بأجزاء فقدناها من ذواتنا، أو أرواح آخرين نفكر فيهم دائما، ونحاول أن نستعيدهم من خلال الذاكرة أو الأحلام، وهكذا فإن الرغبة هنا تتعلق بالغائب، المفتقد، ذلك الجانب الذي ينقصنا، ومن أجل أن تستمر رغبتنا في السعي وراء ذلك الغائب، تظهر صور خاصة به، قريبة منه - على نحو مباشر - أو بعيدة عنه - على نحو غير مباشر - تظهر صور في موضع الفقد تدل على ذلك الفقد بوصفه حالة مستمرة متعلقة بالغياب، أو على وجوده كآخر مكتمل أيضا، لا ينقصه شيء، لكنه آخر غريب أيضا، مألوف وغير مألوف، هكذا يظهر القلق ويستمر، وقد يتحول إلى خوف أو رعب أيضا[48].

كذلك أعلى لاكان من قيمة الموضوع الذي يشغل الموضع الخاص بفقد متخيل قد ييسر عملية الوحدة مع آخر، أو وحدة موجودة في الآخر، وسيقول كذلك إن استعارة عودة الموتى، التي اعتبرها فرويد مصاحبة لكل جسد حي، هي الهامش الموجود وراء الحياة، والذي يؤكد ويضمن وجود الكائن الحي بوصفه - في حقيقته - «كائنا متكلما»، إنه ذلك الهامش نفسه الذي يوضع من خلاله الكائن الحي في موضع دال، الموضع الخاص بالجسد نفسه، موضعته كذات متكلمة. إنها الآلية التي تختلس الذات من خلالها النظر، أو تنظر خلسة إلى ما يوجد خلف اللغة/ الحياة؛ ولذلك فإن عودة غير الحي أو المكبوت، هي عودة استرجاعية إلى مرحلة مفترضة موجودة على نحو سابق على اللغة، مرحلة «الواقعي»

لـــدى لاكان، التي هي مرحلة الغرائز، المرحلـــة التي تتوقف عندها اللغة التي نعرفها. إنها موضع اللاوجود المحدد، والتي تشير إلى وجود شيء ما يتعلـــق بالوظيفة الممكنة - أو المحتملة - للفن والأدب، ويتعلق بطرائقهما الخاصة في التعبير والتشكيل [49].

هكذا تكون اللغة ليست مجرد كلمات وتعبيرات وصور؛ بل لغة تعبر عن ذات متكلمـــة، لغة تعبر عمّا وراء اللغـــة باللغة، تعبر عن الصور والانفعالات والأفكار والغرائز التي داخل الذات المتكلمة، المتعلقة بمناطق الغياب والفقد فيهـــا، بالغائب والميت، وكل غير المألـــوف، ما قبل اللغة بالانفعالات والصور والغرائز والمكبوت، بغير المألوف الذي يعود من خلال اللغة والأدب والاستعارة والمجاز على نحو يبدو كأنه مألوف.

خلاصة الفصل

على الرغم ممّا قالـــه فرويد من أن مصطلح «الغرابة» مصطلح غير قابل للتحديـــد، أو التعريف الدقيق؛ وذلـــك لأن تحديده يجعله معروفا، مألوفـــا، ومن ثم ليس غريبا، على الرغم مـــن ذلك فإن هناك خصائص مهمة للغرابة يشـــير إليها الباحثون في هذا المجال وأشرنا إليها سابقا، ونلخصها فيما يلي:

1 - الغرابة إحســـاس حياتي، وإحســـاس جمالي أيضا، خبرة حياتية وخبرة إســـتطيقية، تتعلـــق بالانفعال المترتب على وجود شيء غريب، مخيف أيضا غير مألوف، وقد تثير الرعدة والرعب، ويمكن أن يوجد في الأدب، وفي الفن، وفي غيرهما أيضا.

2 - يتـــم الشـــعور بالغرابة في المواقف التـــي تبدو كأنها جديـــدة، لكنها التي تعود بنا وتذكرنـــا - مع ذلك - بمواقف ســـابقة مألوفة، وهكذا تكون مواقف الغرابة أشـــبه بالعودة والتكرار لمواقف أليفة قديمة، ربما تم كبتها أو نسيانها سابقا.

3 - ترتبط الغرابة كذلك بالتكرار، تكرار المواقف والمشاعر والأفـــكار، ويكون التكرار الملازم لمواقف الغرابة لا إراديا، في أغلب الأحوال.

4 - يكـون الشـعور بالغرابة أكثر احتمـالا في المواقف المألوفة، والواقعية، حيث تكون القوة الحتمية القهرية المخيفة المحيطة بالوضع الواقعي أقوى، أما «خيال الغرابة» فهو خيال يحبط الرغبات، يدمرها، يعوق تدفقها ويقتلها؛ ومن ثم فإنه قد يجسد الغرابة بشكل يفوق تجسيداتها في الحياة. ومثلما قال فرويد، فإن في الأدب يكون من الأيسـر خلق التأثيرات الخاصة بالغرابة عندما نكون موجودين ضمن نطاق الواقع، وليـس خارج حـدوده، أي ليس في عالم مـا وراء الطبيعة. والكائنات الخارقة.

5 - من الممكن إثارة الإحسـاس بالغرابة أيضا من خلال بعض الموضوعات، مثل: التماثيل الشمعية المجسدة لشخصيات بشرية، وكذلك الدمى التي كُونت على نحو بارع، والأوتوماتا أو المخلوقات الآلية المحاكية للكائنات الحية، وكذلك ما يتعلق بالأشـباح والظلال والمرايا والأشـباه والمومياوات، وانعكاس الجثـث.. إلخ، ومع ذلك فإن معنـى الغرابة في الأدب، وكما سنوضح ذلك خلال الفصل الثاني من هذا الكتاب، قد أصبح يتجاوز هذه المعاني الكلاسيكية له إلى حد بعيد.

6 - كثيرا ما تجسد الغرابة أيضا من خلال فكرة أو شخصية «القرين»، حيث هنا لدينا شخصيات يمكن اعتبارها متطابقة لأنها يشبه بعضها بعضا، ويتم ذلك من خلال توحد الذات مع شخص آخر. وتؤدي آلية الإسقاط دورا مهمّا هنا، حيث تحدث عمليات ازدواج وانقسـام وتبادل وتعدد للذات. ثم هناك أيضا في الغرابة تلك العودة المتكررة للشيء ذاته، للخصائص ذاتها، أو سـمات الشـخصية ذاتها، للجرائم ذاتها، أو حتى للأسماء نفسها، ومن خلال توليدات متعددة. وقد ذكر فرويد أن الخلط بين الحي والميت ليس وحده كافيا لحدوث الغرابة؛ بل إن القلق الذي بينهما والمرتبط بالشك والالتباس واختلاط الحياة بالموت هو الذي يحدث ذلك الشعور بالغرابة [50].

كذلك ترتبط الغرابة بفكرة الذات وتعددها، وسلوكها، وقلقها، وافتقادها الألفة واليقين على المستوى الفردي، وعلى المستوى الجمعي أيضا. وثمة تجليات أخرى للغرابة في الأدب يدور حولها الآن كثير من الدراسات والحلقات البحثية العلمية والمناقشات في مجالات الأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها، وقد عرضنا لها هذا الفصل من قبل، وسنعرض لها أيضا في فصول هذا الكتاب القادمة.

2

الغرابة والأدب

«لم تنبع مظاهر الفزع والخوف في قصصي من ألمانيا، التي بدأ منها هذا النوع من القصص؛ بل من داخل روحي».

إدغار آلان بو (1)

الغرابة هي، هكذا، طاقة ما، قوة ما تدفعنا إلى ما وراء الحدود الراسخة الواضحة، من كل نوع، ثم ينتهي بها الأمر إلى أن تتلبس روح كل مفسر كان - في بداية عمله - بعيدا عن الشكوك والظنون والمخاوف. وهكذا فإن فرويد - كما يشير ديفيد إليسون - واحد من صف طويل من القراء الذين حكم عليهم بأن يعيدوا الخطأ نفسه، بأن يحاولوا أن يسيطروا على، أو يتحكموا في، تلك الطبيعة الدلالية الغزيرة الوافرة، أي في تلك الطبيعة المتعددة الدلالات المميزة للأدب. وهكذا أيضا فإن كل نقاد الأدب، وربما كتابه أيضا، هم أيضا أبناء تانتالوس، في الميثولوجيا الإغريقية، ذلك الذي حكم عليه بأن يظل في حالة عطش دائم، يرتفع الماء إلى شفتيه، فإذا ما حاول أن يرشف منه غيض الماء ونزل. وهم أيضا أبناء

سيزيف، ذلك الذي يدفع الصخرة إلى أعلى فإن وصل بها إلى القمة سقطت متدحرجة، ويكون عليه أن يعيد حملها ورفعها من جديد. وفي كل هذه الأعمال تكرار ما، وفيها كلها غرابة ما، غرابة الوجود والغياب، وجود الماء وغيابه، ووجود الصخرة عند القمة ثم غيابها عند السفح أو القاع، ووجود المعنى ثم غيابه في غابة غامضة من الدلالات والمعاني المتعددة المتشابكة الجذور والأغصان [2]، التي تظهر فيها الحقائق دائما كظلال، وأشباح، وبقايا، وحالات من الغياب، حيث الغرابة ميدان الموت، والموت ميدان الغرابة، والموت مادي ومعنوي؛ الغرابة ميدان الموت الذي في الحياة، مكان شبحي، أو «لا مكان» يعبر الجانبان الجمالي والأخلاقي، من خلاله، أو عبره، الحدود الخاصة بالآخر، فيحطمان هذه الحدود، يثيران القلق والاضطراب فيها، يخلطانها معا، فلا تصبح هناك حدود فاصلة بين الجمالي والأخلاقي، وترتبط الأشباح والأشباه والظلال، وكذلك الأقنعة بالموت، موت المشاعر والأفكار والذكريات، الموت المادي والمجازي. وقد اكتشف الأدب والفن داخل تلك المنطقة الغريبة - لكنها المألوفة أيضا - الخاصة بالغرابة على نحو خاص.

هكذا وجدنا أنه لدى أدباء أمثال بروست وكافكا مثلا، لا يمكن عزل حركة السرد نفسها عن تلك الأصداء والترددات والانعكاسات الغريبة الحاضرة بقوة داخل الدال الخاص بنصوصهم؛ وذلك لأن القدرة على الكشف، ورفع الغطاء عن ذلك الاحتمال الشيطاني الكامن داخل الدال، إنما تعني التحرير للغة الأدبية، وكذلك الإطلاق لطاقة فياضة هائلة غير محدودة بداخلها. ولدى جوزيف كونراد وأندريه جيد، كانت الغرابة كامنة أسفل سطح الأشياء والأحداث، وقادرة كذلك على هز الاستقرار، أو الاتزان الخاص بذلك التعارض البسيط بين البيت (إنجلترا وفرنسا مثلا) والآخر الغريب (جنوب أفريقيا والكونغو مثلا). وهكذا تم إدراك الغرابة بالنسبة إلى هذين الكاتبين على أنها غير المألوف، المجهول، الغامض الغريب («عن» البيت)، وليس الغربي («في» البيت) فقط . هكذا تدخل الغرابة وتتعلق ليس فقط بالذات، بل أيضا - وعلى نحو خاص - بعلاقة الذات بكل ما هو «آخر»[3].

لدى فرجينيا وولف كانت الغرابة، وفي عالمها المتخيل، مرادفة لغير الشخصي، حيث يوجد «غير الأليف»، غير البيتي، وغير الحميم في تلك

التمييـــزات الغامضـــة غير المحددة، في نوع من العلامة الخاصة بالســـرد، التي تذهب إلى كل الاتجاهـــات المناقضة للتنظير المنطقي والمتعارضة معه في ذاته. هكذا تفتح النصوص الحداثية نفســـها أمام «الآخرية» otherness الجوهرية الخاصة بالغرابة، وهي «آخرية» تجيء على نحو ســـابق «وجوديا» على تلك التعارضات الثنائية الكلاســـيكية الخاصة بالذات والآخر، والبيت والغريب والطبيعة والتقنية.. إلخ [4].

لدى الكاتب المصري صنع الله إبراهيم، وخصوصا في روايات مهمة له، مثل «تلك الرائحة»، و«شرف»، و«اللجنة»، تكمن الغرابة في ذلك التكرار، في العـــدم، وفي الموت المحيط بكل شـــيء كان ينبغي أن يكون حيا، ومن ثم فإن الموت لديـــه موت الروح قبل أن يكون موتا للجســـد. وهناك تجليات أخرى للغرابـــة نجدها لدى كتاب عرب كثيرين، وهو ما قد يحتاج منا إلى أن نفرد لهم كتابا آخر حول الغرابة في أدبهم يهتم باستكشـــاف الأبعاد المتنوعة لها في أعمالهم.

في قصة الكاتب التشـــيكي فرانز كافكا الشـــهيرة «التحول» أو «المسخ»، يســـتيقظ بائع متجول - هو غريغور سامســـا - ليجد نفسه وقد تحول إلى حشـــرة كريهة تعافهـــا النفس، وقد ظل صوت غريغور سامســـا وهويته في البداية كما كانا عليه قبل التحول، لكنه تدريجيا يستسلم لشكله الجديد وقد أصابه الرعب بســـبب نهمه الشديد لأكل الفضلات المقززة التي كان جسده الجديد يحتاج إليها كحشرة، وقد قاسى غريغور الويلات بسبب ذلك التحول العميق لهويته الأصلية كرجل عادي - إلى حد ما - وأناني، وكحشـــرة، وظل يحتفظ بذكرياته كإنسان، لكنه تطور فأصبح أكثر نبلا وإيثارية على نحو لم يعرفه من قبل عندما كان إنســـانا.. وبسبب كراهيته لنفسه، وتحطم قلوب أسرته، امتنع عن تناول الطعام حتى الاقتراب من الموت، وعندما شارف على الموت بدأ يهتم كثيرا بالموسيقى ويتأثر بها، كما لو كان يكمن فيها سر تحول هويتـــه الخاص، وفي لحظـــة الذروة من القصة زحف إلـــى غرفة أمه التي كانت تعزف على آلة الكمان، واقعا في صراع بين رغبته في الاســـتماع إلى الموســـيقى، ومحاولته ألا يحدث الاشمئزاز في نفوس أسرته بسبب مظهره الغريب هذا. لقد تحول نحو الموســـيقى كمـــا لو كانت هي الطعام الحقيقي

الــذي كان يحتاج إليه، والذي كان يفتقر إليه في حياته الســابقة على هذا التحول، الطعام الذي قد يساعده على إعادة وحدة الإنسان بالعالم الطبيعي الذي فصلته الآلة عنه، وحولته إلى مسخ يقتات على النفايات [5].

وفــي رواية «المحاكمــة» أو «القضيــة» للكاتب فرانز كافــكا أيضا، يُتهم «جوزيف. ك.» بجريمة غامضة لا يعرفها، ويعرف أن هناك محاكمة ظاهرية مزعومة، وتأجيلات غير محددة لمحاكمته، وكذلك براءة متوقعة له غير محددة أيضا، تتســم بالمراوغة اللانهائية. هكذا ينقســم العالم لديه إلى قســمين: أحدهمــا زائف ظاهري مزعوم، والآخر محــدد دقيق واضح المعالم، ويعكس هذا الانقسام تلك الاحتمالات المظلمة الخاصة بالطبيعة الإنسانية، حيث هنا العالم مستعمرة للعقاب، والعدالة نوع من القسوة المرعبة، آلة مفككة مدمرة لا تعمل بشكل غير متحكم فيه، ونحن ننجذب نحو القانون، ونقترب منه، لكننا نقف على أبوابه في خوف. وعالم كافكا - عامة - هو عالم غريب ومخيف [6].

تجســد هاتان القصتان الاتجاهين الرئيســيين الخاصين بالغرابة في الأدب، وهما:

1 - غرابة غير المألوف: كما في حالات التحول والازدواج والمســخ والنسخ (وكما في تحول إنسان إلى حشرة في قصة كافكا السابقة).

2 - غرابة المألوف: هنا لا يوجد تحول أو مســخ أو نسخ؛ بل تكرار وعبث وفوضى واختلال في الشعور بالواقع والذات (كما في رواية «المحاكمة» أو «القضية» مثلا).

للغرابة ســادتها من الكتاب، ومنهم هوفمان ولوفكرافت، ودستويفسكي، وكافكا وغيرهم. لكن أبرز هؤلاء السادة ربما هو الكاتب الأمريكي إدغار آلان بو (1809 - 1849).

سيد الغرابة

في بداية قصة «القط الأســود»، للكاتــب الأمريكي إدغار آلان بو يقول الراوي في إشارة لافتة إلى جوهر الغرابة في القصة التي سيسردها: «لست أتوقع منكم، بل لست أطلب أن تصدقوا الوقائع التي أسطرها هنا لقصة هي

أغرب القصص، وإن كانت في الوقت نفسه مألوفة للغاية. لن تصدقوا ذلك: لأن حواسي ترفض أن تصدق ما شهدته ولمسته. غير أنني لست مجنونا، ومن المؤكد أنني لا أحلم. وإن كنت ملاقيا حتفي غدا فلا بد لي من أن أزيح هذا العبء عن روحي»[7].

هكذا يبدأ «بو» قصته بتمهيد نقدي يكاد يلخص جوهر الغرابة في الأدب، فهو لا يتوقع من القراء أن يصدقوا الوقائع التي سيسردها، لأنها من «أغرب القصص» لكنها أيضا، وعلى الرغم من ذلك «مألوفة للغاية»، وإنه وعلى الرغم أيضا من أن حواسه ترفض أن تصدق ما شهدته أو لمسته «فإنه ليس مجنونا» ولا يحلم ويريد أن يتخلص من هذا العبء الخاص بتلك الأحداث الغريبة، وهو العبء الذي يثقل روحه، ويرزح تحتها، بالحكي، بالكتابة، بالأدب، بالإبداع.

ثم يستمر الراوي متحدثا عن جوهر الغرابة في قصته، وأنه يريد أن يروي - بدقة وبلا تعليق - سلسلة من الوقائع العادية جدا، «لكنها الوقائع التي عصفت بي أهوالها»، وما بين الوقائع العادية والأهوال العاصفة يستمر السارد في رواية حكايته التي يقول عنها إنه لا يجد فيها غير الرعب الذي قد يبدو للآخرين غيره نوعا من الخيال الغرائبي المعقد.

في «القط الأسود» هناك روح هائمة أيضا، روح القط، وروح الراوي، الراوي الهائم على وجهه خارج بيته، والذي يعود إليه ليلا دوما ليجد القط يحاول تجنبه، هنا رجل شبه معزول عن الكائنات البشرية الأخرى، رجل يحيط نفسه بالحيوانات، يراها وسيلته إلى إقامة علاقات مع العالم الخارجي، لكنها علاقات تتم على أسس محدودة ومحددة، أسس لا تتضمن الحوار أو التفاعل، وحتى عندما يختار زوجه، يختارها بسيطة وساذجة، ولا تعارضه أبدا، أو تتحداه، ولكن - كما في قصص بو دائما المعبرة عن هذا الحرمان الحسي والعاطفي والاجتماعي الغريب - فإن العقل الذي تهدده دوما هذه العوامل من الجوع والولع العاطفي والاجتماعي، والذي يحاول أن يبعد نفسه عن مصادره ظاهريا، غالبا ما يعبر لاإراديا، ومن خلال التذكر والاعتراف، عن حاجته إلى الحب والتعبير عن الذات والحيوية من خلال هلاوس وتحريفات غريبة في إدراكه للواقع، وفي الوعي الخاص به،

كأن ينسب، مثلا، صفات السحر والساحرات إلى القط الأسود، أو أن يرى أشباها وأقرانا، أو يرى تجسدات وتقمصات لشخصيات بعد موتها، كما في قصة «ليجيا» مثلا، أو غير ذلك من الكائنات الطيفية والشبحية الهائمة، أو يصاب بالجنون. وما الهلاوس والخيالات والصور والأوهام إلا تجسيدات للروح الهائمة، تجسيدات للحالة الطيفية الخاصة التي تدركها الذات عندما يضطرب وعيها، وتضطرب علاقاتها مع الواقع، ومع الآخرين، ومع نفسها أيضا. وهكذا فإن الغرابة هنا هي نوع من الفوضى التي تتسلل تدريجيا داخل نظام نفسي ما حتى تتغلب عليه، قد تحدث نتيجة الشعور بالذنب أو الاكتئاب أو الروح العدمية أو الشعور بالعزلة أو اللاجدوى أو الاغتراب، تتسلل تدريجيا إلى نظام العقل والوجدان، وتحوله إلى حالة نقيضة له، حالة من اللاعقل، من الجنون أو الاضطراب الجامح في الوجدان والسلوك، حالة من الجنون أو الرغبة الجامحة في القتل وتجاوز كل ما يدل على النظام، والتكرار، والنمطية، ثم محاولة لاستعادة ذلك النظام من خلال التذكر والاعتراف والرغبة، يريد من خلالها أن يتواصل مع الآخرين، ولو في شكل عقاب له، لكن هذا التذكر - كما أشرنا - لا يكون للتفاصيل الحميمة والحيوية؛ بل للإطار العام، للحركة، للتتابع في الأحداث، للنمطية، للثبات؛ ومن ثم للآلية، هنا تقع الشخصيات مرة أخرى فريسة للاضطراب والجنون، وربما الموت.

روح الانحراف

في قصة «القط الأسود» أيضا حديث عن المزاج المختل الذي يتبدَى في غضب الراوي الجامح خلال عودته مترنحا ليلا نتيجة للشراب المُسْكِر الذي كان يتناوله في البلدة على نحو متكرر، حين خيل إليه أن القط يتجنب حضوره، تملكه - كما قال - غضب الأبالسة، فاقتلع إحدى عيني القط من محجرها، ثم انتابه في الصباح شعور هو مزيج من الرعب والندم بسبب الجريمة التي ارتكبها، ثم إنه يتحدث عن «روح الانحراف»، الذي هو لديه واحد من النوازع البدئية في القلب البشري، واحد من الملكات أو المشاعر الأصيلة التي توجه السلوك . إنها الروح التي تدفع صاحبها إلى ترك القانون،

وإلى السـقوط النهائي، وهي كذلك «رغبة النفس الدفينة لمشاكسـة ذاتها، لتحطيم طبيعتها ذاتها، لاقتراف الإثم لوجه الإثم، هذه الرغبة التي لا يسبر غورها هي التي حرضتني على مواصلة الأذى ضد الحيوان الأعزل، وأخيرا الإجهاز عليه»، ثم يتحدث عن كيف شـنقه «والدموع تتدفق من عيني، وفي قلبي تضطرم مشـاعر الندم»، وتتكرر مشاعر الإيذاء والكراهية لقط آخر يحضر، وتتكرر عملية فقـدان القط لعينه، يزداد إقبال القط على صاحبه وتمسـحه به، وتزداد كراهية هذا الصاحب له، ومعها تزداد رغبته في قتله حتـى ينجزها في النهاية، حتـى أنه يرى في البقعـة البيضاء على صدره ويتوهم ويتخيل شكل المشنقة [8].

هكذا لم يكن هذا الرعب الذي يشـعر به خوفا من شـر مادي مجسَد. «مـع ذلك أحار كيف أحدده بغير ذلك»، وقد اضطر إلى الاعتراف بأن ذلك الرعـب والهلع اللذيـن أوقعهما في نفس هذا الحيوان ازدادا حدة بسـبب من وهم لا يقبله العقل. وقد تمثل ذلك الوهم في تخيل شـكل المشـنقة في تلك البقعة البيضاء من الشـعر في صدر ذلك القط الأسـود المقلوع العين، هكذا ارتبط شـكل هذا الحيوان في عقله بالعـذاب والجرائم والموت، وفي نومه بالكوابيس المفزعة. ما الذي يجعل الإنسـان يصاب بكل هذه الكراهية الغريبة تجاه حيوان أليف هو القط؟ ما الذي يجعله يقتل زوجته لأنها حاولت الدفـاع عن القط عندما هم بقتله؟ لقد دفن الـراوي زوجته في جدار قبو منزلـه، دفن القط معها حيا دون أن يـدري، لكن القط، المدفون حيا، الذي ظن أنه قد تخلص منه، يعود من داخل الجدار، وبينما كان ذلك المجرم يدق عليه بعصاه، محاولا إقناع الشـرطة ببراءته، يعود القط، وتعود معه كل تلك الجرائم المخبوءة التي ظن صاحبها أنها اختفت.

وفي قصة عنوانها «القلب الواشـي» (كما في ترجمة طاهر البريري) أو «القلب الذي كشـف السـر» (كما في ترجمة خالدة سعيد) يقع رجل تحت وطأة فكرة مسيطرة على عقله تدفعه نحو قتل رجل آخر لأنه يكره لون عينه الزرقاء، فهذه العين تؤرقه وتصيبه بالجنون وتدفعه فعلا في النهاية إلى قتل ذلك الرجل البائس التعيس. هكذا يقول ذلك القاتل (كما في ترجمة طاهر البريري): «من المستحيل أن أقول كيف داخلتني الفكرة الأولى لأول مرة، لكني

مع ذلك متيقن أنها اقتنصتني ليل نهار. لم يكن هناك هدف. لم تكن هناك عاطفة. أحببت الرجل العجوز فهو لم يخطئني مرة ولم يداهمني بالتوبيخ أبدا. لم تكن لدى رغبة في ذهبه. أعتقد أنه. الذهب. كان عينه! عينه، كان هكذا، كانت إحدى عينيه تشبه عين النسر. عين زرقاء شاحبة يعتريها غشاء رقيق. ففي كل حين تقع عليَ أشعر بهروب دمي، وهكذا بالتدريج - تدريجيا جدا - عزمت على أن آخذ حياة الرجل؛ وبهذا أخلص نفسي من تلك العين للأبد» ويستمر الأمر هكذا، حتى يقتله لكنه لا يستطيع أن يتخلص أبدا من تأثيره، من عينه، ولا من جريمته، فذكراه وصورته وصوت قلبه، وساعته، تظل تعود إليه وتراوده حتى يعترف بجريمته[9].

ومعظم شخصيات بو، ومعظم الساردين فيها، موجودة. هكذا. بنصف وعي، كما لو كانت في حالة حلم أو غياب مؤقت عن الوعي، موجودة في حالة ما، توجد بين اليقظة والنوم، عند عتبة الوعي، عند تلك الحدود المميزة لوعي الغرابة، عند تخوم الوعي البينية الموجودة بين الغياب والحضور، غياب إنسان أو حيوان بموته، وحضوره كفكرة أو انفعال أو أثر أو شبح، نجد هذا في قصص كثيرة لإدغار آلان بو، مثل:«الموعد»، و«ليجيا»، و«موريلا»، و«برنيس»، و«سقوط بيت أشر»، و«القط الأسود»، و«القلب الذي كشف السر»، وغيرها. وهنا الشخصيات لديها فهم ضعيف لمعتقداتها، وأهدافها، ومظاهر قوتها أو ضعفها، وهي أمور نجدها أيضا في قصص ناثانيل هوثورن قبله خلال القرن التاسع عشر، حيث عودة المكبوت، وظهور الخفي، بعد أن ظُنَ أنه نُسِيَ أو اختفي، هنا الشخصيات - كما قلنا - في حالة نصف وعي أو شبه وعي، هنا الراوي متشكك، يرفض أن يقبل الحقيقة، وهنا كذلك الاختلاط بين الصور والأخيلة وتدفقها مع التأثيرات المصاحبة لها، التي تنمو تدريجيا وتتحول «كروماتيا» أو لونيا من الشكل البسيط الواهن إلى الشكل الجليل والمخيف والغريب.

وفقا لما تقوله سيبل فولتش برنبرغ أيضا في دراستها المهمة حول «منطق الغرابة لدى بو»، هناك ثلاثة مكونات للغرابة في أعماله، هي:

أولا: تشيؤ الإنسان أو نزع الإنسانية عنه Dehumanization، وهو أمر يرتبط بالآلية. ثانيا: جنون العظمة Megalomania.

أمـــا المكون الثالث الـــذي يتردد في أعمـــال «بو» الرائعة فهـــو بارانويا الاضطهاد أو الارتياب Paranoia، وهو مكون يتفاعل مع المكونين الســـابقين على نحو شديد الثراء، ويتجلى في أعمال قصصية وشعرية كثيرة لدى «بو»، وحيـــث يؤدي التعبير المتكرر عن هذه المكونات - معا - إلى إحداث تأثيرات خاصـــة متعلقة بالرعب، وقد حدد بو ذلك كله بوصفه «الموضوع الأساســـي المتكرر المميز لســـرده الخيالي، وإنه مع هذا الرعب الناتج ينمو أيضا وعي الشخصيات بجرائمها ضد الإنسانية البسيطة»[10].

وترى «ســـيبل برنبرغ» أنه حتى يومنا هذا يظل «بو» ســـيد الغرابة، في الســـرد القصصي والشعر، وأن هذه الغرابة في إبداع بو هي التي أرهصت ومهدت الطريق لانشـــغال الفـــن والأدب الحديثين بالجنون واختلال النفس البشرية والفشل، وكذلك اغتراب هذه النفس وبعدها عن الصحة والجمال. لقد كان بو هو الذي قام بالتجســـيد أو التشـــكيل الإبداعي للغرابة بوصفها خبرة إنسانية مهيمنة، والموضوع الرئيسي للأدب والفن، وبوصفها - أيضا - الدافع المتجه عكســـيا، بعيدا عن الغرابة، نحو الحقيقة، والألفة، والإنسانية البســـيطة، وليســـت المركبة أو المعقدة أو غير السوية. لقد قام بو من خلال فهمه لذلك كله، ومعايشته له، وتجسيده في أعماله، بخلق عالم جديد لنفسه وللإنسان، عالم جديد للفن والحياة[11].

لكن هل «بو» هو سيد الغرابة في الأدب فعلا؟ هذا أمر قد لا يتفق حوله النقاد، فبعضهم يقول إنه «هوفمان»، هوفمان السابق على بو، وبعضهم يقول إنه دستويفسكي، وبعضهم يقول إنه كافكا. فمن سيد الغرابة الفعلي؟ هناك - في رأينا - سادة كثيرون للغرابة . ليس هناك من سيد واحد لها في الأدب، هناك فقط رواد ومبشرون قد مهدوا لاستكشاف روح الغرابة في الأدب وروح الازدواج والانحراف ورعب الروح في المجتمعات الحديثة والمدن المعاصرة.

رعب الروح

لقد كان من أهداف بو من وراء كتابته للشـــعر والقصة - كما قال في «فلســـفة التأليف» - أن يغرق القارئ بتأثيرات، ربما قصد منها أن يظل هو نفســـه مصابا بها، ربما أراد أن يتخلص منها ويســـقطها في أعماله،

ولكن مع اســـتمراره في الكتابة حول «رعب الروح»؛ ذلك الذي يشـــعر به مجرم مشوش الذهن، عزز «بو» بعض المخاطر الخاصة به شخصيا، تلك المخاطر الخاصة بالتوحد مع شخصياته، وهي الشخصيات التي حاول - على نحو متكرر - أن يصف أو يصور ويستخلص من داخلها ذلك الدمار المؤكد، الذي لا يمكن محوه، والذي توقعه تلك الشـــخصيات على نفسها في شـــكل هذاءات خاصة بالاضطهاد[12]. هكذا كانت حالات الانحراف والفساد وسوء الطبع، التي يقوم بها السارد أو القاتل وهو يذكر اعترافاته - علـــى الأقل من أجل أن يفســـر تلك النوبات المتكـــررة من الانحرافات أو ســـوء الســـلوك - هي محاولات متكررة أيضا لتدمير هذه الذات، إنها تعبيرات متكررة عن غريزة الموت، غريزة تدمير الذات والآخر التي تحدث عنها فرويد وربطها بالإحساس بالغرابة، تلك الغرابة التي تمتد بجذورها فـــي كل ما هو مقبض ومَرَضي واغترابي، وقـــد كان بو عبقريا في إثارة هاتـــين الحالتين الخاصتين: أي الوجود المقبض الكئيب والوجود المغترب الغريب أيضا [13].

ربمـــا كان بو، بوصفه ســـيد الغرابة - كما يقـــول بعض النقاد - قد ســـاعد على توجيه الانتباه إلى أعماق اللاشعور الجحيمية، وربما كان أحد المستفيدين منه هو فرويد ذاته، ذلك الذي كتب المقال الذي يحدد الخصائص الأساسية التي يمكن أن نجدها لدى بو، ونقصد بذلك مقال الغرابة «1919»، حيث أشار فيه إلى تلك الأنواع من الخوف التي تشير إلى الرعب الزاحف أو المتصاعد، وكذلك إلى تلك العناصر الغريبة التي تكون موجودة مرة فـــي الفن والأدب، ومرة في الحياة، ومرة في الاثنين معا، والتي تعمل على ظهور أحاســـيس الغرابة : تلك الأحداث المخيفة والمصادفات التي يبدو أنها تعكس هندســـة أو نظاما شـــيطانيا شريرا، وكذلك الكائنات مـــا وراء الطبيعية (الأشـــباح والأرواح)، التي يبدو أن مقاصدهـــا - كما تبدو من تأثيراتها - موجهة نحـــو التهديد والتهويم والسكن والإيذاء، ثم هناك تلك الشخصيات والأشكال الشمعية، الدمى الصناعيـــة والكائنات الآليـــة المخلقة أيضا، ونوبـــات الصرع وتجليات الجنون أيضا.

وإنه عندما ترى هذه العناصر وتتم معايشتها في الحياة اليومية، أو في الأدب، فإنهـا توضع في «الموضع الخاص بالواقع الطبيعي»، أي ذلك الواقع الـذي لا تنتمي فيـه إلى عالم خيالي أو متخيل ؛ بل إلى عالم طبيعي، عالم واقعي، لكنه «واقعي» غريب. كما أن هذه العناصر الغريبة تعمل على استثارة مشاعر خاصة بالغرابة، ونحن نأخذها بجدية، وهي تستثير أعصابنا وتجعلنا عرضة لأن نفقد رباطة جأشـنا؛ لأنها تذكرنا بذلك الدافع الداخلي الغلاب أو القهـري الموجه نحو التكرار الموجـود في قلب وجودنا، أي جوهرنا الآلي الميكانيكي الخاص، وكذلك ذلك الاحتمال الموجود بداخلنا لأن نفقد تكاملنا الخـاص أيضا، وإضافـة إلى ذلك، فإن فرويد قد فسـر الغرابة من خلال ربطهـا بالرعب الخاص، وذلك من خلال تفعيـل أو إثارة الرغبات المحرمة بداخلنا على نحو معبر عنه صراحة في الفن والأدب.

وقد كان «بو» مولعا كذلك بالآلة والحركات، ولعل أكثر التجليات الدالة على ولع بو بالآلة شخصياته، تلك التي تعيش مثل آلات حية أو ميتة، أو آلات نصف حية ونصف ميتة، وتمثل الآلات الحية والميتة (البشـر والآلات المخلقة) هاتين الحالتين الغريبتين من التجسيد للذات المتعاظمة والذات المضطهدة البارانوية في أكثر أشـكالها تطرفا، هكذا نجد أن شـخصيات مثل «ليجيا» و«موريللا» يمكنهمـا أن يبعثا نفسـيهما أحياء من جديد، يعودان بعد الموت، ويسـتمران، على نحو بعيد الاحتمال، غير قابل للتصديق في الوجود. أما «ويلسـون» فلديه قـوى عقلية غيـر عادية تجعله يقف بديلا بارزا للشـخصيات المضادة للحالة البطولية Anti - heroic، فهو أشبه بآلة ميتة، روح هائمة هشة سهلة الانكسار تشـبه الإنسان الآلي المفكك الأجزاء، وهناك سمة مشتركة بين هذين النمطين المتعارضين من الشخصيات، ألا وهي البلادة الانفعالية، أو التبلد الانفعالي. هنا قصص يهوم فيها أبطال مخبولون مشوشون لحكايات غروتسكية grotesque، تكـون قدراتهم على فهم ذواتهم في عالمهم محدودة، أو تكون حتى في أحسـن حالاتها، مقيـدة، مضطربة، ويكون المدى الخاص بالانفعالات هنا متعلقا بتلك المخـاوف التي تمتد من الرهبة أو الخشـية المعتدلة حتـى الهلع Panic، ولعل التشابهات بين هذه الشخصيات القابلة للتصديق والآلات الحية والميتة تجعلنا نقترح أنها كلها كانت تعبيرا عن الذوات الأخرى لـ «بو» نفسه [14].

قوة الأدب وتأثيره

يمتلك كاتب القصص - كما يقول فرويد - قوة موجهة خاصة يسيطر بها علينا، وهو يمتلكها من خلال تلك الوسائل الانفعالية التي يستطيع أن يدخلنا من خلالها إلى عالمه، «إنه يستطيع أن يوجه تيار مشاعرنا، فيجعلها تتجمد في اتجاه معين، وتتدفق في اتجاه آخر. كما أنه يمكنه أن يحقق تشكيلة متنوعة من التأثيرات من خلال استخدامه مادة الكتابة نفسها. إن هذا كله ليس جديدا، كما أنه أصبح غير قابل للشك، وقد وضعه أساتذة علم الجمال في حسبانهم منذ وقت طويل» [15].

وهكذا فإنه، ووفقا لما يقوله فرويد أيضا: «يمتلك سارد القصص، تلك الحرية الإبداعية التي لا يمتلكها كثيرون في الحياة العادية؛ إنه يمتلك حرية الخيال، كما أنه يمتلك بعض الطاقة الإحيائية، أي تلك الطاقة التي تجعله يضفي الحياة على بعض من الأشياء والكائنات التي تفتقر إلى الحياة، هنا يكون القارئ مضطرا إلى أن يعلق حكمه المنطقي على الأشياء، أو يوقفه». كما أن هذا القارئ يترك أمره أيضا للكاتب لأن يوجهه كيفما شاء، هنا يصبح القارئ سلبيا، والكاتب إيجابيا، لكنَ في سلبية القارئ نوعا من الإيجابية، وفي إيجابية الكاتب نوعا من السلبية، إن القارئ يستسلم - هنا - لخيال الكاتب بإراداته، يتركه يوجهه، لكنه يتفاعل معه أيضا، كما أنه يحرك هذا التوجيه له بطريقته الخاصة أيضا، إنه يقرأ عمله بطريقته الخاصة، يفسره بطريقته الخاصة، أما الكاتب فقد يكون خاضعا أيضا لأفكاره، وأحلامه، وخيالاته، توجهه كيفما شاءت، كما أشار إلى ذلك كتاب كثيرون [16].

وقد مال كثير من النقاد إلى اعتبار مقال فرويد عن الغرابة نوعا من الأدب، وإلى اعتبار الغرابة نفسها، بكل ما تشتمل عليه من رصد وتمثيل وتجسيد للشك والازدواج والالتباس، جوهر الأدب، هكذا مال باحثون ونقاد أمثال نيل هيرتز Neil Hertz، وهارولد بلوم Harold H.Bloon مثلا إلى اعتبار الغرابة البديل أو الشبيه المعاصر لموضوع الجليل الذي كان موجودا في القرون الماضية، إنه «الجليل» الخاص بعصرنا كما قال بلوم وكما أشرنا سابقا، وإنه مثلما قد يكون من المستحيل فهم جوهر المدرسة الرومانتيكية في الفن والأدب من دون فهم فكرة الجليل، فكذلك

قد يصعب أو يستحيل فهم جوهر الحداثة وما بعد الحداثة من دون أن نفهم معنى الغرابة وتشكيلاتها المتنوعة في الأدب والفن. هكذا فإن قراءة مقال فرويد هنا لن تكون نوعا من التدريب أو المران لفهم الأدب؛ بل محاولة حذرة محفوفة بالمخاطر لفهم جوهر الأدب الحديث، وفهم طبيعته الغريبة الملازمة له أيضا [17].

هناك أبعاد كثيرة للغرابة في الأدب، وهي أبعاد يربطها النقاد الآن بأحداث الحياة كلها، وبأشكال عدة من التفاعلات البشرية والسلوك الإنساني، وهي أبعاد تتجاوز في مداها تلك التيمات التي اقترحها ينتش، وبعده فرويد، وغيرهما، للغرابة. ونبدأ أولا بالإشارة إلى أبعاد الغرابة الأدبية والفنية كما اقترحها ينتش وفرويد وغيرهما، ثم نستكمل حديثنا بالإشارة إلى أبعاد أخرى يتحدث عنها النقاد الآن بشكل كثيف.

الأبعاد العامة للغرابة في الأدب (غرابة غير المألوف) والتيمات الأساسية للغرابة في الأدب، في ضوء تحديد فرويد - وقبله ينتش - لها، هي:

1 - القلق من فقدان شيء أو شخص عزيز وحيوي؛ ويتجلى ذلك في الارتباط الوثيق بين الغرابة والخوف من الموت أو الخوف من الفقدان لأحد أعضاء الجسم مثلا.

2 - ظاهرة القرين وارتباطها بالخوف: ويتمثل ذلك في حالات تفكك الذات وانقسامها وتعددها، أفكار الظل والمرايا وغيرها (وقد خصصنا لها الفصل السادس من هذا الكتاب).

3 - الإحيائية: من حيث تحول الميت إلى حي، وبالعكس، تحول الحي إلى ميت، والجمع بين الحياة والموت في حالة واحدة، كما في حالة الدمى مثلا.

هكذا ترتبط الغرابة هنا بالآلية والتكرار والدمى، وجثث الموتى، وكذلك بالكائنات الحية، وخاصة البشرية منها، من حيث إمكان أن تجمع بين الحي والميت . وهكذا تكون الدمى في جوهرها ميتة؛ لأنها جماد لا ينطق ولا يتحرك، ولكن من خلال حيل فنية خاصة يمكن جعلها تتحرك، وعندما تكون هذه الدمى في شكل إنساني يكون إمكان إثارتها للخوف أكبر، وتجسد الدمى وصورها، ذلك التناقض الوجداني بين البشري والآلي، الحي والميت،

الجمال والقلق المرتبط بغياب الحياة داخل الجمال، وترتبط الدمى بالغرابة أيضـــا لأنها تقع بين الحـــي وغير الحي، الجامد والمتحـــرك؛ ومن ثم فإنها تكون موجودة في منطقة الغموض واللاتحديد، وعلى الحدود؛ وتكون قادرة أيضا على إثارة مشـــاعر الغرابة، كما حدث بالنسبة إلى أوليمبيا في قصة هوفمان الشـــهيرة: رجل الرمال. كما تجسد الدمى والكائنات الآلية المخلقة الأخرى أيضا تلك الطبيعـــة المزدوجة للأحداث والغموض الملازم للعلاقات بـــين الداخل والخارج، الحي والميت، الطبيعـــة المنظمة المخططة والفوضى العشوائية المفككة، البراءة المنسوبة إلى مرحلة الطفولة، والشر والجرائم التي يمكن أن تحدث وراء قناع البراءة. كيف يمكن أن يكون البريء الساذج مخيفا هكذا كما هي حال تلك الدمى القاتلة التي جسدتها بعض الأفلام الحديثة، ويتجاوز مفهوم الدمى الغريبة هنا المعنى التقليدي للدمى إلى البشـــر الذين يصبحون أنفسهم، أشـــبه بالدمى، يتحركون مثلها، يتكلمون مثلها، يفكرون مثلها، يصبحون أقرب إلى الموتى منهم إلى عالم الأحياء [18].

4 - التكرار : ويتجلى ذلك في عودة الشيء نفسه، ولكن في شكل غريب، مختلف ومخيف، وارتباط ذلك بمشاعر الخوف التي يشعر بها المرء عندما يتوه ويصل ويعود إلى النقطة نفسها التي تاه عندها في البداية، أو فقد عندها شـــيئا أو شـــخصا عزيزا، فالفقد هنا ليس فقدانا للطريق أو الاتجاه فقط؛ ولكن لمركز ثابت، لشخص كنا نعتمد عليه، لشيء كنا نتكئ عليه في شـــعورنا بالألفة في الحياة (الصحة، المال، الأحباب، الأعزاء، الأصدقاء، الوظيفة.. إلخ)، هكذا نجد تكرار عودة بعض الناس - في حكاياتهم - إلى أيام مجدهم وعزهم الســـابقة، فترات صعودهـــم وحضورهم، التي غابت فغابوا معها، وهم يحاولون اســـتعادتها بالحكي مـــرة، وبالتذكر مرة أخـــرى، والعودة إلى الأماكن الأولى، وبالأسى والحنين مرة ثالثة.. إلخ.

5 - كذلك فإن الأشـــباح والأرواح يمكن النظر إليها هنا على أنها عملية عودة للموتى إلى الحياة، وهنا نجد - كما ذكرنا - ذلك الحديث المتكرر عن البيت المألوف، والأليف، وعن «المنزل الغريب»، و«البيت المســـكون بالأرواح»،

وغيــر ذلك من أحــوال المنازل والبيوت، وقد يكون بيت الإنســان هو وطنه، وقد يكون أيضا هو عقله أو وجدانه، ذلك الذي تعود إليه دوما صور أشباح الموتــى، ذكرياتهم، أطيافهم، الذين فقدهم، حتى لو كانوا لايزالون أحياء في شكل صور وأفكار.

لقــد حصر فرويد في نظريتــه - إلى حد كبير - الأبعاد الأدبية للغرابة في مجموعة من الاســتعارات والتيمات (حضور الأشباح، المنازل المسكونة، الأجســاد المتقطعــة الأوصال، الإصابــة بالعمى أو فقــدان البصر.. إلخ)، وكذلــك في التتابع لعدد من البنيات الســردية أو تعاقبها (التكرار، التزامن في الحدوث، عودة ما قد اعتقد أنه كُبِتَ أو جرى نسيانه أو تجاوزه)، وأيضا في ذلك الشكل النوعي الخاص المميز لها (تلك الواقعية التي تتجاوز حدود الإمكان أو الاحتمالات وتتخطاها، إنها الواقعية الغريبة). ولكن معنى الغرابة يتجاوز الآن تلك المعاني إلى حد كبير كما أشرنا إلى ذلك خلال الفصل الأول من هذا الكتاب.

فرويد والغرابة الأدبية

وكان فرويد في مقاله عن الغرابة قد قال إنه قد يمكن إحداث الغرابة، وتوليدهــا، وتطويرها، في الأدب، مــن خلال تلك العملية الصِرف الخاصة بتكويــن أثر أو تأثير خاص بــ «نص أدبي» يعمل على الإيقــاف أو التعليق مؤقتا لذلك التمييز الذي بين الخيال والواقع، وذلك من خلال تقديمه لذلك التمييز، في شكل أو سرد غير محدد، وقد ذكر فرويد نفسه ذلك، حيث قال: «إنه يمكن إنتاج الأثر الغريب بســهولة عندما يضطرب التمييز بين الخيال والواقع، فعندما لا نستطيع أن نميز ما إذا كنا في عالم متخيل أو في عالم واقعي، تزداد احتمالات ظهور الغرابة، بل تكون هذه بداية الغرابة نفسها»(19)، لكن هذا الشرط الخاص بالعجز عن التمييز بين وجودنا في عالم الواقع أو عالم الخيال، قد يكون شرطا ضروريا للغرابة، لكنه ليس شرطا كافيا - كما يقول المناطقة - وذلك لأن هناك شروطا أخرى للغرابة ذكرناها في مواضع متعددة من هذا الكتاب، ونؤكدها هنا فنقول كذلك إن ذلك العجز عن التمييز بين الواقع والخيال يزداد حدوثه عندما يحضر المألوف في إطار غير مألوف،

أو في مواقف الخوف واختلاط الحياة بالموت.. إلخ؛ وذلك لأن هناك أعمالا خيالية قد نعجز عـن التمييز فيها بين عالم الواقع والخيال، لكنها لا تكون غريبـة، ويمكننا توضيح ذلك على نحو أعمق عندما نتذكر ذلك التمييز بين العجيب والغريب في ضوء ما قدمه تودوروف وغيره من الباحثين.

وقد ميز فرويد بين الغرابة في الحياة اليومية العادية والغرابة في الأدب، وقال إن الأعمال الأدبية لا تتعامل كلها مع موضوعات غريبة، وإنه ليس كل ما في الحياة العادية يمكن أن يكون غريبا، حتى لو كان ذلك متعلقا بأمر خيالي، فالحكايات الخرافية - كما قال - حكايات خيالية في الحياة اليومية العادية، يحكيها الناس، وقد يعتقد البعـض صدقها، وبخاصة الأطفال والبدائيون، لكنها أيضا ليسـت غريبة، فهي لا تستثير تلك المشاعر الخاصة بالارتباك أو الاضطـراب، حيث يعلق الأفراد الحكـم المنطقي أو يوقفونه مؤقتا، وهم يستمعون إليها، كأنهم يصدقونها، يصدقون تحول الضفدع إلى أمير - مثلا - لكنهم لو تشـككوا في مصداقية ذلك، فإنهم سينتقلون من حالة الإيقاف للتصديق إلى حالة التكذيب أو الشـك فيما يشـاهدونه أو يسـمعونه، هنا يقتربون أكثر من عالم الغرابة.

لكـن ما يؤكده فرويد أكثر هو أنه عندما يفترض القارئ أن الكاتب إنما يصنع عالمه السـردي وينشئه على أسس تتعلق بالحياة الواقعية، فإنه تزداد احتمالات ظهور الغرابة لدى شخصياته، وكذلك لدى القارئ، مقارنة بتشكيل ذلك الكاتب لعالمه على أسس من الحياة الخيالية. هكذا يقدم النص الأدبي غرابة أكثر ثراء وتركيبا من الغرابة التي في الحياة، وذلك لأنه يقدم الغرابة التـي في الحياة مضافا إليهـا، ومصحوبة، أيضا بتلك الغرابة التي يقدمها السرد والخيال.

هكذا، فإنه وفي ضوء منهجيات متنوعة قامت دراسـات كثيرة بالفحص للـدور الخاص بالغرابة في الأدب، تحدث النقاد عـن الغرابة لدى مؤلفين أمثـال كافكا، وبو، وهوفمان، وغيرهم من الكتـاب الذين تبرز في أعمالهم عمليات التفتيت والتدمير للشـفرات الواقعية، والذين يستخدمون تقنيات واستراتيجيات سردية، أو يقدمون صورا وشخصيات تعمل على تهديد ذلك الاستقرار العقلي والاتزان الوجداني الخاص بالشخصيات - وكذلك القراء

- وتســتثير الخوف، أو حتى الرعب لديهم. والنوع الأدبي المكرس على نحو خاص للغرابة قيل إنه الخيالي (الفانتاستيكي)، إنه ذلك النوع الذي يستكشف ويوظف حالات الشك والفقدان للأمن والحيرة والالتباس والخوف التي على تلك الحدود والقائمة بين الداخل والخارج، الواقعي وغير الواقعي، والأنا وما ليس بـ «أنا»، و- الغريب أو غير العادي - والعادي.

لقــد وجه فرويد جانبا كبيرا من دراســته نحو تفنيــد اتفاق مفهومه للغرابــة مع ذلك المفهوم الذي تبناه ينتش قبله - ثــم تبناه تودوروف بعده بعشرات الســنين - والذي يربط الغرابة بحالة الشك والالتباس والحيرة المعرفيــة، هكذا قال فرويد مثلا إن الكاتــب هنا يتركنا في حالة من عدم المعرفــة أو الشــك أو المتاهة المتعلقة بمــا إذا كان هو ككاتب، يأخذنا نحو عالــم واقعي، أو نحو عالم خيالي من إبداعه الخــاص. إن الكاتب يتركنا هنــا - ولوقت طويل - في الظلام، فيما يتعلق بالطبيعة الدقيقة الخاصة بتلك الافتراضات الأولية التي يقوم على أساسها العالم الذي يكتب حوله.. أو أنه - وبطريقة ماكرة وببراعة - يتجنب إعطاءنا أية معلومات حول هذا الجانب حتى نهاية القصة.

ويؤكد فرويد أن ذلك لا يحدث في الأغلب، وأن الغرابة لا يمكن أن تعتمد على ذلك وحده، مما يجعل ما طرحه قريبا مما أشــار إليه تودوروف بعده، حول النوع العجائبي المحض أو الخالص، الذي يفسح طريقا لظهور العجيب والغريب في الأدب [20].

فالغرابــة، إذن، مصطلــح يرتبــط بالتــردد والتــراوح والتأرجح والمزاوجــة، بالحركة من البيت والحركة إليه، الحركة بعيدا عن الذات التي قد تكون - في جوهرها - حركة نحوها، وخلال هذه الحركة قد تكون هناك الوحشــة، والفزع والذعر، والآخرون، والوحوش. والغرابة لــدى فرويد هي الجانب المظلم المخيف من الفن والأدب الذي أهملته النظرية الجمالية.

والغرابة أيضا مراوحة وتردد وشــك والتبــاس داخل النص الأدبي لدى الشــخصيات، ولدى القارئ أيضا كما انتبه إلى ذلك هوفمان. وقد أقام تودوروف الناقد والمفكر البلغاري المشــهور، الذي ولد العام 1939

وأقام في فرنسا معظم حياته، نظريته على أساس هذه الفكرة التي نستعرضها الآن وهي تعد من أشهر النظريات التي ربطت الأدب ومفهوم الغرابة على الرغم من تلك العيوب التي تعاني منها تلك النظرية والتي سنذكرها لاحقا.

نظرية تودوروف

فوفقا لما قاله تزفيتان تودوروف، فإن الخاصية المميزة للعجائبي (الفانتاستيك) كنوع أدبي، هي ذلك التردد Hesitaion أو الالتباس والحيرة والشك الذي يتم إنتاجه لدى القارئ (ولدى الشخصيات داخل العمل الأدبي أو الفني) فيما يتعلق بالواقع المتخيل الخاص بظواهر خارقة أو ما وراء طبيعية، وهذا النوع الذي عرف هكذا هو نوع محدد ومحدود؛ ففي العادة إما أن يُستَبعَد تفسير تلك الأحداث الخارقة؛ ومن ثم يكون هذا النوع الخيالي نوعا يتعلق بالغرابة، وإما أن تصدق هذه الأحداث مؤقتا؛ ومن ثم تصبح أحداثا عجائبية [21].

وقد أشار تودوروف أيضا إلى أنه في مثل هذا النوع من القص يحدث ذلك التردد أو الالتباس لدى القارئ عندما يواجه بموقف أو حادثة غير قابلة للتصديق، أو غير محتملة، أو مخيفة، داخل النص، كما أنه لا بد أن يكون هناك، أيضا، نوع من الغموض المؤقت غير المستقر، المصحوب بالريبة والشك، والذي يعمل على إحداث الارتباك لدى القارئ قبل أن يجري تصريف هذا الارتباك أو تبديده نهائيا، خلال السرد، وأن يُفَسَر من خلال قوانين الواقع العادية، وأن تأثير الغرابة إنما يستمر خلال تلك الفترة التي يستمر فيها هذا التردد والالتباس. وقد قال تودوروف أيضا إن الآليات النصية لحالة عدم اليقين والتردد هذه، ومن ثم الغرابة، إنما تعزى إلى عملية التكوين للنص، وكذلك الشكل الخاص به والقلق الذي هو عنصر أساسي في تكوين هذا النص في شكله ومضمونه.

ويمكن تلخيص أهم العناصر التي تقوم عليها هذه النظرية حول الأعمال الخيالية التي يسميها تودوروف العجائبية من خلال النقاط التالية:

1 - يتعلــق الأدب العجائبــي بنوع من القلــق الوجودي، وكذلك الشــعور العام بعدم الراحة. وقد حاول تودوروف أن يفهــم تلك الطرائق التي تقوم من خلالها الأعمال العجائبية الأدبية بالإنتاج لمثل هذا الأثر.

2 - وجد تــودوروف النواة الخاصــة بنظريته في كتابات الناقد الروسي الذي ينتمي إلى القرن التاسع عشر فلاديمير ســولوفيوف V. Solovyov، وخاصــة بعض ما طرحه عن الريب والشك والتردد في الأدب، وكذلك لدى الروائي الروسي دستويفســكي، الذي أكد عندما كان يعلق على إحدى قصص بوشكين: «إنه من المستحيل التخلص من ذلك القلق الذي أثارته تلك الأحداث التي تبدو، عنــد نهاية القصة، وعندما تقرأها بعمق، بحيث تجعلك لا تســتطيع أن تحدد مــا إذا كانت تلك الرؤية التي لدى بطلها - هرمان - تنبع من داخله فعلا، أم من خلال اتصاله بعالم آخر، عالم خاص بتلك الأرواح الشــريرة المعادية للجنس البشــري؟». وهكذا فــإن الخيال الحقيقي - وفقا لدستويفسكي - ينبغي ألا يكسر حالة التردد والشك التي يشعر القارئ بها والموجودة خلال تفسيره للأحداث التي تُسْرَد. هكذا تكــون الحكايات أو القصص التــي لا يمكن تصديقها تمامــا، والتي لا يمكن أن تكون «واقعية» على نحو واضح، هي قصص لا تفي بهذا الغرض. هكذا رفض دستويفسكي - مثلا - قصــة تدور «حول رجل، لا معنى لــه»؛ وذلك لأنها تدمر أو تنتهــك الحدود الخاصة بالاحتماليــة، وكذلك إمكان الاتفاق بــين القارئ والمؤلف على أن النــص قابل للتطور، وهكذا فإن الأدب العجائبي، أو بالأحرى الغريب، لدى دستويفســكي، هو أدب ينبغي أن يكون شديد القرب من الواقع، بحيث يمكنك أن تصدق إمكان حدوثه. وهكذا لا تقدم القصص الغريبة - عادة - تفســيرا لغرابتها؛ ومن ثم فإن الشــعور بالغرابة والالتباس لدى شخصياتها غالبا ما ينتقل إلى القارئ أيضا.

3 - هكـذا أيضا فإنه - ووفقا لتودوروف - ينشئ النص العجائبي الخالص نوعا من التردد المطلق أو الالتباس بين الشخصية المحورية في القصة والقارئ، ولديهما أيضا، بحيث لا يستطيعان أن يصلا إلى نوع من القبول لتلك الأحداث غير المألوفة التي توصف، أو أن يتقبلاها بوصفها ظواهر خارقة أو ما وراء طبيعية يتم التعامل معها من خلال ما سماه كولريدج «الإيقاف المؤقت لحالة عدم التصديق» Suspending disbelieve، أي تقبل الأحداث الخارقة، مثل البساط السحري، والغيلان، وتحولات الإنسان إلى حيوان أو طائر، وبالعكس، بوصفها أعمالا خيالية لا ينبغي أن نحكم عليها من خلال العقل النقدي المنطقي، وإلا ضاعت متعة التلقي لها، وقد أطلق تودوروف على هذا النوع الأخير من الأعمال العجائبية اسم «العجيب» Marvelous، أما النوع الآخر، الذي قد يعمل الإنسان فيه عقله النقدي أو خياله، فلا يفهمه، ولا يستطيع أيضا أن يفسره، فهو الغريب uncanny، إنه النوع الذي يكون القلق فيه ليس مجرد ملمح مضموني؛ بل خاصية متضمنة في بنية العمل الأدبي فيه، وأشبه بعنصر محدد لهذه البنية أيضا.

4 - ينبغي أن تتحقق في العمل الأدبي العجائبي ثلاثة شروط هي:

أ - أن يجبر النص قارئه على أن يضع في حسبانه عالم الشخصيات - الموجود داخل - بوصفه عالما من الأشخاص الأحياء، وأن يتردد ذلك القارئ ويتأرجح في تفسيره للأحداث التي في القصة، بين التفسيرات الطبيعية والتفسيرات الخارقة أو ما وراء الطبيعية، وهكذا فإن الغرابة إحساس بالتردد والالتباس والتأرجح والشك، يقوم بين القارئ والنص الأدبي الغريب وأيضا بين الشخصية الموجودة في هذا النص والقارئ المستكشف له.

ب - أن تشعر الشخصيات داخل العمل الأدبي بمثل هذا التأرجح أو التردد بين التفسيرات أيضا، ويكون القارئ متوحدا مع شخصية ما، ويتم تمثيل هذا التردد داخل العمل، وفي الوقت نفسه قد يجد البطل أنه من

غير الممكن أن يبعد عن نفســه تلك الأحداث، بوصفها نتيجة لعقل مريض أو محموم، وحتى على الرغم من أنه تتم الإشــارة إليه - من خلال الصوت الســردي - على أنه «هو»، وليس «أنا»، شــخص آخر، وليس الشــخصية الأساسية التي تقع عليها الأحداث، خاصة ذلك العقل الفردي الذي يُوصَف كأنه آخر، كما نجد ذلك مثلا في قصة «التحول» أو «المسخ» لفرانز كافكا، التي تُوصَف الشخصية المحورية فيها من خلال الضمير «هو»، «هو يحاول .. هــو يحتاج.. هو يلاحظ .. رجــلاه الصغيرتان تحاولان التوافق .. إلخ»، ويكون هذا التداخل بين «أنا» و«هو» في الصوت السردي السبب الرئيسي، والنتيجــة المصاحبة لحالة الشــك والالتباس داخل العمــل، ومن التيمات الأساسية المتكررة فيه.

ج - ينبغــي أن يتبنى القارئ اتجاها معينا فيمــا يتعلق بالنص، وبحيث يرفض التأويلات المجازية التي تنم عن الحكمة والموعظة الأخلاقية الحسنة أو الأمثولــة «الإليغورية»، وكذلك الشــعرية له [22]. وقد قــال تودوروف إن الشــرطين الأولين ضروريان ولازمان لتكوين هذا النوع الأدبي، أما الشرط الثاني فهو اختياري.

5 - تنتقل تلك الرؤية التفســيرية للأحداث التي يسودها الريب، ويهيمن عليها الشــك وفقدان اليقين من الشخصية المحورية في القصة أو الروايــة إلى القارئ، من خلال حالة التراكب conflation أو التداخل التي تحدث داخل العمل بين الراوي وبطل القصة، وهكذا تتشكل الرؤية الغامضة الضبابية للأحداث، وكذلك الجهــل، الموجود لدى بطل العمل. وحيث هنــا نوع من العجز عن تحديد الأشــياء، أو تبينها، بوصفها قابلة للتفســير أو المعرفة، ويمتد هذا الشــك والالتباس إلى الإدراك البصري بحيث لا تثق الشخصية بالأشياء والأحداث التــي تراها بعينها، بل قد تخلــق أحداثا غير موجودة تحت تأثير الهلاوس والخداعات الإدراكيــة والكوابيس والأحلام والأمــراض العقليــة وغير ذلــك من الأســباب. وقد لا تثق الشــخصية باللغة، في الحديث الذي يدلــي به «الآخر»، بل

حتـــى بالكلام الذي تنطقه الأنا نفســها. وتنتقل هذه الرؤية الإشــكالية الخاصة بالإدراك /الإبصار/ اللغة/ المعرفة من الشخصية المحورية والسارد إلى القارئ للنص العجائبي.

في ضــوء ذلك كله يقول تودوروف: «يســتغرق العجائبي زمن التردد أو الريــب، وحالما يختار المرء هذا الجــواب أو ذاك، فإنه يغادر العجائبي كيما يدخــل في جنس مجاور هو الغريب أو العجيب. فالعجائبي هو التردد الذي يحســه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية فيما يواجه حدثا فوق طبيعي وفق الظاهر» [23].

6 - في ضوء ذلك كله يمكن تقسيم الأعمال العجائبية إلى أقسام فرعية هي:

- العجيــب المحــض أو الخالــص (Purely Marvelous)، حيث تكون الأحداث فيه خارقة، أو ما وراء طبيعية وسحرية والغريب المحض (Purely uncanny)، حيث تفهم الأحداث بوصفها غريبة؛ لأنها تخدع عقل الشخصية المحوريــة في القصة وكذلك القارئ لها). وتشــمل فئــة «العجيب المحض» أنواعا ســردية، مثل: حكايات الجنيات والجــان الخرافية، قصص الخيال العلمي، وقصص الرومانس أو مغامرات الفرســان العجيبة Romance، في حين تشــمل فئة «الغريب المحض» قصــص الرعب والخوف، ومنها قصص إدغار آلان بو مثلا.

- يأتي قريبا من فئة العجيب المحض الفئة المسماة: العجيب - العجائبي Fantastic Marvelous، والتي تشــتمل على أعمال وقصص تقدم تأثيرات وأحداثا لا يمكن تفســيرها في البداية، لكن تفسر - في نهاية العمل - من خلال أسباب خارقة، أو ما وراء طبيعية، أو حتى خرافية. بينما تشتمل فئة الغريــب - العجائبــي The Fantastic - Uncanny على أحداث غريبة غير منطقية يعتقد أن لها أسبابا ومصادر ذاتية، خاصة بالفرد.

- فــي المنطقة التي يقترب فيها «العجيب المحض» من الغريب المحض، يظهر العجائبي المحــض الذي تمثله - مثلا - قصة «اللولب الدوار» لهنري جيمــس، حيث يترك القارئ في نهايــة القصة غير قادر على تحديد ما إذا كانت الأشباح التي في القصة ذات أصل ما وراء طبيعي، أم أنها ذات حضور

طبيعي خاص بها. هكذا يوجد العجائبي المحض في تلك المنطقة المشتركة التي تقع بين الغريب - العجائبي، والعجيب - العجائبي، فهو يوجد على الحدود، أي عند خط التماس بين العجيب والغريب.

والحقيقة أن هناك صعوبة في استخدام مصطلحات متداخلة هنا، مثل «عجائبي» و«عجيب» و«محض» .. إلخ، قد يكون هذا التصنيف مفيدا في التمييز بين أنواع من الأدب العجائبي، لكن هذه القسمة ذات القطبين ما بين عجيب وغريب قد تؤدي أيضا إلى بعض الخلط - كما تشير روزماري جاكسون - وذلك لأنه كي ننظر إلى العجائبي على أنه شكل أدبي، يتطلب الأمر منا أن نُمَيزَه في ضوء مصطلحات أدبية، وتُعد مصطلحات مثل الغريب، والموحش، والمقلق.. إلخ، أي ليست كذلك، ليست فئات تصنيفية أدبية بل أدبية، في حين العجيب هو كذلك. وهناك - بالطبع - صعوبة واضحة في ترجمة كلمتي Fantastic إلى «عجائبي» في العربية، وترجمة كلمة Marvelous إلى عجيب، إلا إذا وضعنا في حسباننا - كما فعل تودوروف - أن العجائبي هو منطقة وسيطة بين العجيب والغريب، تخرج منهما وتتداخل إليهما أيضا.

لقد ميز تودوروف الغريب عن العجيب في الأدب فقال إن الظواهر الغريبة قد يمكن تفسيرها على نحو مناسب من خلال قوانين العقل، هذا مع أنها تكون - بطريقة أو بأخرى - ظواهر غير قابلة للتصديق، غير عادية، محدثة للصدمة، مخيفة، نادرة، محدثة للاضطراب، وغير متوقعة. فعندما تصبح الأسرار، الذكريات، المعلومات المكبوتة التي كان ينبغي أن تظل خفية، عندما تصبح، مع ذلك كله، واضحة، مرئية، مكشوفة، ظاهرة، تمثل، لها شكل مرئي أو مسموع.. إلخ، لكنها مفككة، منفصلة عن سياقاتها الأصلية، فإن أبطال القصص والروايات، وكذلك القراء، يشعرون بوجود عجز ما لديهم عن التجاوز أو الهروب أو العلو عن اللحظة الراهنة في ذلك الحاضر [24].

هكذا يقوم النوع العجائبي «الفانتاستيكي» لدى تودوروف على استمرار هذا التردد، أو التأرجح أو الشك والالتباس، لدى القارئ، ولدى إحدى الشخصيات ومن ثم يكون عليه - أي القارئ أو الشخصية - أن يقرر ما

إذا كان ذلك الذي يدركه مستمدا أو غير مستمد من «الواقع» الخاص بعامة الناس. كما أنه، ومع نهاية القصة، لا بد أن يتبنى القارئ قرارا، أو يصدر حكما، حتى لو لم تفعل الشخصية ذلك داخل العمل، فإذا قرر القارئ أن قوانين الواقع لا تزال سليمة، وأنها توفر تفسيرا للظواهر التي تُجسَد في القصة، إذا حدث ذلك، نقول عن هذا العمل إنه ينتمي إلى النوع الأدبي المسمى: الغريب أو الغرائبي. أما إذا كان الأمر على العكس من ذلك، وقرر القارئ أن ذلك العمل يحتاج كي يتم الاستمتاع به، وكذلك من أجل تأويل الظواهر التي فيه، إلى قوانين طبيعية جديدة وإلى تعليق أو إيقاف الحكم المنطقي النقدي على الأحداث الذي تقع فيه، فإننا ندخل هكذا إلى مجال النوع الأدبي المسمى: العجيب، ويتم الجمع بين النوعين - الغريب والعجيب - تحت مظلة عامة خاصة بالنوع الفانتاستيكي أو العجائبي، وهو نوع يوجد على تلك الحدود الخاصة بالنوعين الأدبيين السابقين وهما: العجيب والغريب، وإنه ليس نوعا مستقلا، وإن تلك الفترات العظيمة للأدب الخاص بالخوارق وما وراء الطبيعيات، وكذلك الفترات الخاصة بالرواية القوطية، هي فترات تؤكد هذا التصنيف لهذا النوع الأدبي[25].

هنا لا نجد النوع العجائبي (الفانتاستيكي) بالمعنى المحدد له، بل نجد أنواعا مجاورة له، قريبة منه، هنا - في هذا النوع - قاسمان مشتركان خاصان بموضوعين متكررين هما: التحول، أو حتى المسخ، وكذلك الحتمية الكلية، التي يتجلى من خلالهما ذلك الانهيار في الحدود بين العقل والمادة. وهنا نجد المبدأ العام الذي يمكن استخراجه من كل الموضوعات المتكررة في هذا النوع، وهو: إمكان التحول من العقل إلى المادة أو الطبيعة؛ ومن ثم هناك إمكان أيضا لحدوث التعدد في الشخصية، الازدواج فيها، وهذا الازدواج هو النتيجة المترتبة على ذلك الانتقال الممكن بين المادة والعقل، أي أننا شخصيات متعددة عقليا، ويمكن أن نصبح كذلك من الناحية الجسدية، هنا كذلك تنطمس الحدود أو تنمحي بين الذات والموضوع، فتغيب حدود الصورة الإجمالية العقلانية التي تمثل الكائن الإنساني بوصفه شخصا يدخل في علاقات مع أشخاص آخرين، أو مع الأشياء التي خارجه. هنا يقوم الأدب

العجائبـــي بإحداث الاضطراب في العلاقة بين الذات والموضوع، الإنســـان والطبيعـــة؛ ومن ثم يقطع أو يوقف حالة الانفصال بينهما، هنا تدخل الذات في علاقات متعددة غير متحكم فيها مع الموضوع، وتصبح الطبيعة موجودة داخل العقل وليس خارجه. هنا - كما يقول تودوروف - نسمع الموسيقى، لكن الآلة التي تنتج تلك الأصوات الموســيقية، لم تعــد - في هذا النوع - خارج الذات؛ بل داخلها.

نقد نظرية تودوروف

وقد انتقـــدت أفكار تودوروف هذه من حيث إنه اســتخدم مصطلحات غامضة، وعلى نحو غير متســق، كما أن اهتمامه الخاص بالبنية الشــكلية للعمـــل الأدبي قد أدى به إلـــى إهمال الأبعاد الاجتماعية له، والتي قد يكون لها دور كبير في الأدب الفانتاســتيكي عامة، والغريب منه على وجه خاص، لأنه يقوم على أسس من عالم الواقع كما ذكر فرويد قبله. ومثله مثل فرويد، وقع تــودوروف في مصيدة محاولــة تحديد المصطلح وحصــره في نطاق مجـــال بعينه، وهو الأدب العجائبي (الفانتاســتيك)، ومن خلال منهج بعينه هو المنهج الشــكلي البنيوي، لكنه لم يتقدم كثيرا نحو الاستكشاف والكشف لتلك الجوانب غير العادية وغير المألوفة في الخبرة الخاصة بالغرابة، ومن ثم محاولة التفسير لها. لقد أبعد الغرابة عن مجالها الحيوي المميز، حددها وقيدها داخل نطاق الأدب العجائبي (أو الفانتاستيكي)، ومن ثم فإنه اختزل الغرابة ونصوصها - كما تقول ديزي كانون - إلى نوع من الأثر اللاحق، الأثر المتبقي الناتج من الفانتاســتيك، هذا مع أن تلك الظواهر الخيالية لا تكون غريبة عندما تقــدم للمرة الأولى إلى القارئ، لكنها تصبح غريبة فقط، إذا تم تبديد حالة الالتباس من دون أن نلتمس العون، أو نلجأ إلى عالم الخوارق أو العالم العجائبي.

ويعنـــي هذا أنه مـــن أجل أن يعايش القارئ عالما خاصـــا بالغرابة، فإنه ينبغي له أن يعتقد أنه داخل ذلك العالم المتخيل قد يمكن تفســير الأحداث الغريبة من خـــلال قانون طبيعي فقط، وليس من خـــلال قانون خيالي، أو عالم خيالي، كأن يعتقد مثلا، أن الالتباس الذي حدث في الســـرد قد جاء

نتيجة حلم، أو كابوس، أو مرض نفسي، أو ظروف غير عادية عاشت فيها الشخصية.. إلخ، وليس نتيجة لأمور خرافية أو ميتافيزيقية، ما وراء طبيعية. لقد أنكر تودوروف ذلك الجانب الفردي، أي الخاص بالفرد من الغرابة، وحاول أن يبحث عن قانون عام لها ينطبق على جميع النصوص وجميع الأفراد، في حين أن الغرابة، مثلها مثل الخبرات الفنية والجمالية، كلها تقوم في جانب منها على أساس خبرة الفرد السابقة، وسمات شخصيته، والمجتمع الذي يعيش فيه أيضا، كما أن مصطلح الغرابة هذا هو مصطلح قد يفهم أفضل لو فكرنا في ذلك الجانب المتعلق منه بالانقطاع في الخبرات، التفكك في عمليات الإدراك والشعور والمعنى، الاضطراب والخلل والتفكك الذي يحدث في الاستمرارية التي تكون في الحياة، أو خلال عملية القراءة، وليس بوصفها ـ الغرابة ـ آلية أدبية نستطيع أن نتفق عليها جميعنا، بالغرابة تضع في حسباننا ذلك الجانب المتفرد من ذاتية القارئ، وهو الجانب الذي أهملته البنيوية، كما تجلى ذلك لدى تودوروف إلى حد كبير.

الجدير بالذكر أن بعض النقاد المتبنين لطريقة لاكان في التفكير قد ابتعدوا عما قدمه تودوروف بشدة، ومنهم - تمثيلا لا حصرا - مالدان دولار Maldan Dollar الذي قال إن تودوروف قد تمثل الغرابة وفهمها داخل المنطق الخاص بالتشويق في القصة البوليسية، أما لوسي آرمت فقد قالت إن تودوروف قد تجاهل البعد التحليلي النفسي في دراسته للغرابة، ومن ثم فإنه قد وَحَدَ بين الغريب والفانتاستيكي وهما ليسا كذلك، وإلى مثل هذا القول ذهبت روزماري جاكسون في نقدها لأعمال تودوروف، فأشارت إلى تجاهله للأبعاد الاجتماعية والتاريخية والنفسية في دراسته للغرابة وعلى حساب اهتمامه بالشكل والتحليل البنيوي للنصوص الغريبة [26].

ما بعد فرويد

لقد صاحبت عودة مقال فرويد - من غيبته - يقظة واضحة في الدراسات الموسمية المتخصصة حول «العودة إلى فرويد»، التي أسسها «لاكان»، وكذلك المفكرون والنقاد التفكيكيون، هؤلاء الذين كانوا مولعين بالنصوص الهامشية والمنسية، بدلا من ذلك الاهتمام بالأعمال الكلاسيكية العظيمة والكبيرة،

ومــن ثم فإن هناك قراءات مهمة لدراســة فرويد مــن هذا المنطلق نجدها في أواخر ســبعينيات القرن العشرين وأوائل ثمانينياته وما بعدها، ونجدها بخاصة في كتابات هيلين سيكسوس، وسارة كوفمان، ونيل هيرتر، وغيرهم ممن سنعرض لجهودهم في هذا الكتاب. هكذا قلب مصطلح «الغرابة» تلك التراتبــات والتطورات التقليدية للمصطلحــات العلمية التي تبدأ مهمة، ثم تصبح أقل أهمية بعد ذلك، فقد حدث العكس هنا، حيث بدأ أقل أهمية ثم تزايدت أهميته، بعد ذلك، على نحو كبير حتى الآن [27].

لقد ارتبط مفهوم الغرابة في الماضي، بالصور والأشكال المتخيلة المتمثلة في تيمات مثل مصاصي الدماء والأقران والأشباه، والموتى الأحياء (الزومبي) والأديار القوطية، وما شــابه ذلك، أمــا الآن، فإن الغرابة هي ذلك الموضوع الذي يمكن أن يوجد - وعلى نحو متكرر - في كل جانب من جوانب حياتنا اليومية، وكذلك في تلك العلاقات كلها التي قد تتكون بين الإنسان وكل تلك البيئات المألوفة بالنسبة إليه أكثر من غيرها: البيت، العائلة، الصداقة، الحب، علاقات الآباء بالأبناء وبالعكس، علاقات العمل، مراكز التســوق الحديثة، المطاعم التي تقدم الأغذية السريعة، وسائل النقل العامة، المكاتب الحكومية، الذات نفســها من حيث تحولها إلى مــكان غريب موحش بدلا من أن يكون مألوفا وأليفا، هكذا لم تعد الغرابة، في التصور المعاصر لها، تنتمي إلى فئة العادي وغير المألوف من الأماكن والأمور والانفعالات فقط، بل إلى كل ما هو عادي أيضا، مألوف وأليف، لكنه يتحول أيضا، تدريجيا، بفعل آلية التكرار، إلى نقيضــه، غير المألوف، غير العادي، غير الأليف، بل الموحش، والغريب، والمخيف، والمهدد، والمعادي. هنا العادي، يتحول إلى غير عادي، غير عادي لا يجيء من المقابر، أو ما وراء الطبيعة، أو العالم الخارجي؛ بل من داخل الواقع وداخل الحياة، وداخل النفس البشرية في تحولاتها وتشوهاتها وتشكيلاتها الغريبــة غير المتوقعة[28]. والغرابة تعبر، أو - بالأحرى - تدمر تلك الحدود التي بين الغريب والمألوف.

لقد أعاد المحللون النفسيون والتفكيكيون، وبعض أصحاب النظريات الأدبية والسياسية والمعمارية المعاصرون النظر في مفهوم الغرابة، فأكدوا الأهمية البالغة للمكون المألوف في هذا المفهوم المزدوج الذي يجمع بين

المألوف وغير المألوف، وكذلك أكدوا تلك التحولات الخاصة التي تحدث في هذا المكون أو الجانب المألوف من خبرتنا، ويكون لها تأثير قد يفوق في غرابته غرابة الأشباح والوحوش والأطياف والدمى الموجودة في الأدب الخيالي أو الفانتاستيكي الغريب الذي اهتم به ينتش وفرويد وتودوروف وغيرهم [29]. هكذا تزايد الاهتمام لدى هؤلاء المفكرين - وعلى نحو كبير - بالعلاقة بين الغرابة وكل ما هو عادي، أيديولوجي، ديني، اقتصادي، معماري، أدبي، فني، أخلاقي، يتعلق بالمعرفة بالذات، والآخر، والعالم، والوجود. هكذا أصبحت الغرابة المحيرة أو الموحشة التي يكون عليها بيت المرء، وطنه، عالمه، هي نقطة البداية لدى جوليا كريستيفا فيما يخص تلك الأخلاق المتعلقة بإدراك الآخر، وحيث المواجهة - أو الالتقاء بالغريب عن المكان - هي التي تكشف - أكثر من غيرها - عن تلك الميول التي داخل الذات نحو الآخر، بكل جوانبها السلبية أو الإيجابية. أما لدى هيلين سيكوس، فإن الغرابة مفهوم محوري في فهم السياسات الخاصة بالإبداع الأدبي، والتي تقوم على أساس التخلي عن أفكار التكامل والتماسك المتعلقة بالبيت الموحد، والتي تؤدي بدورها إلى تهميش الآخر، «بوصفه غريبا عن البيت، أو دخيلا. وبالنسبة إلى كثير من المفكرين كذلك، لم تعد الغرابة مجرد حالة أو لحظة يتم الإدراك خلالها لتفكك الواقع؛ بل حالة تلعب دورا ما في كل بنية عقلانية، وتمثيلية، ومعرفية» [30].

وهكذا، فإنه مثلما تمثل جوهر الغرابة لدى فرويد في ذلك التحول من المألوف إلى غير المألوف، ومن العادي إلى غير العادي، ومن خلال عودة المكبوت، فإن الصفة الغريبة المتحركة لهذا المفهوم لا تزال تمارس تأثيرها أيضا، ولكن في الاتجاه المعاكس، فالاهتمام بالمفهوم الآن لم يعد يركز على جانبه الغريب الخيالي الخاص بالأشباح والوحوش والأطياف، كما كان في الماضي لدى ينتش وفرويد، وغيرهما؛ بل على كل ما هو عادي، مألوف، في الحياة اليومية، والذي قد يعطينا انطباعا أو تأثيرا بأن عالمنا هذا عالم غريب، وأن البشر في سلوكياتهم العادية، ربما أصبحوا هم الأشباح والأطياف والوحوش والموتى، وكأن المكبوت هنا، هو ذلك الجانب غير

العادي من النفس البشـــرية والـــذي لا يظهر فقط في عالم الليل؛ بل في عالم النهـــار، لا في عالم اللاوعي؛ بل في عالم الوعي أيضا، لا في عالم الخوف فقط؛ بل حتى في تلك المواقف التي قد توحي بالألفة والطمأنينة والاستقرار، في السرديات العائلية، والسير الذاتية، والأماكن المألوفة، بل حتى الحميمة.

لقد قـــدم فرويد مصطلح «الغرابـــة» بوصفه ظلا خاصـــا للقلق، ذلك القلق الذي قد نشـــعر به في الحياة، أو في الفن والأدب، والذي قد يحدث نتيجـــة «عودة المكبوت»، أو نتيجة لذلـــك الظهور الخاص للمعتقدات الأولى أو البدائية. وهذا المصطلح نادرا ما ظهر بعد ذلك في دراساته، وقد احتاج الأمر إلى أن تمضي السنون، ونصل إلى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته حتـــى يعاود هـــذا المقال الظهور مرة أخرى، ويدخـــل - على نحو حقيقي - ميدان المفردات الثقافية الحداثية وما بعد الحداثية.

الأنواع الجديدة من الغرابة (غرابة المألوف)

هنـــاك أيضا أنواع أخـــرى من الغرابـــة في الأدب ليســـت منضوية بالضـــرورة تحت تلك الثنائيـــة الخاصة بالذات والآخـــر، أو تلك العودة الحرفيـــة للآخـــر أو المكبوت، أو ذلك الوصف للوجـــود الخارجي للآخر والآخرين و«الآخرية»، أو تلك الهامشية الأدبية التي يتوافر لها حضورها الغريب في البيت، هكذا يمكننا أن نجد - مثلا - نماذج أدبية يمكن تطوير فهمنـــا لها بحيث يمكن أن تندرج أيضا تحت مفهـــوم الغرابة، ومن ذلك مثلا ما يســـمى بـ «نموذج الغزو» كما يســـميه فيلاشيني كوبان[31] والذي يقوم على أساس فكرة الغزو الخارجي الذي يقوم به الآخر الذي اعتقدنا أنه اختفى، ثم ذلك الغزو المضاد له من المقموعين والمحتلين الســـابقين، إنه نموذج بعيد عن ذلك الأثر غير المستقر أو المتزن الذي تُحدِثه الرهبة الغريبة. إنه نموذج يعمل على تحرير الذات أو فك أسرها من مرجعياتها المعروفة، ويدفعها نحو تأمل بعض الأبواب المفتوحة على الاختلاف الذي لا يمكن تدجينه، أو ترويضه، أو جعله مألوفا، أو بيتيا - على نحو تام - أو جعله أدبا مماثلا تماما في كل الأقاليم.

هنا لا نمتص الغريب ولا نستبعده، لا يذوب في داخلنا تماما ولا نرفضه، لا نجعلــه مكونا ذاتيا في الداخل (هــو الذات)، ولا مكونا بعيدا في الخارج (هو الآخر)، إنه موجودٌ في منزلة بين المنزلتين، بين الداخل والخارج، القرب والبعد، التقبل والرفض، حيث هناك يتمثل الآخر في داخله، سواء أكان هو آخر الأدب، أم آخر التاريخ، أم آخر الأطر المعرفية التصورية.

وفــي رواية «قلب الظلام» لـ «جوزيف كونــراد» مثلا، نجد أنه بينما كان «مارلو» يدور عبر أحراش النهر، فإنه اكتشف أن تلك الإمبراطورية الأخرى لا تجســد فقط مكانا آخر؛ بل زمانا آخر أيضا، وأنها قد نســيت منذ وقت طويل، أصبحت «قارة مجهولة»، لكنها أيضا تظل مألوفة إلى حد كبير، إلى حد أنها تســتحث وتستحضر معها لغة وصفية دالة على كل من الآخرين أو الاختــلاف الجذري، وكذلك التشــابه الغريب المثير للاهتمام، ولم تكن تلك «القــارة المجهولة» موجودة في أعماق إفريقيا فقط؛ بل في أعماق اللاوعي الإنســاني أيضا. وهكذا يتوقف تقدم الســفينة البخارية (في تلك الرواية) وهي تتخذ طريقها عبر «حافة الجنون الأســود غير المفهوم» بواســطة تلك الكثرة من عالم الدلالة الذي يصف السلوك البدائي بوصفه جنونا لا معنى له. هكذا أيضا فسر بعض النقاد رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، على أنها رواية «غزو مضاد»، وأشبه بالمحاكاة التهكمية أو المضادة أو الهدمية لرواية «قلب الظلام»، والغزو هنا لا يتم من الغرب نحو قلب إفريقيا؛ بل على العكس من قلب إفريقيا نحو الغرب، ولا يتم بالأسلحة التقليدية، بل بالجنس والقتل [32].

الأدب والطيفية

نحــن نكتب عن أطياف، عن أشــباح، عن أشــباه، عن أشــياء غائبة وحاضــرة، أو حاضــرة وغائبة، غائبة عنــد مســتوى الإدراك والواقع، وحاضرة عند مســتوى الذاكرة والحلــم والتمني، حاضرة على الرغم من أنها كان ينبغي أن تكون غائبة، حيث أشباح الماضي وأفكاره وقيمه وتقاليده وسلوكياته تحضر وتهيمن على الحاضر والمستقبل وربما تدفعهما خطوات وخطوات إلى الوراء.

إن الذاكــرة طيفية الطابــع والخيال طيفي الطابــع وكذلك الانفعالات والمخاوف والصور والرؤى كلها أطياف أو أشباح لخبرات أو تصورات يحاول الأدبــاء ابتعاثها أو تخيلها أو تذكرها أو معالجتها وتجســيدها في أعمالهم بطرائق شتى.

لقــد أصبح مفهــوم «الطيفيــة» Spectrality الذي اســتمده دريدا من فرويد، والذي اســتمد - بدوره - من شيلنغ وشــتيرنر وينتش، أصبح أحد أهم أشكال المجاز في الثقافة والخطاب المعاصرين. وقد أصبح هذا المفهوم يهوم دائما على تلك الحدود المشتركة بين الأدب والتحليل النفسي والتفكير النقدي عامة. ووفقا لما قاله جاك رانسيريه J. Rancire، فإن الأدب وبالمعنى الحديث، يتعلق، في جوهره، بالتحديد والتجسيد لتلك الأشكال الخاصة من مساءلة الذات واستكشافها، عبر النصوص واللغة. والأدب هو أيضا الميدان الخــاص بالغرابة بامتياز؛ لأنه يشــتمل - دائما - على ذلك الجانب الخفي منه، على الجانب الخاص بالآخر، وقد يكون هذا الآخر هو الذات نفسها كما تنعكس على نفسها وتتأملها، ويكون هذا الآخر مختفيا، هناك داخل النص، ويحضر من خلاله وعبره، في أردية وأقنعة رمزية، يحضر كطيف أو شــبح. هكــذا تتعلق الطيفية - إلى حد كبيــر - بالماضي الذي يجيء في الحاضر، وبالآخــر الذي يحضر من خلال الذات، تلك التي تتجســد في النص على أنحــاء مختلفة، ومن خلال اللغة. هنا الماضي أو الآخر الذي يجعل الحاضر أو النص الأدبي يتردد ويضطرب؛ ومن ثم يكون الشبح الخاص بذلك الماضي أو الآخــر، هو هكذا، غير ثابت دائما، يقوم بالتغيير دائما، وكما أشــار إلى ذلك نيكولاس رويل [33].

وهكذا يكون ما هو طيفي أو شــبحي الطابع، يكــون - وعلى نحو ما - غريبــا، وكل ما هو غريب، ويكون - على نحو مــا - طيفيا، ويكون، كذلك، محدثا للاضطراب والاختلال والقلق، في حاضر، أو واقع، قد يبدو مستقرا، كما أنه ذلك الغريب، يكون - هو نفســه - غير مســتقر، مضطربا، لا قرار لــه، متوترا، وعندما ترتبط تلــك الأمور كلها بنصوص أدبيــة، تكون، هذه النصوص، نفسها، حاملة معها، ذلك الطابع نفسه المميز لـ «الطيفية» وكذلك الغرابة، أي ذلك الاضطراب، وعدم الاستقرار، والتوتر. وهكذا وصل الأمر

بجوليان وولفريز إلى أن يقول إن القصص كلها، هي تقريبا قصص أشباح وأطياف، وإن أشكال السرد، كلها، أشكال مسكونة بأشباح ما، وعلى نحو ما؛ وذلك لأن أشكال السرد كلها، والشعر أيضا، أشكال مسكونة بـ «آخر ما»، وبـ «ماض ما»، وبـ «غريب ما»، وبـ «غائب ما»، ومفتقد ما، بتوتر ما، باضطراب ما، بحلم ما، برغبة ما، في عودة ذلك الآخر، المفتقد الغائب، وربما، في عدم عودته، وهي تلك العودة التي عندما تحدث قد تكون أيضا غريبة. وهكذا تجمع الغرابة بين الشعور ونقيضه، وفي جمعها هذا بين المتناقضين يكمن جوهرها، جوهرها الذي على الأطراف، على الحدود، على الخط الفاصل أو المساحة الثالثة التي بين الحضور والغياب، الحياة والموت، الأنا والآخر، اليقظة والنوم، الماضي والحاضر. وهذه الحدود، لأنها مبهمة، غير محددة، لا تنتمي إلى أحد الأطراف من دون الآخر، تكون بيئة صالحة لتعدد الاحتمالات، لحضور الشيء ونقيضه، في منطقة التداخل الخاص بينهما هذه، وإنها منطقة الشك والغموض والالتباس، منطقة ليست هي الوعي التام، ولا اللاوعي التام؛ بل في منزلة بين المنزلتين؛ لذلك قد تكون هذه المنطقة هي البيئة المناسبة لحضور الأشباح، لأن تقوم الحالة «الطيفية» بفعلها المراود والمنتاب فيها، وعلى نحو غريب [34].

وهناك معانٍ عدة للطيفية والشبحية والمراودة Hauntology، فوفقا لما قاله نيكولاس إبراهام وماريا توروك N. Abraham & M. Torok، فإن المراودة هي عملية عابرة للأجيال، إنها تأخذ شكل «السر» الذي ينتقل داخل عائلة ما، أو مجتمع ما، أو ذات ما، من دون أن يقر له قرار؛ وذلك لأنه يرتبط، بـ «سر ما»، بـ «ذنب ما»، أو «خجل ما»، أو «كارثة ما»، أمر مكبوت ما، أو شيء نحاول الهرب منه وتحاشيه عند مستوى الوعي على نحو ما، أمر ما كان نتيجة مترتبة على «صدمة ما» لم يتم الشفاء منها أو من تأثيراتها. ولأن هذا السر يظل خفيا، لم يتم البوح به، لم يتم التحرر أو الخلاص منه، فإنه يظل موجودا داخل الذات الفردية أو الجماعية، يظل يشكل في داخلهما ما يسميه إبراهام وتوروك، شبحا ما، طيفا، ما، A.Phantom، شكلا أو تشكيلا لا شعوريا، لم يصبح قط شعوريا إلا من خلال أشكال رمزية، ويكون الأدب، والفن، وكذلك الأحلام، بعض هذه الأشكال؛ وهكذا

يوجد ذلك الشبح، أو الطيف، أو ذلك السر، الموروث أو المتواصل، لا شعوريا، في أنا الشخص، أو الجماعة، مثلما يوجد أيضا في النص الأدبي، هو، هنا، هكذا، يشبه حال السر أو الخبيئة التي في سرداب النفس البشرية، هو أعماقها الخفية، وفي داخل تلك الأعماق تظل الأسرار غير مباح بها، لكنها تظل تحدث أيضا الاضطرابات والتشوهات، في حياة الإنسان الحامل لتلك الأسرار، وتحدث الاضطرابات أيضا في النصوص، وخصوصا عندما يزداد انتياب هذه الأسرار لتلك النصوص الأدبية وحضورها إليها؛ وذلك لأن هذا الحضور إنما يحدث خلال معانٍ بديلة ورمزية وجانبية كثيرة؛ ومن ثم تكون عملية تعدد القراءات والتأويلات للنصوص الأدبية العظيمة [35].

وقد كانت النصوص القوطية مثلا، نصوصا ترودها بقايا وآثار وأسرار خفية غير محكية، بل غير معبر عنها، وخاصة بأحداث ودراما ما لم يتم البوح بها. وهكذا تكون هناك أسرار عائلية ما، وأشباح وأطياف عابرة للأجيال في النصوص القوطية أو شبه القوطية كما في رواية «مرتفعات وذرنغ» للكاتبة الإنجليزية إميلي برونتي، مثلا وكذلك في بعض النصوص الحديثة، وبخاصة فيما يسمى بـ «رواية الأجيال»، وأيضا في بعض النصوص الحداثية، وما بعد الحداثية، أيضا المرتبطة بالاتجاه المسمى بـ «الواقعية السحرية» والتي تميزت بها أعمال كتاب أمريكا اللاتينية خاصة، أمثال ماركيز، ويوسا، وبورخيس، وغيرهم، وكما نجدها أيضا في أعمال الكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي، وبخاصة في روايتها الشهيرة «بيت الأرواح» وكذلك في رواية «محبوب» للكاتبة الأمريكية توني موريسون تمثيلا لا حصرا.

ويكون للمؤثرات الخارجية، والأسرار التي تنتقل من جيل إلى جيل، أو لدى الذات عبر مراحل متتابعة من حياتها، تأثيرها البالغ، ليس في ذاتية الفرد فقط؛ بل في الثقافة نفسها؛ وذلك لأن تلك الأسرار، والتي تعود دائما، على الرغم من محاولات إخفائها، إنما تنتقل شيئا فشيئا، فتصبح متعلقة لا بما داخل خفايا النفس البشرية الخاصة بالفرد فقط؛ بل بما يوجد في خبيئة المجتمع وخفاياه الثقافية أيضا، إنها الكلمات والأسرار السحرية التي لا تقولها الثقافة لنفسها، - كما قال إبراهام وتوروك، لكنها - أيضا - الكلمات والأسرار السحرية التي يجسدها الأدب لنا، في أشكال يحاول

الأدباء من خلالها إبطال مفعول ذلك السحر، ونزع ملكة السحر من الساحر، أسرار المخيف وقد تزيد هذه المحاولات أيضا - من جانب الأدباء بعض - السحر سحرا، والغموض غموضا، والغرابة غرابة، لكنه قد يكون أيضا سحرا ممتعا، وغموضا جميلا، وغرابة مثيرة للخيال.

العجائبي وتطور المدينة الحديثة

في كتابه «طيف يهوّم في أوروبا: منحى اجتماعي تاريخي في فهم العجائبي A spectre is Haunting in Europe: A sociohistorical Approach to the Fantastic.. (1990) قال هوزيه مونليون Jose Monleon بضرورة الحاجة إلى وضع الإطار التاريخي الاجتماعي في الاعتبار من أجل الفهم الكامل لطبيعة الأدب العجائبي ودلالته. كما أنه ربط بين تطور الأدب العجائبي وبين نمو المدن وتطورها في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية منذ القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين. وفي ضوء نظرية مونليون هذه، نشأ الأدب العجائبي أولا: نتيجة لنوع من السعي المعرفي والتساؤل المتعلق بعدم اليقين أو الشك الذي يدور حول طبيعة الأحداث التي كانت جارية في تلك الأوقات ونشأ، ثانيا: بسبب وجود مشكلات اجتماعية ونفسية كانت تجد تعبيرا عنها من خلال بعض تلك التجسيدات والتلفظات الدالة على الخوف، ونشأ، ثالثا: بسبب تلك الظروف الأيديولوجية والتاريخية كلها التي جعلت الأدب العجائبي. يرتبط داخليا من خلالها على نحو عميق مع أحداث ثقافية واجتماعية أخرى جارية ترتبت على تلك الظروف.

هكذا، نشأ الأدب العجائبي في ضوء ما يرى مونليون نتيجة للشك وفقدان اليقين الذي أحدث شعورا بالخوف، وهما معا، فقدان اليقين والخوف، أحدثا اضطرابا يرتبطان أيضا بالظروف الاجتماعية والتاريخية وما يترتب عليها كلها من نتائج وجد الأدب العجائبي فيها بغيته حاول أن يجسدها في أعمال مميزة.

وعلى عكس ما قاله بعض النقاد والباحثين أمثال جاكسون مثلا من أن الأدب العجائبي أدب تقويضي هادم لكل ما هو عقلاني وواقعي ومنظم، فإن مونليون يطرح وجهة أخرى من النظر يقول من خلالها إن مثل هذا

الأدب يقوم بما هو عكس ذلك، لأنه، في رأيه، أشبه بنوع من الدفاع عن الوضع الراهن والحفاظ على النظام الاقتصادي أيضا، وذلك لأنه من خلال تجسيده إلى ضرورة اكتشاف أسباب هذه الحالة الهدمية المضطربة ومحاولة تجاوزها وحلها، ومن ثم العودة إلى الوضع السابق عليها، أن الوضع الخاص بالاستقرار والاتزان والعقل وكل ما هو مرتبط والعادي والنظام، وذلك مع تباعد الظواهر العجائبية والخرافية والغريبة أو اختفائها (36).

والرأي الأقرب إلى الصواب لدينا هو أن هذا النوع من الأدب أدب هدم وبناء، هدم من أجل البناء وبناء من أجل الهدم سعيا وراء بناء أفضل، وإنه مثلما قامت المدن الحديثة على أساس الهدم للقرى وأشكال الحياة القديمة فإنها قد هدمت أيضا تلك القيم القديمة المرتبطة بالخرافة والخوف من المجهول والغامض سعيا وراء العقل واليقين والحرية، لكنها، وفي الوقت، نفسه أبعدت الإنسان عن نفسه أيضا جعلته مغتربا عن واقعه وعن ذاته، وأسلمته للشك والخوف وفقدان اليقين ومن ثم كانت تلك العودة الخاصة إلى الأفكار القديمة من خلال ذلك الأدب الرومانتيكي والعجائبي أيضا.

على كل حال، ربما دلت هذه المحاولات للاقتراب من الأدب العجائبي وتعريفه، والتركيز خلال معظم تلك التعريفات له على فكرة التردد والشك والتأرجح بين الواقع والوهم وغير ذلك من الأمور على أن هذا الأمر الخاص لم يزل أيضا موضعا للشك والتأرجح والفقدان النسبي لليقين لدى هؤلاء النقاد والمفكرين أنفسهم والذين عجزوا عن الوصول إلى تعريف جامع مانع لموضوع هو بطبيعة، هكذا، يروغ من التعريف ويهرب من التحديد ويتجاوز الأطر التنظيرية، كي يخرج منها وينظر إليها ويحاول أن يدخل إليها، ثم ما يلبث أن يخرج منها، كي يكون دائما، عصيا، على التحديد والتصنيف كما قال فرويد وذلك لأن تعريفه وتحديده، يجعله ليس، هكذا، أي ليس غريبا وغير محدد ولا ينتمي إلى مجالٍ بعينه.

الدراسات العربية حول الأدب والغرابة

على المستوى العربي لا بد أن نقول إن دراسات الغرابة في الأدب قليلة جدا، وشاحبة، لعل أشهرها دراسة عبد الفتاح كليطو «الأدب والغرابة»، وقد تعامل فيها مع المفهوم العام للغرابة، الذي يربطه بغير المألوف، ولم يرد أي

ذكـــر لديه فيها لكل ما يتعلق بجوهر الغرابة من الناحية النفســـية، ولا بما يتعلق بها من دراســـات غربية مهمة من منظور نقاد أدب، أو علماء اجتماع، أو فلاسفة ...إلخ.

و«الأدب والغرابـــة.. دراســـات بنيوية في الأدب العربـــي»[37]، مجموعة دراسات حول النص الأدبي، وتصنيف الأنواع الأدبية، وقواعد السرد، ومقالات حول الحريري والزمخشري والسندباد، وغيرها، وقد خصص كليطو فصلا في كتابه للمقارنة بين أرسطو والجرجاني في ضوء مفهومي الغرابة والألفة، يعنينا منها تعريفه للغرابة في ضوء تصور أرسطو لها الذي يقوم على أساس العنصريـــن اللذين يتألف منهما النص الشـــعري: «العنصـــر الأول مرده إلى التعابير المألوفة الشائعة، والعنصر الثاني مرده التعابير الغريبة التي تستورد من مكان بعيد غير معهود، فتجتاز مســـافة طويلة ثم تســـتقر في مكان ليس من عادتها أن تكون فيه، فهي كـ «الغرباء» بين «أهل المدينة»؛ ومن هنا الشعور بالدهشة والعجب... فإن العجيبات إنما تكن من البعيدات»[38].

هكذا يبدو لنا، وفي ضوء ما ذكره كليطو عن تصور أرسطو للغرابة، وفي ضوء ما ذكره ابن رشـــد وريكور - اللذان اعتمد كليطو عليهما - أن الغرابة لديه على أساس لغوي يمايز بين التعابير المألوفة الشائعة والأخرى الغريبة المســـتوردة وكذلك اســـتقرار تلك التعابير الغريبة داخل مكان غير مألوف بالنسبة إليها داخل سياق التعابير المألوف، وحالها كحال الغريب بين «أهل المدينة» يســـتقر فيها، ويثير الدهشة والعجب، وما يحدث العجب في اللغة قد يحـــدث اللذة، هنا رؤية محددة، ولا نقول محـــدودة، للغرابة، تقصرها علـــى المعنوي اللغوي، أو حتى اللفظـــي، وتقصرها أيضا على المفهوم العام للمألـــوف والغريب، الذي قد يرتبط بالغربة عن المكان، وليســـت هناك من إشـــارة - هنا - إلى ارتباط الغرابة هنا بالخوف أو الالتباس والشـــك، كما أن ذلك الربط بين العجيب والغريب - هنا - ربط عام لا يستكشف جوهر الغرابـــة المحيرة، ولا يحيط بالمعاني والـــدلالات المتعددة الخاصة بها، هذا على الرغم مما ذكره كليطو أيضا في موضع آخر من كتابه من أن «موضوع الغرابة لا يخص الشعر والبلاغة فقط؛ بل يمكن رصده في ميادين مختلفة من الثقافة العربية»[39].

وفـــي كتابـــه «الغرابة بين التلقـــي والدلالة في الســـرد العربي القديم» (2009) يتعرض محمد بن عبد العظيم بنعزوز للعلاقة بين القصة والغرابة، فيقول إنه أمكن تقسيم العالم إلى قسمين: عالم الألفة، وعالم الغرابة. وإن عالـــم الألفة هو عالم الحياة العادية للنـــاس، وعالم الغرابة هو الحياة غير العادية للناس حقيقة أو تخيلا وفي ضوء دراسته لقصة إبراهيم بن سليمان الذي عاش فترة انهيار ســـقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، وكان هاربا فرأى أعلاما ســـوداء فخافها لأنها دالة على قوة إنســـان يخافه، وهو الخليفة أبو العباس، الملقب بالسفاح [40]، يحلل بنعزوز هذه القصة في ضوء تلـــك الثنائيات التي فيها، وخصوصا ثنائية التعارض والتوافق، ويســـتخرج دلالات كثيرة مهمة منها، وهو يبني تصوره للغرابة في ضوء ما قدمه كليطو من تعريف لها، وخصوصا قوله: «إن الشـــعور بالغرابة هو علة التأثير الذي ينتـــاب المتلقي»، وإنه «لا يجوز فصل عنصـــر الخطاب وعنصر المتلقي عند الكلام عن الغرابة»، وإن «الغرابة لا تظهر إلا في إطار ما هو مألوف. الشيء الغريب هو ما يأتي من منطقة خارج منطقة الألفة، ويسترعي النظر بوجوده خارج مقره. هناك إذن علاقة جدلية بين الألفة والغرابة، وفي هذه العلاقة يكمن سر التأثير الذي يحدثه الخطاب الشعري».

ثـــم يركز بنعزوز على ثلاثة عناصر بـــارزة في موضوعه، وهي: الغرابة، والتلقـــي، والدلالة، إن الغرابة دلالة ناتجة من التلقي، ويقســـم الدلالة إلى قســـمين كبيرين: دلالة ناتجة من التلقي العام للنص السردي، ودلالة ناتجة عن التلقي الاستغرابي – أي التلقي الخاص للنص الغريب. وهو يركز اهتمامه على قصة تراثية كما قلنا هي قصة إبراهيم بن سليمان وهروبه وخوفه من مطـــاردة أعدائـــه له، كما وردت في مقدمة كتاب علـــي بن عبد الرحمن بن هذيل «مقالات الأدباء ومناظرات النجباء». وخلال ذلك كله يهتم بنعزوز بما أسماه الغرابة الوجودية التي شعر بها إبراهيم سليمان وهو يشهد زوال ملك آبائه وأجداده، وسقوط دولتهم، وتحوله هو نفسه من أمير مهاب الجانب إلى مطارد يخاف على نفســـه من الهلاك، ويفتقر إلى الشـــعور بالأمن والأمان. لقد أصبح غريبا عن واقعه الجديد، وأصبح واقعه غريبا عنه. يقترب مفهوم الغرابة هنا – نوعا ما – من مفهوم الغرابة كما حدده فرويد، وخصوصا فيما

يتعلق بشعور الإنسان بفقدان الأمن، وافتقاد الطمأنينة، وشعوره بالحيرة في العالم وغرابته الوجودية فيه، وهو مفهوم يرتبط كذلك بالمعنى الذي حدده كليطو للغرابة، لكنه - مثله - لا يحيط أيضا بالمعاني المتعددة لجوهر الغرابة كما أوردناها في هذا الكتاب.

وأخيرا، فإنه ربما كانت الدراسة الأقرب إلى مفهوم الغرابة كما ذكرها فرويد، وكما أوضحناها هي تلك الدراسة التي قام بها حسن المودن حول قصص الكاتب المغربي محمد غرناط، وهي بعنوان: «الكتابة والغرابة المقلقة في قصص محمد غرناط، دراسة على مجموعة داء الذئب» (41).

وفيها تحدث المودن عن تيمات أساسية للغرابة وجدها واضحة في قصص محمد غرناط، ومنها:

1 - إحياء الموتى وتكليم الحيوانات، ولو أن مسألة كلام الحيوانات هنا، وفي النماذج التي عاد إليها في قصص غرناط، لم تكن لتفترق كثيرا عن تلك النماذج التي في التراث الأدبي العربي والعالمي القديم والحديث، وهي نماذج لا تتضمن بالضرورة غرابة مقلقة أو موحشة، فقد يكون كلام الحيوانات من قبيل الأليجورة أو القصة الرمزية التي تنطق بالحكمة والموعظة الحسنة.

2 - خلق العوالم المخيفة من خلال التركيز على انفعالات الخوف والهلع.

3 - التحول والمسخ: أي التحولات الجسدية خاصة، وهي تحولات - كما يقول المودن - و«مسوخات» تأتي فجأة مرعبة، وتعمل على تغيير أهم عناصر الهوية، هوية الكائن الإنساني (الجسد، الوجه، الحركة، المشي، النطق والكلام) مما يثير الاستغراب. إن الشخصية هنا تفتقد بشكل فجائي هويتها ككائن إنساني، وتتحول - من دون أن تعرف السبب - إلى كائن جديد، بهوية مغايرة غريبة ومقلقة.

4 - الأحداث الواقعية/الأحداث اللاواقعية: حيث قد يكون الحدث المركزي لا واقعيا يصعب تصديقه، لكن القصة

تقدمه على أنه واقعي؛ ومن هنا كانت غرابته التي تزرع القلق في النفس، كما في تحول الإنسان إلى كلب مثلا.

ويذكر المودن في هذه الدراسة أيضا أن ترجمة مصطلح الغرابة المقلقة ترجمة اقترحها وجيه أسعد في ترجمته لكتاب مارت روبير: رواية الأصول وأصول الرواية، الرواية والتحليل النفسي (1987)[42].

وهكذا، فإننا نرى أن الاهتمام بالغرابة، بالمعنى الذي قدمناه في هذا الكتاب وفي كتابنا عن «الفن والغرابة» 2010 أيضا، هو اهتمام محدود، كما أن معنى الغرابة، لدى من كتبوا حولها في العربية، وأشهرهم كليطو، معنى محدود.

الخاتمة

كثيرا ما نظر النقاد إلى هذا النوع الأدبي على أنه يتضمن نوعا من الهدم أو التقويض أو التهديد لكل ما هو معظم أو عقلاني، أو بالأحرى، واقعي، مستقر، راكد. متفق عليه ففي كتابه «العجائبي في الأدب» The Fantastic in literature (1976) نظر إريك رابكن Erick Rabkin إلى هذا النوع على أنه يمثل «قلبا مطلقا مباشرا للقواعد الأساسية للعالم السردي». وكذلك نظر بعض النقاد أمثال بيير. جورج كاستيه إلى نصوص هذا النوع الأدبي على أنها تعكس محاولة ما للهروب من الواقع المادي أو النفسي أو الاجتماعي، وإنها قد تعكس أيضا خيبة أمل جيل ما من الكتاب في واقع ما، إذ قد يجدون أنفسهم غير قادرين على التكيف أو التحمل لواقعهم، ذلك الذي أصبح، هكذا، غريبا، ومن ثم فإنهم قد يتجهون نحو عالم الخيال العجائبي في محاولة واعية منهم للفهم أو الرصد أو التجسيد أو الرفض أو التحرر نسبيا من كل ما يمثله لديهم هذا الواقع من قلق وخوف وفي محاولة أيضا للإيحاء والإيماء بما يمكن القيام به نحو تغييره وإحلال واقع آخر، أكثر حرية وكرامة، وإنسانية محله.

هكذا كان الأدب الخيالي أو العجائبي لدى روزماري جاكسون يمثل نوعا من أدب الرغبة Literature of desire، أدب يحاول على نحو مميز أن يعوض ذلك النقص الموجود لدينا والناتج من القيود والعوائق الاجتماعية والثقافية.

وفيما يشبه الاتفاق مع ما طرحه فرويد في مقاله عن الغرابة قالت جاكسون أيضا إن هذا النوع المتخيل العجائبي يكشف الغطاء من المخبوء والخفي من الأمور والمشاعر والرغبات، ومن خلال قيامه بهذا، يحدث تحولا في ذلك المألوف والذي يصبح غير مألوف وعلى نحو يثير الاضطراب [43].

وقد عرضنا في هذا الفصل للمعاني المتنوعة للغرابة في علاقتها في الأدب، وقمنا بالتركيز على نظرية تودوروف حول العجائبي وعلى نقد هذه النظرية أيضا، ثم استعرضنا بعض تلك الأفكار الموجودة في الميدان الآن حول مفاهيم مثل: الطيفية والشبحية والمراودة وغيرها.

الجدير بالذكر أن هناك علاقات قوية بين مفاهيم الغرابة والطيفية وبين انفعالات الخوف والالتباس والوحشة والجلال وغيرها، والخوف مكون مشترك بين هذه المفاهيم، وهو أساس الأدب الغرائبي وأساس الغرابة. وكما جاء في كتاب تودروف عن الأدب العجائبي، ووفقا لما أشار إليه لوفيكرافت وغيره أيضا فإن التجربة الخاصة بالقارئ في هذا النوع الأدبي لا بد أن تقوم على أساس الخوف حيث «الجو أهم شيء، لأن المعيار الحاسم لأصالة العجائبي، ليس هو بنية العقدة، ولكنه خلق انطباع نوعي... ولذلك وجب أن نحكم على الحكاية العجائبية، لا على نيات المؤلف»، وحيث يتم ذلك في ضوء الكثافة الانفعالية التي تحدثها الحكاية العجائبية، فهي تكون كذلك عندما يشعر القارئ بعمق بإحساس الخوف والرعب، وبحضور عوالم قوية غير مألوفة» [44]، فما أصل ذلك الخوف؟ وما طبيعته؟ وما علاقته بالغرابة والأدب؟ هذا هو موضوع الفصل القادم من هذا الكتاب.

3

الغرابة وسرديات الخوف والظلام

«إن هلع الـروح ليس ثمة ما هــو أشــد منه حتى ســاعة الميلاد أو ساعة الموت»

جورج لويس ستيفنسون في روايته «دكتور جيكل والمستر هايد»[1]

لقد شعر كل منا بالخوف وتأثر به، لكنه - ربمــا - لم يفهم ما الخوف. هل هو تلك الصرخــة التي تخرج من بين شــفاهنا في لحظة الصدمة؟ هل هو القلق الذي يجعلنا مستيقظين في أثناء الليل؟ هل هو الانفعال الذي نشعر به ونحن نرى وجوه الأشرار على شاشات السينما والتلفزيون، أو في الحياة؟ مــا الخوف؟ هــل نســتطيع أن نكتفي في تعريفه بما قاله الرئيس الأمريكي فرانكلين ديلانو روزفلت في خطابه الرئاســي الأول عــام 1933 من أن «الشــيء الوحيد الذي ينبغي أن نخاف منه هو الخوف نفسه؟»، أو أن نكتفي بوصفه للخوف بأنه ذلك الذعر، أو تلــك الرهبة التي تصعب تســميتها أو تفســيرها أو تبريرها، والتي تشل جهودنا لتحويل التخلف إلى تقدم؟[2]. هذه الأسئلة

وغيرهـــا، والتي طرحها علماء كثيرون حديثا، هي بعض ما نحاول أن نفهمه أو نستكشـــفه في هذا الكتاب. إننا نحتاج إلى معرفة مثل تلك الخبرة التي عبر عنها موباسان في قصته «الخوف» حين قال: «لقد سيطر عليَّ بالتدريج نـــوع من الخوف الغامض، خوف من ماذا؟ لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن ذلك. لقـــد كان من قبيل تلك الوقائع التي تهب خلالهـــا رياح الأرواح العابرة على وجهك، وتشـــعر بروحـــك ترتعد ولا تعرف لماذا يحـــدث ذلك، ويخفق قلبك بالذعر العنيف من شيء غير مرئي، ذلك الذعر الذي أشعر، أحيانا، بالأسى على انقضائه».

الخوف، ما هو؟

إن الخوف هو أحد الانفعالات الأساســـية الكبرى، والتي تشـــتمل أيضا على: السرور والغضب والحزن. ويشير الخوف - عامة - إلى أخطار واقعية مدركة أو متخيلة، وهو يختلف عن القلق، الذي يظهر بشـــكل غير متناسب مـــع التهديد أو الخطر الفعلي المتضمن في موقـــف ما. وقد يظهر الخوف نتيجـــة للتعرض لمواقف محدثـــة للصدمة، أو نتيجة ملاحظتنا أشـــخاصا آخرين يتعرضون لمواقف مخيفة ويكشفون عن مشاعرهم الخاصة بالخوف، وقد يحدث الخوف أيضـــا نتيجة تلقينا معلومات مثيرة له، ويؤدي التعرض المتكرر أو الطويل الأمد للخوف إلى حدوث اضطرابات انفعالية، وإلى ارتفاع مستويات القلق لدى الخائفين.

ويصاحب القلق - في العادة - مجموعة من التغيرات الفسيولوجية التي تحدث في الجهاز العصبي المســـتقل، وفي الغـــدد الصماء أيضا، ومن هذه التغيـــرات: زيادة ضربات القلب، زيادة ســـرعة التنفس، ارتجاف العضلات وتوترها، زيادة العرق، وجفاف الحلق، كما تتحول كميات كبيرة من الدم إلى تلك الأعضاء الجســـمية التي يكون علينا أن نستخدمها في مواجهة مصادر الخوف، وهنا تظهر استجابات المواجهة أو الهرب fight or flight، وقد يؤدي هـــذا التحويل المفاجئ للدم من قشـــرة المخ إلى تلك الأعضاء إلى الشـــعور المفاجئ بالتعب الشـــديد والإعياء، أو حتى الإغماء، وهي استجابة يقال إنها تقـــوم بدور تكيفي لدى بعـــض الحيوانات، تتمكن مـــن خلالها من مواجهة

الحيوانات الضارية الأخرى. ويظهر الخوف لدى الأطفال البشريين في الشهر السابع على نحو واضح، ويكون الخوف لديهم أكثر قوة من مثيله لدى الكبار. وهناك مخاوف يقال عنها إنها فطرية، أي يولد بها الإنسان، تظهر لدى الأطفال والكبار، ومنها: الخوف من الأصوات العالية المفاجئة، والخوف من الألم ووقوع الضرر البدني، وهناك كذلك الخوف من السقوط المفاجئ، كما يحدث مثلا عندما نحمل طفلا فوق أيدينا ونوهمه - بالحركة - أننا سنسقطه أرضا، فإذا به يرتجف ويضم يديه وقدميه في حركة انكماش واضحة، وهناك أيضا الخوف من الثعابين والحيوانات الضارية، والخوف من الظلام، وكذلك المخاوف المرضية المسماة الفوبيا Phobia، والتي لا تتناسب استجابة الخوف فيها مع الموقف أو الشيء المثير لانفعال الخوف، مثل الخوف من الأماكن المرتفعة، والخوف من الماء (كما كانت حال الشاعر ابن الرومي)، والخوف من الأماكن الضيقة، والخوف من الظلام، والخوف من مواجهة الجمهور والحديث أمامه، والذي يسمى في عالم الدراما: خشية خشبة المسرح Stage Fright، والخوف من ركوب الطائرات، كما هي حال مؤلف هذا الكتاب الذي سافر كثيرا بالطائرات، لكنه يظل في كل مرة، في حالة خوف شديد حتى تهبط الطائرة على أرض المطار، وهكذا [3].

والخوف انفعال أساسي من انفعالات مشاعر الغرابة، وهو خوف يكون مصحوبا بالافتقار إلى الشعور بالأمن والأمان، مع حالة معرفية يسودها الشك والالتباس، وربما عدم القدرة على تمثيل الموقف المخيف الغريب؛ ومن ثم فقدان اليقين. ويرتبط الخوف كذلك بمشاعر أخرى شقيقة له ومصاحبة له، مثل الفزع، أو الذعر، والرعب.

المفاهيم الشقيقة للخوف في العربية:

لقد حاولت أن أعود إلى بعض المصادر العربية من أجل أن أخرج من متاهة الغرابة التي وضعتني فيها هذه المفاهيم الشقيقة للخوف، فوجدتني أزداد غيابا ودخولا في هذه المتاهة. على أي حال، هذه محاولة خاصة لتحديد بعض الفروق التي في اللغة بين هذه المفاهيم. ونبدأ أولا بالقول إنه في ضوء المعاني اللغوية العربية للكلمات، هناك انفعالات فرعية كثيرة تتدرج

تحت فئة الخوف العامة، نذكرها فيما يلي، ثم نقدم أسباب اختيارنا لمصطلح «الذعر» Terror الذي يتكرر ظهوره في هذا الكتاب بوصفه ترجمة رأيناها مناسبة كبديل عن كلمات «الرهبة» و«الروع» و«الفزع» التي قد تظهر في مواضع أخرى في كتابنا هذا أيضا، وتظهر في سياقات مفاهيم أخرى مثل «ترويع الآمنين»، و«الإرهاب»، وغيرها.

وفيما يلي شرح مختصر لمعاني الكلمات الأساسية في عائلة الخوف هنا:

1 - القلق: هو الانزعاج والضجر، فقد يقال: بات قلقا وأقلقه غيرُه. وقد ميز فرويد بين الخوف والقلق فقال إن الخوف يكون من شيء محدد، بينما يكون القلق من شيء غير محدد أي من شيء متصور أو متوقع، أو متخيل. وتكاد تكون هذه التفرقة هي نفسها التي اعتمد عليها النقاد والمفكرون، بعد ذلك، وكما سنرى، في تمييزهم بين الرعب والذعر، حيث الذعر يكون من شيء غير محدد، بينما يكون الرعب متعلقا بشيء محدد.

2 - الذعر: هو الخوف والفزع. وفي الحديث: «لايزال الشيطان ذاعرا من المؤمن»، أي ذا ذُعر وخوف، أو هو فاعل بمعنى مفعول، أي مذعور، وامرأة ذعور، أي تُذْعر من الريبة والكلام القبيح.

3 - الفزع وأصله صحيحان أو معنيان: أحدهما: الذعر، والآخر الإغاثة، فأما الأول، يقال فزِع يَفْزَع فزعا، إذا ذُعِر، وهكذا نقول فزعنا من صوت مفاجئ مخيف في الليل. أما الأصل أو المعنى الآخر للفَزَع فهو: الإغاثة، هكذا نقول: أفزَعْتُه إذ رَعَبتُه، وأفْزعتُه، إذا أغثته وفَزِعتُ إليه فأفزَعَني، أي لجأتُ إليه فَزَعا فأغَاثني.

4 - الرُّعْبُ: هو الفزع والخوف معا، وفي الحديث: «نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر»؛ حيث أوقع الله في قلوب أعداء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الخوف منه، فإذا كان بينه وبينهم مسيرةُ شهر هابوه وفَزِعُوا منه.

5 - الرَّوْعُ: الفزع، راعنـــي الأمرُ يَرُوعُني رَوْعا: أفزعني. وقالوا في المثل: أفْرِخَ رَوْعُه، أي ذهب فَزَعُه وانكشف وسكن. أما الرُّوع فهو موضع الرَّوْع وهو القلب. هكذا قال ذو الرمة: جَذْلان قــد أفْرَحَتْ عن رَوعه الكُــرَبُ، أي خرجت من قلبه الأحزان فأصبح فرحا.

6 - الرهبة: رَهِبَ بالكســر، يَرْهَبُ رَهْبَــة ورُهْبة ورُهْبا، بالضــم، ورَهَبــا، بالتحريك، أي خافَ، ورَهَبَ الشــيء رَهْبا ورَهْبة: خافه. وجاء في لسان العرب: لأن تُرْهبَ خيرٌ من أن تُرْحَمَ. وأرْهَبَه واســتَرْهَبَه: أخافه وأفزعه واستدعى رهْبَتَه حتى رهبه الناس. وبذلك فُسِّر قوله عز وجل: «واسترهبوهم وجاءوا بســحر عظيم»؛ أي أرْهَبُوهم. وفــي حديث بَهْز بن حكيم: «إني لأسمع الرَّاهبة». قال ابن الأثير: هي الحالة التي تُرْهِب، أي تُفْزِعُ وتُخَوِّفُ.

7 - الهلع: الحِرْصُ، وقيل: الجَزَعُ والفزع، والهلع: الحُزْنُ والجُبْنُ والجوع، والهلوع: الحريص على الشيء [4].

وقد ذكر أبو هلال العســكري في كتابه «الفروق في اللغة»: الخوف توقع الضرر المشكوك في وقوعه، ومن يتيقن الضرر لم يكن خائفا له، والفرق بين الخوف والرهبة، أن الرهبة طول الخوف واســتمراره، ومن ثم قيل للراهب راهب لأنه يديم الخوف، والفرق بين الخوف والفزع والهلع، أن الفزع مفاجأة الخوف عند هجوم غارة، أو صوت مخيف، وما أشبه ذلك، وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل، أما الهلع فهو أسوأ من الجزع، وقيل الهلوع على ما فسره الله في قوله تعالى عن الإنسان (خُلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) ولا يسمى هلوعا حتى تجتمع فيه هذه الخصال [5].

أما الفرق بين الخوف والهول، فإن الهول مخافة الشــيء الذي لا يمكن الإحاطــة به أو تحديــده أو التحكم فيه كهول الليل وهول البحر هكذا يكون الهول هو الشعور الناتج من التوقع أو الإدراك لشيء هائل، ضخم، غامض، كالليل أو البحر وما قد يكتنفهما أيضا؛ ومن ثم فهو أقرب إلى الرهبة، التي هي - بدورها - أقرب إلى الروع، الذي هو - بدوره - أقرب إلى الفزع، الذي

هــو - بدوره - تمهيد للذعر، الذي هــو - أيضا - حالة مصحوبة بغموض يتعلــق بمصدر هذا الخوف المهيمن المســتمر، عندمــا يتضح هذا المصدر، تتحول الحالة إلى رعب.

إذن الفزع حالة مباغتــة لا إرادية، وربما لا واعية، غريزية، في حين أن الذعر يعقب الفزع، وهو مصحوب بدرجة ما من الوعي، ومن الاستكشاف، ومن البحث عن المصدر الذي أثار مثل ذلك الخوف الشديد الأول، أي الفزع.

السرد المخيف

هكــذا يكــون الخوف هو المظلــة العامة التي تنضــوي تحتها المفاهيم الفرعية الأخرى الصغرى الشقيقة لهذا المفهوم الكبير، وتحت الخوف يأتي مفهــوم القلق الذي يعبر عن الانزعاج أو الضيــق، وقد يرتبط بالخوف أو الترقب والانتظار لشــيء يوشــك على الحدوث، ثــم يأتي بعد ذلك مفهوم الذعــر، وهو مفهوم يجمع بين الخوف والفــزع، وهو - أي الذعر - انفعال أقرب إلى الخوف الشديد والتراجع والانسحاب بالجسد إلى الوراء، يعقبه تقدم وفضول لاستكشــاف الأمر الذي سبب ذلك الذعر، ويصعب الفصل بين الفزع والذعر.

فالفزع فيه ذعر، وفيه طلب للغوث والعون والمســاعدة، ثم إن الخوف والفــزع يجتمعــان معا ليظهر الرعــب. والرعب والــروع والهول والذعر انفعالات متداخلة، لكن الرعب أشد من الرّوع والهول، ويكون الذعر العام أقرب إلى الخوف العام الشــديد الذي يستكشــف موضوعه، ويكتشفه، وعندمــا يحدده، يظهر الرعب، كما أن الرهبــة هي إحداث الخوف لدى الآخرين أو ترويعهم.

هكــذا يتعلق الرعب بشــيء محدد مخيف جدا، فــي حين يتعلق الذعر بحالة عامة شــديدة وغامضة نســبيا من الخوف والرهبة والهول والروّع. والخوف والفزع مفاهيم متداخلة، وقد يكون ســبب الفزع أكثر وضوحا من سبب الذعر، فأنا قد أصاب بالفزع من كابوس مخيف يجعلني أنهض، على نحــو مفاجئ، مفزوعا من النوم، ثم عندما أســتيقظ أكون مذعورا من هذا الكابوس، معتقدا أن خوفي يرتبط بشــيء في الغرفة التي أنام فيها، وقد لا

أدرك أن ما عانيته هو كابوس مخيف؛ ولذلك أظل بعد يقظتي - ولفترة ما - «مذعورا»، خائفا من تلك الحالة الغامضة التي هيمنت عليّ، فأيقظتني «مفزوعا» من نومي، وأظل فترة - أيضا - خائفا من النوم، خائفا من أن يعود ذلك الكابوس، هنا فزع مفاجئ، وذعر مستمر، والانفعالان متداخلان بحيث إنه قد يصعب التمييز بينهما، لكن الفزع مفاجئ ولا إرادي ولا واعٍ، ويسبق الذعر، الذي هو أقل مفاجأة وأكثر استمرارية؛ لأنه تالٍ للفزع ويعقبه، كما أنه مصحوب بدرجة ما من الإرادة والوعي التي قد تجعل الإنسان يبتعد عن ذلك الشيء أو الموقف الذي ولد لديه الفزع أولا، ثم أصابه بالذعر ثانيا وهيمن عليه.

وفي العربية: الذعر يشبه الفزع من حيث إنهما يرتبطان - معا - بذلك الشعور الخاص بالخوف الشديد، لكن الذعر حالة تنطوي على الشعور بالخوف المهيمن على الإنسان إلى درجة أنها قد تشل قدرته على التفكير أو الفعل، أما الفزع فهو حالة مركبة تنطوي على الشعور بالخوف، ثم الرغبة في مواجهته كذلك؛ ومن ثم فربما كان مقدار الخوف الذي في الفزع أشد أثرا، لكنه أقل استمرارا من مثيله الذي في الذعر [6].

وفي الدراسات النقدية حول أدب الخوف والظلام تظهر تمييزات مماثلة أيضا، فمثلا ميز ديفيد بونتر بين انفعالي الذعر والرعب على أساس أن الذعر إنما يشير إلى نوع من الرعدة التي تصيب عتبة الوعي، إحساس ما بالترقب والانتظار، وكذلك إمكانية تورط غير محدود للذات في سلسلة من الأفعال التي لا تحمد عقباها، أما الرعب فهو نوع من التحديق التام المتخشب كالأموات، الذي يشل الحركة، والذي يزودنا بالصدمة والدهشة[7]. ووفقا لهذا النموذج، ترتبط قوى الرعب المثيرة للاضطراب، أو تتعلق بموضوعات قابلة للتحديد، بحالات تمزق أو فوضى بصرية في النظام الطبيعي تترتب عليها ردود أفعال جسمية. وهكذا يشير الجذر اللغوي لكلمة رعب Horror إلى بعد جسماني أو بدني، فالكلمة اللاتينية Horrerre تشير فعلا إلى عملية الارتعاش، أي تلك الرعشة أو الرعدة التي تصيب الجسد، وما يصاحبها من اهتزازات في بعض أعضائه، ووقوف في شعر الرأس... إلخ .

كذلك ربط نويل كارول بين خبرة الرعب ومشاعر التوتر العضلي أو انقباض العضلات وارتخائها، وإفراز العرق، والاشمئزاز، الشلل المؤقت، التراجع إلى الخلف، الإحساس بالوخز الخفيف، التجمد الحركي... إلخ. أما الذعر فهو ذلك الاضطراب الذي يحدث نتيجة حالة عدم التحديد الخاصة به، فهو لا يتعلق بموضوع مادي محدد؛ ومن ثم فإن العوامل التي تحدده تظل تروغ دائما من التصنيف، والتسمية؛ وهكذا فإن الذعر هو توقع الأذى، وما يصاحبه من توترات، وتغيرات، وهو - في رأينا - الأقرب إلى مفهوم الغرابة، ذلك الذي لا يمكن تحديده أو تصنيفه وفقا لما قال فرويد، وقبله كانط وبعده ليوتار. وهكذا، فإنه إذا كان الرعب يجعل الناس يرتعدون، فإن الذعر يقوض دعائم عالمهم(8).

وقد وضعت المعالم العامة للتمييز بين هذين المصطلحين في أثناء القرن الثامن عشر وما قُدِّمَ خلاله من نظريات جمالية، فقد لاحظت آن رادكليف مثلا، أن الذعر يعمل على الامتداد بالروح، واتساع حدودها، ويوقظ الملكات الخاصة بها لتصل إلى درجة عالية من الحياة، أما الرعب فيجمد، ويقلص، ويوقف عمل هذه الملكات تقريبا. كذلك فإنه بينما قد تكون أسباب الذعر غير واضحة وغامضة، فإن أسباب الرعب تكون غالبا أكثر وضوحا وأقل غموضا، ونتيجة لذلك، فإن الذعر قد يميل إلى إثارة العقل والأحاسيس، في حين لا يقوم الرعب بأي شيء لاستثارة قدرات القارئ الخيالية. ووفقا لما قدمه ديفندرا فارما Devendra F. Varma عام 1988 أيضا فإن الفارق بين الذعر والرعب هو نفسه الفارق بين الإدراك التوقعي أو الاستباقي المخيف من ناحية، والتحقق المزعج من ناحية أخرى، بين التشمم لرائحة الموت من ناحية، والتعثر بجثة من ناحية أخرى. هكذا فإن الذعر قد يخلق المناخ المشعور به، المتعلق بالخوف النفسي الشديد. أما الرعب فيلجأ إلى العرض الأكثر سذاجة لعالم المقابر والجثث والموت(9).

هكذا مال كثير من النقاد والمنظرين إلى التمييز بين الذعر والرعب على أساس أن الأول متخيل الطابع، متصور الانفعال، في حين أن الثاني مادي الطابع، جسدي الانفعال، وهو تمييز قد رفضه أيضا بعض الكتاب والنقاد حديثا، من أمثال تويتشل الذي قال إن أسباب الرعب غالبا ما تكون موجودة في الأحلام، أما الأساس الذي يقوم عليه الذعر فهو الواقع نفسه، وهي فكرة

غير مقنعة – في رأينا – وذلك لأن حالة الذعر قد تتجاوز الأحلام، كما قد تحتوي حالة الرعب على الواقع والخيال أيضا، وعلى أنحاء شتى.

فعلى عكس الرعب الذي يجعل الخيال يتراجع ويرتعد ويتوقف من الخوف، فإن الذعر يومئ إلى الخوف والشر، ويفتح حيزا لحب الاستطلاع الإنساني الأساسي. إن الخوف الشديد أو الذعر وخصائصه الجليلة، وحالاته البينية المؤثرة، وإمكانية التجسيد، أي الجهد المتحقق أو الواقعي الخاص به، قد تم الاعتراف به منذ وقت طويل على أنه جوهر الاتجاه القوطي، ومركزه تلك الخبرة الانفعالية التي تعرض نفسها خارج الزمن والذات، في شكل «توتر» بين الواقعي وغير الواقعي كما قال فارما [10].

إن حالة «المابين»، وذلك التهيب أو التعليق أو الإيقاف المؤقت للواقع، تُقَدَّم – بعد ذلك – من أجل أن يستكشفها القارئ ويدرك – في قلب حالتها الذاتية الخاصة – عوالم من الخلق والتفسير. إننا نعيش – كما قالت إنجيلا كارتر – في أزمنة قوطية، وهو قول قد يصح أيضا في أيامنا هذه، فالعيش في أزمنة عنيفة لم يخفض – كما قال جوناثان ليك كرين J. Lake Crane – تذوقنا للدماء. إن الرعب، في ذاته، ليس كافيا، ولعل شعبية قصص ستيفن كنغ، وكذلك وجود الخوف كعنصر مهيمن حتى في قصص الأطفال الآن مثلا، هو دليل واضح على ما قاله ليك كرين أيضا من أن ما هو منفر في نوع الرعب، وخاصة الأفلام، ليس العنف أو الرعب في ذاتيهما؛ لكنه ذلك السياق العدمي الذي يحدث فيه هذا العنف [11].

هكذا يمكن القول إن ذلك التوق إلى الرعب، والواضح في تلك الشعبية الكبيرة لأفلام الرعب ورواياته، إنما هو غطاء سطحي يعبر عن رغبتنا المتأصلة فينا، الخاصة بالخوف الشديد من الخواء أو العدم أو الفراغ، هكذا قال كل من بودريار ودريدا وليوتار إن الشرط ما بعد الحداثي الذي نعيش فيه قد سبب تحولا جذريًا في طبيعة خيالنا الجمعي، إنه تحول موجه – وعلى نحو ملغز وغامض – نحو الخوف والفزع والرعب؛ خوف من الموت وكل ما يخيف يعمل كقوة داخلية موجهة توجد – كما تقول «ماريا بيفايل» – وراء تلك التعبيرات عن المفاهيم ما بعد الحداثية في الأدب، وتعبر عن تلك الحالة من الاستثارة والذعر التي في عقولنا أو في أرواحنا.

الذعر والرعب والغرابة

يجد بعض النقاد الآن أمثال داني كافالارو وجوها عدة من التشابه بين مفهومي الذعر والرعب، من ناحية، ومفهوم الغرابة كما قدمه فرويد، من ناحية أخرى، حيث تظهر تلك الاستجابات أو التأثيرات الخاصة بالغرابة عندما تكتسب الظروف المألوفة فجأة دلالات ومعاني غير مألوفة، ومن دون أن نكون قادرين على التيقن من الطريقة والسبب اللذين جعلا هذا التحول يحدث.. فقد تظهر هذه التحولات الغريبة نتيجة الشكوك المتعلقة بما إذا كان موضوع ما أو (شخص) هو حيًّا فعلا، أو على العكس من ذلك، ما إذا كان موضوع (شخص) يفتقر إلى الحياة، أو ميت، يقوم بالحركة فعلا، أو قد يحدث ذلك كله بسبب عدم القدرة على التمييز بين الصورة والواقع، أو الخيالي والواقعي من الأمور [12].

هكذا فإنه من خلال التواتر، أو التزامن في الحدوث، بين ما هو مألوف وما هو غريب أو غير مألوف، تستثير الغرابة انفعالات متناقضة وجدانيّا، كالاستثارة الانفعالية والبهجة والتنبه من ناحية، والارتداد المفاجئ إلى الخلف أو الاستغراب أو التقزز والخوف، من ناحية أخرى، وهكذا، فإنه - وفقا لما قاله فيكتور سيج، وآلان لويد سمث، وغيرهما - فإن الغرابة تعمل بوصفها أشبه بنوع من الفجوة الموجودة بين الشفرات الخاصة بالنصوص، نقطة يبدو عندها التمثيل نفسه وكأنه يُخفق في التحقق أو التجسد، أو أنه يزيح نفسه، يمزقها أو يفككها، على أنحاء شتى». وهكذا، فإنه إذا كان الغريب - بحكم طبيعته غير المحددة - وثيق الصلة بالذعر، فإنه قد يرتبط أيضا بالرعب بالقدر الذي يدفعنا عنده إلى مواجهة طبيعتنا المادية. وكما أشار ديفيد موريس أيضا، فإن الغرابة هي: «إحساس مهيمن يصيب المرء بالدوار أو الذهول، إحساس يحملنا على نحو عميق إلى ما وراء الأحاسيس والأجواء الإنسانية العادية، وهو إحساس ينطلق عندما نواجه الصورة الخفية المحرفة، لكنها غير المبعدة تماما، من رغباتنا المكبوتة»[13].

وكذلك يرتبط هذا التعارض بين الرعب والذعر بشكل عام بذلك التمييز بين الجميل والجليل. فالموضوع (الشيء/الشخص) الجميل له شكل مادي وحواف أو حدود محيطة له به واضحة، في حين أن الجليل يتحدى التحديد

أو التعريف لــه، أي يتحدى وضعه ضمن إطار محدد أو واضح، وذلك وفقا لطبيعته التــي تميل إلى تجاوز أو عبور تلك المســتويات المقبولة للحجم أو الطاقــة، هذا على الرغم من معرفتنا بأن الجليل لا يكون بالضرورة مرعبا. وقد تحدثنا عن الجليل بالتفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب.

الذعر والرعب في السرد

يتم توصيل حالات الذعر والفزع، والرهبة والخوف - على نحو واضح - من خلال تلك القصص التي تجسد خبرة الخوف كحالة مستمرة متواصلة لا تنقطع، ولا يعني تواصلها هنا بالضرورة، استمرارا في الوقائع المادية المرتبطة فعلا بحدوثها؛ بل اســتمرار الإحســاس بهذا الخوف، التوقع للشر الكامن، للأذى المقيم، للضرر الملازم للكارثة، أو حتى الموت، الموشك على الوقوع، هنا الخوف متخيل متوقع متصــور، أكثر منه خوفا ماديا، لكن الأحداث المادية، مثل الأصوات، المشــاهد، الغموض، الصراخ، الــدم، الكائنات غير العادية، والمفاجآت، وغيرها، تعمل أيضا على استمرار حالة الخوف هذه، ثم عندما نواجه هذا الخوف ونتجاوزه، قد نشعر بالمتعة والراحة.

هكذا يقال إننا نسعى، في الفن والأدب، وراء الخوف، نبحث عنه، نسعى إليه من أجل أن نواجهه، نحن لا نســتطيع أن نتجنبه أو نهرب منه، ومن ثم فإننا قد نبحث عنه ونســعى إليه كي نواجهه، كي نقوي من خلاله أنفســنا، وإن سعينا هذا سيكون أكثر أمنا وأقوى متعة عندما يحدث خلال تفاعلنا مع القصص والروايات، أو مشــاهدتنا أفلام السينما، أو الفن عامة، ويقال إن خوفنا من هذا النوع من الفن والأدب يزداد أيضا إذا كنا في الظلام.

تشتمل قراءة الأعمال الأدبية المخيفة على مزيج وتفاعل لانفعالات عدة ترتبــط بالألم والخوف والمتعــة، ألم القتل، وخوف الأشــباح، متعة التحرر مــن سلاســل الألم والمصائب المتكــررة هذه، هنا تركيبــات خاصة ونماذج للانفعالات المرتبطة بالرهبة والمتعة، الرعب والسرور، الالتباس الذي يحدث نتيجــة للتأمل والانغماس وفقدان الذات القارئــة في الموضوع المقروء، هنا غياب للذات ثم اكتشــاف لها، هنا الذات تســكن النص مثلما يسكن النص فيها أيضا، هنا القارئ شبح يزور النص وينتابه، كما أن النص هنا مجموعة

أشباح تزور نفس القارئ وروحه ووجدانه وتنتابها أيضا، هنا مراودة ومراودة مضادة، تحطيم للحدود وعبورها بين الذات القارئة والموضوع المقروء، وبين الواقعي والمتخيل، والممكن والمستحيل، هنا تعليق مؤقت للحكم وإيقاف لحظي للمنطق الكرونولوجي (الزمني) والمكاني، اختفاء للبنيات الفارقة والمميزة الخاصة بالحياة اليومية العادية، ومع هذا الغياب، مع هذا السقوط للحدود، تحدث حرية، ويحدث تحليق، ومعهما يحدث أيضا خوف وشعور بالغرابة، هنا الخوف الذي يتجاوز مستوى التعليق المؤقت للحكم المنطقي الذي تحدث عنه كولريدج، فيما يتعلق بالجميل والخيالي والممتع. وبالنسبة إلى الجليل والخوف علينا ألا ننسى ما قاله بيرك من أن «قوة الألم أقوى تأثيرا من المتعة، وإن الموت أكثر تأثيرا من الألم» [14]؛ ومن ثم فإن الجلال، ولأنه فكرة وتصور وتخيل، ربما كان أقل ضررا من الغرابة، أقل تأثيرا من الغرابة، فهو يختلط بالجمال والمتعة أكثر من الغرابة؛ ومن ثم فإن قوة الخوف والرهبة الملازمة له أقل تأثيرا من قوة الغرابة؛ وذلك لأن قوة الجليل متخيلة، متصورة خارجية، تتم على مسافة، مثلها مثل فكرة الإشباع البديل، في حين أن قوة الغرابة متخيلة وواقعية، غائبة وحاضرة، وفي غيابها حضورها، وفي حضورها الذي يتكرر على نحو إجباري قهري، ليلا ونهارا، مكانا وزمانا، فنا وإبداعا، وحياة وسياسة واقتصادا ووجودا، يكون تأثيرها هو الأقوى أثرا، والأكثر استمرارا. وأبرز أنواع السرد المخيف هو ما يسمى بالسرد القوطي.

السرد القوطي

يضع بعض النقاد فئة الغرابة ضمن التصور العام الخاص بالاتجاه القوطي في الأدب والفن، ويضعون معها الجليل والشبحي والذهاني والاكتئابي، وغيره من الميول والنزعات المماثلة، ويقدمون بعض الدلالات والمعاني الاجتماعية والتاريخية له، وهذا جيد - نوعا ما - لكننا نعتقد أن الغريب هو الفئة الأعم والأشمل، وأن القوطية هي إحدى فئاته أو تجلياته التاريخية.

فالأدب القوطي والذي أحيانا ما يشار إليه باسم «الرعب القوطي»، نوع من الأدب الذي يمزج بداخله عناصر من الرعب والانفعال والخيال. ويعتقد - بشكل عام - أن مبتكر هذا النوع من القص هو الكاتب الإنجليزي

«هوراس والبول»، وبخاصة مع ظهور روايته المعروفة «قلعة أوترانتو» (1764). ويرتبط القص القوطي - بشكل حميم - بتجدد النهضة القوطية في العمارة التي حدثت في تلك الفترة تقريبا، وكذلك بالرفض للوضوح والعقلانية الخاصين بالأسلوب الكلاسيكي الجديد الذي ميز عصر التنوير (خلال القرن الثامن عشر).

ويجد الأدب القوطي نوعا من التذوق البالغ للانفعالات الجامحة المختلطة الغامضة بكل ما فيها من رعب أو بهجة، وكذلك إثارة الخوف الكبير المهيمن، والرهبة الملازمة للإحساس بالجليل. ويلعب الجو العام المقبض المخيف الغامض المثير للأعصاب، والتوقع، وحب الاستطلاع، والذعر دورا مهمّا في مثل هذا النوع من الأدب. وقد أثارت خرائب المباني القوطية السابقة تلك الانفعالات المتنوعة المرتبطة بها في الأدب، وخصوصا ما يتعلق منها بالتدهور والتحلل والتبدد والانهيار. وقد مال الكتاب الإنجليز البارعون في هذا النوع من الأدب إلى الربط بين مباني العصور الوسطى القديمة «الخربة والمهجورة» وما اعتبروه فترة مظلمة ومخيفة في التاريخ، فترة تهيمن عليها القوانين القاسية التي تُفرَض من خلال طقوس غامضة، وهمية، مؤلمة، وزاخرة بالخرافات.

والمكونات الغالبة على الأدب القوطي هي: الذعر أو الخوف الشديد (السيكولوجي والبدني)، والغموض، والكائنات ما وراء الطبيعية والأشباح، والبيوت المسكونة، والعمارة القوطية، والظلام، والموت، والتحلل، وظهور الأشباه أو الأقران، والجنون، والأسرار الخفية، واللعنات الموروثة. وأبرز الشخصيات التي ظهرت في مثل هذا الأدب هي: الطغاة، والأشرار، والمجانين، وقطاع الطرق، والرهبان، والنساء القاتلات، والسحرة، ومصاصو الدماء، والوحوش، والمستذئبين، والشياطين، والتنانين، والملائكة التي تنزل من السماء، والأشباح والهياكل العظمية المتحركة، وحتى الشيطان نفسه.

وهناك فترات متتابعة من تاريخ القص القوطي يصعب أن نحيط بها هنا، ولكننا سنشير إليها في مواضع أخرى من هذا الفصل، ونكتفي هنا بالقول إن أبرز كتاب هذا النوع هم: تشارلز ماتيورين (1782 - 1824) مؤلف رواية «مالموث التائه» (1820) التي تدور حول مالموث الذي يبيع

روحه للشيطان لقاء مائة وخمسين سنة زيادة في عمره يقضيها في البحث عن آخر يحمله هذه المسؤولية، ثم هناك أيضا ماري شيلي (1797 - 1851) مؤلفة «فرنكنشتين»، وستيفنسون (1850 - 1894) مؤلف «الحكاية الغريبة للدكتور جيكل والمستر هايد»، وآن رادكليف (1764 - 1823) صاحبة رواية «أسرار أدولفو»، وكذلك إدغار آلان بو (1809 - 1849)، ولوفكرافت (1890 - 1937) مؤلف رواية «عند جبال الجنون»، وبرام ستوكر (1847 - 1912) مؤلف رواية «دراكيولا»، وغيرهم. ويمتد تراث هذا القص حتى يبلغ ذروته لدى كاتب قصص الرعب الأمريكي المعاصر ستيفن كنغ».

وقد أطلق على هذا الأدب اسم «القوطي»؛ لأن أصحابه غالبا ما اتخذوا من القصور والأديار والكنائس والمباني القوطية والخرائب القديمة ميدانا تدور فيه أحداث قصصهم خلال القرن السابع عشر، وأصبح مصطلح «القوطية» Gothic يستخدم في إنجلترا للإشارة إلى كل ما هو همجي ومدمر ووحشي ومرتبط بالتراث الجرماني المتعلق بتلك القبائل التي اجتاحت الإمبراطورية الرومانية على نحو عاصف خلال القرن الخامس الميلادي ودمرتها، ثم امتد هذا المصطلح كي يطلق على أساليب العمارة الخاصة بشمال أوروبا، وفي الفترة السابقة على انبعاث الأنماط الكلاسيكية في العمارة خلال عصر النهضة. وبشكل عام، شاع الطراز القوطي في العمارة في أوروبا بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، وقد تميزت بالأقواس والقباب المدببة أو المسننة، والسراديب المضلعة، والأكتاف أو الدعامات نصف المقنطرة، وغيرها (انظر كتابنا: الفن والغرابة، 2010 لمزيد من التفاصيل حول هذه العمارة وتاريخها).

ويقال إن تطور الأدب القوطي - وكذلك قصص الأشباح بداخله - كان يمثل جانبا من استجابة أكثر اتساعا ضد تلك النزعة العقلانية المتزايدة في عصر التنوير، وقد انعكس ذلك - بدوره - في فلسفات انطلقت لاستكشاف كيفية تشكل المعرفة داخل العقل، وكذلك الطرائق التي تنشط من خلالها العمليات الأقل أو الـ «قبل» شعورية داخل هذا العقل نفسه.

ويعكس الأدب القوطي - عامة - مستويات عدة من الإيهام داخل العمل الأدبي نفسه، بعضها تاريخي، وبعضها سيكولوجي، وبعضها أدبي وفني.

وللقوطية علاقتها بالواقعية السـحرية في السرد من حيث اهتمامهما معا بالأشباح والأشـباه والأرواح مثلا، لكن أشـباح الواقعية السحرية غالبا ما ينظـر إليها علـى أنها جزء من العالم الطبيعي الذي يعيشـه المرء؛ ومن ثم فإنها ليست مخيفة، كما هو شأن أشباح القوطية [15]، وعندما يحدث امتراج بين القوطية والواقعية السحرية يظهر الاتجاه المسمى «كشف خفايا النفس البشـرية»، أو «الكريبتونيميا» Cryptonymy، وكمـا قام نيكولاس أبراهام ومـاريـا توروك بالتنظير حوله، وكما يتجلى أيضا في كتابات إدغار آلان بو، وهوفمان، ودستويفسكي، وغيرهم.

القوطية والمخاوف المعاصرة

في كتابه «الرؤية القوطية: ثلاثة قرون من الرعب والذعر والخوف» (2002) يتمسـك داني كافلارو D. Cavallaro بالقول إنه من الضروري أن نعترف بأن أشكال المجاز العقلية والجسدية والاخلاقية المرتبطة بالتفكك والانفصال، والتي تم تبنيها في السرديات القوطية، إنما هي ترتبط بظروف إيديولوجية وتاريخية وسياسـية خاصة. وهكذا فإنه حيثما تم الاقتراب من الخوف بوصفه ظاهرة منتشرة ومتكررة العودة والتشكل، فإنه يجب التركيز أيضا على أن هناك بنيات خاصة من الخوف قد تم إنجازها أو الوصول إليها في أزمنة وأمكنة معينة، كما أنه لا يمكن - كذلك - تفسير علاقات هذه البنيات السردية الخيالية ومتعلقاتها بوصفهـا حالات تحلق بعيدة عن الواقع الاجتماعي. هكذا فإن الذعر والرعب ليسـا ضدين متعارضين، لكنهما ظاهرتان شديدتا التفاعل فيما بينهما، وهما يتفاعلان - على نحو كبير - داخل مجال السلوك المسمى الخوف بوصفه ظرفا أو شرطا منتشرا ومتخللا فيهما، وهذه القوة أو الحضور الكلى للخوف يتوازى معها أيضا، ذلك الحضور الكلي لحكايات الظلام ذات التوجه القوطى.

ووفقا لما قاله كلايف بلـوم Clive Bloom يتحدث الاتجاه القوطي عن ذلـك الجانب المظلم المعتم من القص المألـوف أو البيتي، عن ذلك الجانب «الأيروتيكي الحسي والعنيف، المنحرف، الغريب»، وهو يرتبط كذلك - على نحو متكرر شـبه مستحوذ - بالمخاوف المعاصرة، ووفقا لـ «بلوم» أيضا، فقد حدث الفراق الحاسم بين القوطية المميزة لرواية «قلعة أونترانتو» التي كتبها

«هوراس والبول»، وذلك الرعب السيكولوجي الخاص بمنتصف القرن التاسع عشر من خلال قصة «سقوط بيت أشر» (1839) للكاتب إدغار آلان بو، فقد أصبـــح العالم الداخلي للروح مصدر التهديد الرئيســـي، حيث داخله توجد أيضا المطالب التي لا توصف، أو المسكوت عنها للإرادة، أو بالأحرى للغريزة.

وتُعد نهاية القرن التاســـع عشر وبداية القرن العشرين مهمة أيضا في هذا التطور التاريخي؛ وذلك لأنه حدث خلالها امتزاج بين الاتجاه القوطي وطـــراز أدبي آخر، هو الواقعية الفيكتوريـــة[16] Victorian Realism، مع ميل خاص يتعلق بالاستكشـــاف الفلسفي لهذا المجال. وكما لاحظ ديفيد بونتـــر، فإنه خلال فتـــرة قصيرة لا تتعدى أحد عشـــر عاما، ظهرت أهم الأساطير الأدبية وأكثرها قوة، وهي أساطير استمرت دينامياتها القوطية في الاستثارة والتنشيط لخيالنا الجمعي عبر ما يزيد على قرن من الزمن. ومن بين الأعمال الجديرة بالذكر هنا نجد «الحكاية الغريبة للدكتور جيكل ومســـتر هايد» لروبرت لويس ستيفنســـون، وكذلك «صورة دوريان غراي» لأوسكار وايلد، و«جزيرة الدكتور مورو» لـ «هـ. ج. ولز»، ثم «دراكيولا» لبرام ستوكر، وهي أعمال يرى كثيرون أنها تحتوي على سلطة أو قوة رمزية تشبه في قوتها الأعمال القوطية الأولى أو الأصلية، وطاقة قد دفعت نحو حدوث تطورات مهمة في تلك الفترة، واســـتمرت فعالة في ظهور الاتجاه القوطي مـــا بعد الحداثي الحالي، فخلال هذه الحقبـــة الأدبية، أصبح القوطي - بوصفه طـــرازا أدبيا مميـــزا، - أقل وضوحا، فالمشـــهد المدني حل محل الغابة، كما أصبحت القوى الخارقة وما وراء الطبيعية المخيفة موجودة في الداخـــل، فانحل أو ذاب ذلك التمييز الذي كان قائما بين الواقع والخيال، وإنـــه بموازاة هذا التغير في الجماليات، حدثت طفرة قوطية كاســـتجابة للتغيرات الفلســـفية والاجتماعيـــة والفنية المعاصرة لهـــا. وكان أبرز تلك التحولات ظهور التحليل النفسي، كما كانت تأثيرات الداروينية والنظريات الاشـــتراكية واضحة، وأصبح هناك وعي متزايد بطبيعة النفس الإنسانية والسلوك الإنساني، وهو وعي انعكس بدوره في الأدب، وهكذا يقول بوتنغ إن التحليل النفسي كان النتيجة أو الأثر الناتج من مائة وخمسين عاما من الخلق للوحوش[17].

يهتم الأدب القوطي الحديث - مثله مثل الشكل التقليدي منه - بالأطياف الشريرة، بالتجليات الطيفية الشبحية المخيفة، ولكن - وكما أشار هالبرستام Halberstam - فإنه ومنذ أواخر القرن الثامن عشر حتى القرن التاسع عشر، تحول مسار أدب الرعب القوطي من الانشغال بالخوف الناتج عن أفعال العائلات الأرستقراطية الفاسدة أو حتى رجال الدين، كما تمثل ذلك في القلاع وأديار الرهبان التي تسكنها الأشباح، إلى ذلك الخوف من الأجسام الذي يتمثل من خلال الأجساد المخيفة البشعة المنكرة.

ويركز الأدب القوطي الحديث على كل تلك الحالات والظواهر البشعة المخيفة، كما تحدث في المدينة، بالخوف المتعلق بالاقتراب من الغامض والمجهول والمسكوت عنه في الحياة اليومية العادية، وليس في عالم الليل فقط. هكذا فإن المدينة المتاهية، أو المدينة الحديثة، المتاهة التي في الخيال القوطي الحديث، هي المكان المسؤول - إلى حد كبير - عن خلق كل تلك الوحوش التي تتجول في شوارعها، وهي وحوش تخرج من أوكارها وبيوتها العشوائية القذرة التي تتألف من طوابق وشقق متعددة مزدحمة بالسكان والأسرار كي تثير الخوف [18].

هكذا ركز الأدب القوطي الحديث اهتمامه على الظواهر الشبحية البشعة والوحشية التي في المدينة، كما صُوِّرَت المدينة نفسها كوحش، وذلك في ضوء تعدداتها الجغرافية والاجتماعية وانقساماتها، وتنوع تكويناتها، وقد ظهرت الثنائية أو الازدواجية التي يكشف عنها بعض مواطني المدن، واضحة؛ كمحاولة لإبراز التعارضات بين النور والظلام، الحرية والقمع، الأمن والتهديد، الألفة المنزلية والرعب المتسلل أو الكامن.

هكذا أضاف السرد القوطي حالة الرعب إلى ذلك الإدراك الخاص بالمدن لدى الكتاب الواقعيين والطبيعيين وغيرهم؛ ومن ثم فإنه أرهص أو توقع ظهور ذلك التجسيد الخاص للمدينة غير الواقعية أو «الأرض الخراب» كما ظهرت في قصيدة ت. س. إليوت الشهيرة. وقد أخذت الحداثة معها حالات القلق والشك، ونقلتها من تسعينيات القرن التاسع عشر إلى الإبداع الأدبي الجديد الخاص بالقرن العشرين أيضا، ولكن من خلال أشكال جديدة.

وقد فتح غزو الفضاء والتطورات التكنولوجية الضخمة المجال آفاقا أخرى جديدة في الأدب عامة، وفي أدب الرعب والغرابة خاصة، وهكذا استمر خيال

العتمة يعمل وينطلق. ومثلما شهد القرن العشرون تطور أفلام سينما الرعب، فقد شهد أيضا تطور القصص المصورة (الكوميكس)، وظهور أعمال غاستون ليرو، خاصة شبح الأوبرا، وتحول كثير من الأعمال القوطية، مثل فرنكنشتين، ودراكيولا، إلى أعمال سينمائية، ومسرحية، كما دخلت هذه الأعمال وغيرها، مثل لوحة «الصرخة» لإدفاردي مونش، مجال الإعلانات والأزياء والموسيقى والرقص، وغيرها من فنون العصر، وأصبحت هناك ألعاب فيديو للصغار والكبار يكون الرعب والخوف والتوقع والغرابة عناصر أساسية فيها، كذلك توحد الأدب القوطي مع الشكل الأدبي الجديد المسمى الخيال العلمي، فظهرت أعمال الخيال العلمي المرعبة، ونحن لن نتحدث كثيرا في هذا الكتاب عن أدب الخيال العلمي؛ لأننا تحدثنا عنه ببعض التفصيل في كتابين سابقين لنا هما: «الخيال من الكهف إلى الواقع الافتراضي» (2009)، و«الفن والغرابة» (2010)، حيث تحدثنا فيهما عن الكائنات الغريبة المخلقة، مثل: السيبورغ، والاستنساخ، والآلات المخلقة، والدمى، والوحوش القادمة من الفضاء، وألعاب الكمبيوتر، وإدمان الإنترنت، والتحريك والروايات الافتراضية، وغيرها [19].

والذات هي موضع خبرة الخوف وموقعها، ويرتبط الخوف بالموت الرمزي الفردي والجماعي. هكذا يمكن اعتبار مظاهر فزع «قوطية ما بعد الحداثة» تأويلا انطباعيّا لثقافة الخوف ما بعد الحداثية، تلك التي يندفع الأفراد فيها بقوة نحو الصور المخيفة، سواء أكانت في السينما أم في الأدب، هنا تكون قراءة مثل هذا الأدب ومشاهدة مثل هذه الأفلام نوعا من المراجعة للواقع، المواجهة الرمزية من مسافة معه. كما أن هناك نوعا من الحنين أو النوستالجيا المرتبطة بالولع بمثل هذا النوع من الأدب، فنحن نتذوق المخيف والعناصر الغريبة التي فيه؛ لأننا نكون مدفوعين بواسطة دافع رومانتيكي ملازم لطبيعتنا، دافع كُبِتَ بقوة، وحُرِمْنَا تطويره في ثقافتنا الحديثة وما بعدها [20].

في قصة «هورلا» لـ «جي دي موباسان» يشعر الراوي بالأرق ويستشير الطبيب فيقدم إليه نصائحه، لكن متاعبه تتزايد وتتفاقم، ويشعر بأن جهازه العصبي مصاب بالوهن، يهيمن عليه الخوف، ويعتقد بوجود شخص آخر معه في بيته، يوجد معه في كوابيسه الليلية، ويوجد معه في يقظته خلال الليل والنهار، يغادر البيت ثم يعود إليه، فيجد أن سائقه شاحب الوجه وكأنه مريض،

وعندما يسـأله الراوي عما أصابه يقول له «يبدو يا سـيدي أن المكان لم يعد كما كان، فقد أصابني أرق شديد طوال غيبتك»، ثم إن ذلك الراوي يشعر بأن ذلك الكائن الموجود معه ليلا في غرفته يشرب الماء دوما من زجاجته، ويقلب صفحات كتبه، وتزداد لديه الهلاوس حتى يقول: «لسـت مجنونا ولا أخرف.. لقد رأيته بالتأكيد.. لقد رأيته»، وأيضا «أمضيت ليلة مقلقة.. كنت متأكدا من وجوده بجواري ينظر إليَّ، يتفحصني، يحاول الولوج داخل عقلي، والسـيطرة علـى أفكاري، وأيضا «ظللت أتظاهر بالقـراءة وأنا أعرف يقينا أنه يراقبني، حتـى تأكدت أنه يقف خلف ظهـري، وأنه يكاد يلامس أذنـي.. قمت فجأة واستدرت كأنما أحاول استرداد نشاطي، فوقع نظري على المرآة أمامي، ورغم الضوء الشـديد لم أر صورتي في المرآة!! لقد حجب جسمه الشفاف صورتي عـن المـرآة، أي إنه يقف بيني وبـين المرآة.. ظللت أنظـر مدققا حتى بدأت صورتي شـاحبة باهتة كأنما أراها من خلال زجاج معتم أو من وراء سـحاب كثيف.. لم يكن الجسـم الذي يحجبها محددا بشـكل واضح، بل كان شـكلا هلاميًا يملأ المكان كسـحابة دخان، ثم بدأ الغمام ينقشـع بالتدريج، وبدأت صورتي تظهر حتى أصبحت واضحة كلية .. لقد انصرف» (21).

هكذا تتزايد مشـاعر الراوي بالخـوف والرعب من ذلك الحضور لآخر غريب غير مفهوم مخيف معه، حتى يقرر أنه يقبل نفسه في النهاية، هذا مع أنـه يقول إنه قد قرأ في إحـدى الصحف عن وباء جنوني أصاب الناس في البرازيل في ذلك الوقت، وباء استولى على أرواح الناس، ويطاردهم، ويتحكم في حياتهم، من مخلوقات عجيبة تبدو كمصاصي الدماء، يسلبون الناس وهم نيام، ويشـربون الماء والألبان فقط، كما كان يفعل ذلك طيف هؤلاء في هذه القصة، وهو يقول أيضا إن سـفينة برازيلية قد توقفت في نهر السـين منذ وقـت قريب، وإنه وقف لتحيتها، وأن ذلك الوباء المخيف قد انتقل إليه منها. لكن لماذا أصابه وحده دون غيره؟ هذا ما لم يستطع له تفسيرا (22).

ربما كان الذي لم ينتبه إليه فرويد نفسـه هو أنه ليسـت الأشـياء التي اعتبرها مخيفة (الأشـباح - الدمـى - الموتى - الأصل المكبوت الذي يعود) فقط هي المخيفة، بل إن الخوف نفسـه - الشـعور بانعـدام الأمل وفقدان الأمـن، عدم الثقة والشـك، وما يسـتثيره ذلك كله من خـوف، هو أمر قد

يستجلب الخوف الكامن المكبوت الذي اعتقدنا أنه اختفى، فإذا به يعود ويظهر في شكل جديد من الغرابة الافتراضية: أجهزة التلفزيون داخل البيت التي تحضر الموتى من الممثلين، والبعيدين عنا من المذيعين، والأمكنة والأزمنة البعيدة، إلى داخل البيت، ولكن لا يمكن الحوار معها، إلا بشكل افتراضي.

عن الظلام

الظلام عنصر مؤجج للقلق والفزع والذعر والرعب ولانفعالات سرديات الخوف كلها. والظلام هو العنصر المكون الأساسي في القص القوطي، وفي قص الغرابة أيضا، في الأماكن القوطية وعناصرها ومكوناتها والأشياء الملحقة بها: القلاع المدمرة، والسراديب، والمقابر المخيفة المعتمة، والأبراج المحصنة، وزنازين السجون المعزولة، والأقبية الرطبة، والممرات الشديدة البرودة، وآبار السلالم التي تتردد فيها أصداء التأوهات والأنين والولولة والصراخ، والمنازل التي تحوي مقابر، وأديار الرهبان التي تغطيها نباتات اللبلاب المتسلقة، والحجرات الصغيرة السرية، والخزائن الخفية أو العواصف، والغابات الباردة المنعزلة، والمستنقعات المملوءة بالاحتمالات المخيفة [23].

وفي أوقات معينة من اليوم، خاصة الليل، ومن الفصول والسنة، تكتسب هذه الأماكن دلالاتها المخيفة الأكثر تأثيرا حسب موقعها في العالم؛ فمثلا تُعد البقاع أو الأماكن المعزولة التي تسودها فصول الشتاء في بلاد الشمال، وخاصة في هزيع الليل الأخير، هي العناصر المفضلة في مصفوفة الخوف هنا. لكنَّ هناك أوقاتا أيضا تكون هيمنة الخوف فيها أشد، بصرف النظر عن الموقع: شمال الأرض أو جنوبها؛ ألا وهي الأزمنة الانتقالية، المراحل الانتقالية في حياة الفرد، وفي حياة الأمم والشعوب، مثلا: مرحلة المراهقة وحدوث تغيرات جسمية ونفسية كثيرة لدى المراهقين، أو مرحلة الشيخوخة بوصفها فترة انتقالية بين الحياة والموت، أو فترات الاضطرابات السياسية، وانتقال المجتمعات من حالة إلى حالة أخرى أو وجودها في حالة من الشك والغموض واضطراب الرؤية الواضحة أو حتى غيابها بالنسبة إلى المستقبل وكذلك في فترات الانتقال من النهار إلى الليل، ومن الصيف إلى الشتاء، ويحدث هذا الاضطراب نتيجة للغموض، وحالة عدم التحديد، الفقدان

لليقين ووضوح الحدود أو التبين المرتبط بهذه التحولات والانتقالات؛ ومن ثم فإنها تكاد تكون الأقرب إلى حدوث حالة الانهيار في التمثيل، تلك التي تحدث عنها كانط، وبعده ليوتار، أي العجز عن تكوين المعنى المنطقي العقلاني المهم الخاص بها. إنها الأوقات التي تسود فيها حالة الفقدان للتوجه أو التبصر، وتزداد فيها أيضا حالات اختلال الشـعور بالذات أو الواقع - كما سنتحدث لاحقا في هذا الكتاب - والتي هي الشرط الأساسي الممهد للغرابة.

ويضاف إلى البنيات الخاصة بالأماكن والأزمنة المثيرة للخوف أيضا تلك التكوينات النفسية الأكثر قابلية لاستثارة الخوف لديها، حيث نجد أن الأفراد الأكثر ميلا إلـى الذهانية (المرض العقلي)، أو العصابية (المرض النفسـي غيـر العقلي)، وكذلك الأكثر ميلا إلى الفصام البارانويدي (ذهان العظمة)، أو الشـعور بالاضطهـاد (ذهان المطاردة والملاحقـة أو الارتياب)، أو الأكثر ميلا إلى العزلة والأكثر حساسـية ورهافة نفسيا، والأكثر ميلا إلى الشعور بالخوف المتخيل كالأدباء والفنانين هم الأكثر ميلا للشعور بالغرابة.

هكذا تتفاعل المناظر الطبيعية والتكوينات المعمارية، والمناخ العام والطقس، والفصول والأفكار والانفعالات وسمات الشخصية في إثارة عالم من الخوف، وحيث للظلمة - كما قال مالينوفسكي - حضورها البالغ، وحيث الضوء أيضا لا يمكن اختراقه أو النفاذ منه، أو تحاشيه، مثله مثل الظلام أيضا .

في أساطير وديانات كثيرة هناك، دلالات ومعانٍ سلبية متنوعة للظلام، حيث ارتبط الظلام لديها - على نحو متكرر - بالغرائز السفلي، وبالافتقار إلى الوضوح والنظام، وبإحسـاس مهيمن بالخوف والغموض وتوقع الضرر. كذلك ترتبـط العتمة والظلام بمفهوم العبـث، بوصفه حالة خلقتها عقول عاجزة تبحث عن المعنى في عالم بلا معنى، وقد لعنت المسيحية الظلام بأن وضعت الشـيطان، أمير الظلام، في موقف العدو المناوئ لمشيئة الرب. وفي الديانة الهندوسـية، يرمز الظلام إلى الزمن المدمر المبدد لكل شـيء، وفي الأساطير الإيرانية القديمة، يرتبط الظلام بـ «إهرمن»، سيد الأكاذيب، وفي الإسلام يرتبط الظلام بالظلم والجهل وبالطيش والحماقة [24].

وقد تسـاوقت هذه التقديرات المحطة أو المنقصة من شـأن الظلام، أو اتفقـت تاريخيا مع ربطه باللون الأسـود، لون الحـزن والموت، وكذلك

لون البشرة الأســود، وكثير من الأساطير الاستعمارية والبطركية (الأبوية التسـلطية) قـد وجهتها مقاصد تتعلـق بالربط بين هذا اللون الأسـود، و«شيطنته» بوصفه يرتبط بالغموض والغريزة والبدائية والتوحش؛ ومن ثم بالفوضى والعماء والتدمير.

لكن قوى الفوضى والتدمير هذه قد تم إدراك وجود جانب إيجابي ملازم لهـا أيضا، حيث لم تعد الظلمة تعني الوجود المهيمن الجذري للشـر فقط؛ بل الحالة أو الشـرط المسبق الضروري لتكوين الضوء؛ ومن ثم الخروج من الظلام إلى النور، فالجنين يتشـكل في رحم الأم المظلم وتنمو النباتات في باطن الأرض المعتم، وكذلك شـأن الطيور والحيوانـات والأفكار الإبداعية والتطورات البشرية عامة [25].

وفـي التحليل النفسـي ارتبطت الظلمـة بعالم الظـل: الوعاء الحاوي لكل الأشـياء المخيفة التي يتبرأ منها الوعي وينكرها. وفي فلسـفة الأديب الأمريكي «بو»، يُعد الظل هو المسـتودع أو المخزن الخاص بالانفعالات التي يتجنبها المجتمع المتحضر والمسـتنير، أو ينأى بنفسـه عنها، أما ما هو أكثر إثارة للتهديد والخطر - فيما يتعلق بالظل - فهو أنه يمتلك قوة مستقلة تميل إلى التعبير عن نفسها من خلال أكثر الأشكال بشاعة وإثارة للخوف، كذلك فإنه كلمـا زادت القوة التي يتم من خلالها كبت هـذا الظل وطاقته؛ زادت قدرته وطاقته على التحول والظهور.

وهكـذا فإنه مثلما ترتبط الظلمة بحالة ارتداديـة تعود إلى الوراء، إلى الفوضوي والعبثي والوحشـي والشيطاني، فإنها ترتبط أيضا بقوة تقدمية، قـوة تتم من خلال القناع الـذي يوضع على هذه الطاقة البدائية، هنا يكون القنـاع هو الوجه الاجتماعي المقبول، كما لدى يونغ، الذي يعبر عن ظل قد كُبِتَ أو مُنِعَ من الظهور في شـكله الأصلي، وقد ترتبط هذه الأقنعة وتربط بطاقة حيوية؛ ومن ثم بالإبداع، وهنا لا بد من وسائل مساعدة، مثل الخيال والحدس والموهبة، وهنا نجد نقاط التقاء كثيرة بين ما قدمه يونغ وما قدمه شيلنغ قبله، وكذلك فرويد، وغيرهما، حول التكوين الخاص للتجليات الثقافية والإبداعية المقبولة من خلال الكبت الخاص للجوانب الغريزية والبدائية غير المقبولة، إن قلب العتمة والظلام من الممكن أن يكون مضيئا أيضا.

رعب الوجود

في قصة قصيدة «الأرض الخراب»، التي كتبها ت. إس. إليوت، كثير من الموضوعـــات الغريبة: الظلمة، الفزع، المـــوت، وتتجلى هذه الموضوعات عند مســـتوى اللعب باللغة أو ألعاب اللغة، ففي بداية المقطع الأول من القصيدة نواجه تلك الموتيفات القوطية المتكررة الخاصة بالذاكرة والرغبة التي يحركها ذلك الربيع القاســـي أو التدفق العنيـــف، الذي يضغط على الحياة ويدفعها و«أبريل الذي هو أقسى الشهور، فهو يُنبت الزنابق من الأرض الميتة، ويمزج الذكـــرى بالرغبة، ويرجع الجذور الخاملة تنبـــض بأمطار الربيع»[26]. هنا يطرح إليوت صلة مباشـــرة بين اللغة والهوية، فأشـــباح الذاكرة تتحدث هنا بلســـان غريب، تذكر المتحدث بماضٍ مبهج شديد الحيوية يتناقض مع ذلك الحاضـــر الميت والمجدب «لقد قـــرأت - طوال الليـــل - وذهبت جنوبا في الشـــتاء». ولعل تقديم هذا البيـــت باللغة الألمانية أن يعبـــر عن ذات غريبة ومغتربة، تجد وجودها في آخر، في لغة أخرى، وليس في وجودها الحقيقي، حيث تتحول اللغة الإنجليزية لدى الشاعر هنا، وفي نهاية القصيدة، إلى لغة أجنبية، حيث الذات تجد نفسها مغتربة وموجودة في «غير بيتها»[27].

وإذا كان هيدغر قد قال «إن اللغة بيت العالم» فإن لغتنا هي أيضا بيتنا الذي قد نشعر فيه - ومعه - بالألفة، أو نشعر من خلاله - ومعه - بالغربة والاغتـــراب؛ ومن ثم الغرابة. هكذا قد تكون اللغة مرتبطة بالفزع، بالخوف، بانعدام اليقين، أو بيقين مراوغ غير حقيقي. هكذا قد يؤدي ســـقوط اللغة إلى ســـقوط الذات، ويمهد خراب اللغة الطريق إلى خراب الذات، وليس ما نقصده باللغة هنا مجرد القواعد والنحو الوصفي؛ بل طريقة التفكير والفهم والتصور والتخيـــل والإدراك للذات في الواقع والوجود، وأيضا ذلك الإبداع المؤكد للذات والمحقق لها، الأســـلوب الذي هو الشـــخص أو الذات، كما قال بوفون، ولعل هذا هـــو جوهر ما قاله لاكان حول التكوين المتخيل للذات من خلال اللغة، وذكرناه في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

«ترى من عسى هذا الثالث الذي يسير إلى جوارك أن يكون؟
أنا لا أجد حين أحصي إلاك وإلاي معا
لكني حين أنظر إلى الأمام عبر الطريق الأبيض

أرى دائما شخصا آخر يسير إلى جوارك
منسلا ملتحفا وشاحا بنيا مرتديا قلنسوة
لست أدري أرجل هو أم امرأة
لكن ترى من عسى هذا الذي يسير إلى جوارك أن يكون؟» [28].

هنا الصمت ينتشـــر ويسود، هنا ينبغي أن ننظر إلى ما يوجد خلف ذلك الصمت، إلى تلك الذاكرة التي تتجاوز صمت الحاضر إلى كلام الماضي، هنا نوع من التمزق والتفكك والتكسر في الواقع، هنا البشر أشباح لأنفسهم، لقد أصبحوا حاضرين، ولكن كأشـــباح لأنفسهم، أشباح غير قادرة على الكلام، غيـــر قادرة على الرؤية، ولا على معرفة أي شـــيء، هنا ذعر خاص بفشـــل اللغة، فشلها في التمثيل لما تدركه وعجزها عن مواجهة الغريب، أو مواجهته، وغرابتهـــا التي يصاحبهـــا تتابع خاص لعمليات مـــراودة، تتابع يقدم البنية الأساسية للقصيدة، مراودة لا يمكن أن يهرب القارئ منها، أو قد يهرب منها بســـبب افتقادها الوحدة المحورية أو الصوتية، وكذلك بسبب تلك الطريقة المقلقة التي تقفز من موضوع إلى آخر، ومن صورة إلى أخرى، والتي تتحدث فيها أصوات الأشـــباح بعضها فوق بعض؛ محاولة أن تعطي تفسيرا لحياتها في مدينة لندن غير الواقعية.

في هذه القصيدة تســـتدعي الأشـــباح الصور والحكايات والأســـاطير المتنوعة، هنا الأصوات ظـــلال وأصداء، تمثيلات غير ذات أصل محدد، أو محاكاة ثانويـــة Simulacra للوجود الحقيقي، واقع خـــرابٌ، خاوٍ مثل هذه الأشباح والأصوات، واقع لا هو «وجود»، ولا هو «لا وجود»، واقع يشبه الواقع وما هو بواقع، ضوضاء وعشوائية وأصداء وظلال وخوف، وجود آلي يفتقر إلى الروح والإبـــداع، وجود يكمن جوهره في غيابه، ويكون حضورا موجودا على المستوى اللغوي فقط، على المستوى الشبحي فقط.

«يا من كنت معي على السفائن في ميلاي
أترى جثة العام الماضي التي في حديقتك زرعتها
بدأت تؤتي ثمارها؟ أتراها تينع في هذا العام؟
أم ترى الصقيع المباغت أقلق مرقدها؟
أبق الكلب بعيدا، إنه صديق البشر

وإلا نبش الجثة بمخالبه مرة أخرى
«You! Hypocrite lecteur! Mon semblable, mon frere»
أهذا أنت أيها القارئ المنافق؟ أي شبيهي أي أخي» (29).

والمقطع في القصيدة الذي يقول الراوي فيه إنه رأى أحد الأشخاص كان قد سبق أن رآه في ميلاي، وإنه قد وضع جثة في حديقته، وإنها ستحيا هذا العام، هو من المقاطع المهمة في التعبير عن الغرابة العامة التي تهيمن على القصيدة، هنا بشر جوف، ومدنية غير واقعية، تهيمن عليها أشباح شبه بشرية، لا تستطيع الكلام أو الشعور أو الحياة، حالة من الجحيم والآلية والجثث، وقد عبر إليوت في قصائد أخرى له عن ذلك فقال: «سأقول لك مرة أخرى إن الأمر غير صحيح، هنا الموت، أو الحياة، أو الحياة أو الموت، الموت هو الحياة والحياة هي الموت، هكذا ينبغي لي أن أستخدم الكلمات وأنا أتحدث إليك، لكنك لو فهمتها أو لم تفهمها، فإنها لا تعني شيئا بالنسبة إليَّ أو إليك، هكذا ينبغي لنا أن نفعل ما ينبغي لنا أن نفعله». هكذا عبر إليوت عن الموت من خلال التغيرات في الأسلوب والشكل والنغمة والموضوعات المتكررة، الحياة والموت، التراب والجثث والقبور والعظام، وغيرها. والإشارة الأخيرة في هذا المقطع الشعري تناص واقتباس مأخوذ من قصيدة «القارئ» للشاعر الفرنسي بودلير في ديوانه «أزهار الشر».

خاتمة

يرتبط مفهوم الغرابة بموضوعات متنوعة في مجال الأدب، من بينها ما يتعلق بموضوعات مثل القرين، بعمليات الشبح والظل والقناع وغيرها. كما ترتبط الغرابة أيضا بعمليات الإبداع ذاتها، وكذلك عملية القراءة والتلقي للأدب، وأيضا بعض الأفكار النقدية مثل فكرة التناص، حيث يرتبط التناص في الأدب والفن أيضا بالغرابة، بحضور الأشباح، والأشباح هنا أشباح مجازية، أي حضور الآخر في الذات، حضور أعمال الآخرين في عملي، حضور الماضي في الحاضر، وهذا هو المعنى الذي اعتمد عليه دريدا في كتابته لكتابه الشهير «أطياف ماركس» الذي استمد جوهر أفكاره من دراسة فرويد عن الغرابة 1919، وكما أشار إلى ذلك دريدا نفسه. كذلك ترتبط الغرابة - على نحو

خاص - بالانفعالات، بالاستجابات والتأثيرات، وبخاصة ما يتعلق منها بالخوف والذعـــر والرعب، وكل تلك الانفعالات التي عالجنـــا بعضها في هذا الفصل. هكذا فإن مفهوم «التناص» في النقد الأدبي، في جوهره شبحي الطابع، يشتمل على حضور الغائب في الحاضر، لكن أحيانا ما يكون حضور الغائب من خلال شـــبحه - أي تأثيره - أقوى من النص الـــذي يكتب الآن، وهنا قد نتحدث عن السرقة، أو الانتحال، أو التقليد، أو الرداءة، أو الكاتب الظل لغيره، أو غير ذلك من المصطلحات، لكنَّ كاتبا آخر قد يضمّن بعض أشباح (نصوص) الآخرين في نصـــه خفية، بعض حكايات الماضي، أو الروايـــات، أو الأعمال الفنية الأخرى، ويشـــكل ذلك كله بطريقة إبداعية جديدة، هنا ســـنعجب به، وقد نشعر بالولع الشـــديد تجاهه. ليس هناك نص هو جزيـــرة منعزلة كما يقول بعض أصحاب فكرة التناص، لكن بعض الكتـــاب والفنانين وغيرهم قد يتجاوزون هذه المقولة فيستولون على جزر الآخرين كلها.

لم يعد معنى الغرابة في الأدب مقصورا على تلك المعاني التقليدية لها والتي أشار إليها ينتش وفرويد والتي تربط الغرابة بالأشباح والأشباه والظلال وعودة المكبـــوت والموتى، وما أشـــرنا إليه كله خلال فصول عدة مـــن هذا الكتاب، بل أصبحت الغرابة فكرة عامة موجودة في عالم الحياة العادية في الشارع والبيت والسوق، وهي فكرة يمكن تطبيقها أيضا على أي نص أدبي تتداخل فيه الحدود بين الموت والحياة، وتحضر فيه آلية التكرار التي تحول الإنسان إلى آلة أو شيء، وهي صفة أساسية في ثقافة التكنولوجيا والاستهلاك والنسخ والتكرار والصور المحاكيـــة الثانويـــة الحالية والتي لم يعد فيها الفـــن - وكذلك الأدب - يحاكي الحياة، بل الحياة هي التي تحاكي عالم الفن والصور والإعلان.

4

الغرابة وتفكك الذات

«كنت أسير في الطريق مع صديقين لي، ثم غربت الشمس، فشعرت بمسحة من الكآبة. ثم فجأة أصبحت السماء حمراء كالدماء، فتوقفت وانحنيت تماما، على سياج بجانب الطريق، ثم نظرت إلى السحب الملتهبة المعلقة مثل دم وسيف فوق جرف البحر الأزرق المائل إلى السواد في المدينة، وقد استمر صديقاي في سيرهما، لكني توقفت هناك، أرتعش من الخوف، ثم شعرت بصرخة عالية لا نهاية لها تخترق الطبيعة»

الفنان النرويجي إدفارد دي مونش وهو يتحدث عن المشهد الذي جعله يرسم لوحته الشهيرة «الصرخة» (1)

نحن لن نقدم في هذا الفصل تأريخا، ولا إحاطة مدرسية بتعريفات الذات كما ترددت في جنبات النظريات الفلسفية والنفسية؛ بل كل ما سنقوم به هو أن نعرض بعض التعريفات الخاصة ببعض المفكرين والعلماء، من هنا وهناك، ثم نركز على نظرية واحدة نجدها الأقرب إلى موضوع كتابنا الحالي؛ ألا وهي نظرية المحلل النفسي الفرنسي تلميذ فرويد الشهير، جاك لاكان (1901 - 1981) .

معنى الذات

الذات - في نظرية يونغ - هي نمط أولي، أو نموذج بدائي من بين أنماط كثيرة، كالحياة والموت والليل والنهار والرجل والمرأة والله والشيطان والجنة والجحيم. وتدل

هــذه الذات أيضا على ذلك الكل المتكامل الذي يوحد بين العقل الشــعوري والعقل اللاشــعوري للشــخص، وتتحقق الذات نتيجة لعمليــة التفرد، تلك العملية الدينامية التي تسعى دوما إلى إنجاز التكامل والتميز في الشخصية، ويتم تمثيل الذات لدى يونغ أيضا بواسطة دائرة أو مربع أو «الماندالا» - رمز الكمال والاكتمال في الميثولوجيا البوذية والهندوسية - ولديه أيضا مركزان للشخصية، حيث الأنا هي مركز الهوية الواعية، في حين أن الذات هي مركز الشخصية الكلية بجوانبها الشعورية واللاشعورية كافة، كما أنها تحتوي على «الأنا» أيضا.

هكذا فــإن الذات هي كلٌّ ومركزٌ في الوقت نفســه، فــي حين أن الأنا دائرة صغيرة داخل الدائرة الكبرى الخاصة بـ «الذات»، الأنا تتعلق بالماضي والحاضر، في حين تتعلق الذات بالماضي والحاضر والمستقبل. هكذا تطمح الأنا وتسعى إلى أن تكون الذات، لكنها تظل - دائما - جزءا منها، وجانبا من جوانبها المتعددة. وتتسم الذات - لدى يونغ كذلك - بالاستقلال الذاتي، أي إنهــا تكون موجودة خارج الزمان والمكان، وهي مصدر الأحلام، وتظهر كقوة أو كشخصية ذات سلطة ما في الأحلام، وتوجه الفرد في حاضره، وقد تتنبأ بالمستقبل أيضا.

الذات - باختصار - هي الشــخص المفرد، من منظوره الخاص، الذات هي أنت، التي هي بالنسبة إلى الآخرين: ذلك الشخص الذي يتسم بكذا وكذا من الصفات، وقد يكون إدراك الشخص لذاته قريبا من الصورة الواقعية له التــي يدركه الآخرون عليها، وقد يكون هذا الإدراك مختلفا بالســلب (ومن ثم هيمنة المشــاعر الســلبية كالنقص والاضطهاد عليه)، أو الإيجاب (ومن ثم هيمنة أفكار العظمــة والتفوق والنبوغ عليه)، وقد تحدث تصادمات بين الصــورة المثالية والصورة الواقعية للذات؛ ومن ثم تكون عمليات الانقســام والازدواج والاضطراب التي سنتحدث عنها في هذا الكتاب.

ومثلما قــال هيغل بوجود تفاعــل ديالكتيكي بين الــذات والعالم، فقد امتد فلاســفة آخرون - أمثال نيتشــه وكيركغورد - بهذه الفكرة من خلال استكشــافهما لتلك العلاقات التي بين الوعي الإنساني والعالم الذي يعرفه ذلــك الوعي، ويرغب فيــه، ومثلما أعلى هيغل من شــأن المفاهيم والرموز

وتأثيرهـــا في الوعي الإنســـاني، فكذلـــك قلل «لاكان» من شـــأن الحتمية البيولوجية الفرويدية، المؤكدة لدور الغرائز والجنس والجوانب الجسمية في السلوك، وأعلى من شأن السياق الخاص بالدلالة الاجتماعية وتأثيره - ذلك السياق - في السلوك.

وفي ضوء ما قاله لاكان أيضا تقوم الذات بالإنشاء أو التكوين لنفسها من خلال استخدامها الخاص للغة، اللغة التي جعلت منا بشرا كما قال بافلوف (عالم الفســـيولوجيا الروســـي) والتي لا توجد ذات إنسانية من دونها (كما قال عالم النيورولوجي جيرالد إيدلمان) فمن أجل أن أنطق جُملا ذات معنى ينبغـــي أن أحدد موقعي الخاص كمتكلم، فلو قلت مثلا «الثلج أبيض» ينبغي أن تتوافـــر لـــديَّ أولا فكرة عامة عن معنى «الثلـــج» ومعنى «اللون الأبيض» تُستَبعَد خلالها كل الألوان الأخرى من عقلي، وكذلك أن أعرف أنني أتحدث عن شـــيء ما لا ينتمي إليّ، ليس من صفاتي، بل هو أحد موضوعات العالم التـــي قررت أن أتحدث عنها في تلك اللحظة، هكذا يحدد الكلام ذو المعنى المواضـــع الخاصة للذات المتكلمة، وكذلك تلك الأشـــياء أو الموضوعات التي يتـــم التكلم حولها، ويطلق «لاكان» على ذلك المجال أو الحقل الخاص بالدال الذي تجري خلاله عملية إعادة التشـــكيل الدائمة المستمرة للذات من خلال الكلام اسم: النظام الرمزي[5] Symbolic Order.

ذات تتشكل من خلال المعنى

هكذا تستكشف نظرية «لاكان» البنيات المختلفة للمعنى، التي بواسطتها، وداخلها، تُحدِّد الذات الإنســـانية مواقفها داخل العالم في علاقتها بالذوات الأخرى، ومثله مثل هيغل، حدد لاكان الوضع الخاص بالوعي الإنساني بأنه وعي يكون في حالة بحث دائم للوصول إلى اليقين الذاتي Self- certainity، كمـــا أنه وعي يقوم بتحويل ذاتـــه، وعالمه، خلال محاولاته الوصول إلى ذلك اليقين. ومثله مثل نيتشـــه، تبنى «لاكان» فكرة وجود ذات وهمية أو متخيلة fictional self تكون دائما على شـــفير التمزق، وعلـــى حافة التفكك، ذات ترغب دائما في التمسك بذلك الوهم الخاص بالكلية. والذي انتقده شتيرنر كما سنوضح ذلك في الفصل السابع من هذا الكتاب.

ومثلــه مثل هايدغر أيضا، تبنى لاكان القول بوجود ذات تتشــكل داخل مصفوفــة (مجموعة متفاعلة) اجتماعية من المعنى، ومن خلالها أيضا. وما أضافه لاكان إلى ذلك كله هو أنه قد أعاد قراءة فرويد قراءة لغوية، أو قراءة من منظور علم اللغة، وهي قراءة تحــدد مواضع الذوات الفردية وجذورها بالقول إنها ذوات موجودة داخل تلك المصفوفة الاجتماعية للمعاني، ومن ثم كانت ضرورة القيام كذلك باستكشاف الاستراتيجيات التي تقوم من خلالها كل ذات، ومن خلالها تنشأ، وبواسطتها تبقى وتستمر أيضا.

هذه الاســتراتيجيات في جوهرها - كما يقول لاكان - اســتراتيجيات لغوية وتمثيلية، استراتيجيات يستخدمها البشر كي يتحولوا من خلالها، إلى أشــخاص قادرين على النشاط والوجود داخل الســياق الاجتماعي الكلي. وفــي ضوء ذلك كله، لا يكــون المعنى الذي تنتجه الذات - في شــكل كلام أو كتابــة - نتاجا للخطاب الواعي الخاص بهــذه الذات فقط؛ ولكنه أيضا محصلــة لمدى كبير من السلاســل الدالة من المعاني التــي تعمل فيما وراء ذلك الوعي، أو بعيدا عنه. وإضافة إلى ذلك، فإن أي إنتاج للمعنى هو - في جوهره - أشــبه بعمليــة تكوين للذات، وإنتاج لها بشــكل جديد، مثلا عند قراءتي لنص فلســفي أو أدبي... إلخ، فإنه بالإضافة إلى استخلاصي لذلك المضمون ذي المعنى من هــذا النص، فإن عملية القراءة هذه، التفاعل، هذه المعرفة، إنما تمثل أيضا «ذاتا» ما، هي ذاتي، وهي في حالة عمل، وفي حالة نشاط، ذاتي كعملية نشيطة، ذاتي كعملية ناقدة، ذاتي كعملية تنمو وتتطور، ذاتي الدينامية، ذاتي التي ليســت اســتاتيكية، ذاتي التي تتشكل من خلال تلك العلاقات التي تتكشــف وتظهر بين صوت المؤلــف وبنيات المعنى التي يســتحضرها ذلك النص، وكذلك وجــودي معهما، مصاحبا لهما، وموجودا كذلك، كذات متطورة، على نحو ما، بعدهما [3].

لاكان والذات المتخيلة

كــي نفهم وجهة نظــر لاكان القائلة بوجود ذات منقســمة تكون غير واعية على نحو تام بذلك النشاط الدال الذي يدفع كلماتها ويحركها، أي إنها تكون شــبه واعية، أو تقف على عتبة الوعي الخاصة بها خلال ذلك

النشاط، ينبغي أن نعرف شـيئا حول مصطلحاته، وبخاصة مصطلحاته المرتبطـة بمفهوم المرآة، لـما لهذا الموضوع من أهميـة محورية في تطور مفهوم الذات لديه.

ولقد اقترح لاكان وجود مراحل ثلاث مهمة هنا هي: مرحلة ما قبل المرآة، مرحلة المرآة، مرحلة ما بعد المرآة، وهي مراحل طرحها لاكان لوصف النمو المبكر للطفل ثم المراهق والراشد، ولتحولاته السيكولوجية والإبداعية أيضا.

1 - مرحلة ما قبل المرآة: تمتد هذه المرحلة منذ الميلاد حتى بلوغ الطفل الشهر السادس، وهنا لا تتوافر لدى ذلك الرضيع - بطبيعة الحال - هوية أو إحسـاس بالذات أو لا شـعور... إلخ؛ لكنه يستمع أيضا إلى الكلمات، ويراقب العالم حوله، هنا يكون سـلوكه موجها نحو إشباع حاجاته البيولوجية خاصة، هنا تنشأ علاقة «الجزء - الكل» بينه وبين الآخرين أيضا، هنا تكون الكلمة التي يسمعها معبرة عن قرب حضور الكل النظرة المحدقة إليه كذلك، هنا الآخر الذي يشبع حاجاته قد أصبح ممثـلا ذهنيّا لديه على هيئة صورة أو كلمات، وإنه حتى في ظل غياب الأم تظهر هذه الصورة والكلمات، وتكون موجودة في عقله كبدائل لها، لكن هذه النظرات والأصوات والكلمات، وكذلك علاقة الكل بالجزء، تكون مفككة، متناثرة، متشظية، لا يجمعها كلٌّ موحد، ولا ينتظمها إدراكٌ مستمرٌ، وتعد مرحلة ما قبل المرآة هذه، ومعها المرحلة التالية - كما يقول لاكان - مرحلتين نرجسيتين، حيث لا يميّز الطفل، فيهما، بين نفسه وأشياء العالم المحققة للذة بالنسبة إليه (4).

2 - مرحلـة المرآة: وهي مرحلة نرجسـية أيضا، لكنها مهمة جدّا في نمـو الذاتية، وهي تحدث على نحو تقريبي بين سن ستة أشهر وثمانية عشر شهرا، وتتميز بوجود بهجة ما لـدى الطفل، خاصة عندما يندمج أو يتوحد مع شـكل إنسـاني كلي يظهر أمامه في المرآة، فيحدق فيه، وقد يكون شكله هو، وعندما يحدث هذا، فإنه يستمتع بذلك الانعكاس

الخـــاص بصورته في المرآة؛ وذلك لأنه يقدم له - كما يقول «لاكان» - ويعرض أمامه «ذلك الشـــكل الكلي للجسم، الذي من خلاله تتوقع الذات، بواسطة شكل متوهم، ذلك النضج الخاص بقوتها».

هكـــذا يكون ذلك الشـــكل الكلي أو الإجمالي المنعكس في المرآة شـــكلا حافلا بالمعاني؛ وذلك لأنه هو الذي سيعمل على ميلاد الذات بعد ذلك. إنه يرمز إلى الاســـتمرارية العقلية الخاصة بـ «الأنا»، ويرهص كذلك بمصيرها المغترب، بذلك الاغتراب الذي سيلحق بها بعد ذلك كما سنوضح توا.

هكذا يواجه الطفل الصورة الكلية الخاصة بالجسم، ويواجه كذلك تلك الحركات المضطربة المســـتمرة التي تحدث للصورة في المرآة التي يشعر بها وكأنها هي التي تحركه، وليس أنه هو المحرك لها. وتطلق هذه المواجهة - أو هذا اللقاء الأول - للطفل مع انعكاســـه في المرآة، ذلك الديالكتيك الذي يتم على مستوى متخيل أو تصوري، والذي يرهص أو يتنبأ بذلك التفاعل اللاحق بين الذات والآخر.

هكذا تكون الصورة الخاصة بالشكل الكلي للجسم في المرآة أشبه بالتوقع للسيطرة اللاحقة التي سيقوم بها الطفل بعد ذلك على حركاته؛ وهنا تكون تلك النواة الأولى الدالة على وجود شيء ينتمي إليّ، شيء أستطيع أن أتحكم فيـــه وأحركه، صورتي الموجودة هناك في المرآة، ذلك الإرهاص المبكر بالأنا، وهو كذلك نوع من التخيل، التوهم، يقوم على أساس الإسقاط المبكر لشيء ما لم يحدث بعد - أو يتبلور - هو الذات.

ومـــع تظاهر الطفل، أو اتخاذه لصورة ما - لشـــكل ما - أمام المرآة، فإنه يحس بالمتعة نتيجة لشـــعوره بذاته موجودة بشـــكل كلي أمـــام المرآة، بدلا من تلك الحركات العشـــوائية المتفرقة، لكنه كي يفترض أو يتخذ أو يتظاهر بهذه الصورة من الخارج يكون عليه أن يســـتدخل - أو يدخل داخل عقله - شـــيئا يأتي من الخارج، يأتي من صورته تلك التي في المرآة، من العالم الخارجي هنا.

هنا تكون الأنا البدائيـــة الأولى صورة متوهمة، صورة تُمتَص بعد ذلك، ويُتَعَامَـــل معها على أنها مصدر ذاتي للمتعة أو الألم. هنا تنشـــأ جذور ذلك الصراع الجدلي الأولي بين «أنا فعلية» و«أنا مثالية»، وبين الذات والآخر في

مراحـــل تالية من العمر. هنا المرآة هي آخر، هنـــا المرأة هي «أنا آخر»، هنا المرآة رمزٌ، رمزٌ يتســع، بعد ذلك، ليحيط بكل ما هو «آخر»، آخر نحاول أن نتكامل معه ونتحد، فإذا فشــلنا ظهــرت بذور التفكك والاختلال في الذات وعلاماتهما، وكما سنوضح ذلك لاحقا.

هكذا يقول لاكان بوجود جدل أو تفاعل بين الذات والآخر، يقوم على أســاس ذلك الافتــراض الذي يتبناه الطفل - وكذلك الراشــد - بوجود صورة ما في شكل «كلية ما» تتناقض تماما مع تلك الحركات والاستجابات المفككة المتجزئة التي يشعر الطفل بوجودها لديه. هكذا يكون هناك وَهْمٌ ما، تخيلٌ ما لوجود كلية ما مستمدة من الخارج، من شكله - أي الطفل - الكلي في المرآة، وهي صورة يتوحد الطفل معها، درجة بعد درجة، خلال تماهيــه التفاعلي مع الآخر؛ ذلك الكلي، المتكامــل، لكنه الوهمي أيضا، الموجود في المرآة (5).

هنا نوع من التنافس والصراع بين ذات كلية متكاملة متخيلة، وإحساس داخلي بالتفكك والتجزؤ والتشــظي، هنا تدافع تلــك الأنا الأولى المبكرة عن نفســها بشكل عدواني ضد ذلك الشــعور بالتفكك والانقسام، وضد كل ما يستثير هذا الشــعور أيضا، ويتم هذا الدفاع من خلال التوحد مع موضــوع ما يكون غريبــا عنها، وقد كان ذلك الموضــوع موجودا ومماثلا لهــا أولا في المــرآة، لكنها، ومع إدراكها عبر العمر أنها لا يمكن أن تتوحد مع نفســها فقط كي تصل إلى تلك الصورة الكليــة المتوهمة أو المتخيلة، فإنها لا بد أن تكتشــف موضوعات أخرى خارجها، تتوحد معها، هنا قد تتوحــد هذه الأنا مع موضوعات مثــل الأب، الأم، الإخوة، المعلمين، بعض الحيوانات والدمى النســيجية، ثم تبلغ هذه العمليــة ذروتها بالتوحد مع الأعمــال الإبداعية والفنية، مع مُثُل وقيم ومبادئ وأفكار ونظريات تنتمي إلى أزمنة أو أمكنة أخرى. كما أنها عندما قد تفشل في الوصول إلى نوع مناسب وتكيفي من التوحد، قد تخلق بدائل متوهمة تتوحد معها، كالقرين والظل، والأنا الأخرى، وغيرها، وقد تعبر عن هذه البدائل وتجسدها في أعمال إبداعية، أو قد تستغرق في أحلام يقظتها أو هذيانها. وقد تقع في براثن المرض أو الجنون.

هكــذا يتم – عبر العمر – الامتداد بفكرة الآخر كي تشــمل ليس فقط الأفــراد والآخريــن الذين تتوحد معهــم الذات؛ بل أيضــا الأفكار والصور واللوحــات والأعمال الأدبية، والذات الأخرى المثالية المتوهمة المتخيلة، غير الموجودة أو المتحققة، التي يتم الســعي نحوهــا، والطموح في اتجاهها، في رحلــة متواصلة دائمــة لتحقيق الذات، رحلة قد لا تنتهــي لدى البعض إلا بالمــوت، أو بالزهد والتصــوف والعزوف عن كل أشــكال الرغبة والصراع، وقد تســتمر هذه الرحلة بصراعاتها وإحباطاتها وتوقعاتها المحيطة، فتؤدي إلى تفكك الذات وتشــظيها مرة أخرى، أو تؤدي بهــا إلى الجنون والغرابة والاغتراب. ومثلما يحتاج الطفل الصغير إلى اســتجابات ممتعة من جانب الأم، كي يشــعر بذاته ككيان مستقل قادر على الفعل والتأثير، فكذلك يكون الإنسان الراشد في حاجة إلى استجابات خاصة بالقبول والتقبل والتشجيع والإعجاب من الآخرين، وإلا ظلت ذاته قريبة من تلك المرحلة المبكرة الأولى الخاصة بالتفكك والانقســام، وهنا نتذكر مقــولات ليفيناس عن أن الذات الإنســانية إنما تتحدد في ضوء توقها الدائم إلــى الآخر [6]. هنا الذات لا تصل إلى تلك الصورة المبكرة الكلية المتخيلة لديها عن الأنا والعالم إلا بهذا الحضور الإيجابي الخاص للآخر في حالات غياب هذا الحضور الإيجابي، ثــم في حضور بدائل أخرى ســلبية وعدوانية ومحبطة لــه تُحدِث كل تلك الأشكال السلبية من التفكك للذات، والانقسام لها، في علاقتها بنفسها، وفي علاقتها بالواقع والآخرين، كما تحدثنا عنها في هذا الكتاب.

وهكذا فإن حاجة الطفل إلى أن يحصل على ذلك الاعتراف من الآخر (خاصــة الأم في البداية)، وأن يكون مرغوبا فيه، تجعله ينصاع أو يتوافق مع رغبات هذا الآخر، وتُسَجَل هذه الحاجة غير المتمايزة وتُكبَت، مع زيادة وعيــه بأنه قد أصبح موضوعا لصوت الآخر، ولنظرته المحدقة. وتدريجيّا لا تســتطيع الأم أن تلبي كل رغبــات الطفل، وتدريجيّا تقوم، خلال عملية التنشئة الاجتماعية له، بفرض مطالب عليه، بأن يُشبع بعض حاجاته بنفسه، وتدريجيّا تطالبه بإرجاء الإشباع لبعض المطالب والرغبات، وتدريجيّا يدرك أن هذه الأم غير كاملة، وغير مشــبعة، بل أحيانا محبطة، تدريجيّا يشعر بالانفصال عنها، تدريجيّا يشــعر بالاستقلال عنها، ويبحث عن بدائل لها،

تدريجيًا تتشكل ذاته في ضوء علاقات أخرى مع آخرين أو موضوعات غيرها، يظن ويعتقد أنهم قد يشبعون حاجاته ورغباته، مثلما كانت الأم تفعل في البداية.

هكذا يمر الأطفال - كما يقول لاكان - في «مرحلة المرآة» بتلك البداية الخاصة بالإحساس بالذات، وكذلك ببداية الانفصال عن الأم، ومن ثم فإنهم يبدأون في تأسيس «الأنا» الخاصة بهم من خلال عملية النظر إلى صورة الجسد في المرآة، صورة جسدهم الخاص، أو جسد الأم، أو جسد الآخرين غيرها، ويتعرف الأطفال الصورة الموجودة في المرآة على أنها تشبههم، وأنها تختلف عنهم أيضا، ومع أنه لا يكون في مقدورهم جسديًا التحكم أو الإمساك بالصورة التي في هذه المرآة، فإنهم يتخيلون أن لديهم تحكما أو سيطرة عقلية عليها. هكذا يكون فعل النظر والتخيل الذي يقوم على أساس ما يرونه أمرا حاسما في إحساسهم بالتحكم والسيطرة على الجسد الذي في الصورة. هنا يتخيل الطفل أنه يستطيع أن يتحكم في جسده الذي في الصورة الموجودة في المرآة، لكنه لا يستطيع أن يقوم بذلك فعليًا. هكذا تزود مرحلة المرآة الأطفال بإحساس ما بوجودهم كأجساد مستقلة في مواجهة أجساد أخرى متخيلة قريبة منهم، وبعيدة عنهم أيضا. هكذا يرى الأطفال أنهم هم وصور المرايا شيء واحد (توحد)، لكنهم في الوقت نفسه يرون أن هذه الصورة التي في المرآة صورة مثالية متخيلة، بعيدة عنهم، ومختلفة أيضا. (انفصال وربما تفكك أو اختلال أو جنون).

هكذا تكون مرحلة المرآة مرحلة متعلقة بالتعرف، وبسوء التعرف أيضا، وهكذا يكتشف الطفل ذاته، عبر الآخر، في المرآة أيضا، هكذا تكون البدايات الأولى لتشكل الذات؛ تلك الهوية التي سيجري تكوينها من خلال تلك الآليات الخاصة باللاشعور والرغبة واللغة وعبر العمر [7].

الموضوع الانتقالي التحولي

خلال عملية الانتقال من مرحلة الاعتماد التام على الأم إلى مرحلة الاستقلال النسبي عنها، يحدث نمو خاص للذات، فيتعلق الطفل بموضوع انتقالي (لعبة صغيرة ناعمة - دب من الفراء - بطانية - وسادة... إلخ)

تكون له الخصائص المريحة والناعمة نفسها الخاصة بالأم وملمسها. ويدرك الطفل هذا الموضوع الانتقالي على أنه يمثل جانبا أيضا من الذات (من حيث تعلقه به وعلاقته معه)، وجانبا من العالم الموضوعي أيضا، جانبا من الذات، وجانبا من الآخر، الآخر المتخيل هنا، لكنه آخر متخيل، محسوس، ملموس، يتم اللعب والحوار معه، ويمثل ذلك - كما يقول وينيكوت - تمهيدا أو وعدا بما سيقوم به الراشدون بعد ذلك من توظيف للموضوعات الثقافية المختلفة في أنماط سلوكية عدة، قد تكون هذه الموضوعات أعمالا فنية، أو ممتلكات، أو أفكارا، أو غير ذلك.

هكـذا يكون هذا الموضوع الانتقالـي أو التحولي قادرا على أن يقيم صلات أو روابط بين العالم الداخلي للذات والعالم الخارجي لها، وعلى إقامـة نوع ما من الوحـدة والتكامل بينهما. هنا نوع من التعلق أو الحب الذي يُسـقَط على موضـوع أو على آخر، واقعـي أو متخيل، هنا تعلق بموضوع أو شـخص من خلاله تنمو الذات وتتطور، أما لو ظلت متعلقة به، مثبتـة عليه، فإن ذلك قد يمثل نوعا مـن الإعاقة لنموها وتطورها العام؛ ومن ثم صدمة وفشلا في التكيف مع التغيرات الضرورية اللاحقة الخاصـة بضرورة تغيير أنماط العلاقات بين الذات والآخر والواقع في ضـوء ما يحدث للفرد من نمو جسـمي، وعقلي، واجتماعي. وقد تؤدي هـذه الإعاقـة أو الصدمة إلى ظهور بعض تلـك الرغبات المكبوتة التي تنتمـي إلى مراحل مبكـرة من النمو، ويكون ظهورهـا ذلك غريبا، إنها رغبـات قد تكون مألوفة، ولكنها قد كُبِتَت فعادت مرة أخرى في سـياق زمني (مرحلة متقدمة من العمر) من غير المألوف أن تظهر فيه؛ ومن ثم يكون ظهورها ذلك غريبا أيضا [8].

3 - مرحلة ما بعد المرآة: يكون الانتقال من النرجسية إلى مرحلة الموضوع أو التعلق بالموضوعات، مميزا لدى لاكان بحدوث فقد ما، فقدان ما، خسارة مـا، وبخاصة فقدان تلك العلاقة المبكرة بين الأم وطفلها، وخسـارة كل ما كان يرتبـط بها من دفء وحنـان ورعاية ومواجهة مع عالم يحبط الرغبات ولا يشبعها، مع سلبية وتجاهل يواجهانه في مقابل تلك الإيجابية والاهتمام اللذين كانا، هنا لا بد - كما قلنا - من خلق بدائل، بدائل قد يسـقط عليها

هو نفســـه اهتماماته ومشـــاعره ورغباته، ومن خلالها يحقق بعض التوازن لذاته، هنا يشـــعر الطفل بأنه ليس مكتفيا بذاته، وأنه في حاجة إلى بعض الموضوعات كي يكمل بها هذه الذات، لكنه يشعر أيضا بأن تلك الموضوعات غائبـــة أو مفتقدة، قابلة للفقـــد والانفصال عنه أيضا، هنا يبحث عن أرض ثابتـــة أخرى، ويجد ضالته في الأب، وفـــي اللغة، هنا يمنحه الأب والمجتمع تلـــك القوة الرمزية الخاصة باللغة والكلمات؛ وذلك لأن هذه اللغة لها القوة المميزة لها، القادرة على استحضار الغائب، ولها كذلك قدرتها على مساعدة الطفل على التعويض وإيجاد بدائل لفقدانه للأم. هنا يستطيع الطفل أيضا أن يؤجل رغباته، أن يشـــكلها كتمثيلات عقلية ورغبات يلهو بها حتى يحقق الإشباعات الفعلية؛ ومن هنا كان ذلك الحديث المتكرر لدى مفكرين كثيرين عن قوة اللغة وســـلطتها ومن هنا كان الحديث أيضا عن قوة الأدب - والفن عامة - وسلطته [9].

الإزاحة والإحلال

يقول لاكان أيضا إن الطفل خلال رغبته في أن يكون مرغوبا، يتوحد مـــع موضوع ما كان يبدو موضوعا لرغبـــة الأم؛ ألا وهو الأب، هنا أيضا يتوحد الطفل مـــع صورة متخيلة للأب، صورة تتعلـــق بقوة الأب، صورة يرى فيها ذاته في مثل قوة الأب وحضوره، صور متخيلة متوهمة لشـــيء لـــم يأت بعـــد، لذاته القوية التي لم تتحقق بعد، لكـــن هذا التوحد كثيرا ما يعاق أيضا ويعدل بواســـطة تلك القيـــود والضوابط التي تفرض على الطفـــل داخل المصفوفة الرمزية لعلاقات القرابة والعلاقات الاجتماعية التـــي تؤكد ضرورة أن يكـــون الطفل متعلقا بأمور وأشـــخاص غير التي يتعلق بها الأب، هنا يكون نوع من الصراع الديالكتيكي بين الذات الفعلية للطفل بكل جوانب القصور والنقص الخاصة بها، والتي تعجز من خلالها عن إشـــباعه رغباتهـــا من ناحية، وبين الذات المثاليـــة التي تقارن الذات الواقعية أو الفعلية نفســـها بها من ناحية أخرى، وتتوســـط هذا الصراع سلسلة متتابعة من عمليات التوحد مع آخرين داخل المصفوفة الاجتماعية للعلاقات الرمزية.

هكـــذا تحدث عمليات إزاحة وإحلال فـــي عمليات التوحد، لبدائل للأم والأب، فتحـــدث عمليات اندماج الأطفال والمراهقين والراشـــدين مع بدائل ثقافيـــة أخرى، مع هوايات ومهن، مـــع الأدب، والعلم، والفن، والتكنولوجيا، والألعاب الرياضية، وأبطال السينما، والمسرح، مع الأفكار الدينية والسياسية وغيرها وذلك لتعويض ذلك الفقد الذي يشعرون به، بدلا من ذلك الاندماج التلقائي الذي كانوا يقومون به خلال مرحلتي ما قبل المرآة والمرآة ذاتها.

خلال مرحلة ما بعد المرآة تكتسب الذات القدرة على ممارسة العمليات الثانوية الخاصة بالتفكير الواعي في مقابل المرحلتين السابقتين اللتين كانت تهيمـــن عليهما العمليـــات الأولية الغريزية على نحـــو واضح. هكذا يفصل الطفل نفسه تدريجيّا عن أمه، عن ذلك الإحساس الخاص باستمرار علاقته البيولوجيـــة معها، واعتماده عليها، ثم إنه يفصل ذاته أيضا عن الأنا المثالية التـــي في مرحلـــة المرآة، ثم إنه ينفصـــل - أخيرا - عن ذاته نفســـها، ذاته الواقعية؛ من أجل أن يجد لنفسه مكانا في نظام الرمزية الخاص بالمجتمع؛ وهكذا فإن تلك العملية التي تشكل الذات المتكلمة، الذات التي تجد نفسها في اللغة، وتعبر عن نفســـها من خلال اللغة، الذات التي تجد لنفسها مكانا ومكانة في العالم بواســـطة اللغة، هـي العملية نفسها التي يتشكل اللاشعور من خلالها أيضا، وبواســـطة عمليات الانفصال المتتابعة التي تشكل مراحل متطورة للذات تفصلها عن مراحل ســـابقة لها أقل تطورا، مراحل تُكبَت في اللاشعور، لكنها قد تعود بعد ذلك في أشكالها وتأثيراتها الغريبة، قد تعود في الأحلام والكوابيس، في اللغة والأدب، أو في الحياة والفن بشـــكل عام، وقد تكون عودتها هذه غريبة، وقد تكون أحيانا بالغة الغرابة فترتبط بالتفكك والانقسام والازدواج وحتى الجنون.

الأنا والمجتمع

كما أوضـــح لاكان، فإن الذاتية دائما غير كاملة، وناقصة؛ ومن ثم فإنها تُكوِّن نفســـها دائما من خلال عمليات وأفعال التوحد والتمثيل الرمزية [10]، ويـــؤدي الفراغ دورا كبيرا لـــدى لاكان، والفراغ معناه فقدان المعنى، الافتقار إلى المعنى، العجز عن التوحد مع رموز. ويرتبط وجود الفراغ بظهور الغرابة؛

وذلك لأن الفراغ في ذاته غريب، صدع في المعنى، مسافة بين المألوف وغير المألوف، بين العالم كما كنا نعرفه مألوفا قبل الفراغ، ثم كما أصبحنا نعرفه بعد الفراغ أو الصدمة أو الفقد.

وفقا لما قاله لاكان، يدخل الفرد في شبكة من العمليات الرمزية، نظام التداول الذي يقوم بتمثيله لدوال أخرى، وهذا النظام يفشل كلية، فتظهر فجوة بين الذات وعملية التمثيل الرمزي للعالم، هنا تصبح الذات نفسها فراغا، مفتقرة إلى المعنى، وتتشكل هوية الذات من خلال ذلك الافتقار إلى المعرفة، الافتقار إلى المعنى، النقص في التمثيل، سوء الفهم الجيد، العجز عن تعرف نفسها في الصور العقلية الخاصة بالإنسانية، شعورها بالخوف من نفسها ورعدتها، لكن هذه الخبرة لدى «لاكان» جوهرية أيضا في تكوين بنية الذات، وفي عملية التوحد؛ وذلك لأن الفرد المنقسم هكذا، الناقص هكذا، العاجز هكذا، يسعى جاهدا، هكذا، إلى الوصول إلى التعرف إلى ذاته، إلى المعرفة بذاته والعالم داخل النظام الرمزي من خلال سلسلة من عمليات التوحد، التي تكون أيضا غير كاملة في النهاية، وعندما يمثل الواقع فراغا داخل النظام الرمزي يحدث الانقسام والاضطراب، يصبح الإحساس بالواقع مفككا، وعندما نواجه هذا الفراغ نشعر بالغرابة بكل ما يصاحبها من أحاسيس (تأثيرات) مصاحبة خاصة بالاغتراب [11].

وترتبط الغرابة لدى لاكان بعملية النظر، بالنظرة المحدقة، بما يسمى التمويه والصور المموهة، بذلك الشعور بأنه في تلك اللحظة التي ينظر فيها الإنسان إلى العالم، فإن العالم ينظر إليه أيضا. وقد استخدم لاكان هنا المثال الخاص بلوحة «السفراء» التي رسمها هانز هولباين، حيث يضطرب تأملنا ونظرنا إلى الشخصيتين اللتين ترتديان ملابس فخمة تدل على العظمة - داخل اللوحة - عندما تقع عيوننا على شيء في منتصف أرضية الغرفة، شيء لا ندركه للوهلة الأولى عندما ننظر إلى اللوحة، شيء يبدو مثل «محو»، أو «ظل»، أو تحريف ثلاثي الأبعاد، جمجمة تنظر إلينا أسفل هاتين الشخصيتين المفعمتين بالفخر والقوة، موت يجثم أسفل الحياة، غرابة تحضر مع الألفة، هنا يضطرب إحساسنا الجمالي باللوحة، حيث لا يكون شعورنا الجمالي «كما ينبغي أن يكون»، وتكون الخبرة هنا غريبة؛ لأن

إحساسنا بالعالم الخارجي الذي نسعى إلى السيطرة عليه من خلال قوة النظرة، إحساس يضطرب بنوع ذلك التحريف الذي في النظام الموضوعي للعالم نفسه، حيث تمثل الجمجمة في اللوحة صدمة الموت، الشيء الذي لا يمكن السيطرة عليه، أو ترميزه على نحو تام، الحد النهائي لوجودنا، الذي يظهر لنا لا يقين موضعنا أو ثباته في النظام الموضوعي للعالم. كما يشير هذا التحريف، المتمثل في الجمجمة، وفي خبرتنا الذاتية بالعالم - مرة أخرى - إلى ذلك البعد الخاص «بالواقعي»، إلى الصدمة التي كانت مكبوتة أو خفية، لكنها التي تعود أيضا - مع ذلك - كي تحدث الاضطراب في نظامنا الرمزي. وهكذا فإن «الواقعي» - وفقا لما قاله لاكان - هو ذلك الذي يعود دائما إلى المكان نفسه، إلى المكان الذي يعتقد الفرد فيه أنه كان فيه من قبل. هنا عظمة الشعور بالحياة كما تتجلى في حالة الزهو التي كان عليها هؤلاء السفراء، وكذلك ملابسهم الفخيمة، ثم الجمجمة التي تدل على الموت تحدق بهم وكأنها تسخر منهم، لكنها سخرية «غروتوسكية» مخيفة أيضا.

لوحة «السفراء» للفنان هانز هولباين، 1533، (زيت على بلوط، 209.5 X 207 سم)

هكذا يكــون هذا الغياب الشــبحي، الذي تقع الذات فــي براثنه، هذا الأثر المتبقى من الصدمة المكبوتة، والذي يعود دوما كي يســكن هذا النظام الموضوعــي، هــو - على نحو شــبه تــام -، جوهر خبرة التفــكك؛ ومن ثم الازدواج[12]، وهذا ما سنوضحه فيما يلي.

بدايات التفكك

عند نهاية القرن التاســع عشــر، لاحظ وليم جيمس - عالم النفس والفليســوف الأمريكي الشــهير، وأحد المؤيدين المبكريــن لفرويد في الولايــات المتحــدة - وجود علاقة قوية بين حالــة الذهول التي تحدث لبعض الناس بعد تلقيهم إحدى الصدمات العنيفة، وذلك الشــعور غير المرتبط بزمن معين، أو الذي يحدث عنده ومعه اختلال الشعور بالزمن والمكان، ذلك الإحساس المهيمن على الفرد، والذي يجعله يشعر بالغرابة. وقد استشــهد جيمس بمــا قاله أحد المرضي المقيمين في مستشــفى للأمراض العقلية، حيث قال: «إنني أشعر وكأنني أعيش في قرن آخر». وكتــب مريض آخر يقــول: «تتحرك الناس كالظــلال، وتبدو الأصوات بالنســبة إليَّ وكأنها تأتي من عالم بعيد»، في حين أشــار مريض ثالث إلى اعتقاده أن «الأمر يبدو وكأنني لا أســتطيع أن أرى أي واقع، كما لو أنني كنت في مسرح، وكما لو كان الناس ممثلين، وكل شيء أشبه بمشهد مســرحي، إنني لا أستطيع أن أجد ذاتي.. إنني أمشي، ولكن.. لماذا؟ ثم إنني أذرف دموعا كاذبة، ويداي لم تعودا حقيقيتين، والأشياء التي أراها لم تعد كذلك، أشياء حقيقية [13].

هكذا يصبح بعض الناس فرائس للدهشة العميقة - كما قال جيمس - فالغربة شيء غير مريح، واللا واقع «لا يمكن أن يكون موجودا، لكن إذا كان العالم الطبيعي ذا وجهين هكذا، وغير أليف، هكذا، فما العالم الحقيقي؟ وما الأشــياء التي يمكن أن تكون واقعية؟». وهنا استخدم عالم النفس الأمريكي (الــذي كان يعرف الألمانية بطلاقة) الصفة «غيــر أليف» Unhomlike، أو: لا يشــبه البيت الحميــم المألوف، وهي الكلمة الأقــرب إلى المصطلح الذي اســتخدمه فرويد بعد ذلك، وهــو uncanny، أي الغرابة، وذلك من أجل أن

يصف ذلك الشعور الذي يتزايد لدى المرء ويجعله يشعر بأنه يعيش في عالم غير حميم أو مألوف، يدفعه نحو التعجب والتساؤل والاستغراق في أفكار نظرية، أو ميتافيزيقية.

ولقد أُدرِكَتْ هذه الحالة على أنها نوع من الاضطراب السيكولوجي في الوعي بالذات، على أنها زملة أعراض وليست عرضا واحدا، زُملة أعراض تحتوي على شعور الفرد بأن العالم يبدو بالنسبة إليه غريبا، دخيلا، غير مألوف، أشبه بحلم، وأن الأشياء تبدو له - خلالها - أقل من حجمها أو أكبر، أو أنها مسطحة، كما تبدو الأصوات هنا وكأنها تأتي من بعيد، وتبدو الصور الخيالية آلية، والخيال صعب المنال، والانفعالات مفتعلة.

ومن بين الاستعارات الكثيرة المثيرة للحيرة التي يستخدمها هؤلاء الأفراد الذين يشعرون بالغرابة والغربة أيضا أنهم يقولون إنهم «كأنهم كانوا قد فقدوا الشعور بشخصياتهم، إنهم يحسون بأنهم كما لو كانوا يرون أنفسهم، يشاهدون فيلما، وهذا نوع من الشعور غير السار بالمشاهدة للنفس، بأن الشخص شديد الانتباه لذاته فقط»[14]، هنا انقسام بين ذات تلاحظ وذات أخرى تقوم بالفعل أو الأداء، في أبلغ صورة لماذا؟ لأن هذا الانقسام يصبح موجودا ليس داخل العقل فقط؛ ولكن خارج الجسم أيضا، خبرة تتعلق بأشياء تدور خارج الجسد، تكون صحيحة بالنسبة إلى صاحبها فقط، وليس إلى غيره من الناس؛ ومن ثم فهي تخرج من مرحلة الهذاءات والأفكار العقلية الداخلية إلى مرحلة الهلاوس التي تتجسد في أشكال وصور وحركات خارجية.

اختلال الشعور بالواقع والشخصية

في ثلاثينيات القرن العشرين، قام الطبيب النفسي الألماني فلهلم ماير غروس بمراجعة النظريات ودراسات الحالة والتأملات الخاصة بهذه الظاهرة في مقاله المعنون «حول اختلال الشعور بالشخصية»، وأوضح الفروق بين اختلال الشعور بالواقع Derealization واختلال الشعور بالذات أو الشخصية Depersonalization، وقال إنهما تجليان ظاهران لما يمكن أن يكون المرض نفسه والاضطراب نفسه، وقد أشار هذا العالم كذلك إلى

ذلك الطابع المتكرر لمثل تلك الحالة، وكذلك إلى صعوبة وصفها بالكلمات، أو مقارنتها بأية حالة نفسية أخرى، وكذلك إلى ظهورها المفاجئ لدى الفرد من حيث لا يدري، ثم اختفائها، ثم ظهورها واستمرارها فترة أطول بعد ذلك.

في كتابه «الأشكال المختلفة للخبرات الدينية»، الذي نشر عام 1902، وفي فصل عنوانه «الروح المرضية»، أعاد وليم جيمس نشر كلمات كاتب فرنسي وصف خلالها هذه الحالة عندما قال: «لقد ذهبت إلى غرفة ملابسي، وفي الغسق هبط عليّ ذلك الشيء فجأة دون إنذار مسبق، كأنه جاء من الظلام، خوف مرعب يتعلق بوجودي الخاص، وفي الوقت نفسه ظهرت في عقلي صورة مريض بالصرع كنت قد رأيته في المستشفى، شابٌ شعر رأسه أسود أميل إلى الاخضرار، أبله تماما كما اعتاد أن يجلس طول النهار على أحد المقاعد، أو على ما يشبه الرف بجوار الجدار، وقد كان يجذب ركبتيه فتحيطان بوجنتيه، وقد كانت الملابس الداخلية الرمادية الضيقة هي الملابس الوحيدة التي يملكها». ويستطرد الكاتب في وصف حالة ذلك الشباب البائس، كما يصف كيف امتزجت صورة ذلك الشاب بصورته هو الخاصة، وخاف - على نحو مرعب - من أن يلقى مصير ذلك الشاب، أو أن يصبح مثله، ثم إن الكون قد تغير بالنسبة إليَّ كلية بعد ذلك» (15).

على كل حال، فإنه كثيرا ما يصف هؤلاء الأشخاص - الذين تصيبهم هذه الحالة - أنفسهم بأنهم «قد فقدوا روحهم، أو أن روحهم قد غادرتهم». وكما وصفهم جيمس أيضا في فصل بعنوان «واقعية غير المرئي»، «فإن الشخص الذي يعاني اختلال الشعور بالواقع وبالذات، وبأن الأشياء قد أصبحت غير واقعية، على غير حقيقتها، قد يدمره الألم، ويقوده إلى الانتحار» (16).

والمهم هنا أن فرويد قد أضاف إلى ذلك أيضا قوله إن اختلال الشعور بالشخصية يقودنا نحو حالة غريبة خاصة «بالضمير المزدوج»، وهي تلك الحالة التي يمكن وصفها على نحو دقيق بأنها «شخصية منقسمة» (17).

في دراسات أخرى تالية، ركَّز علماء آخرون على فكرة الذات أو الأنا، وقالوا إن اختلال الشعور بالشخصية هو دال على إحساس ضعيف غير متكامل بالأنا أو الذات ناتج من صراعات خاصة بعدم الكفاءة وعدم التكامل بين مكونات الذات من ناحية، وبينها وبين الواقع من ناحية أخرى. وقد

نظر علماء كثيرون إلى هذه الحالة على أنها آلية دفاعية يقوم بها المرء ضد مجموعة من المشاعر والصراعات والخبرات السلبية عندما تعجز الآليات الدفاعية التكيفية الأخرى عن القيام بدورها، أي إنها نوع من الدفاعات التي تقيمها الذات لحماية نفسها من القلق ومصادره المتنوعة.

وهناك عدد كبير من الخصائص جاء ذكره في كتب الطب النفسي الحديثة، وفيها وُصِفَت هذه الحالة بأنها «إحساس دائم ومقلق بالغرابة»، قد نعرفه على أنه اضطراب انفعالي، فيه تكون هناك مشاعر بلا واقعية الأشياء والحياة، مع فقدان الاقتناع بالهوية الخاصة للفرد، وكذلك الإحساس بالعجز عن التحكم في حركات جسد المرء الخاصة. وتنقسم أعراض تغير الواقع هذه إلى نوعين: الإحساس بالتغير في الشخصية، والإحساس بأن العالم الخارجي نفسه قد أصبح غير واقعي؛ هنا يشعر المرء بأنه لم يعد هو نفسه، لكنه قد لا يشعر بأنه قد أصبح شخصا آخر؛ ومن ثم فإن هذه الحالة ليست من قبيل تلك الحالات التي تسمى تحول الشخصية، بل إن ما يحدث هنا هو أن الخبرات تفقد معناها العاطفي أو الانفعالي، وتصطبغ بإحساس مخيف أو مرعب بالغرابة - واللاواقعية - وقد تكون بداية ظهور هذه الحالة متسمة بالحدة والفجائية، وتجيء عقب حدوث صدمة انفعالية قاسية، وقد يكون ظهورها متدرجا، ويعقب حدوث ضغوط انفعالية وجسمية طويلة وممتدة، ويتكرر ظهور هذه الحالة لدى الشخصيات المتسمة بالذكاء والحساسية ورهافة المشاعر، والميل إلى الانطواء، وكذلك لدى أصحاب النمط الخيالي من البشر.

هنا قد يقول المريض أيضا إن مشاعره متجمدة، وأفكاره غريبة، وإن هذه الأفكار تحدث له «كما لو كانت تتم من خلال حركات ميكانيكية»، و«كما لو» كان هو نفسه آلة أو إنسانا آليا automaton؛ وهنا تبدو الأشياء والبشر له غير حقيقيين، بعيدين عنه، يفتقرون إلى اللون العادي، والحيوية، وقد يشعر من يقع في مثل هذه الحالة أيضا، بأنه في حلم أو غشية من أمره، وأنه مرتبك، وفي حيرة، بسبب تلك الغرابة الخاصة بمشاعره، وبلا واقعية العالم، ثم إنه يجد صعوبة في التركيز، وقد يشكو من أن عقله قد مات، أو أنه توقف عن التفكير [18].

وهكذا فإن الشعور بالانفصال أو الانعزال والغرابة، وكذلك الوعي بهذا الانفصال، هو جوهر هذه الحالة، وعلى الرغم من كل تلك الأعراض المذكورة المصاحبة لها، فإن هناك أعراضا مهمة أخرى تؤكدها - على نحو خاص - كتيبات التشخيص الطبي الحديثة، ومنها:

1 - اختلال الشعور بالواقع، أو الشعور بأن العالم الخارجي نفسه غريب أو غير واقعي.

2 - الماكروبيزيا Macropasia والميكروبيزيا Micropasia: وهو نوع من الشعور بالتحول الغريب والتبدل في أحجام الأشياء وأشكالها بحيث تبدو أحيانا أصغر من حجمها مثلا (الميكروبيزيا)، وأحيانا أكبر (الماكروبيزيا).

3 - الآلية الشعورية: قد يشعر بعض الأفراد هنا بأن الآخرين يبدون لهم غير مألوفين، أو أنهم آليون يتحركون ويتكلمون بطريقة ميكانيكية. هناك إضافة إلى ذلك: أعراض القلق، القلق الطليق غير المحدد المصدر أو السبب، القلق الهائم، والأعراض الاكتئابية، والسلوكيات الوسواسية القهرية، والانشغالات الجسمية النفسية، والأعراض المتكررة المصاحبة لنوبات الفزع الشديد والتي تعقبها أيضا[19].

4 - الإحساس المتحول بالزمن: هنا يحدث اضطراب وتشوه لإدراك الزمن كشكوى متكررة لدى الأفراد الذين يعانون هذه الحالة. وكما وصف شورفون Shorvon هذا النوع من الاضطراب هنا، فإن هناك حالة من العجز عن استحضار الماضي على نحو جيد أو واضح، وصعوبة كذلك في التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل، لكن المفارقة أيضا أن هناك سرعة واضحة يتحرك من خلالها الزمن ويمر، كما لو كان يسحب أو يجر عبر مساره، فيبدو الماضي القريب هنا، بعيدا جدّا، بالإضافة إلى عجز في القدرة على الحكم على طول الزمن أو مدته، إنهم يبدون كأنهم لا تنطبق عليهم مقولة إينشتين «إن المبرر الوحيد للزمن هو ألا يحدث كل شيء في

> اللحظة نفسها»، فهم يكونون غير قادرين على التمييز - على نحو جيد - بين الماضي والحاضر والمستقبل، فالزمن كله كأنه يوجد وتحدث فيه الأشياء بالنسبة إليهم كالحلم أو الكابوس، خلال لحظة واحدة، أو خلال زمن واحد.

كذلك قد يشعر هؤلاء الأشخاص بأن الأحداث القريبة التي حدثت لهم تتراجع وتصبح منتمية إلى الماضي البعيد، بل إن بعضهم يفقد القدرة على الشعور بالزمن أو الإحساس به، أو تقديره، على نحو دقيق، أو يعجز عن إدراك العلاقات المناسبة بين الماضي والحاضر والمستقبل معا، فيما يسمى «منظور الزمن»، حيث يتولد إحساس لديهم بانقطاع الصلات بين الماضي والحاضر والمستقبل. ويرى بعض العلماء أن التشوهات أو التحريفات التي تحدث في منظور الزمن، تؤدي دورا مركزيّا في اختلال الشعور بالشخصية، وكذلك اختلال الشعور بالواقع. وهذا الارتباط بين الانقطاع الزمني والشعور باللاواقع، أو عدم حقيقة الواقع، قد أكدته دراسات كثيرة.

ومنظور الزمن له ارتباطه بالمنظور المكاني، وهذان لهما ارتباطهما بالمنظور الشخصي، فالشخص بلا مكان، ولا زمان، شخص غريب، فاقد للشعور بالشخصية والواقع.

في مشهد من مجموعة وفي قصة «وردية ليل» للكاتب المصري إبراهيم أصلان من الليل الموحش، والأماكن المفتوحة والمعتمة، وعالم من البشر الذين يعملون في استقبال البرقيات وإرسالها، شخصيات منعزلة وحيدة في عالم موحش غريب، لفت نظري من بينها شخصية الحريري، ذلك الموظف صاحب الوجه النحيل الشاحب، واللحية النابتة البيضاء، والعينين الحمراوين بلون الدم، والذي يبدو وكأنه، بسبب غربته واغترابه، بسبب حياته الطويلة المرهقة الجافة في عالم الليل المتكرر الروتيني هذا، قد اختلط لديه الزمان فلم يعد يدرك الصباح من المساء، ولا الليل من النهار، فأصبح يطلق الأذان ويدعو الناس إلى الصلاة في غير مواقيتها، بعد أن ينتصف الليل بزمن، وقد كان صوته - كما يقول إبراهيم أصلان - «يتردد ضعيفا في ضوء عشرات من لمبات النيون المعلقة. وأثناء التكرار، كان يمد هذا الصوت ويمده حتى يحتبس، ويضيع، ثم ينفلت بعيدا ويأتي مسموعا مرة أخرى»، وكان يؤذن

بــكلام مبهم غير مفهوم، لكنه له نغمــة الأذان، لقد أصبح الأذان هنا، دلالة على الآلية والنمطية والتكرار والغرابة التي سقط الحريري في براثنها بفعل ونمطية حياته، وآلية عمله. لقد اختل لديه الشــعور بالزمان والمكان، وفقد إنسانيته، وصار يعمل مثل آلة، تصدر عنها نغمات لا معنى لها، ويتوجه بفعل أشياء يبدو أنها هي التي تحركه وتتحكم فيه، بدلا من أن يقوم هو بتحريكها والتحكم فيها.

هكذا أصبح الحريري يؤذن في غير مواقيت الأذان، وصار أذانه المألوف مبهما، له نغمة الأذان، لكنه غير مفهوم، مثلما كان سلوكه غير مألوف، لكن في قلــب هذه الآلية، والنمطية، واختلال الشــعور بالواقع والذات والزمن، هناك بشــر من لحم ودم، بشــر تجري الدموع من أعينهــم وتبلل وجوههم الشاحبة النحيلة، كما حدث بالنسبة إلى العم الحريري في نهاية هذه القصة، هنا إنسان وقع في براثن «الشيء» غير المألوف الذي تحدث عنه جيجيك، أي غرابة المجهول وغير المفهوم، وهنا أيضا حالة أشبه بحالة «انهيار التمثيلات» التي تحدث عنها كانط وليوتار، هنا عجز عن الفهم، لحدود الزمان والمكان، وغيــاب للذات في أفعال النمطية والتكرار، هنا الذات ليســت موجودة في داخلها، كما أنها لا تمتلك وعيها الخاص، هذه الذات قد تحولت إلى شيء، إلى شخص آخر منفصل عنها، شخص موجود في عالم الإيماءات والحركات الطقسية النمطية المتكررة التي تكشــف عن غياب الوعي، وجمود الإبداع، وضياع الإنسان وغربته واغترابه، وغرابة سلوكه في هذا العالم الغريب [20].

5 - الشعور بالغرابة البدنية: هنا قد يوجد شعور لدى الفرد بأنه لا يتحكم في حركات جسمه أو انفعالاته المترتبة عليها، أو أنه قد أصبح مثل الآلة المتحركة من دون إرادة منه، أو أن ذاته موجودة خارج حدوده الجسدية، مع شعور أحيانا بتشوه بعض أعضاء الجسم، كاليدين مثلا، أنها أصبحت أكبر أو أصغر. وقد وصف أحد المصابين بهذه الحالة نفسه فقال: «إنني أشعر كما لو أن رأســي مملوء بالقطن». وهذا الشعور بالتحول الجسمي بالانفصال قد نجده في قصص التحول، خاصة لدى كانط في «المسخ»، ولدى غوغول في «الأنف»، وغيرهما.

6 - المراقبة العالية والمستمرة للذات: هنا يتحول الشخص إلى ذات داخلية وذات خارجية، وتقوم الذات الخارجية بالمراقبة الدائمة للذات الداخلية، هنا نوع من الازدواج في الذات ناتج من انهيار الشعور بالذات والواقع، هنا نوع من الانقسام، كأن هناك شخصين أو عقلين داخل الشخص الواحد. هنا يقوم الكل بمراقبة جزء انفصل عنه. هنا يقول أحد أصحاب هذه الحالات: لقد عبرت الشارع، ومع أن ساقيَّ كانتا تتحركان معي، فإنني كنت أشعر بأن عقلي كان موجودا في مكان ما آخر يراقبني، وكنت غير قادر على معرفة هل كنت هناك معه، أو أنني كنت مع ذلك الجزء الذي يعبر الشارع.

في رواية «الغريب» للمؤلف والفيلسوف الفرنسي ألبير كامي يقتل مرسو بطل القصة أحد الأشخاص الذين لا يعرفهم في الجزائر بدم بارد، ويتعامل مع كل شيء في حياته بلا مبالاة، هكذا فعل مع موت أمه ومع حادث الشخص الذي قتله، وكذلك مع محاكمته ومحاولة الكاهن في نهاية القصة وقبل إعدامه أن يجعله يشعر بالندم أو التوبة بسبب ما اقترفته يداه. وليست هناك في هذه الرواية على عملية خاصة لاختبار الواقع، ولا توحد غامض مع وجود مطلق أو، لا نهائي، ولا استكشاف متتابع تدريجي لواقع يفقد معناه شيئا فشيئا، فالواقع قد فقد معناه، والشخص تكلست أفكاره، وتجمدت مشاعره، وأصبح شبه آلة تتحرك وتفكر، لكن دون انفعال أو شرف، إنها ليست حالة من التبلد الانفعالي فقط، بل حالة من التبلد الانفعالي والمعرفي والوجودي، لقد كان لدى ميرسو وعي كامل بأنه يعيش هذه اللحظة دون قلق أو اهتمام، وكان يعرف أن الحياة البشرية باطل وقدرية وأن اللحظة الراهنة التي نحياها قد تكون هي فقط الحقيقة، ومع ذلك فقد كانت رسالة كامي في هذه الرواية، كما يقول النقاد، هي الأمل وليس اليأس، الأمل في إنقاذ فرنسا من الهزائم التي لحقت بها والتمسك بالضوء الذي قد يأتي من نافذة صغيرة في جدار السجن [21].

7 - التحولات الوجدانية: هنا يقول معظم الأفراد الذين أصابتهم هذه الحالة إنهم شعروا بحالات من عدم الاستقرار أو الاتزان الوجداني تراوحت بين التبلد الانفعالي، واللامبالاة

والجمود العاطفي، وإن ذلك كان يؤثر في تفكيرهم وخبراتهم بشكل عام، وإن ذلك قد يرتبط بظهور الأشياء والعالم - بالنسبة إليهم - على أنها غير حقيقية، مسطحة، باردة، بعيدة، منعزلة، هنا فقدان للشعور بالشغف، والبهجة، مع خوف وانعزال أيضا.

8 - التذكر والتخيل: قد يحدث اضطراب أيضا في التذكر والتخيل، حيث تحدث اضطرابات وتداخلات في ذاكرة الأحداث الشخصية، الذاكرة الخاصة بالحقائق والأحداث الخارجية. هنا قال أحد الأشخاص: «أنا أستطيع تذكر الأشياء، لكنها تبدو لي كأن ما أتذكره لم يحدث لي قط».

9 - خبرة الخواء العقلي: إضافة إلى تلك الشكاوى الخاصة بالذاكرة، واضطرابها، وشحوبها، وفراغها مما هو مناسب شخصيّا، وأيضا العجز عن الاستحضار ذهنيّا للصور البصرية أو السمعية، وكذلك تلك الخبرات الغريبة المتعلقة بالزمن، يشكو المرضى هنا أيضا من فراغ عقولهم، من شعورهم بأنهم ليست لديهم أفكار في أذهانهم، وقد يرجع ذلك إلى استغراقهم القهري في فحص ذاتهم وحياتهم؛ مما قد ينجم عنه الشعور بالفراغ فيما يتعلق بما يمكن أن يتذكروه، أو يتصوروه، أو يشعروا به، وكذلك خبراتهم الزمانية والمكانية، مع صعوبات واضحة لديهم في الانتباه والإدراك. وهذه كلها نتائج تحليلات ودراسات علمية حديثة.

10 - الاغتراب عن الواقع المحيط بهم: هنا يشعر معظم الأفراد بأنهم قد عزلوا عن الواقع الخاص بهم، قد انقطعت صلاتهم به، حيث الأشياء تبدو لهم غير واقعية، وهنا تُوصَف هذه الخبرة من خلال استعارات بصرية مثل (إنني وكأنني أنظر من خلال كاميرا، أو من خلال ضباب أو حجاب .. إلخ) [22].

لقد صُكَّ مصطلح «اختلال الشعور بالواقع» عام 1935، وقد نسبه ماير غروس إلى علماء سابقين عليه وآخرين جاءوا بعده أيضا، وقد ظهر

بعد ذلك أن الفرق بين مصطلحي «اختلال الشعور بالشخصية»، «واختلال الشعور بالواقع»، هو فرق يعكس فقط اختلافا في الطرائق الوصفية لبعض الخبرات، وليس فرقا في الظاهرة نفسها، فكما وصف دوغا Dugas الأمر، فإن الفرد خلال حالة اختلال الشعور بالشخصية يشعر بالغرابة الخاصة بالأشياء حوله، أو أن الأشياء تبدو بالنسبة إليه غريبة. كما أن غرابة إدراكه للأشياء هذه تجعله يدرك نفسه غريبا بينها وعنها، وأن الفرق بين أعراض الغرابة المتعلقة بالجسم والانفعال والذاكرة والعقل، قد تكون انعكاسا لشعور الفرد بغرابة خاصة بذلك العالم، ذلك الذي أصبح غريبا وغير مألوف، وقد تكون تلك الحالة كذلك نوعا من الإسقاط لذلك الشعور بالغرابة على ذلك العالم الغريب من خلال غرابة جديدة مضاعفة أدركتها الذات، وقامت بتكوينها وتجسيدها خلال إدراكها لغرابتها في ذلك العالم الغريب، وإن ذلك كله إنما يرتبط بفقدانها للشعور بالبهجة؛ لأنها افتقدت الألفة، افتقدت عالمها المألوف، أصبح هذا العالم غير حقيقي، غير واقعي؛ ومن ثم أصبح مخيفا؛ ولذلك فإنها قد تفضل عبور حدوده، نحو عالم آخر، جديد، قد لا يكون غريبا أو مخيفا، وتجمع معظم الدراسات الحديثة والقديمة على ذلك الارتباط الكبير بين اختلال الشعور بالذات أو الشخصية، واختلال الشعور بالواقع، أو بواقعية ذلك الواقع. وتربط دراسات أخرى بين هاتين الحالتين والاضطراب المسمى اضطراب الشخصية الحدية، أو «التي على الحدود» التي تقع على الحدود الفاصلة بين الصحة والمرض، بين الجنون والإبداع، وكذلك اضطراب الشخصية المفككة التي تحتوي على وجود أكثر من ذات، إنها الذات المنقسمة إلى حالات، أو إلى آخرين، إضافة إلى وجود أعراض أخرى معها، كالخوف، والقلق، والشعور بالرعب والفزع، وغيرها [23].

المدن ووجه يانوس

في ضوء ما أشارت إليه دراسات حديثة متنوعة، ومنها دراسات المفكر الفرنسي ميشيل فوكو فإن الاضطرابات النفسية قد تزايدت مع تزايد القلق والتوتر وانعدام الشعور بالأمن وزيادة شعور الإنسان بالغربة والغرابة والاضطراب في المجتمعات الحديثة، وهو أمر أكده قبله أيضا المفكر

الألمانـــي فالتر بنيامين، فقد ولدت الغرابة - كما قال - نتيجة ظهور المدن الكبيرة، حيث الحشـــود والمباني غير المتجانســـة أو المتنافرة. فيها . تسبب الشعور بالاضطراب، والشـــعور بالغربة والاغتراب، وضياع الفردية. وإنه بسبب نظام العمل الروتيني الحديث، ومع تطور الصناعة والآلية والبرمجة، خضع الإنسان لآلية التكرار، ومع التكرار والنمطية، وعدم التغير، والفقدان للحريـــة، وكذلك مع إعـــادة الإنتاج للظلـــم والإحباط والقهـــر والتعذيب والحرمـــان والبطالة، قد يتحول الإنســـان إلى آلة متحركة، أو آله ســـاكنة تتحرك أو تهمد في مكانها، قد تسعى هذه الآلة إلى الخروج من النمطية والآلية بالثورة والتمرد والرفض، وقد يستســـلم صاحبها لقدره. وكل آلية ســـلوكية وفكرية تســـلم صاحبها إلى الآلية الجسدية، وكذلك فإن كل آلية جسدية تسلم صاحبها إلى آلية فكرية ووجودية، يتحول بعدها إلى ما يشبه الآلة، تلك الآلة التي تفقد الشـــعور بإنسانيتها، تفقد مشاعرها وتعاطفها مع الآخرين، تنســـحب من الواقع وتغيب عنه وتغترب، أو تقوم بأعمال قتل وســـرقة وتحايل وتدمير من دون إحساس بالذنب، ومن دون تأنيب ضمير، ومن دون شفقة إزاء الآخرين.

هكـــذا فإن الآلية النمطية الغريبة قد تـــؤدي إلى الموت الفعلي، أو موت المشـــاعر والأفكار. هنا قد يتحول الغريب المغترب نحو التدمير للآخر، نحو أفعال مضادة للمجتمع، أو العالم، كما نرى في الواقع الآن من كل الشواهد الدالـــة على التدمير للآخر، أو يتحول على نحـــو يدمر ذاته (يهمل عمله - يدمـــن المخدرات - ينام كثيـــرا -يفقد القدرة على الإبـــداع... إلخ)، وهذا صحيـــح في حالات الأفراد، وصحيح في حالة الشـــعوب أيضا، إنها أماكن مفتوحة ومغلقة دائما، خلال الوقت نفسه، إنها تشبه وجه «يانوس».

وتشبه المدن وجه يانوس؛ إله البوابات في الميثولوجيا الرومانية القديمة، ذلـــك الذي ينظر بوجهـــين: إلى الداخل وإلى الخارج، ومـــن ثم فهي. المدن . ذات هويـــات مزدوجـــة: فهناك العشـــوائيات والأماكن الفقيـــرة، وهناك المناطـــق الراقية والغنية أيضا، هناك الفقر وهناك الثراء، هناك الشـــوارع الضيقة والحارات والمتاهات، وهناك الساحات الفسيحة والميادين الواسعة والباحات، هناك الحميمية وهناك الوحشة، هناك الحضور وهناك الغياب،

هناك التعليم وهناك الجهل، هناك المقاهي الشعبية، وهناك أندية العاصمة والروتاري، هناك الصحة وهناك المرض، هناك الحضارة وهناك البدائية، هناك الحاضر وهناك الماضي، فأي ازدواجية وأي تناقض يمكن أن يكونا خارج المدن؟ وفي أي مناخ آخر يمكن أن تظهر الغرابة والتناقض؟ هناك حتى في أسماء المدن، نجد في القاهرة نفسها . مثلا . مصر القديمة ومصر الجديدة، وبولاق أبو العلا الفقيرة العشوائية تواجه الزمالك المحتشدة بالمباني التاريخية الفخمة، وقاعات عروض الفنون الراقية، بل إن الحركة في المكان يمكنها أن تحدد طبيعة المكان والطبقات التي تعيش فيه، والمزايا والأخطار التي تواجه سكانه، وقد تكون وسائل النقل والمواصلات ذاتها معبرة عن مثل هذا التناقض الذي يتجلى في بعض المدن، حيث نجد السيارات الفارهة الحديثة ومعها الدراجات البسيطة والتوك توك وعربات الكارو... إلخ.

المدن أماكن مفتوحة، المدن أماكن مغلقة، المدن أماكن مرسبة للخوف، المدن أماكن مجهزة لحضور الأطياف والأشباح، المدن ذات طبيعة مزدوجة، المدن أماكن يكثر ظهور ذوي الطبائع المزدوجة والمفككة فيها، ويكثر حضورهم إليها أيضا .

لدى «أوسكار وايلد»، في روايته «صورة دوريان غراي»، نجد غرف الرسم الخاصة بالطبقات العليا، وكذلك البيوت الريفية التي كان «دوريان غراي» يزورها، حيث أماكن الطبقات الثرية المرفهة التي كان يسمح بدخولها فقط للخدم الموثوق بهم تماما، أو رجال التجارة والمال والأعمال، وأي متطفل، متسكع، يجرؤ على دخول تلك الأماكن قد يُقْتَل، أو يكون هو نفسه مجرما يَقْتُل، فأبواب تلك الأماكن والبيوت تظل مغلقة على أصحابها، وهي ليست لها وجه يانوس بمفردها إلا بالمعنى السلبي، أو الأحادي، قد تسمح بالدخول ولا تسمح بالخروج إلا لمن يملك حق دخولها والخروج منها، لكن الشخص المتطفل، المغرور، المتباهي بنفسه، قد يفتح أي باب يرغب في الدخول منه أيضا دون استئذان.

هكذا كان الوجود المزدوج لدوريان غراي كشخص أرستقراطي ينتمي إلى مكان متميز، وأيضا كشخص مدمن للأفيون، مداوم على الذهاب إلى أوكاره في لندن، مما يوضح كيف أن ذلك الانقسام الجغرافي والاقتصادي ربما كان هو الذي يشكل الأساس، أو يمهد الحضور والظهور للانقسام في الذات أو الهوية الفردية على الشاكلة نفسها، ربما كان هايد يجد «متعة» في تلك المسرات

ومصادر الترفيه التي كان العالم السفلي في الطرف الشرقي من لندن يقدمها إليــه، أما جيكل فظل داخل ذلك البيت المتســم بالفخامــة والثراء الخاصين بالطبقة العليا في «الطرف الغربي» من المدينة.. هكذا وفرت المدينة، وأماكنها المفتوحة، والأماكن المعزولة المظلمة فيها، غرف الرسم المضيئة الجيدة التهوية فيها، وكذلك الأقبية المعبأة بالدخان، وفرت للخيال الأدبي ببيئة جغرافية، في ضوئها صُوِّرَتْ هذه الثنائية المميزة للسرد الأدبي (24).

كيــف يمكــن أن توجد كل هذه الأنــواع من الوحوش فــي غابة واحدة؟ هكذا تساءل «لورنس ديفيز» في تقديمه لكتاب «لندا دريدان» عن «القوطي الحديث والأشــباه الغريبة». وأجاب ديفيز عن سؤاله هذا بقوله: لقد حاول كتاب كثيرون - أمثال ستيفنســون، ووايلد، وويلز، وغيرهم - تجسيد مظاهر القلق وأنواعها التي جعلت كثيرين يتحدثون عن أمراض الحضارة الحديثة، وقد اســتخدم هؤلاء الكتاب الشكل القوطي في الكتابة في بعض أعمالهم، مصورين من خلالها مظاهــر الرعب التي تحدث في بعض المدن الحديثة، وقد كانت نقطة البداية لديهم هي الشــكل القوطــي المدني الذي ظهر في منتصف القرن التاســع عشــر، فاهتموا بالمشــاهد الخاصة بمدينة لندن، تحولاتها الوحشية، تشــوهاتها، وحالات الازدواج والانقسام في الشخصية التــي تحدث في ضوء هذه المدينة وأحوالها. وهكذا فإن ثمة علاقات وثيقة بين الأشكال القوطية في القص وظهور المدن الحديثة؛ ومن ثم كذلك ظهور حالات الخوف والقلق والشعور بالتهديد، ومن ثم أيضا الانقسام في الذات والازدواجية والجنون، وحدوث الغرابة وتجلياتها المتعددة (25).

ولقد أدى مفهوم البيت، بوصفه مكانا واقعيًا أو متخيلا، مرتبطا بالألفة، وكذلك الوحشــة والخوف، أدى دورا مهمًا في دراسات أدبية وثقافية متعددة تلت ظهور دراســة فرويد عن الغرابة، وأدت مفاهيم القرب من البيت والبعد عنه، دخولــه والإبعاد أو الطرد منه، إضافة إلــى التجليات والمعاني المتعددة الأخرى للبيت كالوطن مثلا، أدت دورا مهمًا في تحليلات كثيرة معاصرة.

وهكذا فــإن خبرة الفقدان للبيــت الأليف، وأن يهيم المــرء على وجهه ويتشرد، أو أن يشعر بأنه ليس في بيته، ليس في مكانه الصحيح، هي خبرة ثقافية وسيكولوجية أيضا، وهي خبرة تنتج منها كذلك رؤية مزدوجة حددها

هومي بابا ووصفها بأنها «خبرة غريبة». فتشـرد المرء، وهيامه على وجهه، أو فقدانــه بيته الأليـف هو جوهر تلك الخبرة التي وصفهـا بابا كما يلي: «إنها لحظة الوحشة أو فقدان ألفة البيت أو الوطن، لحظة تهرب أو تزحف متصاعدة لديـك ببطء على نحو مطرد وكأنها ظلـك». كما أنه كتب يقول أيضا: «وفي تلك اللحظة تجد نفسـك فجـأة تتخذ الاحتياطات الضرورية المرتبطة بشعورك بأنك موجود في قلب حالة من الذعر المفعم بالشكوك أو الظنون». ويرى هومي بابا أيضا أن حالة الوحشـة (أو الإقصاء عن البيت) هذه إنما تتطور ناشـئة عن ذلك النمط نفسه الخاص بحالة الازدواج، وأن هذه الازدواجية هي جوهر خبرة الغرابة، كما أن الوحشـة أيضا. أو التشرد أو التوهان. إنما تنشأ عن الجذر نفسه موضع الاهتمام في الغرابة؛ ألا وهو البيت، بوصفه المكان الذي يمكن أن يكون مألوفا تماما أو غريبا تماما [26].

هكذا يرتبـط مصطلح فقدان البيت الأليف بتلك السـرديات الخاصة ببناء الأمم، وبناء الإمبراطوريات، والتمرد ضد الاسـتعمار، وغيرها من الحالات التي تتراكـم فيها حالات فقدان اليقـين أو التأكد والحيرة فيما يتعلق بالهوية الفردية والهويـة الجماعية، وأيضا فيما يتعلق بالقلق الفردي والقلق الجماعي، قلق الأمة والشـعب، فيما يتعلق بالانقسـام والازدواج بمستوياته ومعانيه كلها، وكذلك فيما يتعلق بالخوف والشـعور بالتهديد والغرابة والغربة، وفقدان الاستقرار، والتشرد، وهيام الناس على وجوههم، وفقدانهم البيت أو الوطن الأليف الحميم الخاص بهم.

هكذا تعـج المدن وتزخر بالهائمين على وجوههم، وكذلك بالمتسـكعين، ووفقـا لما قاله فالتر بنيامين فإن «المتسـكع» Flaneur يعتبر المدينة «مكانه الخاص»، لكنها أيضا المكان الذي قد يصبح متاهة يضيع منها المتسـكعون وغيرهم من الهائمين. وهكذا كان جيكل وهايد ودوريان غراي من المتسكعين الذي قاموا بجرائمهم في المدينة في الظلام، هكذا كانت غرابتهم الليلية غير المألوفة التي تناقضت مع ألفتهم النهارية المألوفة. هكذا ظهرت الازدواجية الخاصة بهم، هكذا قامت أشباحهم بالانتياب والسكن في ليل المدن وتركت آثارهم وأرواحهم تحلق فيها، هنا لم يعد ذلك المتسكع زائرا أو متجولا فقط، يقوم بالشراء ويراقب الجموع، كما كانت حاله لدى بودلير، أو يهتم بالعلامات المضيئة للأعمال والتجارة كما لدى بنيامين، بل أصبح روحا هائمة أو شبحا،

خلال الليل وخلال النهار أيضا، وقد يقتصر وجوده على مدينة بعينها، وقد تحلق روحه في العالم كله وتهيم مشـــردة فيه على نحو كبير كما كان شـــأن الشاعر الفرنسي رامبو مثلا.

هكذا تعد المدن، القديمة والحديثة - وعلى نحو متكرر - رموزا دالة على الأماكـــن الغريبة، ويرجع ذلك - في جوهره - إلى ما تحتله تلك المدن وتمثله مـــن طبيعة متناقضة: فهي قد بُنِيَتْ بطريقـــة توحي وتعزز تلك الفكرة أو الدهشة التي كان البناؤون والمخططون يحملونها في عقولهم بأنه سيمكنهم التحكم في نموها، ولكن في الوقت نفســـه، فإن هذه المدن غالبا ما كانت لها طريقتها العضوية الخاصة في النمو وفقا لإيقاعاتها الخاصة، وكذلك وفقا لتلك الجيوب الســـرية أو المناطق المعزولة الغامضة وغير المرئية التي تتشكل فيها، وعلى أطرافها، وفي عقول بعض سكانها، حيث آليات التحايل والعشـــوائية والمصالح الفردية أو الجماعية والنزعة الاســـتهلاكية، وزيادة ســـكانها، وتدفق الغربـــاء عليها من الأماكن القريبة منهـــا والبعيدة، وإلى غيـــر ذلك من العوامل التـــي جعلت الكثير من المـــدن القديمة والحديثة - فـــي صورتها الأخيـــرة - تبدو وكأنها مقطوعة الصلـــة بالصورة التي كانت عليها حينما أُنْشِئَتْ في البداية الأولى. وما علاقة ذلك بموضوع الظلمة أو العتمة؛ ومن ثم الغرابة في كتابنا هذا؟

يقال إن هذه المناطق المعزولة أو الجيوب السرية الغامضة التي تنشأ داخل المدن وعلى أطرافها، كثيرا ما ارتبطت بعقليات ليست مدنية، عقليات جمعية أو بدائية، عقليات تتجمع معا دون رابط أو نظام معماري محدد، فقراء ومهمشين، وخارجين عن القانون، ومســـتبعدين عن المركز والاهتمامات الخاصة بالمدينة، هنا فئات خارجة على القانون أو النظام العام للمدينة، فئات تقوم بأنشـــطتها الغامضة والســـرية ليلا، وقد صُوِّرَ عالم الظلام في المدن النامية، بما فيه من جرائم قتل وسرقات وعبث وإيذاء للآخرين، في روايات كثيرة [27].

في التمثيلات الحديثة للمدينة، نجد أن ذلك الإحساس القديم بالعزلة الذي كان ملازما لها، والـــذي كان موجودا، بمعنى ما، في الأماكن القوطية التقليديـــة القديمة، كالكنائس، والقصور، والقـــلاع، والأديار، وغيرها، نجد أنه إحساس يخلي طريقه الآن لإحساس آخر جديد، فالعزلة القديمة كانت ناتجـــة من انعزال المباني وابتعادها بعضها عن بعض، ووقوعها عند أطراف

المدن أو هوامشها، أما العزلة الآن، فهي نتيجة التقارب والاقتراب، حيث شبكات معقدة من المباني الضخمة، والمنازل، والشوارع، والفنادق، والمطاعم، وأماكن البيع والشراء، حيث الاقتراب متواصل ومستمر، كرها أو طوعا. وقد كان ما نجم عن ذلك كله - في أغلب الأحوال - عزلة ووحشة قاتلة، تشككا، واستغراقا في الذات، وجيرانا قد لا يرى بعضهم بعضا، أو حتى لا يعرف بعضهم أسماء بعض، وقد يكون ذلك الجار القريب هو القاتل الخفي، أو اللص الغامض، أو الغريب الذي كان ينبغي أن يكون أليفا ومألوفا، إنه حتى في وجوده النهاري معتم وغامض وسري ومجهول، فما بالك بوجوده الليلي الأكثر غموضا وسرية وإعتاما ورعبا؟ هكذا أفرز الاقتراب المكاني الحديث - في حالات عدة - نوعا من الابتعاد - وحالة من التشوش والعزلة، ربما لم تكن مسبوقة - هكذا - في تاريخ الإنسان. وقد مارست الميديا الحديثة، التلفزيون والإنترنت، والفيس بوك وغيرهما، دورا واضحا في تكريس هذه العزلة عن قرب، أو العزلة على الرغم من ذلك الاقتراب والذي هو في واقع الأمر نوع من الابتعاد، لأنه اتصال من خلال وسيط هو التكنولوجيا اتصال «كأنه» اتصال، لأنه في واقع الأمر، لا يتم بالفعل، بل بشكل افتراضي وغير حقيقي، وحيث كل إنسان هنا مستغرق في ذاته، في عالمه الافتراضي، بعيد عن واقعه الحقيقي، الاجتماعي، الإنساني، الذي كان.

هكذا أصبحت الأماكن الحديثة أماكن الغياب، إنها تلك الأماكن التي بلا هوية، الأماكن التي ليست أمكنة، الأماكن التي ليست مكانة، الأماكن التي تقاوم الإغلاق، الأماكن المفتوحة دائما على المجهول، الأماكن المتاهات، الأماكن التي يكون الإنسان فيها رقما بين ملايين، يكون فيها حيّا، لكنه يكون ميتا أيضا، على نحو ما.

وهكذا فإن المدن مكان رمزي تتحقق من خلاله آمال البشر، وتتجسد مخاوفهم، وهي أيضا نتاج لخيال الإنسان الذي تجسد في الأدب والفن، وحققته العمارة. والمدن أيضا أمكنة للعيش والطموح والتعليم والعمل والصناعة والجريمة والفقر، وتفاوت الثروات، وهي أيضا مكان المركز والقيادة غالبا، وهي المكان الذي قد يضيع فيه الفرد أو يتحقق، أو يتم نسيانه وتجاهله، أو يصبح نجما، وهي كذلك المكان الذي قد يقضي الإنسان فيه حياته - كما قال ديكارت - من دون أن يكلم أحدا، أو أن يقيم علاقة حميمة واحدة، وهي أيضا المكان الحقيقي لثقافة الاستهلاك والعرض والمظهر، وهي المكان الذي تحاول القرى والريف والهوامش أن تحاكيه وتقتدي به من دون

وعي منها؛ لأنها تحسده على ما ينعم به من مزايا وهبات فيما يسميه علماء الاجتماع الآن «ترييف المدن»، «وتمدن الريف»، لكن المدن أيضا متاهات، متاهات للغياب، غياب الروح بفعل الفقر والبطالة والتهميش، وبفعل اللهاث اليومي وراء كسب العيش، أو ثقافة الاستهلاك والامتلاك، هكذا انتابت هذه الروح المدنية المتسارعة اللاهثة العنيفة المزدوجة صفحات السرد والقص والروايات، واجتاحتها خلال القرن التاسع عشر، وما بعده، وسكنت فيها، فظهرت أرواح المدن الحقيقية في روايات كتاب أمثال ستيفنسون ووايلد، وقصص إدغار آلان بو مثلا، والمدن المتخيلة (في روايات أدب الخيال العلمي لدى ويلز مثلا)، وفي كل تلك الأعمال كانت هناك إشارات ضمنية أو صريحة واضحة إلى طبيعة تلك الحياة الواقعية والإدراكات الغريبة التي تركتها المدينة على سكانها، وعلى الخيال والأدب على نحو بارز [28].

قد تكون الأماكن الخالية أماكن للغياب، وكذلك قد تكون الأماكن المزدحمة أماكن للغياب، هنا حالة اختلال الشعور بالواقع والذات، حيث المكان أساسي في إثارة الجنون، ففي أماكن الغياب (الخالية والمزدحمة) يزداد بحث الذات عن آخر، أو يزداد هروبها منه قد تظهر عمليات الانقسام والازدواج، وتظهر الأشباح والأشباه والظلال التي اهتم بها الأدب.

وهكذا فإنه عبر القرون المتعاقبة، ارتبطت العتمة المكانية - على نحو متسق - بالطبيعة «المتاهية» الخاصة بالأماكن المثيرة للاضطراب، إنها مكان للعقاب الرمزي المتعلق بالمخاوف التي لا نهاية لها، وإشارة رمزية أيضا إلى الوجود الإنساني بوصفه حالة مستمدة من التجوال، التهويم، والوقوع في الأحابيل أو الشرك. وهكذا، فإن المتاهة - مثلها مثل الخوف - قد تعمل بوصفها وظيفة للوعي. ووفقا لما قاله الأديب الإيطالي إيتالو كالفيتو فإن الإرادة الموجهة نحو مواجهة المتاهة هي شرط أولي سابق على القدرة على الصمود والاشتباك في صراع مع ذلك التعقيد الخاص بالواقع ككل، وكذلك القدرة على الإنتاج لتكوينات سردية تكون مناسبة لتجسيد هذا التعقيد الذي في ذلك الواقع، من دون أن نستسلم لتلك الرغبة الخاصة بالاكتفاء بالحلول الوسطى أو البسيطة. هكذا يكون على الأدب أن يكتشف لنا - يوما بعد يوم - مخارج مناسبة من هذه المتاهة، وليس مجرد طرق جانبية للهروب منها [29].

بيوت ذات هواجس وأخيلة

وفقا لما جاء في بعض القواميس، وذكره فرويد أيضا، فإن المألوف قد عرف بأنه «مكان يخلو من المؤثرات الشـبحية»؛ ومن ثم فـإن غير المألوف قد يكون هو المكان الذي تسكنه الأشـباح. يتكرر التعبير «هذا المكان روحة ثقيلة»، وفي رواية «قدر الغرف المقبضة» للكاتب المصري عبد الحكيم قاسم، وخاصة عندما كان الراوي يوجد في أماكن ضيقة خانقة طاردة لا يحبها. وفي «سـقوط بيت أشـر»، وهي قصة إدغار آلان بو الشـهيـرة ، يهيمن إحساس لا يمكن مقاومته منذ اللحظة الأولى على روح الراوي «شـعور لم أستطع الخلاص منه بواسطة أي انفعال سار آخر»، هكذا كان ذلك البيت يثير هواجس وأخيلة كثيرة مخبوءة في العتمة لدى الراوي، كانت جدران المنزل الجرداء ونوافذه الشـبيهة بالعيون الخاوية متخشبة كالأموات، وكانت مشاعر الخوف والانقباض المتعلقة به تعود في جوهرها إلى تخيلات الراوي نفسها أكثر من كونها تعود إلى تفاصيل مثيرة للقلق في ذلك المنزل نفسه، «كانت أحجار المنزل ونقوشه ومنسوجاته وكراسيه المزدانة بالرسوم والصور والتماثيل المنصوبة فيه، كلها تبدو مألوفة بدرجة غير عادية، لكن المناخ المحيط بالمنزل، رائحته الشبيهة برائحة المقبرة، التي تفوح من الأشـجار المتحللة حوله، ومن جدرانه الرمادية، ومن البركة الصغيرة السـاكنة بجواره، كانت كلها عوامل مؤدية إلى مشاعر وانفعالات غامضة شبيهة بالحلم، وأقـرب إلى الكابوس. كان ذلـك - باختصار - منزلا غريبـا، يوحي بوجود قوة غريبة غامضة توشك أن تداهمه وتدمره، شيء يقف على نحو غير مرغوب في مواجهة العقل في ظل عادية مطلقة للموقع أو المكان، وفي غياب مصدر واضح محدد للرعب، وحضور خاص للغرابة المثيرة للاضطراب [30].

تحت المظلة 2000

في قصته «تحت المظلة 2000»، للقاص والروائي المصري إبراهيم عبد المجيد، ثمة روح شـبحية، ثمة موتى وأشباح وغرابة، حياة في الموت، وموت في الحيـاة، انفتاح لبوابات اللاوعي الفردي والجمعـي، عالم من الوحدة والخوف والعزلة والجنـون، وهنا الراوي يبدو وكأنه فقد عزيزا لديه، توأم روحه، قرينه، ظله، روحه، أصبح يعيش بين الأموات، لكنهم الأموات الأكثر

حياة وحضورا من الأحياء. هنا يقف الراوي في الشارع ليلا، والشارع خالٍ من المارة، ثم تتوالى الأحداث، فيلاحظ أن الناس يغادرون المدينة يحملون أمتعتهم ويغادرون، يودع بعضهم بعضا، ويبكون ويغادرون، والصمت يعم المكان، والوجوم يعلو الوجوه، وتخلو الشوارع شيئا فشيئا، وكان قد لاحظ أنه، في النهار، قد توقف الموظفون عن الذهاب إلى أعمالهم، ويتداخل عالم الليل مع عالم النهار، عالم الصحو مع عالم الغفو، ولا يستطيع الراوي أن يحدد ما إذا كان الزمن الذي يعيش فيه تلك الأحداث هو زمن الليل أم زمن النهار، وهل المكان الذي يوجد به هو الإسكندرية أم القاهرة. هنا يهيمن عليه الخوف، ويقول لنفسه - ولنا - «إن الخائف لا يعرف الليل من النهار، دائما هو خارج الوقت. بالضبط مثل رجل مدّ قدمه ينزل من الرصيف إلى الشارع، فنزل ولم يجد الشارع، ولم يستطع العودة إلى الرصيف»، ثم إنه يرى أناسا يقطعون رؤوسهم بأيديهم ويمشون في الشارع من دونها، ثم تعود رؤوسهم إليهم بعد ذلك. ويرى كذلك أطفالا تنبت لهم أجنحة تشبه أجنحة كيوبيد، يشتركون في مظاهرة تطالب بإنقاذ الأيتام، ثم يرى أن اللافتات التي يحملونها خالية من الكلمات والشعارات، والراوي - مثلهم - يشعر بأنه يتيم، وقد كان يتيما وحيدا، طوال حياته، ثم تفاقم لديه الشعور باليتم في تلك الساعات التي تداخل فيها الليل والنهار، الحلم والكابوس، الحياة والموت، في تلك الليلة، تحت المظلة.

ثم إنه تدريجيّا يرى الأطفال وهم يتحولون إلى كباش فرعونية صغيرة لها رؤوس الحمل الوديع وأجساد الأسود القوية، يضحكون ويبكون، يمرون من أمامه ولا يلتفتون إليه، يواصلون سيرهم في الشوارع، ثم تختفي المباني التي في أحد الشوارع، ويظهر خلفها ماء أزرق وموج، وتصعد الكباش السور الذي يفصل بين الشارع والبحر ثم تقفز في الماء، حتى تختفي جميعها، ولا يعرف الراوي هل هو في مدينة القاهرة أم في الإسكندرية، ولا أحد يسمعه، والسكون يعم الأرض والسماء، ثم ظهرت غيوم وطيور جارحة، وصوت خيول تعدو بعيدا، ويقرب صوته، ويظهر حصان أبيض ينطلق كالسهم، ويُحدث انطلاقه في الهواء احتكاكا صمّ الآذان، ومن حوله وأمامه وخلفه شرر، ثم إنه صهل في رعب، واندفع داخل الماء وغرق.

وتمتلئ شرفات المنازل بالزينات والأعلام والتلويحات، يظنها الراوي موجهة إليه، ويرى الشـوارع تمتلئ بالبشـر، ويعتقد أنه يوشـك على الجنون، وتمتلئ الشـوارع فعلا بالمجانين الذين يقتربون منه ويصافحونه بلا سـبب معلوم، ثم إنه - وعلى نحو متكرر - عندما يذهب إلى بيته، ويفتح شرفته، يجد أسدا قابعا ينظر إليه، ثم يدخل بيته، ثم يعود ينظر من شرفته فيرى أن الأسد قد اختفى، ثم يجد أن هناك من يلقي بالنسـاء والفتيات بالعشـرات من الشرفات، وتأتي عربات الإسـعاف، صوتها صوت قديم، ينزل منهـا رجال في معاطف بيضاء، وفوق وجوههم أقنعة واقية من الغازات والتلوث، وراحوا يجمعون الجثث بعضها فوق بعض ويضعونها في عربة الإسعاف، ويمتلئ الهواء برائحة الجثث المتعفنة المنفـرة، وتبدو الجثـث وكأنها قديمة ربما تعود إلى أيـام الحروب، ويرى على الجدران آثار دخان وقذائف، ويعرف أنه يقف وسـط مدينة تعرضت للحروب المتواصلة، ويرى جنودا يأتون من نهاية الشارع، ويرى حروبا تدور وقتلى، ووجوها تنطق بألسنة أمم غريبة، ويرى المعارك والضحك والجنون، وتداخل أجناس عدة من البشر، يرى النصر ويرى الهزيمة، ويرى تداخل الأصوات والروائح والمشاهد والملامس، يرى التاريخ العام للمكان، ويرى تاريخه الخاص فيه، ويرى أنه غريب عنه على الرغم من ألفته الشـديدة به، ويرى تحول البشـر إلى طيور، واختفاء الكتب، واختفاء كل ما قد رآه في تلك الليلة عندما كان وحيدا، تحت المظلة، كما أنه يرى الماء الجاري والدم المنسكب والطيور المرفرفة بأجنحة حمراء وصفراء وبنية وذهبية، ويغادر المكان، ويرى في وجه سائق التاكسي وجوه الأطفال ووجوه المسنين، وجوه الرجال ووجوه النساء، وجوه القتلة ووجوه الأبرياء، وجوه الأسود ووجـوه الضفادع، يرى وجهه هو، ويرى السـائق بلا رأس، ويرى نفسـه أيضا بلا رأس، يرى نفسـه مكان السائق، يرى نفسه ضائعا في الزحام، غير مرئي، وحيدا، يتيما، غريبا، في عالم كان يبدو له، على الرغم من غرابته الكابوسـية هذه، عالما شديد الألفة والتكرار، عالم يزخر بالموت والأشباح والضياع، وعودة المكبوت الفردي والجماعي، وكذلك الوحدة، التي يهيمن عليها الموت.

هكذا تتجلى الغرابة في هذه القصة في العناصر التالية:

1 - حضور المـوت في الحياة، وحضور الحياة في الموت، كما يتجلى ذلك في الغياب الدائم للبشر ومغادرتهم لأماكنهم وأعمالهم، وفي عمليات القتل والحروب والدمار التي تواصلت عبر الزمان في ذلك المكان.

2 - حالة الالتباس والشك التي يعانيها الراوي، فلا يدرك، هل هو يحلم أم أنه يرى ما يراه فعلا، هل هو في وقت الليل أم النهار، هل ما يحدث أمامه يحدث له أم أنها أحلام وكوابيس ورؤى شيطانية!!

3 - ظهور أشــباح الموتى، هؤلاء الذين قُتلوا في معارك أو حروب أو شجارات يومية لا تنتهي.

4 - التكرار الدائم للموت والاختفاء والمغادرة والعودة الدائمة للمكبوت والمختفي وغير المألوف الذي يظل دائما مألوفا.

5 - الخوف المــلازم للراوي والمصاحب بشــعوره الدائم بالعزلة والشك والحيرة وفقدان اليقين.

6 - تداخل عوالم البشر والطيور والحيوانات، والتحولات التي تحدث في تلك المناطق الحدودية البينية التي توجد بين هذه العوالم.

7 - حضور عوالم المجانين والمجاذيب والأشــباه والظلال والأقران والمرايا والتشابهات الدائمة ليس بين الإنسان وأخيه الإنسان فقط؛ بل بين الإنسان والطائر والحيوانات وغير ذلك من مفردات الطبيعة، مما ينم عن نزعة إحيائية تضفي الحياة علــى كل كائنات الوجود، وتقيم بينها صلات عجيبة وغريبة نجدها في هذه القصة، وفي قصص أخرى وروايات متميزة لإبراهيم عبد المجيد، ومنها - تمثيلا لا حصرا - «ليلة العشق والدم»، و«المســافات»، و«البلدة الأخــرى»، و«لا أحد ينام في الإسكندرية»، وغيرها [31].

خاتمة الفصل

ووفقا لما ذكرته جوليا كريستيفا في كتابها «غرباء عن أنفسنا»، (1991) تتعلــق الغرابة بالقلق؛ ذلك الذي يقود المرء إلى ما قد يتجاوز الألم المبرح أو الكرب، ونحو حالة من الاختلال في الشعور بالذات.. وهكذا فإن الإحساس بالغرابــة ينتمي إلى الفئة نفســها التي ينتمي إليها الشــعور بالاختلال في

الـــذات. وقد لاحظ فرويد وغيره تكرار ظهور الشـــعور بالغرابة في حالات المخـــاوف المرضية، المخاوف غيـــر العقلانية، خاصة عندما تشـــعر الذات بالإجهـــاد، عندما تضعف حدودها من خلال الصراع والصدام الذي يحدث بينها وبين شـــيء بالغ الجودة أو بالغ السوء. إن الغرابة هي نوع من التدمير للذات، وقد تظل هذه الحالة مجرد عرض ســـيكولوجي ذهاني، أو قد تفتح الطريق لمســـار جديد، يحـــاول من خلاله المرء أن يتكيف مـــع حالة التنافر هذه التي يواجهها بالنســـبة إلى ذاته وبالنسبة إلى الواقع؛ لأن الغرابة تتعلق بعـــودة المألوف المكبوت، وهي تتطلب أيضا نوعا مـــن الجهد البالغ لمواجهة كل تلك العناصـــر الخارجية غير المتوقعة كلها، التـــي ترتبط بالغرابة التي أشـــار إليها فرويد، والتي ترتبط بحضور الصـــور والأفكار الخاصة بالموت والأشباح والأقران (الأشباه)، وغير ذلك من الجوانب المتعلقة بهذا الشغف، وهذا الخوف، وذلك المخزون الانفعالي البعيد الخاص بالغرابة. هكذا تحدث الغرابة عندما تمحى الحدود بين الخيال والواقع، والذي ربما يحدث - هذا المحو - نتيجة الصراع بين الخبرات الذاتية والخبرات الأخرى الغريبة التي نظل في حالة صراع معها، لكننا قد نشـــعر أيضا بالرغبة في التوحد معها، وكذلك بالخوف منها. إذن الغرابة هي أيضا تيار أساسي للتوحد مع الآخر، من خلاله يتم الإبطال أو التفعيـــل للأثر الخاص باختلال الذات من خلال وسائل خاصة بالدهشة [32].

ويرتبط كل ما قلناه ســـابقا حول الذات وتجلياتهـــا ومعانيها وعلاقتها بالآخر، بأفكار الانقســـام والتعدد والازدواج والتفكك والمرض والجنون، في الحياة عامة، وفي الأدب والفن خاصة، وهي بعض تلك الأفكار الأساســـية التي سنعالجها في الفصل التالي من هذا الكتاب.

5

ازدواج الذات وانقسامها

«أنا شخص آخر»

الشاعر الفرنسي

جيرار دي نيرفال» (1)

في الفصل السابق من هذا الكتاب، عرفنا كيف يبدأ التفكك في الذات والشخصية، وفي هذا الفصل سوف نعرف شيئا ما عن بعض حالات تفاقم هذا التفكك التي تصل به إلى مرحلة الانقسام والازدواج.

ولنبدأ - أولا - بمقطع من رواية «الحكاية الغريبة للدكتور جيكل والمستر هايد»، للكاتب الإنجليزي روبرت لويس ستيفنسون، يجسد من خلاله ذلك الوعي بالازدواج وانقسام الشخصية الذي كان لدى جيكل ذاته. حيث يقول: «ولما بلغت من العمر سن الرشد، وطفقت أرقب ما حولي، وأتملى مسيرتي ومكانتي في العالم، كنت محكوما سلفا بازدواج عميق في الحياة. وكم من إنسان تدرّع من قبل اتقاء لمثل

هــذه المعاصي التي بت مذنبا باقترافها؛ لكني من المنظور العام الذي رفعته نصب عيني، تدبرت الأمور وأخفيتها، وإحســاس مرهق بالعار يكاد يجللني؛ ولهذا السبب، فإن الطبيعة الرهيبة لتطلعاتي، أكثر من أي انحطاط آخر في مثالبي، هي التي جعلت مني ما حدث، ومع هوة أعمق غورا مما قد تصادفه عند سواد البشر الأعظم، أجهزت في سريرتي على أقاليم الخير والشر تلك التي تقســم وتؤلف طبيعة الإنسان المزدوجة» ... ثم يضيف أنه «برغم هذا الازدواج العميق بداخلي لم أكن، ولا بأي شكل، «مرائيا»؛ فكلا الجانبين كان جادا في دأبه كل الجدية. لقد كانت الحقيقة المرعبة التي اكتشــفها جيكل، والتي أودت به إلى خراب مريع، هي أن الإنســان «ليس بشخص واحد حقا، بــل هو - في الحقيقة - شــخصان اثنان».. فمــن الجانب الأخلاقي، وفي شخصي أنا، تعلمت التعرف إلى الازدواج العميق والبدائي في الإنسان، رأيت ذلك في الطبيعتين اللتين تتآلفان في ســاحة وعيي، وحتى لو قيل عنّي إني أحدهما، فما كان ليتســنى لأحد هذا القول لو لم أكن أنا - في الصميم - الشخصين كليهما».

فكيف حدث الافتراق بينهما؟ لقد حدث من خلال وصوله مصادفة إلى ذلك المركب الكيميائي الذي يحول الشخصية الخيرة إلى شريرة، والشريرة إلى خيرة، ولا يحدث هذا التحول على المستوى الأخلاقي والعقلي فقط؛ بل على المستوى الجسدي أيضا، وهو يقول إن «هلع الروح ليس ثمة ما هو أشد منه حتى ســاعة الميلاد أو ساعة الموت». وإن عبء حياتنا ولعنتها سيظلان ملقيين على عاتق الإنسان إلى الأبد، وكلما حاولنا إزاحتهما عادا ليثقلا علينا بوطأة أشد غرابة وهوْلا» (2).

يكتب كافــكا إلى خطيبته العــام 1917 (قبل فســخ خطوبته معها) «تعرفين أن اثنين يتصارعان في داخلي. وعلى مجرى الصراع اطلعت طوال خمس ســنوات بالكلمة والصمت، وبمزيج منهما»، وينعكس هذا الازدواج الشخصي لكافكا في رســائله ويومياته وكتاباته بشكل عام، ففي رسائله يقدم كافكا نفسه - في مختلف المرات - على أنه ذو طبيعة مزدوجة (أنا - هو). هكذا يتحدث عن نفسه في إحدى رسائله إلى خطيبته نفسها في: «العزيزة فيليس، انظري، إنه يقول إنه خائف. بالمناســبة، لا أريد أن أقول

إنه حاليا غير سـعيد»، وفي هذه الحالات تقوم «أنا» بدور المسجل «هو»، أو بالإشـارة إلى الجانب الحساس الذي يعاني من الشخصية، من خلال الضمير «هو» [3]. فما أصل هذا الازدواج؟

أصل الازدواج

يشتمل جسم الإنسان على كثير من الأعضاء المزدوجة أو ثنائية الطابع، فنجد: الأذنين، الشفتين، الفكين، الكليتين، اليدين، القدمين، فتحتي الأنف، جانبي الوجه والجسم...إلخ، كما أن مخ الإنسان نفسه يشتمل على شقين أو نصفين شـبه كرويين هما النصف الأيمن والنصف الأيسر. ووفقا لدراسات العالم الأمريكي روجر سـبيري، التي حصل من خلالها على جائزة نوبل في الطب، فإن النصف الأيسـر من المخ ذو طابع متتابع متسلسـل زمني، يهتم بالتفاصيـل واللغة والمنطق والدقة والانضبـاط، أما النصف الأيمن فهو ذو طابع تزامني، يرى ما يحدث خلال لحظة بعينها، مثلما نرى لوحة فنية بشكل إجمالي أولا، ثم نرى التفاصيل التي فيها بعد ذلك، وهو ـ أي النصف الأيمن ـ مجازي الطابع، استعاري التكوين، خيالي، إبداعي، يهتم بالصور والانفعالات والحركة في المكان، وهنـاك خصائص أخرى مميزة لهذين النصفين تزخر بها الكتب والبحوث الحديثة في علم النفس، وعلم الفسيولوجيا، وقد أشرنا إلى بعضها بالتفصيل في علاقتها بالفن والأدب في كتابات سابقة لنا [4].

ولكـن مـا علاقة هذه الثنائية الخاصة بقسـمي نصـف المخ بموضوع الازدواج؟ عدا هذا الطابع التكويني البيولوجي والفسيولوجي المزدوج للمخ، نعتقـد أن هذا التكوين الخاص بالمـخ ذو علاقة وثيقة بموضوع الازدواجية والقرين، ونحن نطرحها هنا كاحتمال أو فرض عامل ربما يحتاج إلى مزيد مـن البحوث والدراسـات للتحقق منه، وفحوى ما نطرحـه هنا ما يلي: إن الـذات الأولى التي تعيش حياة متتابعة متكـررة، ووفق آلية التكرار القهري التـي تحدث عنهـا فرويد، والذي يكون النظام الذي تفرضه على نفسـها، والـذي يفرض عليها بفعـل عوامل مجتمعية (البيت ـ المدرسـة ـ الوظيفة ـ السلطة السياسـية...إلخ)، هي ذات تجد نفسها قد وقعت في أسر الآلية، والدقة، والانضباط، والتكرار، فتفقد الشعور بوجودها الإنساني الحي، هنا

كي تنّقذ، ولا بد لها، شـعوريا أو لا شـعوريا، من أن تخلـق بديلا لها، ذاتا أخـرى، حميدة أو خبيثة، هنا يجيء الدور على النصف الأيمن من المخ، هنا يدخل هذا النصف بصوره ومجازاته واستعاراته وانفعالاته وقدراته الخاصة على الحركة في المكان، قدراته على الفرح أو الحزن، على الأمن أو الرعب، على الاستثارة، بشكل عام، ويقدم إلى الذات الأولى، الذات اليسرى، الذات الواقعية، تلك الواقعة في آلية التكرار والعود الأبدي، بعض ما قد يساعدها على الخروج من أسر الرتابة والمألوف.

وحيث إننا نعرف أن نصفي المخ هذين ليسـا منفصلين أحدهما عن الآخر، ولكنهما متصلان من خلال قنطرة أو جسر أو حزمة ألياف عصبية تسـمى «الجسم الجاسـئ» أو المقرن الأعظم Corpus Callosum، فإننا نتوقـع حدوث تفاعل تبادلي متواصل بين هاتـين الذاتين، الذات الأولى الواقعيـة والذات الثانية الخيالية، وكلما كان هذا التفاعل متوازيا؛ أمكن للذات الأولى (الواقعية) أن تسـيطر على الذات الثانية (الخيالية)، لكن تلك الذات الثانية، كثيرا ما تجمح، تطلق لنفسـها العنان، أو تجد الذات الأولـى أنها غيـر قادرة على - أو لا ينبغي لها - السـيطرة عليها، وهنا تذهـب تلك الذات الثانية الخيالية المتخيلة (الأخرى) بالذات الأولى إلى عوالم الفن والإبداع، وتحقق لها، ومن خلالها، المستحيلات والغرائب، هنا تكون هذه الذات الأخرى وسـيلة لتحقيق الذات الأولى، وكذلك للإنجاز والتحقق العام والخاص. أما في حالات أخرى، فتذهب تلك الذات الثانية (البدائية الطابع غالبا) بالذات الأولى إلى عوالم الخوف والشر والجريمة والرعـب والجنون، وهذه العوالم هي التي اهتم بها الأدباء الرومانتيكيون وغيرهم، بشـكل عام، وحاولوا من خلالها، فهـم تلك الطبيعة المزدوجة للمبدع خاصة، وللإنسـان بشـكل عام، كما أنهم جسـدوها في أعمال متميزة، وربما كانوا هم أنفسـهم يشـعرون بمثل تلك الطبيعة المزدوجة لتكوينهم ونفسـيتهم وذاتهم الأخرى التي في داخلهم، وربما عبروا عنها في حالاتها القصوى من خلال أعمالهم، وربما كانت هذه الأعمال كذلك هي وسـيلتهم التي حمتهم من الوقوع في براثن المصير الذي وقعت فيه شخصياتهم: الخوف، والرعب، والجنون.

وربما – كما أشـــرنا في كتاب سابق لنا عن «الأدب والجنون» (1997) – كان الإبداع هنا هو الوسيلة التي تحمي المبدع والكاتب والفنان من الجنون، وإنـــه عندما يتوقف عن الإبداع الفعلي – لأي ســـبب من الأســـباب – يكون دخوله الفعلـــي كذات أولى واقعية، وليس كـــذات خيالية أخرى، إلى عوالم الخـــوف والرعب والجنون، أمرا محتمل الوقوع بدرجة كبيرة، كما حدث مع هولدرين، ونيتشه، وسترندبيرغ، وفرجينيا وولف، وغيرهم [5].

في بعض الحالات المرضية، وخاصة حالات العنف والعدوان الشـــديدة التـــي لا يمكن إيقافها لـــدى بعض المرضى، أو غيرها مـــن الحالات، تقّطع الاتصـــالات العصبيـــة الموجودة بين نصفي المخ بوســـاطة بعـــض العمليات الجراحية العميقة؛ وذلك لأن الاتصالات الشديدة والتناقضات في الوسائل المتبادلـــة بينهما، قد تحدث اضطرابا وفوضى في فهـــم أحدهما لما يريده الآخر؛ ومن ثم يحدث عجز النصف الأيســـر المنطقـــي عن الفهم والتحكم والتنظيم لما يرســـله النصف الأيمن من صـــور وانفعالات ورغبات، قد يؤدي بدوره إلى عدم القدرة على التحكم في الحركة والانفعالات، وهكذا يتراجع النصف الأيسر أو الذات الأولى عن القيام بدوره، ويصبح المهيمن هو النصف الأيمـــن أو الذات الأخرى البدائية الانفعالية المحلقة المهوّمة بلا ضوابط أو قيود، هنا تقّطع حزمة الأعصاب الموصلة بين نصفي المخ هذين، فماذا يحدث لهذا المريض انفعاليا؟ قد نجده ساكنا في قاع الذات الأولى الرتيبة المتكررة الحركات والتفكير، وأقرب إلى الشخصيات المتوحدة أو المنعزلة، حيث تسبب الإصابات والأمراض التي تلحق بالفرد . أو حتى المجتمع . ما يسميه العلماء الآن «تفكك الشخصية»، كما قد نجد أيضا ما يسمى بالشخصيات المنقسمة والمتعـــددة التي تظهر خـــلال حالات غياب العقل أو شـــروده، خلال هيمنة الخيـــال والانفعال والحركـــة، وتراجع دور المنطق والترتيـــب والنظام. ويعد التكامل بين هذين النصفين من المخ، ومن دون أن يطغى أحدهما على الآخر، الحالة المثالية في الحياة العادية، وليس في الأدب أو الفن.

يرجع البعض أيضا قصة القرين الحديث إلى تلك العلوم السحرية التي كانت منتشـــرة خلال القرن الثامن عشـــر، خاصة على يد أصحاب الاتجاه المسمى «المغناطيسية الحيوانية»، الذين قاموا بتجاربهم من أجل عزل الذات

الأخـــرى والحديث إليها من خـــلال عمليات التنويم المغناطيســـي، ثم كان الرومانتيكيون في ألمانيا أيضا هم من قاموا بالخطوة الثانية المهمة في هذا الاتجاه، ولكن ليس من خلال عمليات تنويم مغناطيسي للوسيط ـ الروحاني ـ فـــي تجاربهم؛ بل من خلال التنويم الواعي للخيال الإبداعي، وتركه يتحول ويتجـــول في عوالم الذوات الأخـــرى بكل ما تزخر به هذه العوالم من خوف واضطراب وغرابة وجنون، ثم انتقل هذا الواقع الشديد بموضوع القرين بعد ذلك من ألمانيا إلى بقية أوروبا، وكذلك إلى أمريكا أيضا، وخاصة لدى أدباء أمثال هوثورن، وبشـــكل خاص لدى إدغار آلان بـــو، ومن بو انتقل الاهتمام بالموضوع إلى دستويفسكي، ومن دستويفسكي إلى بلاد كثيرة في العالم، ربما كان من بينها بعض البلاد العربية، كما نجد ذلك في رواية «القرين» لسليمان فياض (من مصر) تمثيلا لا حصرا.

ويمكن أن يعود بنا اقتفاء الآثار الســـابقة للازدواج في الســـرد إلى زمن بعيد، ربما إلى «سفر التكوين» في العهد القديم؛ وذلك لأن سقوط الشـــيطان أو طرده من الجنة، قـــد اعتبر كثيرا أمـــرا يتعلق بالقرين الشـــرير، وهي التيمة التـــي التقطها ميلتون في «الفـــردوس المفقود» (1667) أيضا.

كذلك قد يمكن تحليل رواية فرنكنشتين أيضا بوصفها رواية تدور حول القرين والازدواج، حيث يخلق فيكتور فرنكنشـــتين «وحشـــا على صورتـــه»، لكنه يتمرد عليه ويهرب ويعيث فســـادا فـــي الأرض، وقد وصف ذلك الوحش في الرواية على أنه فرنكنشتين «الآخر» المركب في ازدواجيته مع نفسه، الشرير القاتل الممتزج ببراءة الأطفال المتجسدة في الوحوش. هكذا يقدم فرنكنشـــتين نقطة عبور مفيدة فيما بين الرواية القوطية وأدب الازدواج؛ وذلك لأنها ربما كانت من أولى الروايات التي تنتمي إلى القرن التاسع عشر، والتي كانت أكثر وضوحا في ربطها بين التيمات الخاصة بالازدواجية وتقديمها في سياق قوطي.

لقد حدد ماريو براث M. Praz الموضوع الرئيســـي المتكرر في الرواية القوطيـــة على أنـــه يتمثل في «قلق لا يمكن الهروب منـــه»[6]، وقد عكس موضـــوع القرين في الســـرد - عامة - ذلك القلـــق الخاص الذي لا يمكن

الهروب منه من خلال ذلك التجسـيد لذلك «الآخر الحاقد المملوء بالغل، الـذي يهز اسـتقرار الذات، ويحـدث الاضطراب فيها»، وقـد رُبط بين فرنكنشـتين من خلال ثنائيات عدة، مثل الأب والابـن، الخالق والمخلوق، الذات والآخر، الوجود الخاص لعناصر متناقضة داخل الفرد نفسه..إلخ، ويكون قدر فرنكنشـتين وغيره من الكائنات المعبرة عن الازدواج أن يرتبط بقرينه، أن يمتزج معه بأشـكال عـدة، أن يتم تصفير هويتيهما معا بحيث يقتربان معا من الموت [7].

ومثلما اسـتخدم فرنكنشتين ذلك العلم السري أو المنحرف عن غاياته لتكوين مخلوقه، فكذلك خلق جيكل مخلوقه الشـرير (هايد). وبالشـكل نفسه تقريبا ترتبط حياة دوريان غراي وتمتزج بتلك الصورة المخيفة التي تمتص وتعكس ذنوبه وفساده أو تحلله، وكما هي الحال في معظم قصص الأزواج، يكون المهرب الوحيد هو الموت، وتكون الحياة سلسـلة من عمليات القلق الذي لا مهرب منه، ويكون التجسيد للآخر الظل / القرين / الشبه نوعا من محاولة الهروب من هذا القلق، لكنه تجسـيد سـرعان ما يصبح تمثلا لقلق أشـد، وهروبا من خوف قد يتحول إلى رعب هائل يشل العقل والوجدان والوجود.

هكـذا فـإن أدب الازدواج - في جوهـره - هو أدب يتعلـق بالهوية، أو بالأحرى بالافتقار إلى هوية، بانقسام الهوية، بتفكك الهوية، باندياح الهوية، بضياع الهوية، بغياب الهوية، بشـبحية الهوية، بعتمة الهوية، بقلق الهوية أو رعبها، هكذا يصرخ وحش فرنكنشـتين: من كنت أنا؟ ماذا كنت أنا؟ من أين جئت؟ ماذا كان هدفي ومقصدي؟ لكنه يفشل في الوصول إلى إجابات، إنه - هنا - وحشٌ يطرح الأسئلة الأساسية التي تقع في قلب موضوع الهوية [8]. ويصرخ «الملك لير» في مسرحية شكسبير الشهيرة: «من له أن يقول لي من أنا، واها، هذا ليس لير: أيمشـي لير هكذا؟ أينطق هكذا؟ أين عيناه؟ عقله يضعف وإدراكاته يصيبها الشـلل. ها. أواعٍ أنا؟ كلا: من له أن يخبرني من أنا؟» (من ترجمة جبرا إبراهيم جبرا).

وكما لاحظ غرينسـليد Greenslade فإن الهويـة المزدوجة أو المرآوية، التي تتشـكل فيها علاقات تدل على الاضطراب بين الذات والآخر، هي من

الأمور التي ظهــرت بوفرة في الأعمال القصصية الخاصة بتلك الفترة في الأدب، كما تجلى ذلك في شــخصيات مثل: فان هلسنغ، ودراكيولا، ومارلو، وكيرتز، وغيرهم.

هكذا جســدت تلك التحولات في الهوية، وظهــور عمليات الازدواج والأقران والأشــباح وغيرها في القص القوطي الحديث، جســدت ذلك التفكك في الهوية، ذلك التشــظي في الذات، هنا الهويات التي تنقســم وتتداخــل وترتدي الأقنعة، هنا يخفي الأفراد أســرارهم الخفية المعتمة التــي تتحدث عن ذات أخرى، هي في واقــع الأمر، الذات الأولى، الأنا، نفسها، لكنها كما تتجسد في أعماقها، ومشاعرها، تتجسد في ظلامها الداخلــي، قلقها الذي لا تســتطيع الهروب منــه إلا من خلال مثل تلك التجسيدات والتشــكيلات والتحولات. هكذا مزجت الأشكال الجديدة من الازدواج بين الذكور والإناث، فظهرت أشكال متحولة بشعة، شنيعة، وأصبحت الحيوانات صورا محاكية للبشــر، وأصبح البشر كالحيوانات، وحدث امتزاج وتحول في شكل الجسد وجوهر الروح، وقد عكست هذه التحــولات والتبدلات في الهوية ذلك القلق العام الذي شــعرت به تلك الشــخصيات في المدينة، كما أن هذا القلق قد انعكس بدوره على شكل الحياة الحديثة في المدينة أيضا، وبخاصة خلال الليل والظلام، فالمدينة أيضا - هنا - فقدت تماسكها واستقرارها، أصبحت مزدوجة، متحولة، مخيفة، قلقة ومقلقة [9].

تعريف الازدواجية

وفقا لما قاله كارل ميلر في كتابه «القرين: دراســات في التاريخ الأدبي» (2008)، فــإن الازدواجية إنما تشــير إلى تلك الحيــاة المزدوجة الخاصة بالفرد، والتي يمكن ملاحظتها وتســجيلها، كما أنها تشير إلى ذلك «القرين المتخيل» doppelganger أيضا [10].

هكذا تشير الازدواجية هنا إلى ظاهرة إكلينيكية أو مرضية تتعلق بتعدد الهوية، انقســامها، تعدد مستوياتها، أو طبقاتها أو حالاتها، مع وجــود التناقض بين هذه الحالات والمســتويات، كما قد تشــير هذه

الظاهــرة أيضا إلــى ظاهرة ثقافية أيضا، تتعلــق بالتعدد في الهوية الثقافية، لكنه تعدد ينفتح - هنا - بذاته على عالم الخبرات الخاصة بالآخريــن، وتلــك الخبرات التي قــد تعزز الــذات (أو الهوية)، وقد تطمسها وتمحوها أيضا [11].

هكــذا قد يكون التعدد والازدواج على مســتوى الهويــة الفردية ظاهرة مرضيــة، في حين قد يكون التعدد والازدواج على المســتوى الثقافي ظاهرة إيجابية في حالة الانفتاح على الآخر بوعي، والاســتفادة منه بقدر معين لا يســمح بطمس الهوية الثقافية الخاصــة أو محوها، أما لو حدث ذلك، فإن ذلك التعدد أو الازدواج الثقافي ســتكون له تأثيراته السلبية، وربما المدمرة، في الهوية الثقافية الخاصة المميزة.

والازدواجية كما درسها العلماء موجودة حتى على مستوى النباتات والحشــرات والحيوانات والبشــر الذين يجمعون في تكوينهم بين ذكر وأنثى (حــالات الهيرمافروديــت مثلا) وموجودة أيضا على مســتوى التكويــن البيولوجــي والهورموني للإنســان حيث يوجــد لدى الرجل هرمونات جنسية أنثوية إضافة إلى هورموناته الذكرية والعكس صحيح بالنسبة إلى الأنثى.

وفي ضوء ما قاله المحلل النفســي السويسري الشهير كارل غوستاف يونغ فإن هناك ازدواجيه في الشخصيات الإنسانية موجودة على المستوى الخاص بالذكورة - الأنوثة وموجودة أيضا على مستوى أنماط الشخصية، كما في حالة النمط الخاص بالانطواء - الانبســاط مثلا. فعلى مســتوى الذكــورة والأنوثة قال يونغ: إن كل ذكر فــي داخله أنثى ما، قد تكون هي المرأة الحلم، أو المرأة الذاكرة أو المرأة التي يعتبرها الرجل شــقيقة روحه، ويظل يبحث عنها طوال حياته. وقد كان يونغ يسمي هذا الجانب الأنثوي من الرجل «الأنيما Anima». وعلى الشاكلة نفسها فإن هناك ذكرا ما أو رجــلا ما داخل كل أنثى، قــد يكون هو صورة الأب أو الزوج أو الحبيب أو الرجل الذي تحلم به كل أنثى، ويطلق يونغ على هذا الجانب الذكري الموجود الخاص بالأنثى اســم «الأنيموس Animus»، وفيما يتعلق بالانبســاط - الانطواء أشــار يونغ إلى أن كل إنسان انطوائي في الظاهر هــو انبساطي

فـــي الداخل، وكل انبســـاطي في الظاهر هو انطوائي فـــي الداخل، وقد يســـعى الانطوائي ظاهريا إلى استعادة حالة الانبساط بداخله من خلال الأخيلة والأحلام والتهويمات وأشياء أخرى، ربما كان من بينها بعض المواد المغيـــرة للوعي، كالكحوليات أو المخـــدرات أو الوجود مع آخرين يمرحون ويضحكون مثلا.

لنعـــد إلى مجـــال الأدب، فالحديث عـــن أدب الازدواج يتضمن - في جوهره - «مناقشـــة لأدب العزلة» أيضا، والازدواجية عنصر جوهري في القص أو السرد، أيّا كان شكله؛ وذلك لأن الازدواجية غالبا ما تتعلق بالغريب والمختلف، وقد مثلت الازدواجية حضورا قويّا في السرد القصصي الخيالي خلال القرن التاسع عشر، بداية من الصعود البارز للحركة الرومانتيكية وما بعدها، وارتباطا أيضا بكل تلك المذاهب الأدبية والفكرية التي تحدثت عن ثنائية الإنســـان وازدواجه، وتكونه من روح وجسد، ومن عقل وانفعال ومن أنا وآخر... إلخ، وفي ضوء ما قاله ميللر، فإن جان بول ريختر ربما كان هو مـــن ابتكر مفهوم القرين المتخيل Doppelganger، كما أن غوته، وتايك Tieck، وكلايســـت، وغيرهم من الكتاب الألمان، ربما كانوا هم أول من اهتم بتجســـيد هذه الظاهرة في أعمالهم. أما هوفمان فقد كان هو الذي حدد موضع القرين بوصفه «يمثل جانبا أساســـيّا من الشخصية»، وإنه منذ ذلك الحين انتشـــر ذلك الولع بتجســـيد ظاهرة القرين هذه من ألمانيا إلى أوروبا [12].

حول الازدواجية والأدب

تعنـــي كلمـــة الازدواجية وجود حالتين اثنتين من شـــيء ما، كما أنها تعنـــي أن يدّرك شـــيء واحد علـــى وجهين، أو يتجلى مرتـــين، أو يدّرك مرتـــين، أو يدّرك مزدوجا، وقد يكون هـــذا الإدراك حقيقيّا، وقد يكون متوهما، وهذا المعنى الثاني هو الذي يعنينا في هذا الكتاب، وهو المعنى الذي يكون فيه الجانبان أو الوجهان أو الحالتان أو الشـــخصان المكونان لحالـــة الازدواج إما في حالـــة تكامل أحدهما مع الآخر، على الرغم من اختلافهما، في حالة تناقض وتنافر وعداء أحدهما مع الآخر، على الرغم

من تماثلهما، إنهما قد يكونان شـــريكين، أو عدوين، قد يرحب أحدهما بالآخر، ويسعى من أجل البحث عنه والوصول إليه، وقد يخشاه ويخافه ويهرب منه، هكذا يكون موضـــوع الازدواج موجودا في قلب موضوعات أخرى كثيرة ترتبط بالأدب وبالشخصية الإنسانية بشكل عام، ولعل أهم هـــذه الموضوعات والتيمات - هنا - ما يمكن أن نذكره حول موضوعات مثل الهوية وازدواجها وانقسامها وتعددها وتفككها، وحول القرين والظل والذات الأخرى، وحول الأشـــباح والأشـــباه والهلاوس والفصام. وهكذا قد يكـــون الازدواج ظاهرة صحية، وقد يكـــون ظاهرة مرضية، صحية إذا اقترن بوعي الذات بنفســـها، وبحثها عن ذاتها الأخرى، ذاتها القدوة، الأكثر اكتمالا، وقد يكون الازدواج دلالة على الكذب، وعلى الوهم والتوهم والخداع، والمرض النفســـي والعقلي أيضا والإنســـان الذي يقال عنه إنه «بوجهين» أو «منافق» أو «مراءٍ»...إلخ.

وقبل أن يتجلى الاهتمام الأدبي بظاهرة الازدواجية في أواخر القرن الثامن عشـــر، ومن خلال أصحاب المدرســـة الرومانتيكيـــة، كان هناك اهتمام قديم بها في الفلسفة، وفي الأدب الإنساني قبل ذلك بوقت كبير، وما قامت به الرومانتيكية هي أنها جعلت ذلك الموضوع معروفا وشـــائعا في الأدب.

وفي لغة الحياة اليومية - على نحو كبير - يشـــير مصطلح الازدواجية إلى ذلك الخيال الذي اهتم بتجســـيد وجود حالتـــين عقليتين أو أكثر لدى الفرد الإنســـاني الواحد، كما أنه يشـــير إلـــى الأوهام والحقائـــق، المبادئ والممارسات، حالات العقل والوجدان، أساليب الكلام وطرائق الحياة، المظهر الخارجي والجانب الداخلي من الذات البشـــرية كما جسدها الأدب. ويشير هـــذا المصطلح كذلك إلى الحياة المزدوجـــة، التي قد تكون قابلة للملاحظة والتســـجيل. كما أنه قد يشير أيضا إلى ذلك القرين المتوهم، وقد يشير إلى الظاهرة الإكلينيكية أو المرضية الخاصة بتعدد الهوية، وأيضا إلى الظواهر الثقافية الخاصة بتعدد مســـتويات الهوية وطبقاتها، تلك التي تنفتح بذاتها علـــى العالم والخبرات الخاصة بالآخرين، وهي الخبرات التي قد تعزز هذه الذات أو تطمسها أو تمحوها، بشكل واضح [13].

هكذا قد تشتمل ظواهر الازدواج على جوانب إيجابية، أو جوانب سلبية، وقد تشـتمل على الازدواجية النفسية والانقسام، أو على العقل المنفتح على الآخر، مـن ناحية أخرى، وقد يكون الجانب السـلبي الخاص بالانقسـام النفسـي مبنيّا على الوعي؛ ومن ثم فإنه يتضمـن نوعا من التطوير الدائم للذات وقدراتها وسـعيها من أجل تحقيق إمكاناتها على أفضل نحو ممكن، وقد يكون الجانب الإيجابي، الخاص بالانفتاح على الآخر مشتملا على حالة مـن الانديا‌ح للحدود بين الـذات والآخر بحيث تفقد الذات هويتها وتصبح نسخة متكررة من الآخر، هنا طمس هوية الذات الجماعية. أو حتى الفردية . وربما محوها أيضا.

مع المدرسة الرومانتيكية أيضا بدأ النظر إلى الفنان على أنه إنسان يعيش حياة مزدوجة، أو أن له ذاتا ثانية، أو «أنا أخرى» alter Ego، فهو يحيا حياته الإنسـانية العادية، ولكنه يعيـش أيضا حياة أخرى، داخل الفـن، ومن خلال الفـن، ومن ثم فإنه ذو وعي منقسـم، أو ربما حتى صاحب وعي شـقي لو اسـتخدمنا لغة هيغل، كما أنه يسعى من أجل اكتشاف ذاته الحقيقية، لكنه خلال سعيه هذا، قد يفقد ذاته أيضا، وقد ظهرت قضايا وخلافات كثيرة حول دور الذات والإبداع، وحول ضرورة أن تظهـر هذه الذات أو أن تختفي داخل العمل الإبداعي، وهكذا حتى وصلنا إلى مقولة بارت الشهيرة عن «موت المؤلف» و«قيامة القارئ»، أو إلى ما قاله دريدا عن النصوص الأدبية بوصفها - ذاتها - تجسد حالة من الفقدان لليقين، الحيرة المعرفية والوجودية الناتجة من اسـتخدام هـذه النصوص لكلمات هـي ذاتها مزدوجة المعنى كمـا في التوريات اللفظية مثلا.

يرتبط مفهوم الازدواجية في الأدب أيضا بمفهوم التحول والتغير والنسخ والمسـخ والاسـتمرارية والتبدلات في الزمان والمكان والحالة والشـخصية والأخـلاق وطرائق التفكيـر وتحولات الليل والنهار والخير والشـر والأمل واليـأس والأمن والرعب، وإلى غير ذلك من التحولات التي شـغلت الأدب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا تزال تشغله خلال القرن الحادي والعشرين أيضا. كما أن المفاهيم والتيمات التي كانت تجسد حالات الازدواج

والتحول هذه كانت تتغير هي نفسها أيضا من فترة إلى أخرى، ففي العصر الفيكتــوري مثلا في إنجلترا كان هناك شــبه إقرار بــأن الازدواجية مكون جوهري في الطبيعة البشــرية، أما خلال القرن العشرين، ومن خلال أدباء أمثال جوزيف كونراد مثلا، أعِيد النظر في طبيعة الإنسان المزدوجة. كذلك كان هنــاك لدى دستويفســكي، وقبله لــدى هوفمان، وإدغــار آلان بو، ولع بالازدواجية القائمة على أساس التوهم والمرض العقلي.

على كل حال فإن مناقشــة أدب الازدواج هي في جوهرها مناقشة لأدب العزلة [14]، أدب الأفراد. والجماعات. الوحيدين المنعزلين المهمشــين الذين يجدون صعوبة في التكيف مع أنفســهم، أو مــع الآخرين المحيطين بهم، أو مع المجتمع الذي يعيشون فيه، أو مع فكرة الحياة وجدواها بشكل عام. إنها ذوات تعاني أنها تشــعر بالغربة والغرابة والاختلاف، وأن العالم الذي تعيش فيه، هو – كما قال هيغل وهو بصدد حديثه عن هاملت – «ليس كما ينبغي أن يكون» [15].

أدب البيت والألفة والازدواج

مثلما ترتبط فكرة الحياة العائلية أو الوطنية بالبدايات والنهايات، بالمغادرة والعودة والألفة، بالحياة والموت فإن أدب الازدواج يهتم كذلك بذلك الجانب النفسي والاجتماعي المتعلق بالغياب، أو الاختفاء، غياب الإنسان عن بيته، مكانه الأليف، اختفاء أو انتفاء شعوره بالأمن، رغبته في العــودة إلى الجذور، خوفه من الضياع بعيــدا عن بيته أو وطنه، عــن أمنه الذي يظن أنه فــي بيته أو وطنه، لكنه ربمــا الذي عندما يعــود إليه يجده ليس هو البيت الوطن الذي غادره، يجده ليس البيت الوطــن الأليف الذي كان محتفظا به في عقلــه ووجدانه، يجده بيتا غريبا ووطنا غريبا، بل موحشــا، وربمــا مخيفا، وهنا يكون الحضور أو العودة وســيلة للغياب أو الهرب، هنا قد تكــون الازدواجية وتعدد الــذات والأقنعة وســيلة لحماية هذه الذات مــن مواجهة ما تراه من تكســرات وتهشــيمات في مرايا ذاتها التي كانت تظنها – من قبل ؟ جميلة، مصقولة، لامعة، صادقة.

وتشبه العائلة الجسد الإنساني، فهي تجمع ووحدة خاصة من الأعضاء والوظائف والمسؤوليات، والتشابهات والاختلافات والتعارضات، كما أنها - العائلة - تعكس بعض ثنائيات الحياة، كثنائية الزوج والزوجة، الابن والابنة. وكلمة عائلة أو أسـرة Family فـي اللغة الإنجليزية قريبة من كلمة مألوف Familiar، أى ينتمـي إلى الأسـرة، أى ليس غريبـا عنها، لكن لهذه الكلمة (Familiar) معنى آخر يشير إلى وجود روح حاضرة أليفة أو شيطانية؛ ومن ثم فإنها كلمة مزدوجة تشير إلى روح مزدوجة أيضا [16].

قد تشـير الازدواجية أيضا أو تدرك على أنها تشير إلى حالات نفسية متتابعة، ومختلفة، أو لحظات زمنية متتابعة ومختلفة، أو شخصيات داخلية منقسمة مقارنة بالشخصيات الخارجية المصاحبة لها، ومن هنا كانت فكرة يونغ عن الظل (الذات الداخلية الشريرة غالبا) والقناع (الذات الاجتماعية كما تبدو أمام الآخرين في صورة ترتدي قناع الشرف والقوة تدعى الشهامة والكرم والصدق...إلخ).

ما من غريب مثلك

حكى الكاتب الأرجنتيني الشهير جورج لويس بورخيس في أحد كتبه حكايـة رمزية عنوانها «بورخيس وأنا»، وهـي حكاية تروي قصة حياته، وتحولها إلى رواية خيالية رومانسـية يقول خلالها إنه يوجد داخل نفسه شـخصان هما الشخص نفسـه، هما بورخيس نفسـه، فهناك شخص بورخيس الكاتب المعروف والأستاذ الجامعي، الشخصية العامة، ثم هناك شـخص «أنا»، البديل أو المماثل للذات الحقيقية، الذي يحب نثر روبرت لويس ستيفنسـون (مؤلف رواية دكتور جيكل ومستر هايد)، والذي يعتبر حياته ذات معنى من خلال الكتابات التي يكتبها الكاتب - بورخيس - لكنه الذي لا يتعرف إلى نفسه إلا قليلا من خلال هذه الكتابات، في حين يجد نفسه أكثر في كتابات الآخرين، كما تحاول هذه الذات الحقيقية أن تحرر نفسـها من الذات الأخرى (ذات بورخيس الكاتـب المعروف اجتماعيا)، وهكذا فإن حياتها تكون أشبه بسلسلة من عمليات الهروب، وتنتهي هذه الحكاية الرمزية بجملة تقول: «وهكذا فإنني لا أعرف أي شخص منا قد

كتب هذه الصفحة»، ويقال كذلك إن بورخيس - كاتب تلك الصفحة - كان عندما يقابله شخص في أحد شوارع «بيونس أيرس» (عاصمة الأرجنتين) ويسـألـه: « أنت بورخيـس، أليس كذلك؟»، فإنـه كان يجيب: «أحيانا ما أكونه» [17].

فـي «أنا وبورخيـس» يقول هذا الكاتـب الكبير المتسـمي «الآخر، بورخيس، أعرف من البريد عن بورخيس، وأرى اسـمه بقوائم المشاهير أو بمعاجم التراجم. مولع بالساعات الرملية، والخرائط، وطباعة القرن الثامن عشـر، وطعم القهوة، وسرد ستيفنس، أشاركه هذه التفصيلات، لكن من دون طائل، كأنها سـمات ممثل، ومن نافل القول أن بيننا علاقة عداء. فقد أدع نفسـي أحيانا تديم ليحتال بورخيـس على أدبه، وأدبه يُبررني، وأسـلم معترفا بإنجازه بضع صفحات مستنيرة، لكن مثل هذه الصفحات لا تعفيني من أن جيدها لا ينتمي إلى أحد، ولا حتى إليه»... ويستمر هكذا حتى يقول «جربت أن أحرر نفسي منه، فرحت من أساطير الضواحي، إلى اللعب مع الخلود والزمن، لكن هذا اللعب يخص بورخيس الآن، وعليّ تصور أشياء أخرى. هكذا حياتي تحليق، أخسر كل شيء، في حين أن كل شـيء ينتمي إليه أو إلى النسيان. ولا أعرف أي منا قد كتب هذه الصفحة؟» [18].

هكذا وجد بورخيس نفسـه وهو في «بيونـس أيرس» يعيش كأنه إحدى شـخصيات ستيفنسون التي تعيش في «أدنبره»، «كل شيء ولا شـيء»، كما قال شكسبير عن بروتوس، ذلك الذي كان رجلا مصريا بألـف وجه، والكاتـب كذلك يمكن أن يشـبه الحربـاء، يتلون بتلون شـخصياته وأدوارها، حيث القرين الخيالـي، البديل الخيالي، الأنا الأخـرى المتوهمة، قد تكون هي الجانب الآخـر المكمل أو المخيف أو المهدد لشخصية الكاتب المبدع لها، لا أحد غيره. قد تتعدد الشخصية، ولكنهـا تظل كما هي من حيث مظهرها الخارجي ووجودها الواقعي، وقد تتعدد الشخصية أو تزدوج في صور مختلفة، كما في حالة جيكل وهايـد، أو جوليادكين لدى دستويفسـكي، وهذه كلهـا أمور جديرة بوضعها في الحسبان.

وفي نص استلهم فيه روح شكسبير وحياته، ومن خلالهما روح الممثل عموما وحياته، وهو نص بعنوان «كل شيء ولا شيء»، كتب بورخيس يقول:

«لم يكن أحد غيره، خلف وجهه لم يكن أكثر من رجفة خفيفة، حلم إنسان فشل في الحلم، رحل إلى لندن، في عشرينياته الغريبة، اعتاد غريزيا، وحاذقا، أن يحاكي شخصا آخر، ولم يكتشف غيره أنه لم يكن أحدا. لقي - في لندن - مهنة اختير لها سلفا: أن يُمثل في المسرح شخصا آخر، مع من يمثّلون أمامه باعتباره ذلك الآخر، أسبغ عليه المسرح رُضا فريدا، ربما أول ما عرفه من السطر الأخير، بعد أن يهلّلوا له وينسحب الميت من على المسرح، تعاوده نكهة الزيف البغيضة ... ثابر، طيلة عشرين عاما، على هذه الهلاوس المنظّمة. ثم ملكه الضجر ذات صباح فجأة، ففزع من كونه صار كثيرا من الملوك الطعينة بالسيف، وجَمّ عشاق يعانون في الوصل والفصل ثم يقضون نحبهم بشجو، رتّب يومها أن يبيع مسرحه، وخلال أسبوع رجع إلى قريته الأم، حيث تكشفت أمامه أنهار طفولته وأشجارها، ولم يعد يعوِّل على آخرين كانت ربة الشعر تحفل بهم، مستنيرة على سراب الأسطورة وعبارات اللاتينية. لكن، عليه أن يكون أحدا، فكان مدير فرقة، ثم استقال بعد جمعه ثروة أثقلتها الديون ودعاوى القضاء مع أرباح ثانوية، أملى بشخصه إرادة جدباء ووصية نعرفها، أقصته في ترو عن آثار العواطف والأدب. أما زملاؤه من لندن، فكانوا يزورون مثواه، ومنهم من كان يتولى دوره كشاعر من جديد» (19).

هكذا كان شكسبير نفسه واقعا في معضلة التفكير في التشابه والاختلاف، تشابه الإنسان مع نفسه، واختلافه عن الآخرين، لكنه في قلب هذا المأرق يكتشف أيضا أنه غير مختلف عنهم، وأنه يقوم مثلهم بأدوار عدة، وأنه عندما رحل إلى لندن في عشرينيات عمره درب نفسه

على عادة التظاهر بأنه «كان شـــخصا ما»، «يمثل شخصا آخر، وباعتباره ذلك الآخر، في لنـــدن وجد ذلك المصير، والنداء، القدر الذي كتب عليه، أن يصبح ممثلا، شخصا يقف على المسرح ويلعب الدور الخاص بشخص آخـــر، وأمام جمهور ينظر إليه ويتخذه بديلا لذلك الشـــخص الآخر، إنه ليس أبدا نفســـه، إنه موجود دائما في آخر، وإنه مع الســـطر الأخير من المســـرحية، أي من الدور، من اللعب، من التمثيل، من التظاهر، يهللون له، ينســـحب الآخر الممثل من المسرح، ومعه تتبدد والمتعة، تعاوده نكهة الزيف البغيضـــة، يصبح «لا أحد من جديد»، لكـــن أبطاله يطاردونه، لا يتركونه أبـــدا، وحيـــدا، فمع من يعيش الممثل بعد غياب الجمهـــور؟ إنه يعيش مع أبطاله، ويعيشون معه وقد لا يغادرونه.

لقد وجد شكسبير سعادته في فترة من حياته في لعب أدوار الآخرين على خشبة المسرح، لكنه أدرك في النهاية أنه مع إلقائه السطر الأخير، و«عندما ينسحب آخر الموتى من فوق خشبة المسرح»، يأتي المذاق الكريه، الإحســـاس بالغرابة، وفقدان الشـــعور بالواقع يهاجمه بقوة؛ إن عليه أن يتوقف عن أن يكون فيركس أو تيمورلنك، ويعود إلى كونه «لا أحد».

هكذا، ولمدة عشـــرين عامـــا - كما يقول بورخيس - ظل شكســـبير الممثل يخلق الشـــخصيات التي يلعب أدوارها فوق خشـــبة المســـرح، ثم فجأة، ولبرهة، في لحظة ما، ألمح خفية إلى ذاته الخاصة من خلال تلك الكلمات التي عبرت عنها بعض شخصياته. لقد شعر الممثل بأنه في حيرة شـــديدة من أمره بسبب كونه كل تلك الشـــخصيات المختلفة فوق خشبة المســـرح، لكنه لم يكن قط ذاته، ذاتـــه الحقيقية، فهل ذاته الحقيقية هي ذاته الخيالية، وهل ذاته الخيالية هي القناع الاجتماعي للشـــخصية التي كان يتمنى أن يظهر من خلالها أمام الناس، وهل ذاته الواقعية هي الظل (الخفي - الحقيقي - المعتم المملوء بالغرائز والأســـرار؟) هل يوفر المســـرح لأبطالـــه فرصة التحرر من الظل، ولـــو من خلال قناع يحظى بالتصفيق والقبول، حتى لو كان متعلقا بشـــخصيات شريرة موغلة في الظلام؟ هل المهم هو فقط الإتقان والتوحد وجودة الأداء؛ هذه وغيرها أمور ينبغي أن نفكر فيها بعمق وتتأملها وتطورها لاحقا؟

في فترة من حياته، توقف شكسبير - كما رآه بورخيس - عن الكتابة، وعاش حياة الطبقة المرفهة في إنجلترا، اهتم بكسب المال، باع مسرحه ثم غرق في الديون...إلخ، لكن عبقريته، تلك التي تجسدت في كل تلك الشخصيات المزدوجة والمتعددة، كانت قد غادرته. في النهاية يقدم بورخيس الخلاصة لحياة كانت تقوم في جوهرها، على كون صاحبها لا أحد، على كونه منفصلا عن ذاته الواقعية من خلال ذوات خيالية، وفي دهشة ملغزة تلخص جوهر حالة الفقدان للذات أو الشخصية، ولكن في حالتها الإبداعية يضيف التاريخ أنه قبل موته أو بعده، اكتشف ذاته، يقف أمام الرب، ويقول له: لقد كنت رجالا كثيرين، وحاولت بلا جدوى أن أكون واحدا، أكون نفسي، فأجابه الرب بصوت عاصف: أنا أيضا، لست أنا، لقد حلمت بالعالم مثلك، يا شكسبير، حلمت بعملك نفسه، وقد كنت أنت نفسك شكلا من أشكال عدة بين أحلامي، فأنت مثلي «وجود واحد يتجلى على أنحاء مختلفة».

ثم إننا نجد أن بورخيس نفسه أيضا يرثي نفسه في قصيدة أخرى، بعنوان «مرثية بورخيس»، ترجمها باقتدار الصديق الشاعر محمد عيد إبراهيم، وفيما يلي نص القصيدة، التي يقول بورخيس فيها:

يا لِقسمة بورخيس،
سافر عابرا العوالم المختلفة،
أبحر في عزلته، وتوحّد في أسماء مختلفين،
كي يمثل دورا في أدنبرة، زيورخ، لِقاء فِلسين،
أو كولومبيا، وتكساس
كي يعود عند نهايات أجيال تغيرت
في أرض أسلافه الغابرين،
إلى الأندلسِ، البرتغالِ، وبلدان تعارك فيها
السكسونيون مع الدنماركيين وامتزجوا بدمائِهم،
كي يجول بمتاهة لندن الحمراءِ،
كي يشيب في عدد من المرايا،
كي يفتّش عن مرمر محدِقٍ بالتماثيلِ،
كي يستفهم من كتب الطبعاتِ الحجرية،

والأطالسِ والموسوعات،
كي يرى أشياء رآها الناس،
الموت، الشفق الهامد، الوديان، الأنجم المرهفة،
ثم لا يرى شيئا؛ أيَّ شيء تقريبا
غير وجهِ فتاةٍ من بيونس آيريس،
وجهٍ لا يريدك أن تذكره
يا لقِسمةِ بورخيس،
ما مِن غريبٍ مثلك [20].

خاتمة

أشـــارت بعض الدراسات إلى أن الكتّاب الذين اهتموا بتجسيد الازدواج والتعدد في الشخصيات الأدبية كانوا هم، أنفسهم، يعيشون حياة مزدوجة، هكذا قيل مثلا إن ستيفنســـون. مؤلف جيـــكل وهايد - كان يدرس القانون ويعيش حياة عادية خـــلال النهار، لكنه كان يحيا حياة صاخبة خلال الليل، وكذلك كان دستويفسكي؛ يعيش دور الكاتب نهارا، ويلعب القمار ليلا، وكان وايلد شـــهيرا بنزواته ومغامراته...إلخ. هذه ليســـت النقطة التي تعنينا في هذا الســـياق، على الرغم من أهميتها، وقد نعود إليها في موضع لاحق من هـــذا الكتاب، وخصوصا أن هنـــاك من رفض القـــول إن ازدواجية الكاتب تنعكس أيضا في ازدواجية شـــخصياته، وإن الكتابة محاولة للهرب من هذه الازدواجية، أو تجسيدها بشكل رمزي [21].

في كتابه «المثقفون» (1998) يســـتعرض بول جونسون نماذج عديدة من كتاب ومفكرين أمثال: جان جاك روســـو وشيلي وماركس وإبسن وتولستوي وهمنغواي وبرخت ورسل وسارتر وهيلمان وغيرهم، حضرت لديهم مظاهر مختلفة وعلامات من هذه الازدواجية والغرابة والتناقض في السلوك وتجلت في أشكال غير متوقعة وأحيانا مخيفة [22].

إضافة إلى ما سبق، فإنه يقال أيضا إن هذه الازدواجية في الشخصيات. أو حتى لدى الكتاب. هي من النتائج المتعلقة بظهور المدن الحديثة وتطورها، تلك المدن التي أســـهمت في تكريس أخلاق الاستهلاك، الرغبة في الكسب

السـريع، وامتلاك الأشياء المادية بأي ثمن، ولو على حساب الذات، حساب أن تقـول غير مـا تعتقد، وأن تنافق وتداهن وتكذب وتسـرق، وتعيش حياة مزدوجة، ترتدي قناع البراءة والانضباط نهارا، وقناع الجريمة والتحرر ليلا، تنتقد القمع والتسـلط وأحادية التفكير مرة، لكنك لا تمانع في قبول منحة أو عطية من سـلطات قامعة لشعوبها مرة أخرى، كما أنها قد ترتدي هذين القناعين أيضا، خلال الوقت نفسه، ليلا ونهارا.

6

الغرابة والقرين

«في كتاباتي أتكلم عن نفسي، أبذل جهــدي كيلا أموت في صمــت. تأليف الكتب مرض يهدد من يصاب به بالجنون»

أوفيد

(من خلال كينار)[1]

كان الليل قد أرخى سدوله، والشوارع هادئة
وهنـــاك، كان يقع ذلك البيت الذي عاشـــت
محبوبتي فيه
طويلا كان ذلك المنزل ومرتفعا
وعلـــى الرغم من أنهـــا غادرته، من قبل، إلى
المدينة،
فإنه ظـــل قائما في مكانه، هنـــاك، كما كان
دائما
وأمامه، وقف رجل، يحدق إلى أعلى
ويعصر يديه في ألم مبرح،
وعندما رأيت وجهه، تملكني الرعب
فقد كشف ضوء القمر لي عن وجهي نفسه،
أيها القرين! يا رفيقي ذا الوجه الشاحب!
لماذا تحاكي . مرة أخرى . عذاب الحب المبرح؛
ذلك الذي عانيت منه، كثيرا، ذات ليلة ماضية
في هذا المكان؟ [2].

في هــذه القصيــدة الغنائية الموســيقية الموجزة التــي قدمها المؤلف الموسيقي الشهير فرانز شوبرت في السنة التي توفي فيها في العام 1828، وكانت بعنوان «القرين»، يتذكر العاشق ذلك المنزل الذي عاشت فيه محبوبته التي فقدها، وعندما يعاود زيارتها في خلال تجوالاته الليلية، يجد نفســه لايزال واقفا هناك، حيث يضيء نور القمر وجهه، ويجد ذاته الأخرى تحاكي حركاته على نحو واضح، تعتصر يديها، وتقلد العذاب المبرح نفسه الذي كان قد شــعر به - ذات ليلة - في الزمن الماضي، هناك، في المكان نفســه، أمام ذلك المنزل.

والقرين هو ظهور أو تجلٍ شــبحي لحالة داخلية تحدث انقساما داخل الذات، وفي الوقت نفســه تحدث التكامل الخــاص بهذه الذات، على الأقل أمام نفسها، من خلال هذا الانقسام ذاته. بأن تبعد عن نفسها ذلك الجانب الســلبي الغامض المخيف المرفوض منها، وتســقطه على صورة أخرى لها، وتكــون هذه الصــورة الأخرى هي ذاتها، تكون قرينهــا. إنها صورة محاكية ثانوية Simulacura، أي صورة هوية تشتمل على الذات وموضوعها، الذات وهويتها الأخرى، الذات وكينونتها، الذات التي لا تتشكل إلا من خلال قرينها أو شبحها أو صورتها الخفية الأخرى كما أشار جوليان وولفريز.

في رواية عنوانها: «الآخر مثلي»، للكاتب البرتغالي «هوزيه ساراماغو»، يعيش مدرس لمادة التاريخ، وحيدا، وتنحصر حياته في عمله في مدرســة ثانوية، وعلاقة حب ليســت عميقة، يعاني شبه اكتئاب وكوابيس، ينصحه أحــد زملائه باســتئجار أحد الأفلام الكوميدية للترفيه عن نفســه، وفي الفيلم يرى نفســه، أو بالأحرى يرى شــبيهه، في مشــهد صامت في دور ثانوي، تنقلب حياته رأســا على عقب بعد ذلك، ويحضر الأفلام كلها التي قام شــبيهه بالتمثيل فيها، ويرى الأدوار الثانوية التي قام بها: موظف في مصــرف، ممرض في مستشــفى، بواب أمام ملهى ليلــي، ثم مدير فرقة مســرحية... إلخ، ثم يصبح شغله الشــاغل أن يلتقي شبيهه وجها لوجه، يهاتفه ثم يلتقيه. هنا الشبيه أيضا يماثل الغريب، بل هو غريب يهز استقرار الــذات وواقعها، ويجلب إليها وقائع جديدة، هكذا لم يقلب ظهور الشــبيه حياة مدرس التاريخ الذي رأى شبيهه - الممثل الثانوي - في بعض الأفلام،

بل قلب هذا الظهور وهز تلك الحياة المستقرة نسبيًا التي كان يعيشها ذلك الممثل مع زوجته أيضا. هكذا تتطور الأحداث في الرواية بأشكال وعلاقات غريبة غير متوقعة.

ربما كان ذلك الشبيه قد جسد هنا، بالنسبة إلى مدرس التاريخ، نوعا من الحلم، المتخيل، المتعلق بنوع من الوجود والشهرة التي لم يحقق هو نفسه شيئا منها، ربما كان ذلك الشبيه المماثل له في الملامح والصوت والجسد، هو ذلك الجانب الآخر من الذات، الذي حلمت به، ورأت فيه نوعا من التحقق؛ ومن ثم الاستمرارية أوالخلود الذي لم يصل صاحبه إلى شيء منه، لكن، وكما يقال، فإنه عندما يرى المرء شبيهه أو قرينه، فإن ذلك قد يكون نذير الموت، فإن نزعة عدوانية تتلبس كل شخصية من هاتين الشخصيتين شيئا فشيئا، نحو الآخر، ثم إنه عندما يموت أحدهما في حادث سيارة يظهر شبيه آخر له، يطارد ذلك الشبيه الحي [3]. ويستمر الحكي، يستمر التكرار والتوالد للقرائن والأشباه مادامت الحياة باقية.

القرين وزملاؤه في الغرابة

يحمل الأشباه (الأقران) الخياليون تاريخا أدبيا على ظهورهم - كما يقول كولن ديفيز - وهم يحضرون إلينا مكتسين الحلة الخاصة بحياة مفعمة بالخوف والغرابة والتخطي أو التجاوز للحدود، وكذلك فإن العزلة والشعور بالوحدة الكبيرة والوحشة القاتلة هو قدرهم، حيث يكون مجرد ثلاثة منهم أشبه بالحشد أو الزحام الذي يهربون منه، أما وجود اثنين فقط فقد لا يمثل صحبة طيبة، إنهم وحدهم، وحدهم دائما، مع ذاتهم، مع قرينهم، حيث يقودهم سلوكهم الانعزالي نحو مسارات مرعبة، تضيق على نحو متزايد، كما تقترن الأفعال الشريرة. أو الشيطانية أو المرضية. التي يقومون بها، أو تحدث لهم، وتقودهم إلى تحالفات خاصة مع زملائهم في الغرابة: الأشباح، المستأذبين، الظلال، الغيلان، ونابشي القبور والعابثين بجثث الموتى [4].

هكذا تسقط الملابس أو الأقنعة، وتنشق الشخصيات، وتتحول إلى ذوات منقسمة ذات طبيعة أخرى غير التي كانت تبدو عليها لنا في الظاهر أو في البداية. هنا تكون طبيعة القرين أو الذات الأخرى طبيعة سيكولوجية، بمعنى

أن التوجه الخاص من وراء الكتابة حولها أو تجسـيدها في الأدب، يكون ذا مقصد تحليلي نفسـي، ولكن في حالات أخرى تكون هذه الشخصيات ذات طبيعة مضادة للمجتمع، موجودة في مناخ اجتماعي يتسم بالعداوة، أو الظلم، أو الفوضى والتفكك، وهنا نجد أنفسـنا أمام ما يمكن أن نسـميه «القرين الاجتماعـي»، وبالطبع ليس هنـاك ما يمنع من أن تكون هذه الشـخصية المنقسمة نفسها ذات مستويات متعددة أيضا ومنقسمة، بعضها سيكولوجي، وبعضهـا اجتماعي، فهنـاك دائما في قصـص الازدواج نـوع من الإحالة الاجتماعيـة والنقد الاجتماعي، وكذلك الإشـارات المتكـررة إلى الضغوط الخاصة بالزمان والمكان والآخرين، التي تعانيها الشـخصيات المنقسمة في هذه الأعمال [5].

وترتبـط قصص الازدواج. بشـكل عـام. بالقصص والأعمـال الأدبية السـابقة عليها، والخاصة بعمليات التحول: تحول الإنسـان إلى حيوان أو العكس، والسـيد إلى عبد أو العكس، الإنسان إلى شيطان أو العكس، وبكل ما يرتبط بعمليات تغير الهوية وتحولها وتجاوزها للحدود الطبيعية الخاصة بها. لكـن ما يميز قصص الازدواج ورواياته عـن غيرها، هو هذا الاقتران والتلازم والتصاحب المحدد لشـخصين معا، لأسـباب نفسية أو اجتماعية، ليسـت هناك أسباب سـحرية أو عوامل ميتافيزيقية ترتبط بهذا الازدواج في الشـخصيات والانقسام في الهويات، حيث هنا هبوط من عالم السحر والميتافيزيقـي إلى عالم النفس والمجتمع والغرابة الحياتية. وحتى لو حضر عالم الميتافيزيقا هنا في صورة أرواح أو أشباح أو غيرها، فإن السبب المفسر لها غالبا ما يكون مرتبطا بخلل في البنية النفسـية أو الاجتماعية التي يقع عليها هذا الانقسـام. وإضافة إلى ذلك كلـه، فإن قصص التحولات الأولى غالبـا ما تكون مرتبطة برغبات حلمية، بأمنيات التحقيق لرغبات في عالم الخيـال لا يمكن تحقيقها واقعيًا، أما في قصـص الازدواج فالأمر مرتبط بهروب ما، خوف ما، مطاردة ما، رعب ما، اسـتحالة وعزلة، وفي الحياة لا يمكن مقاومتها إلا بمثل هذا التحول، حتى لو تمثل هذا التحول في أن يصبح الإنسـان حشرة كما حدث بالنسبة إلى غريغور سامسا في قصة التحول أو «المسـخ» الشهيرة لفرانز كافكا، التي تحول فيها جسد غريغور إلى ما يشبه

الحشـرة المخيفة، فـي حين ظلت روحه وأفكاره تنتمي إلى عالم الإنسـان، وظل توقه إلى الموسـيقى مميزا لعالمه الغريب المنقسـم بين إنسان وحشرة، بين بدائية الغريزة وفجاجتها وسـمو الروح الموسيقية. وهكذا فإن الانقسام الاجتماعي هو انقسـام داخل المجتمع، انقسـام بين طبقات المجتمع وفئاته وأفكاره وأعرافه ومستوياته، انقسام يتجسد، ويتم تركيزه عبر ذلك الانقسام أو الازدواج السيكولوجي [6].

هكـذا يوجد الانقسـام والتعدد على مسـتوى الخلية البشـرية، والمخ البشـري، والجسد البشري والحيواني، والشخصيات البشرية، والمجتمعات الإنسانية، وخلال عمليات الإبداع والقراءة أيضا...إلخ. بل إن المحلل النفسي السويسـري الشهير كارل غوسـتاف يونغ قد أقام أحد أهم جوانب نظريته المتعلقة بالسلوك الإنسـاني والأدب والفن والأساطير حول تلك الازدواجية النوعية الموجودة لدى كل إنسان حيث قال إن كل ذكرٍ توجد في داخله أنثى ما - يسميها يونغ الأنيما - وداخل كل أنثى جانب ذكري يسميه يونغ الأنيموس. وقد عالج بعـض الباحثين موضوع «القرين» بوصفه اختبارا قاسـيا يتعلق بمدى ثبات الهوية الذاتية في الأدب خلال القرن التاسـع عشـر في ألمانيا؛ وذلك لأن تجسـيد القرين في الأدب إنما يعبر أيضا عن الذات الإنسـانية عندما تنقسـم وتتمزق على نحو مَرَضي، وبدرجة قليلة أو كبيرة، فيما بين الواقـع والخيال مـن خلال تلك الحالات التي أطلق عليهـا الكاتب الألماني هوفمـان الازدواجية المزمنـة [7] Chronic Dualism. وفي ذاته، يقوم هذا الموضوع بتقدير أو قياس التحـولات في العلاقات بين الاتجاهات الواقعية والخيالية في الكتابة التي هيمنت على العصور الكلاسـيكية والرومانتيكية والواقعيـة والطبيعية والحداثية وما بعد الحداثية أيضا، وقد اسـتأثر هذا الموضوع باهتمام الأدبـاء، ولا يزال يستأثر باهتمامهم حتى الآن.

جذور القرين والغرابة

تمتد فكرة القرين بجذورها في ذلك الرعب الذي يخشـى معه الإنسان أن يُحْـرَم التواصل مع ذاته، ومـع الآخرين، وهي احتمالية تنعكس في ذلك الاضمحلال أو الاختفاء للقرين النرجسـي وتحوله إلى نذير للموت، أي إلى

حضور منفصل ومضاد للذات. ولدى الأفراد العاديين، فإن هذه القوة الغريبة (العالـم) التي تصبح متكاملة مع الذات، أو جانبا خاصا منها، تنمو وتتطور وتتحـول إلى «ملكة خاصة»، أو قدرة خاصة تعـارض الجوانب الأخرى من «الأنا»، وتقوم بمراقبة الـذات ونقدها داخل العقل، وهذا ما يتحول إلى ما يسمى «الضمير الحي».

أما في الحالات المرضية، فإن شعور المرء بأنه مراقب، أو أنه يراقب أفكاره وانفعالاته وتصرفاته، قد يجعله يعزل - لا شـعوريًا - هذا الجانب منه، يجعله مفـككا، بعيدا عن بقية ذاته، ويتم الامتـداد بتلك الحالة المرضية وتقويتها - كما يشـير بعض المفكرين - عندما يُعد هذا القرين شريرا، ومن ثم فإن المرء - وكنـوع من الدفاع عن الذات - يبتكر خطـة بديلة لمواجهته[8]. وأخيرا، فإنه عند الانتقال من الواقع إلى الفن أو الأدب، فإن تلك الدراما التي تحدث بين الخطة الشريرة أو الضارة الخاصة بالضمير القائم بالاضطهاد وخطة الذات الدفاعيـة المضادة، تكون مماثلة للحبكة الخاصة بالحكاية المتعلقة بالغرابة، بكل تلك السلاسـل المتعاقبة الغريبة والمخيفة بين الأسباب والنتائج الخاصة بها والألفة وفقدان الألفة. هكذا يمكن القول إن تلك الأشكال ما وراء الطبيعية أو الغامضة والغريبة من الحضور التي لدى شخصيات «بو»، التي تعانيها هذه الشخصيات، تكون متضمنة في حياة هذه الشخصيات ذاتها.

إن معظم شـخصيات «بو» ودستويفسـكي شـخصيات لا تتعرف تلك الحالات من الحضور (أشباهها أو أقرانها) كجزء خاص من نفسها، ونتيجة لذلك فإنها تفشل في فهم علاقاتها معها في ضوء شروط إنسانية [9]، ولعل هذا الإحسـاس غير المحدد بالذات أو العالم هو نفسه ما شعر به فرويد حين أحس بأنه موجود في متاهة من الشوارع داخل إحدى المدن الإيطالية الصغيرة، حين كان يبدأ ويعود إلى الشارع نفسه، ذلك الذي حاول ألا يعود إليه مرات عدة. وهكذا فإن الإنسـان قد يشعر بأن إرادته حرة، ولكنه في الوقت نفسه يشعر بأنه مجرد من الحيوية الإنسانية، وأنه يخضع - تدريجيًا - لقوانين التكرار الآلية، ومن ثم فإنه - بوصفه إنسـانا - قد يعتبر نفسـه نصف حي ونصف ميت، ويكون على الكثيرين تحمل مثل هذه الحالة حتى نهاية حياتهم.

هكذا فإن احتمالات شـعور الإنســان بالفقدان للتوجه، والانفصال عن ذاته، وعـن الآخرين، وعن الواقع، والعودة إلى مراحل مبكرة وغير عقلانية من السـلوك، هو أمر مفهوم في ضوء الأدب والأعمـال الفنية والمعتقدات الدينيـة، تلك التي حاولت أن تجد معنى لحياة الإنسـان، وحاولت أيضا أن تساعده على استخلاص المعنى من حياته باللجوء إلى قوة عظمى وراء هذا الكون، وهكذا تكون أفكار وقيم الضمير والإرادة الحرة والمسـؤولية والذنب والقوانين الأخلاقية، كما عبرت عنها الشـرائع السماوية، والديانات عامة، وغيرها، مؤكدة تلك الحالة من البحث عن معنى، ومن تنمية وعي الإنسـان بأنه حر، وأن حريته محدودة، وأنه عاقل، ولكن عقله قاصر أيضا، وأنه عليه ألا يتجـاوز حدود هـذه الحرية العقلية وإلا وقع في براثن مشـاعر الذنب والخـوف والرعـب، وأحيانا الجنـون، كما أن عليه أن يسـعى إلى أن يحل صراعاتـه ضمن محاولاتـه لأن يصبح جزءا من الكل، مـن الواقع والحياة والمجتمع والوطن والعالم والكون، ألا يكون غريبا عن نفسه، أو عن الآخرين. ولكـن ماذا لو كان ذلك العالم، ذلك الواقع، ذلك الوطن، هؤلاء الآخرون هم من يستبعدونه؟ من يجعلونه غريبا عنهم؟ من يقومون بإقصائه؟ من يجعلون الواقع بالنسـبة إليه. من خلال اضطهادهم له، ومن خلال أفعالهم التي لا يستطيع تمثلها داخل نسـق الوعي الخاص به. «ليس كما ينبغي أن يكون»؟ هنا قد تكون احتمالات ظهـور الغرابة ممكنة. وليس مصدر الغرابة الواقع والآخرين فقط، فقد يكون مصدرها الذات، تلك الذات التي تدرك نفسـها أو واقعها بشـكل محرف أو مشـوه، أو قد تكون واقعة تحت براثن ضغوط وعوامـل قلق وعداء وعنف قاهرة لقدرتها على المقاومة، إنها تخلق كل تلك البدائل، وتفرز كل تلك الحالات التي تنضوي تحت المفهوم العام للغرابة، وقد تواجه هذه الغرابة بالفن والأدب والفلسفة والإبداع.

فالإنسـان عندما يُحْرَم ثقته المطلقة بذاته وواقعه، وعالمه، عندما يمثل ذلك العالم قوى السلطة المطلقة فيه تهديدا لذاته، فإنه قد يشعر بالتضاؤل والانسـحاب في حضوره. ولأنه قد يشعر بأن لديه أسراره الخاصة، ملكاته وقدراته الخاصة، وتميزه الخاص، فإنه قد يخفي هذه الأسرار عن الآخرين، «يكتمهـا» بعيدا عن الرؤية أو الظهور، كـي ينظر إليها بمتعة مألوفة خلال

خيبتــه ومرارته الخاصة به، إنه يعيش بألفة مع الشـــيء الذي يخفيه ويجد ســـلواه معه. ولقد كان بو يدهش قراءه كفنان غريب من خلال تلك الأفكار الكثيـــرة التي دخلت عقله، وقام بحمايتها، كأنهـــا موجودة في بيتها الأليف الخاص، ثم عندما أطلقها فإنها أصبحت غريبة بالنسبة إلى الآخرين.

تاريخ القرين وأنواعه

خلال العقود المبكرة من القرن التاسع عشر أثيرت أسئلة كثيرة حول موت الجسد وسرقة الروح، حول موضع الهوية وثبات الشخصية، وظهرت المحاكاة المتهكمة في عصر التنوير للحكايات الخرافية الشرقية حول الجان، وتجسد ذلك كله بعد ذلك أيضا في تلك الاختراعات الأدبية للأشـــباح، ولما يشـــبه الأشـــباح لدى كتاب أمثال ألبرتو فون شاميسو، وهوفمان، وهانز كريستيان أندرسون، وظهرت كثير من القصص التي تقطنها الأشباح أو تنتابها كما لدى إدغار آلان بو مثلا. هكذا اجتاح «القرين» ميدان الترفيه الفني الشعبي، حيث قدم الازدواج مجموعة من الأقنعة المثيرة للاضطراب، لكنها المألوفة أيضا، إنهـــا الأقنعة التي تحكي الذات من خلالها عن نفســـها، حيث يحدث تغير أساســـي، تبديل وتعديل، بين الذات الداخلية والذات الخارجية؛ مما يحفز ظهور حبكات قصصية سردية غريبة حول الهوية [10].

والقرين مفهوم مركب، بل ملغز أيضا، فهو قد يعني الذات الثانية، أو الوجود الفعلي الثاني، أو الممكن، خلال الزمن نفسه الذي تعيشه الذات الأولى، وأحيانا ما يكون ســـابقا لها، أو لاحقـــا زمنيّا، كما في الحبـــكات القصصية الخاصة برحلات الروح، كما في قصص التناسخ والحلول والمسوخ، وهو قد يعني أيضا الشـــبيه الذي هو توأم زائف، وقد يكون. وهو الأكثر شـــيوعا. شخصا لا يشبه الذات من الناحية الخارجية، لكنه يجسد حقيقتها الداخلية العميقة، وفي ضوء هذا المعنى الأخير، فإن القرين، مع أنه لا يشـــبه الشـــخص الأصلي كلية. من الناحية الظاهرية. فإنه من خلال تجسيده أو تمثيله لطبيعته الداخلية الحقيقية يكون الأكثر تشابها معه، مقارنة بذلك الذي يشبهه من الناحية الخارجية فقط، والأمر هنا محير، وفي ضوئه قامت الحبكات الخاصة بروايات وقصص وأفلام سينمائية كثيرة حتى يومنا هذا.

كي يتم تكرار المرء، أي نسخه، وازدواجيته، فإنه ينبغي أن يوجد في ظل شـــخص آخر، هنا يكون القرين ظلا للذات الحقيقيـــة، هنا القرين والقناع والأشباح ظلال للذات الحقيقية، محاولة لإخفائها بإظهار بديل لها، محاولة منها للتخفي، كأصل حقيقي وراء صورة محاكية ثانوية خاصة بها. وهنا قد ينطوي القرين كذلك على حالتين على الأقل.

1 - حالـــة يكون القرين فيها شـــبيها بالـــذات تماما من الناحية الجســـمية، ويختلف عنها سيكولوجيًا، وهنا نوع من المحاكاة الحرفية التي أحيانا ما تكون مرضية، كما نجد ذلك في رواية «القرين» (أو «المثل») لدستويفسكي.

2 - حالـــة يكون القرين فيها مختلفـــا تماما من الناحية الظاهريـــة عن الذات، لكنه يجســـد أيضا طبيعتها الداخلية الحقيقية، هنا القرين أشـــبه بذات أو مرآة محرفة، أو قناع أو ظل، كما نجـــد ذلك في روايات مثل: صورة دوريان غراي لأوسكار وايلد، وكذلك الحكاية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد لروبرت لويس ستيفنســـون. وهنا تبادل في الأدوار بين الحضـــور والغياب، حيث تغيب الـــذات الحقيقية، ويحضر. نيابة عنها. ظلها أو قرينها، وقد يغيب القرين وتحضر الذات في صورتها الأولى الحقيقية. وتعني فكرة القرين عموما أن هناك شـــخصا ما آخر يعيش معك، يعيش من خلال هويتك الخاصة، وأن تلك الهوية قد سُرِقَتْ، أو أُبعِدَتْ، أو أُخفيت.

هكذا فإن فكرة القرين فكرة مستمدة في جوهرها من تلك السلسلة من الأفكار المترابطة حول ســـرقة الروح وتعددها، وحول الأرواح الهائمة والموتى الأحياء، وما شابه ذلك من أفكار (11).

وتعني فكرة القرين أيضا أن الإنسان يمكنه أن يتغير ويتم إخفاؤه وحجبه في شكل آخر، أو أن القرين يمكن أن يكون كائنا غريبا موجودا في داخلك، وحشـــا يزعم أنه يشاركك وجودك، لكنه يشعر بأنه موجود في جسد غريب عنـــه، أو أنه غريب كريه قد يتوحد معك داخليًا، ويهيمن عليك، فيصبح هو الممثـــل لداخلـــك الحقيقي، وقد يحدث هذا مـــن دون أن تعرف ذلك، أو أن

تكون على وعي به، هنا يقترب القرين من المرض والجنون، حالات لا يدرك الإنسان ما الذي يحدث في داخله معها، شياطين أو أصوات وصور وأحداث تحركه وتحوله وتجعله شخصا آخر ليس الذي نعرفه.

وقـد يكون القرين ـ كذلك ـ أفكارك ومشـاعرك الخفية، غير الحقيقية التي تسقطها على آخر، بديل، شخص، عمل فني، أدبي... إلخ، هنا يكون القريـن ـ كما قالت إميلي ديكنسـون في قصيدة لها فـي العام 1863. هو «ذاتنا الموجودة خلف ذاتنا، وقد تم إخفاؤها». هنا لا يحتاج المرء ـ كما قالت ديكنسون أيضا ـ «إلى أن يكون غرفة حتى ترتاده الأشباح وتنتابه» [12].

هكذا يتجسد الشـكل الأكثر ظهورا للقرين والازدواج من خلال فردين أو كائنـين اثنين غير متماثلين، الذات والآخر، أو الذات الأخرى، ويعمل الشـكل السـردي المألوف ـ أكثر من غيره هنا ـ على تجسيد حالات من القرين الشرير الأخرى إلى الوحوش. ونجد ذلك في رواية فرنكنشتين لماري شيللي، والذكريات والاعترافات الخاصة لخاطئ يبرر خطاياه لجيمس هوغ، وكذلك الدكتور جيكل ومستر هايد وغيرها، وترتبط هذه الشخصيات الأخيرة بتلك الذات الداخلية السرية لك، وهي تعمل على الإخفاء لك، والكشف لك، الإخفاء لك أمام ذاتك فتهرب من لومك لنفسـك وخوفك منها، ثم الكشـف لك من خلال آخر أمام ذاتك وأمـام العالم، ويكون هذا الآخر هو الموضوع الذي يخضع للوم والعقاب والتهديد، الذي تستطيع أنت ـ كما تظن ـ أن تهرب منه. وبينما يعبر القرين عن التهديد للشـخصية، من خلال إمكان الكشف لجانبها السيئ من ناحية، ومن خلال وضع مصيرها في يد شـخص آخر، شـكل غريب عن الذات، فإنه ـ أي القرين ـ من ناحية أخرى، هو وسيلة للنجوى والبوح، وسيلة تأمل الذات أن تعبر من خلالها عن أحلامها ومخاوفها الخاصة، عن رغبتها في أن تكون مختلفة، في حين تظل هي الشـخص نفسـه أيضا، محاولة للهروب مـن قيود الذات وضوابطها، محاولة للطموح والتمتع بحريات ورغبات محروقة من إشـباعها الآن، وقد يكون الإبداع هو الوسـيلة المناسـبة للإشباع، حيث العمل الفني أو الأدبي هو القرين المقبول الذي نقدمه إلى الآخرين، ونخفي من خلاله مساوئ أنفسنا وأنانيتنا ونرجسـيتنا، ونريد أن نقول لهم من خلال مشاركتهم لنا في متعة الإبداع، إننا لسنا نرجسيين هكذا، ولا أشرارا هكذا.

منذ أواخر القرن الثامن عشــر، عَبَّرَ القرين الغريب عن تلك العلاقات والرغبات الحميمة الحديثة الخاصة بالشــياطين الداخلية، عن الرغبة في التعــدد والكثرة والاختلاف، وليس التكامل والوحدة والاتفاق، كما يكشــف الظل الخاص بالقرين. إضافة إلى ذلك كله، فإن التهديد الخاص للشخصية إنما يأتي عن طريق التلاعب بالجسد والعقل، وأيضا ذلك التهديد الرهيب الخاص «الكل في الواحد».

لقد تم نســخ هذا الموضوع وغزله مــع تكنولوجيا الإنتاج، أولا على نحو بصري، ثم بعد ذلك، على نحو بيولوجي، وهنا التمثيل ذاته ينشــط بوصفه شــكلا من أشــكال الازدواج: التمثيل الــذي يوجد في العلاقة الســحرية الخاصة بالعالم القابل للإدراك، حيث يمكن للساحر أن يمارس بعض القوى والطاقات لجعل شــيء مــا يبدو ظاهريًا، وكأنه أصبــح حيًا ويرتبط بذلك كله، وتأتي بعده فكرة النســخ والاستنساخ البيولوجية، وهي الفكرة المرعبة التي تجعل الكيانات المستنســخة تسلك وكأنها نسخ، لكنها لا تستطيع. ولن تســتطيع. أن تصبح فردا واحدا أو كائنا واحدا تنتمي إليه هذه النسخ [13]. وأخيرا، فإن الشــياطين والأشباح، والشــرائح التي يتم إسقاطها، والصور الفوتوغرافيــة، كلها مرتبطة بفكرة القرين وصورته من خلال ذلك التداعي العميق الذي يتعلق بها، والخاص بالشيطان الذي يستحضر الوهم والخداع الإدراكي، وهذه العلاقة هي ما يقوم على أساسها مبدأ الازدواج نفسه، وهي أشبه بتشكيلة ممثلة لمبدأ التناسخ والمسخ، صناعة التماثيل والآلهة القديمة، والقرابين والنســخ والأشكال المتماثلة المجسدة لمعتقدات وآلهة ورموز تتكرر وتكثــر صورها. هكذا ظل القرين الغريب للإبــداع الأدبي القوطي وأتباعه ينتابون أدب القرن العشــرين ويرودونه، لكنــه أصبح أقل ألفة، بل ربما في بعض الأمثلة جذابا ومغريًا.

وحيــث إن ميديا الاتصال قــد بدأت تنقل وتوصل «الأشــباه» والأقران هؤلاء في شكل أصوات مسجلة ووجوه مصورة فوتوغرافيًا، وعلى نحو أكثر ألفة، وواســعة الانتشــار، فإنها ربما لم تعد سرية، لم تعد مرتبطة بالخوف والعزلة والظلام، بل بقاعات العرض والوجود معا، والتعليق للحكم العقلاني والحضور للعرض مع آخرين.

القرين والشر

وقد تم تفسـير الخيال الأدبـي الخاص بالازدواجية والقريـن بأنه محاولة للتعامل مع الوجود الخاص بالشر في النفس البشرية وفي العالم، وهي المحاولة التي أدت إلى تحديد الذات، ووجود دوافع تدميرية خاصة بذات أخرى، قد تطارد الخاصـة بالمرء، بوصفها - تلك الذات الأخرى - شـبحا يطارد المرء بسـبب عدم انصياعه لنوازع تلك الذات الأخرى ورغباتها، ولعل هذا ما قد يفسر ما نجده في بعض الأعمال الأدبية من أنه بينما يُمَكِّن القرين ذلك الشخص أو الذات الأصلية الأولى المنعزلة من مهاجمة أعدائها، واقعيًا أو خياليًا، فإن ذلك القرين قد يسلك أيضا مثل عدو، عدو ينطلق من الداخل ويجتاح كل دروع الذات الحصينة، يحاول أن يقمـع نوازع الذات، في الوقت نفسـه الذي يتم إشـباعها فيه، وخلال ذلك يكون القرين، الذي يتلبسها ويقمعها، مغويا لها في الوقت نفسه، حاميا لها، أبا، شيطانا، طاغية. وبينما يوجه القرين عدوانه وانتقامه وخداعه نحو الذات، فإن الذات تكون هي التي تقوم - في واقع الأمر- بكل هذه السلوكيات نحو نفسها.

هكذا كانت الأشباه (الأقران) في الأدب، غالبا عدوانية، انتقامية، توجه عدوانها وانتقامها غالبا نحو الذات الأولى، هذا على الرغم من وجود بعضها الآخر المتسم بكونه لطيف المعشر، يقظ الضمير، ودودا، وفي الحالات التي كان القرين فيها كذلك فإنه غالبا ما يطلق عليها الاسم نفسه الخاص بالذات الأولى، في حين يكون اسـم «الذات الأخرى» محايدا، ولو أن هذا ليس هو القاعـدة، فقد وجدنا قرين دستويفسـكي - الـذي كان عدوانيا مزعجا - له الاسم نفسه الخاص بالشخصية الأولى (جوليادكين).

في التراث الأدبي الرومانتيكي ارتبط الازدواج بالغش والخداع وغياب الأمن والأمانة، وكان ظهور القرين غالبا نذيرا بشـر يوشـك على الوقوع، وإرهاصا، أيضا، بالموت. وفي التراث الأدبي عموما، ارتبط هذا الموضوع بفقدان الإنسان - أو حتى المجتمع - لروحه، وهيمنة الشيطان والشر والخوف عليه، ومن ثم امتلاء روحه بالعتمة والظلام، ومن ثم كانت أيضا تلك الصعوبة وربما العجز عن الابتعاد عن التفكير أو التوقف عن الإنتاج عقليًا للكائنات الطيفية المخيفة كالأشـباح، والعفاريت، وغيرها بوصفها تجليات قد تخارجت من الروح وتجسدت خارجها كـ «أنا» أخرى لها، غالبا مخيفة. إنها تجسـيدات غريبة خاصة بالآخر الغريب

الغامض الذي قد يكون جزءا من الذات، وقد تجسد في صور مختلفة خارجها، وقد يكون هو الآخر الفعلي الذي تخشاه الذات، أو تحاول أن تتجنبه أو حتى أن تحيده، أو حتى أن تتحالف معه، ومن ثم كانت المقولات الشائعة حول التحالف مع الشـــيطان، أو حول من باع روحه للشيطان (فاوست مثلا)، وكانت أيضا كل المقولات الحديثة التي قد تنظر إلى الآخر على أنه شيطاني أو شرير في ذلك العالم الذي انتشرت فيه مزاعم مختلفة حول محاور الشر، ومحاور الخير [14].

وهكـــذا فإنه مثلما تكون الذات الأولى في أدب الازدواج والقرين غريبة، تسعى إلى البحث عن آخر، تنتج آخر، تحاول أن تحمي من خلاله ذاتها، أو تحقق من وراء قناعه، نوازعها ورغباتها، ثم تكتشف أن هذا الآخر هو الذي يسعى وراءها، وبدلا من أن يحقق لها رغباتها، يطمسها أو يمحوها، فكذلك يكون الآخر أيّا كان. غريبا، سواء أكان هذا الآخر، ذاتا أخرى أنتجتها الذات، أم كان آخر فعليّا موجودا في ذلك المجتمع، الذي نعيش فيه، أو العالم الذي نوجـــد به جميعا، أم كان موجودا، متصورا، متذكرا، مســـتحضرا من عوالم مـــا وراء الطبيعة والغيبيات؛ ومن هنا فـــإن ارتباط موضوع القرين بالغرابة والغريب ارتباط واضح وحقيقي لا يمكن نكرانه في هذا السياق.

مُسَلَّمات حول القرين

في كتابه عـــن «القرين: الرؤى المزدوجة في الأدب الألماني» (2003) يطرح أندرو ويبر تســـع مُسَـــلَّمات يعدهـــا ضرورية حتى نفهم جوهـــر فكرة القرين والازدواجية في الأدب والســـينما وغيرهما من فنون الإبداع، ونحن نجمل هذه المسلمات فيما يلي:

1 - التكرار البصري: وذلك لأن القرين، هو. أولا وقبل كل شـــيء. شكل بصري Visual من أشكال التكرار الإجباري أو القهري. فكثير من النصوص التي تعاملت مع هذا الموضوع قد تعاملت مع الخصائص البصرية المميزة له؛ ومن ثم فإن هناك بصرية خاصة أيضا مميزة لهذه النصوص. وهكذا أيضا فإن الشخص هنا وهو يرى ذاته قد يشاهد ذاته الأخرى، بوصفها ذاتا أخرى، أو شيئا آخر موجودا على نحو بديل.

2 - الكلام المـــزدوج: إذا كانت الرؤيـــة البصرية المزدوجة Double Vision التـــي يـــرى من خلالها المرء نفســـه وقرينه هي المجسدة للافتراض الأول لدى ويبر، فإن الافتراض الثاني لديـــه يقول إن الكلام المـــزدوج Double Talk أيضا، أي تلك الحالة من الـــكلام المتكرر المضطرب للذات، هي التي تلخص الشـــرط الثاني المصاحب لظاهرة القريـــن لديه. فالقرين لا ينشـــط بصريّا فقط؛ بـــل لغويّا أيضا، إنـــه لا يخلق نوعا من الاضطـــراب في الرؤيـــة البصرية؛ بل نوعا مـــن الاضطرب فـــي اللغة والكلام أيضـــا، هنا تكون اضطرابـــات اللغة لديه (كظاهرة فردية وجماعية) متجســـدة لديه، من خلال ترديده للكلمات والأفكار، وكذلك تكرارها وتشـــويهها ومحاكاتها، هنا يقوم الشـــخص المزدوج بالترديد الأعمى للكلمات، بتكرارها، بتحريفها، بمحاكاتها على نحو جاد أو ساخر.

3 - اضطـــراب الأداء: ويترتب على هـــذا الاضطراب الذي يحدث في الجانبين البصري واللغوي من الهوية أن يظهر نوع ثالث من الاضطراب، ألا وهو اضطراب الأداء performance، فالقرين شـــخص متخيل يقوم بالأداء، إنه يمكـــن أن يمثل الطابع الأدائي المميز للذات، فهنا جانب خاص من أنشطة الذات وأفعالها، وقد توســـطتها . أو تداخلت معها . شـــخصية أخرى، هنا يظهر أداء القرين الخـــاص بالتكرار والازدواج والتعدد، هنا أداء مزدوج يتم مرتين بالنســـبة إلى شخص واحد، ويحدث عند مستويات كثيرة من إعادة البناء والتكوين للذات، والواقع، والزمن، والمكان.

4 - الفضول الجنسي والمعرفي: أما المسلمة الرابعة فهي افتراض مزدوج، وهو يقول إن مقاومة القرين أو تحديه لتلقي الأفكار أو التأكيـــدات الخاصة حول الهوية ينقلب أو يتحول إلى نـــوع من الازدواج المـــلازم الموجود فيما بـــين المعلومات الجســـدية والمعلومات المعرفية الفكرية العقلية، حيث تجسد هـــذه الازدواجية الملازمة هنا حجر الزاوية المشـــترك، حيث

ثمة جانب معرفي متعلق بالجنس، وثمة جانب جنسي يتعلق بالمعرفة، هنا ازدواجية تظهر تربط الجسد بالذات والذات بالبصر. ومثلما هناك صراع يتعلق بالقرين في عمليات الإبصار واللغة، والأداء، هكذا يدخل القرين (المزدوج الطيف... إلخ) في نوع من التلصص البصري واختلاس النظر، وحالات أيضا من التلميح والغمز والتعريض بالآخر، داخل تلك العملية الخاصة التي تسعى الذات من خلالها إلى الوصول إلى المعنى أو إلى الإحساس البصري واللغوي الخاص بها. إذن هناك نوع من الفضول شبه الجنسي، والتلصص، والرغبة في الرؤية البصرية والإدراك، يكون ملازما للقرين.

5 - قوة اللعب: يعد الجانبان المعرفي والجنسي أشبه بالشكلين المهيمنين على المبدأ الخامس المميز للقرين، أي تلك القوة الخاصة باللعب أو سلطة اللعب Play - power، حيث تتمثل السلطة الخاصة بالقرين، في القدرة على التغير، ألا يصبح مهيمنا عليه، ومسيطرا عليه، أبدا، بواسطة الذات، أو الآخر، أو الذات الأخرى؛ ومن ثم فإنه يقوم دائما بالتحول والتغير، فيما بينهما، كما أنه يبدل حالاته دوما.

6 - الإبدال والإحلال والإزاحة: ترتبط المسلمة السادسة لدى ويبر بالافتراض الخامس لديه؛ وذلك لأن القرين إنما ينشط من خلال نوع أو شكل من أشكال الإبدال والإحلال أو (الإزاحة) displacement، فهو - وعلى نحو مميز - يظهر من خارج المكان out of place، من أجل أن يزيح الذات - أو مضيفه - عن مكانه، أن يحل محلها. وهنا إقرار بوجود هوية ظل shadow identity، أو هوية مزاحة displaced identity تحل وتدخل منطقة ما، أو بيتا، أو وطنا، وتزيح أصحابه خارجه، أو تهز استقرار بيتهم على الأقل. هكذا يكون القرين منتميا أصلا إلى ما هو خارج المكان، إنه يأتي من الخارج، يحل

على بيت أو وطن، ويسعى من أجل إزاحة أصحابه خارجه، وقد يكون القرين متعلقا أيضا بما هـو خارج الزمان، إنه يأتي من زمـن آخر، من الماضي غالبا، ويحـل على الحاضر، إنه يظهر في الوقت الخاطئ، وزمانه ليس مناسـبا للمكان، ومكانه ليس المكان، وهو الأساس أو الامتداد الزمني الممتد للكارنفال، بكل ما يرتبط به من تعليق أو إيقاف مؤقت للأعراف الاجتماعية، هو المشهد المفضل لهذا القرين، وهذا الغريب.

7 - التكـرار والعـودة القهرية: أما المسـلمة السـابعة للقريـن فهي تتعلق بالعودة والتكرار، فالقرين يعود على نحو قهـري إجباري متكـرر داخل السـياقات الخاصة بمضيفه (من يسـتضيفه)، وكذلك في عملية التنـاص والتضاد التي تتـم بينهما، أي بين القرين ومسـتضيفه، حيث تكرر أداءاته الخاصة أداءات مضيفه، وكذلك المظاهر السـابقة الخاصة بأداءات هذه الـذات؛ ومن ثم فإنه يؤدي دورا تكوينيّا خاصا في تكوين وبناء السـياقات الخاصة بـه، وبهذه الأفعال، من خـلال أدائها، ثم تكرار هـذا الأداء على نحو متتابع، ويمكن قراءة هذه الوظيفة الخاصة بالعودة والتكرار الآلي على أنها «غرابة» بالمعنى الفرويدي.

8 - نوع القرين: على نحو بَدَهي، فإن مسـتضيف القرين وزائره (أي القرين نفسه) هما - غالبا - من نوع الذكور، وكثيرا ما تتم الإشـارة إليه من خلال الضمير «هو»، وعندما يظهر قرين أنثـى فإنها غالبا ما تكون نوعا من التجسـد القطبي المضاد، لذات ذكرية. وتعمل فكرة القرين في بعض الحالات على هدم فكرة النوع الاجتماعي أو الجنسي؛ لأنه - أي النوع - هو التحديد الأكثر جوهرية للفكرة الأساسية الخاصة بالهوية.

9 - البيـت غيـر الأليف على نحو نمطـي: كثيرا ما يكون القرين نتاجا لبيت مدمر، بيت محطم، وطن مهزوم أو منهوك، إنه يمثل حالة اختلال الوطن في خيال الأسرة وتخيلاتها المتعلقة

بحسن الحال والاستقرار والتماسك، ومن ثم فإن فكرة القرين وما يرتبط بها من أفكار تقدم لنا البيت (الوطن) بوصفه الموقع الأصلي لحدوث الغرابة وانتفاء الألفة أيضا [15].

هكذا يختلف القرين عن غيره من الأبطال الأكثر تقليدية في السرد القصصي والروائي والدراما والشعر من حيث كونه يقوم بالتفعيل، وعلى عتبة الموت، أو في النزع الأخير، لحالة أكثر عمومية خاصة بانقسام الهوية وتصدعها، وهو يدفع هذا الانفصال الخاص بالذات إلى أقصى حدوده.

هكذا يقوم القرين. وعلى نحو متكرر. بالتبعية والسيطرة، في الوقت نفسه، على الذات المستضيفة له، وفي أمثلة أدبية كثيرة، تظهر علاقات الخضوع والسيطرة هذه على نحو تبادلي أو متعاقب، بحيث يمكن القول إن تيمة القرين إنما تعكس أيضا خضوع الذات لنوع من التلاعب، أو لعب القوة، أو قوة اللعب، وبما يتفق مع نموذج هيغل الخاص بـ «ديالكتيك» السيد/ العبد [16].

الذات والانعكاس

وقد كان مبدأ الانعكاس هو الذي منح الثقافة الرومانتيكية الألمانية شكلها الجمالي والفكري المميز؛ وذلك لأن الأفكار الخاصة بالذاتية، وكذلك الخاصة بالإنتاج الجمالي لها، هي أفكار تتوسطها عمليات مشهدية خاصة بإعادة الإنتاج، عمليات تقوم على أساس عمليات التأمل والانعكاس التي تقوم بها الذات، في علاقتها بذلك العالم الذي تعيش فيه، وهي عمليات تكون قابلة دوما لأن تدفع وتحث وتتحول إلى عالم عجائبي دُواري قُلَّب خاص بقاعة من المرايا متبادلة الصور والعلاقات، ولعل هذا أن يكون أيضا ساحة مشهدية للتخيلات الرومانتيكية المتعلقة بتحقيق الذات، لكنها أيضا الساحة والتخيلات التي تسقط أيضا فريسة للتحريفات والتشويهات، حيث تتشظى فيها صورة الذات، وتصبح متكسرة وهاربة وغامضة، أو تدور في حلقة مفرغة.

والقرين إذن رمز أو علامة، أو مرآة، تتجسد فيها الذات التي تسعى نحو الخلود، وتقاوم كل ما يتهددها بالموت أو الفناء. والأدب والإبداع عامة وسيلة لمقاومــة الموت، بمعناه المادي الروحي، ووســيلة لحماية ذاته من الصراعات المرتبطة بجانبها الناقص، أو وســيلة لاستشــراف عالم الخلود، يكون الفن والإبداع الأدبي قرينها الذي قد يوصلها إلى ذلك.

والقرين جزء من الذات انفصل عنها، خلقته الذات كي تحقق من خلاله خلودها واســتمرارها، وكي تبعد - من خلالــه - مخاوفها. والقرين قد يكون متفقا مع الذات، متشــابها نوعا ما، لكــن القرين قد يكون هو ذلك الجانب من الذات الذي تشــن عليه هذه الذات حروبها، حين تراه في مرآة محرفة، فالتشابه غالبا ما يكون ظاهريًّا، من حيث المظهر العام فقط، حيث يختلف جوهــر القرين في الأغلب مع الــذات، يعمل ضدها ويهددها؛ ومن ثم تكون محاولتها الدائمة لإبعاده وتشــكيله فــي أعمال مقبولة، وثمة تجليات كثيرة لفكرة القرين أو الشبيه في الأدب والفن والحضارة.

وفــي قصص القرين يمكننــا أن نجد مثل هذا الحكي المزدوج أو الســرد المزدوج، الذي يقول شيئا ويعني شيئا آخر، يظهر شيئا ويحجب شيئا آخر، هذه الآلية الخاصة بالتمويه والإخفاء آلية أساسية في الأحلام والأساطير والإبداع الفني والأدبي، وكذلك قصص البدلاء القرناء والأشباه الأشباح، حيث نجد تلك الفجوات والتكرارات والتناقضات في نسيج هذه القصص كلها.

عن القرين الاجتماعي

هنــاك - دائما - فــي قصــص الازدواج والقرين عنصر مــا من الإحالة الاجتماعية، الإشارات الاجتماعية، والنقد الاجتماعي، هكذا تهكم دستويفسكي فــي «قرينه» من كل تلك المظاهر الكاذبة والنفاق والتصلب والجمود المنتشــرة في ســان بطرسبرغ. كذلك انتقد هوغ Hogg السلطة السياسية والدينية التي كانت في أســكتلندا في أواخر القرن السابع عشر، والتي لم تكن مختلفة كثيرا عن أمثالها من الســلطات في أوائل القرن التاســع عشر. أما في نهاية القرن التاسع عشر فقد أصبح القرين الاجتماعي أكثر هيمنة مقارنة بالقرين المتخيل أو الســيكولوجي، ولم يكن هــذا متضمنا تجديدا كثيرا، فمــا تغير هو فقط،

ذلك الفهم للعوامل المكونة للانتهاك للهوية، لاختلاطها وعبور حدودها، لمحوها وتغييبها، وكذلك نوع من الهجوم على تلك الفئات الإنسانية المحددة الخاصة بالطبقة والنوع والسلالة وغيرها، ومع الوعي العلماني للمجتمع تولد إحساس قوي متزايد بأن القيود الاجتماعية لا تنطوي فقط على ظلم وافتقار إلى العدالة، لكنها أيضا قابلة للاختراق، للنفاذ منها، لتحطيمها أو لتغييرها [17].

ونستعرض فيما يلي بعضا من أشهر الأمثلة المجسدة لفكرة القرين في الأدب: وسنركز هنا بشكل خاص على فكرة القرين كما تجلت في بعض أعمال إدغار آلان بو (الأمريكي)، ودستويفسكي (الروسي)، وستيفنسون (البريطاني)، وهوزيف كونراد (البريطاني من أصل بولندي)، وسليمان فياض (المصري)، وجوزيه ساراماغو (البرتغالي) على نحو خاص.

وليم ويلسون وقرينه

«وليم ويلسون» هو عنوان قصة معروفة كتبها إدغار آلان بو، وهو شخص عادي، ليس مستغرقا في أحلامه ككثير من شخصيات بو المنعزلة، بل هو شخص يتفاعل، على نحو واضح، مع الآخرين، لكن ما نعرفه تدريجيًا أن هذه الشخصية شخصية مركبة، شخصية قد دُمرَتْ بفعل قرينها أو شبيهها الآخر. كما أن هناك مطاردة لها تتم من خلال ضميرها، ولا يتضح مثل هذا التعقيد إلا في نهاية القصة: «لقد انتصرت، وخسرتُ أنا. لكن من الآن فصاعدا أنت أيضا ميت. ميت في العالم، في السماء، وفي الرجاء! كنت موجودا فيَّ. فانظر في موتي. انظر من خلال هذه الصورة التي هي صورتك كيف قضيت نهائيًا على نفسك بنفسك».

وهو يتحدث عن نفسه على أنه قد نُزعت عنه كل فضيلة في دقيقة واحدة، وأنه شخص فاسد يرتكب المعاصي والشرور، وأنه تحدر من سلالة تميزت بمزاج «سريع التخيل سهل الإثارة»، وأنه كلما تقدم في السن «برزت هذه الطباع بشكل أقوى»، وأنه الآن في مرحلة الاعتراف، «مرحلة التذكر، مرحلة السكينة، حيث الموت يتقدم، والظل الذي يسبقه ألقى في روعه السكينة».

ثم يصف شخصيته وطبيعته الحادة الحماسية المتغطرسة، كيف كان يتفوق على جميع أقرانه باستثناء تلميذ واحد كان يحمل اسمه نفسه، واسم عائلته، وولد يوم ولادته، ومن دون أي قرابة بينهما، وأنه ذهب معه إلى المدرسة نفسها

حتى اعتقد الطلاب أنهما أخوان توأم، وقد كان سميه وحده الذي يجرؤ على أن ينافسه في الفصل واللعب والمشاكسات، ويناوئ تسلطه على الآخرين في كل مناسبة، وقد كان الراوي على الرغم من محاولاته الإساءة إلى منافسه علنا، يخافه في باطنه، وقد كان ذلك المنافس يمزج إهاناته ووقاحته ومعاكساته للراوي ببعض مظاهر المودة التي كانت تغيظ صاحبنا، وتجعله غير قادر على فهم هذا السلوك الغريب إلا بوصفه نوعا من «ادعاء الحماية والرعاية بشكل مبتذل»، وقد كان هذان الشخصان يتخاصمان يوميًا تقريبا [18].

وقد كانت مشاعر الراوي تجاه منافسه مزيجا من الكراهية الحادة. لكنها لم تتحول بعد إلى حقد. والاحترام والخوف والفضول والقلق الذي بلا حدود، وقد كانا نادرا ما يفترقان، لكن من دون صداقة، وكان النقص الوحيد الذي يعانيه ذلك المنافس هو انخفاض صوته، فلا يستطيع الحديث إلا فيما يشبه الوشوشة المنخفضة التي يوجه من خلالها نصائحه غير المباشرة، هنا بدأت الماعات في القصة توحي بأن ذلك السيد الشبيه الآخر هو الضمير والقرين الذي يلاحق صاحبنا الراوي في حله وترحاله.

وقد كان ذلك الشبيه (وليم ويلسون الآخر) يشبه الراوي في طول قامته، ومظهره وملامحه، وكان يقلده في كلامه وحركاته، ويلعب دوره بصورة مدهشة، ويقلد لباسه ومشيته وسلوكه العام دونما صعوبة تذكر، ثم إن صوته، على الرغم من انخفاضه، قد أصبح هو الصدى الكامل لصوت الراوي، وقد كان ذلك التقليد يعذب الراوي، لكنَّ عزاءه الوحيد هو أن أحدا غيره لم يكن يلاحظ مثل ذلك التقليد والسخرية التي يوجهها وليم ويلسون (الثاني) إلى وليم ويلسون (الأول). ومثلما يراقب الثاني الأول، فإن الأول يراقبه أيضا، كما أنه يتخيل من ملاحظته لملامحه ومظهره ونبرة صوته، ومن رؤى غامضة من طفولته أعادت إليه «ذكريات غريبة ومشوشة» أنه ربما كان قد عرف هذا الشخص من فترة قديمة جدًا، موغلة في القدم، ثم تتبدد هذه الفكرة وتنقشع، ويتوالى الوصف في القصة للبيت. المدرسة، لمتاهات الغرف والمهاجع والممرات الضيقة، وعندما يتسلل إلى غرفة نومه ليلا، ويرى قسمات وجهه على ضوء المصباح يصاب بالذهول ويرتجف كالمحموم، لقد رأى فيها شيئا مختلفا عن ذلك الذي كان يراه خلال ساعات اليقظة، خلال التقليد والمحاكاة (التكرار)، الاسم نفسه، الملامح

نفســها، دخول المدرسة في اليوم ذاته، تقليد المشية والصوت واللباس والحركة «هذا التقليد الشرس الذي لا يفسر، هل كان في حدود الممكن الإنساني أن ما أراه الآن هو مجرد نتيجة لهذه العادة من التقليد الساخر؟».

ويغادر الراوي المدرســة ولا يعود إليها أبدا بعــد ذلك، ثم تتواصل حياته وتمضي أيامه، ويجد نفسه طالبا في كلية إيتون، ويزداد ولعه بالشر والحماقة والمجــون، والقمار، وخلال إحدى ســهراته يبلغه الخادم بأن شــخصا يطلب التحدث إليه في الرواق، يخرج مترنحا، وعلى ضوء نور الفجر الضعيف يرى شابا بقامته تقريبا، يرتدي ملابسه نفسها، ومن قسمات وجهه يعرف أنه وليم ويلســون الآخر وقد عاد إليه من جديد بعــد أن فارقه ردحا من الزمن، وقد اســتمر يوبخه من خلال كلام غريب ثم اختفــى، لكنه يعود مرات أخرى بعد ذلك، يكرر ظهوره ويقوم بأفعال كثيرة من شــأنها توبيخ الراوي، وكشف سوء طويته وشرور أعماله؛ مما يوقعه في حرج دائم، حتى أنه عندما يغادر إنجلترا ويذهب إلى فرنســا يلاحقه هناك ويطارده، ويكشــفه، ويفســد مخططاته الشــريرة، يصبح بالنسبة إليه أشــبه بالجلاد، بل يصبح جلادا فعليًّا يتعقبه، حتــى بعد أن يغادر فرنســا إلى برلين، ثم نابولي، ثــم مصر، ويصبح الراوي «جبانا أمام سلطانه الآمر»، على الرغم من محاولاته الدائمة للتمرد والمقاومة.

وفي روما ينشب عراك عنيف بينهما، ويقتل خلاله الراوي غريمه، يقتل ضميره، يقتل نفسه، وعندما ينظر إلى قتيله، ضحيته، كانت هناك مرآة واسعة تنتصب فجأة، حيث لم يكن هناك أثر لها من قبل. وبينما كان يتقدم نحوها مذعورا رأى صورته فيها، وبوجه شاحب وملطخ بالدماء تقدمت نحوه بخطى واهنــة مترنحة، وقد كان خصمه. كما قال. هو الذي يقف أمامه محتضرا، كان قناعه ومعطفه يرقدان على الخشــب حيث رماهما، وكان الشبه بينهما تاما، وهنا يعتقد الراوي أنه كان يكلم نفسه، وذلك عندما اســتمع لكلمات خصمه، شــبيهه قرينه، ضميره الآخر الذي يعترف فيها بهزيمته، لكنه ينبه وليم ويلســون أيضا إلى أنه الآن ميت في الأرض والسماء والأمل والرجاء، وأن ذاته الحقيقية كانت موجودة خلال وجود ضميره، قرينه، خصمه، صوته الخفي، الذي ربما كان واهنا، ضعيفا، غير مســموع، صدى، مرآة، لكنه كان المعنى الحقيقي لوجوده، المعنى الذي قضى عليه وليم ويلسون الراوي.

هكذا جسـدت هذه القصة ذلك التناقض الموجود داخل الإنسـان، الإنسان الذي يكافح من أجل البقاء على قيد الحياة، وفي الوقت نفسـه يسعى من أجل تدمير نفسـه، أي من أجل الموت، وهذا مثـال آخر على الغرابة في الحياة التي يجسدها الأدب، فسعي الإنسان من أجل البقاء على قيد الحياة أمر مألوف، أما غير المألوف والغريب فهو قيامه خلال الوقت نفسـه بتدمير ذاته، بأفعال تقربه من الموت والدمار بكل ما يناقض ذلك الدافع الأول الإيجابي الخاص به، وهكذا فإن الغرابة صراع واجتماع لغريزتي الحياة والموت في وقت واحد، وبالقوة نفسها في «وليم ويلسون»، يقتل الإنسان ضميره كي يبقى حيّا، ولكن أي حياة هذه بلا ضمير الأخلاق، وأي شخصية تلك التي تميت ضميرها وتقتل الآخرين وتعذبهم!

لقد أدرك ويلسـون، تدريجيّا، الدلالة النفسـية والروحية لقرينه: إنه نصفه المدفون والمؤكد لذاته والإيجابي، والذي يسـتجيب بعمـق لكل ما هو جليل، وقد أسقط عليه ويلسون موهبة المحاكاة له ولسلوكه، وقدرته البارعة في إطلاق النكات والتقليد، وكأنه يريد أن ينسب إليه بعض المزايا التي برع فيها ويلسون نفسه أولا، ولكن من خلال نسبتها في الوقت نفسه إليه - أي إلى ويلسون الأول . أيضا .

إن شـعور الراوي بأنه يعيش في فراغ حتى عندما يوجد مع الآخرين، ومع شعوره بالافتقار إلى الواقعية الخاصة بهؤلاء الآخرين كأنهم دمى أو أشباح أو عرائس أو أشياء، وكأنه هو الوحيد الواعي أو المسيطر أو المتحكم في الأحداث، ولكنه يشـعر في الوقت نفسه، أن ذلك الآخر، القرين الشبيه، يطارده ويسخر منه، ويحاكيه، وينغص عليه حياته، هو مزيج من «الميغالومانيا» أو ذهان الشعور بالعظمة، والبارانويا الخاصة بالشعور بالاضطهاد . إنه متفوق وناقص، مسيطر ومسيطر عليه، شجاع وجبان، مألوف بالنسبة إلى نفسه، لكنه يعيش في حياة غير مألوفة سـببها ما يقوم به الآخرون، هؤلاء الذين لا يكونون في العادة إلا القسم الخاص المنعكس، المرآوي المعكوس من نفسه، القسم الذي اغترب عنه، وأصبح يشكل قرينه الذي يطارده، أو ضميره الذي يؤرقه .

«الدكتور جيكل والمستر هايد»

اسـتخدم ستيفنسون الموضوعات الرئيسـية المتكررة والتيمات الخاصة بالتحول والرعب، والتي جعلت روايته هذه التي ظهرت في العام 1886 حكاية مثيرة للخوف الرهيب، فهناك جرعة الدواء التي تحدث التحول لدى جيكل،

وكذلك ذلك الحضور الخاص الغريب بـ «هايد» في تلك الغرفة المنقسـمة أو المشـطورة التي تتحول إلى معمل في الجانب الخلفـي من المنزل، وأكثر من ذلك كله، ذلك الجو العام من السرية والغموض وقوى الظلام التي تهيمن على الروايـة [19]، وهناك أيضا العاطفة التي تعارض العقل، وهي خاصية مميزة للأدب القوطي، وكذلك تلك القوى الظلامية التي تتجول داخل النص، وذلك الحس بوجود مسافة تاريخية بعيدة لهذه الأحداث التي تربطها نبرات الرواية القوطية القديمة، إضافة إلى تلك «المسـرات» و«المتع» الخفية أو المسـكوت عنها، الحسية والجنسية خاصة، والتي ينهمك فيها «جيكل» «وهايد».

هكـذا يتحول جيكل إلى هايـد، إلى قزم يتغير صوته، ويطول شـعره، ويرتـدي قناعا، ويصاب بالذعر، ويتنـاول دواء معينا يقوم بعملية التحول. وذات مرة عندما اقتحم محامي جيكل وصديقه المعمل الذي كان يُجري فيه تجاربه وجدا جثة هايد مسـجاة هامدة على الأرض، وثمة نار موقدة فوقها إبريق يغلي، كان فيه الدواء. ولاحقا، عندما فتشا الغرفة من جديد وصلا إلى المرآة ذات الإطار «وفي عمقها حَدَّقا وبهما رعب خارج عن إرادتهما، وكانت قد أديرت كي لا تكشف لهما شيئا غير الوهج الوردي يتلاعب على السقف، ومئات الشرارات تنبثق من النار تكرارا، وتنعكس على امتداد الواجهة المتألقة للقوارير، وسحنتيهما الشاحبتين والمذعورتين اللتين تتحودبان لتحدقا».

عندما فتح الدكتور لانيون خزانة جيكل عثر فيها على أشياء كثيرة: ملح متبلر أبيض، وقارورة مملوءة حتى منتصفها بسـائل أحمر كالدم، وكراسـة عادية بها سلسلة من التواريخ، وملاحظات مقتضبة هنا وهناك مذيلة بتاريخ ما، ولا تتجاوز عادة الكلمة الواحدة : «القرين»، ربما تكررت ست مرات في مجمل اليوميات التي تربو على بضع مئات.

كان هايد أقصر قامة من جيكل، وأرشق حركة، وأصغر سنا، والشر مكتوب على وجهه. كان الممثل للشر الخالص وقد رآه متجسدا أمامه في المرآة، بعد أن حـدث التحول الأول له بفعل الدواء الجديـد، فكتب يقول: «عندما وقع ناظراي على ذلك الوثن الدميم في المرآة لم يساورني أي اشمئزاز وخلجات مرحبة. هذا الوثن أيضا، كان أنانيا، بدا طبيعيا وإنسانيا، وفي عيني متمتعا بصورة أجلى للروح، في صدقها وفرادتها تفوق الهيئة المنقسـمة والمحكومة بالنقصان التي درجت - وحتى الآن - على ادعائها لنفسي».

هكذا فإن إدوارد هايد كان كلي الشـــر، أما هنري جيكل فظل هو «ذلك المزيج المتنافر الذي يئس صاحبه من إصلاحه وتحســينه»، وهو يرجع ســـر تحوله إلى نفوره من جفاف الحياة الدراسية حيث «كنت ما أزال أبتهج بالتحول والاستغراق في الملذات، أحيانا، لكنه مع التقدم في العمر أصبح الأمر مدعاة إلى مزيد من النفور».

جيـــكل هو القناع الخارجي، وهايد هـــو الظل الداخلي، جيكل هو الذي يحظـــى بالاحترام والتبجيل بين الآخريـــن، وهايد هو الذي يرتكب الجرائم والمعاصي، ويحظـــى باللعنات والمطاردات، هايد هـــو المذنب، وجيكل يرتاح ضميره ويغفو متحررا من تأنيب الضمير، ومن خلال تلك الآليات والتبريرات لا يكون هو من يرتكب المعاصي والشـــرور؛ بـــل قرينه الخفي غير الخاضع لإرادته، فهما، في النهاية شخص واحد.

وقد قيل في بعض الدراسات النقدية إن الازدواج في هذه الرواية ازدواج يجسد صراعا بين الخير والشر، أو بين الأخلاق والغريزة، الالتزام بالقانون وانتهاكه، السلوك القويم والسلوك المنحرف... إلخ. كما أنه أحيانا نُظِر إلى هذه الثنائيات بشكل تتابعي، أو من خلال التجانس، فجُمعَ بين الخيرِ والأنا الأعلى أو الضمير والهو والشـــر أو الغريزة، ثـــم نُظر إليها بطريقة تراتبية (هيراركيـــة) تضع الالتزام بالقانون في المجتمع في مرتبة الالتزام بالقوانين الميتافيزيقية أو المثل العليا الدينية... إلخ.

دوريان غراي

ظهرت هذه الرواية بعد خمس سنوات من ظهور رواية «الحكاية الغريبة» للدكتور جيكل والمستر هايد - أي ظهرت العام 1891 - وهي رواية تدور حول تلك «المتعة المخيفة الخاصة بالحياة المزدوجة»، إنها رواية حول الذات الثانية، أو نظرية تعدد الشـــخصيات، حيث يبدو دوريان أليفا وغريبا خلال الوقت نفســـه، حيث في الرواية تصوير لأعراف وعادات الطبقة الإنجليزية العليا المرفهة الغارقة في ملذاتها، وتجسيد لحياة وايلد نفسه بكل تناقضاتها، نوع من اللعب بالتناقضات بين الحياة العليا والحياة الدنيا، الشباب والشيخوخة، الجمـــال والقبح، الفضيلة والرذيلة، الجســـد والروح، وحيـــث تنمو اللوحة

(البورتريه) المرســومة لـ «غراي» فتصبح متقدمة في السن، تحمل علامات متزايدة على تحلله وانحلاله، وانتهاكه للأعراف والقيم. بينما يشــع دوريان نفسه بكامل قوته وجماله وشبابه، تصبح لوحته أكثر شيخوخة وقبحا، وهذا واحد من تلك الوفرة من الأسرار التي تزخر بها هذه الرواية.

كان دوريان غراي أشــبه بـ «نرجس» يتعشــق صورته في المرآة، الصورة الحسية الجميلة، ويكره صورته كما تتجسد في اللوحة، اللوحة التي تعكس تحولات روحه وشــرورها، حيث الفن أصدق هنا من الحياة، الفن لا يكذب، أما الحياة فيمكنها أن تتجمل، وأن تكذب. هكذا وجدنا دوريان غراي يمسك بالمصبــاح ثانية، و«طفق يتفحص الصورة من جديد، فوجد أن ســطحها لم يتغير قط، وأن مخايل الدنس والإجرام تطل عليه من داخل الصورة، فعرف أن قوة باطنية قد جعلت آثار الخطيئة تفتك بالوجه الجميل شــيئا فشــيئا، ورأى الصورة جيفة حية دونها الرمم التي تبلى في بطون القبور» [20].

هكذا كان دوريان غراي. مثله مثل جيكل. يطارد نفســه، وهكذا وجدناه في طريقه، بعد أن قتل صديقه الرســام، إلى المكان الذي كان يتعاطى فيه الأفيــون. وحيث يصف أوســكار وايلد الطريق الذي كان يبــدو له «كأنه لا ينتهي، والشوارع المظلمة المتشعبة كأنها نسيج عنكبوت وضاق بالرحلة المملة، ورأى الضبــاب يتكاثف من حوله فأحس بالخــوف، ثم مر بمحارق الطوب، ورأى النيران تتصاعد منها، وســمع كلبا ينبح، وطائرا يزعق، وكبا الحصان في حفرة ثم أسرع في الركض، ثم خرجت العربة من الطريق الريفي، وبدأت عجلاتها تجلجل على طريق معبد موحش، وكانت أكثر النوافذ مظلمة، ولكن من وقت إلى آخر انبعث النور من غرفة مضاءة وظهرت على ستائرها أشباح عجيبة. وطفق دوريان غراي يتأمل هذه الأشباح في فضول، فوجدها تتحرك كدمى الأراجوز، وتشــير بأيديها كما يشير الأحياء. وانقبضت نفسه لما رأى ذلــك، وامتلأ قلبه بغضب مكتوم... يقولــون إن الانفعال يجعل العقل يفكر بطريقة دائرية وهذا ما حدث لدوريان غراي».

بــل إنه وجد «أن القبح هو الحقيقة الوحيدة في الحياة، فالألفاظ النابية التي يسمعها في كل شجار، والبؤر النكراء، وفظاظة الحياة المضطربة وقسوتها، ووحشة اللصوص، وضعة الأوباش المنبوذين، كل هذه بدت له أصدق تعبيرا عن

الحياة الواقعية من النماذج النبيلة التي يختلقها الفن اختلاقا، والظلال الحالمة التي تملأ قريض الشعراء، وإذا كانت الحقيقة مرة شائهة فهو في حاجة إلى مراراتها وجوهرها الشائه، فهما يلهمانه النسيان». ثم توقف الحوذي فجأة عند مبدأ زقاق مظلم، فارتجت العربة، ورأى دوريان غراي صواري السفن ترتفع سوداء من وراء سطوح المنازل الصغيرة ومن وراء مدافنها. وفي الميناء رأى قطع الضباب الأبيض تحوم في كل مكان كأنها قلوع خرافية، ثم بعد أن صرف الحوذي، وانعطف إلى اليسار، وأسرع في المسير، كان يلتفت إلى الوراء بين لحظة وأخرى ليرى من يقتفي أثره فلم يجد أحدا. وبعد سبع دقائق أو يزيد بلغ بيتا حقيرا محشورا بين مصنعين ضيقين. ورأى مصباحا منيرا في إحدى النوافذ العليا، فتوقف، ثم طرق الباب طرقا غير مألوف».

ثم يأتي، بعد ذلك، وصف للبيت من الداخل بكل ما عليه من أوحال وقذارة وتعاطي مخدرات وهلاوس، حيث «السيقان المنتخفة، والأفواه المفغورة، والعيون المنطفئة الشاخصة وسحر مرآها». كان يظنهم أسعد منه حالا، كان يعلم ما يشقون به من أحلام ذهبية، وما يسعدون به من نيران الجحيم»، وكان يظن نفسه أكثر شقاء لأنه حبيس سجين ذكرياته، «ذكرياته التي تلتهم روحه كالمرض الخبيث»، ثم يمشي بعد أن يخرج من مكان إلى مكان، ويدخل بعض البواكي المظلمة، ثم تتصاعد الأحداث حتى نجد أن دوريان، ذلك الذي يشعر بثقل خطاياه ووخز ضميره، يحطم المرآة التي أهداها اللورد هنري إياه، يقذف بها على الأرض ويدوسها بقدمه ويهشمها، ثم ينظر إلى اللوحة ويجد صورته متجسدة فيها «مسخا حيّا»، وعلى يدها بقعة حمراء من الدم كانت قد ظهرت من قبل عندما قتل صديقه الرسام وجعل صديقه العالم يذيب الجثة في المحاليل الكيمائية، ثم يتزايد حضور الدماء في اللوحة، على اليدين والقدمين وغيرهما، ثم إنه عندما يمسك بالمدية التي قتل بها صديقه الرسام ويطعن اللوحة، تتحول اللوحة إلى وجه جميل، في حين يتحول الوجه الجميل لدوريان إلى وجه كريه الملامح، رجل يابس الجسد، حاول أن يطعن اللوحة فطعن نفسه، مات الإنسان بقبحه الذي حاول أن يخفيه، وبقي الفن بقبحه الروحي والأخلاقي الذي حاول أن يخفيه وراء قناع مادي جميل، وبقي

الفن حافظا روح الإنسان الجميلة وحقيقته الخالدة المعتمة كأنه يقول لنا إنه لا قضاء على الشـــر إلا بقتل تلك الازدواجية الشنيعة التي بين خارج جميل براق وداخل قبيح شرير.

الشريك الخفي

غالبا ما تكون قصص الأشـــباه والأقران قصصا مرعبة، تستثير الرعدة الخاصة بالغرابة، وتستحضر معها ذلك الرعب البدائي الأولي، ومع ذلك، فإن حضور القرين قد يكون مشتملا أيضا على نوع من العلاقة الحميمة والتواصل والتخفف من التوتر، كما نجد ذلك مثلا في قصة «الشريك الخفي» لجوزيف كونراد، حيث يواجه قبطان بحري فيها قرينه الذي تجســد في شكل سجين هارب من العقوبة التي حكم عليه بها بســبب جريمة قتل ارتكبها وهو يحاول إنقاذ سفينته القديمة خلال عاصفة. المثير للدهشة هنا أن ذلك القبطان قد قام بحماية ذلك الغريب العاري، وتقاسم معه ملابسه وأسراره «لقد استغاث بــي كما لو كانت تجاربنا واحدة مثل ملابســنا، لم يكن يشــبهني تماما، ومع ذلك فقد وقفنا مائلين أعلى موضع نومي، يهمس أحدنا إلى الآخر، وبرأسينا الغارقين في العتمة كنا قريبين أحدنا من الآخر، مستندين بظهرينا إلى الباب، بحيث إن أي إنســان كانت ســتتوافر لديه الشجاعة لفتح ذلك الباب، خلسة، كانت ســتصيبه الدهشة من ذلك المشهد الغريب الخاص ببحار بديل منهمك في الحديث سرا إلى ذاته الأخرى»، وقد أخذ هذا الاكتشاف للقرين والوقوع تحت ســطوته ذلك القبطان «نحو مشارف الجنون، وبشكل يفوق ما قد يمكن أن يحدث لأي إنسان لم يقم فعلا باجتياز تلك الحدود» (21).

ولم يُنقذ ذلك القبطــان إلا من خلال إيماءة مفعمة بالود من ذاته الثانية، لقــد تآمرا على أن ينظما طريقة هــروب ذلك القرين، مرة أخرى، وهكذا قام القبطان بالاحتضان الأخير لذاته الأخرى، ذلك الذي همس إليه قائلا: «لطالما كنت أعرف أنك تفهم، وأنت بالطبع كذلك، فمن أعظم حالات الرضا أن يجد المرء شخصا آخر يفهمه، ويبدو أنك كنت موجودا دائما كلما سعيت إليك، ومن خلال الهمس نفسه، كما لو كنا عندما يتكلم الآخر أشياء غير التي نرغب في أن يسمعها العالم المحيط بنا»، ثم إنه أضاف: «إن ذلك لأمر مدهش تماما».

لقد تطلب هروب ذلك الشريك الخفي أن يعرض الكابتن سفينته لمخاطر جمة، وعندما ألقى نظرة خاطفة على القبعة التي منحها لشريكه وهي تطفو فوق سطح الماء، أدرك القبطان أن ذلك كان أشبه بإنقاذ لسفينته، كان نوعا من العلامة التي ساعدته على الخروج من جهله السابق بغرابته، غرابته التي كادت تقضي على سفينته، وقد كانت تلك هي اللحظة التي رأى القبطان فيها ذاته الثانية «رجلا حرا يسبح بقوة متجها بقوة نحو مصير جديد»، هكذا دخل كل رجل من هذين الرجلين عالما جديدا، أو بالأحرى دخله ذلك الرجل الوحيد المنعزل، القبطان من خلال تخيله لذلك الشريك الخفي الذي تبادل معه الحوار والملابس والطعام، وشعر من خلاله بإنسانيته ووجوده وطبيعته الحرة الجديدة.

دستويفسكي والقرين

في روايته «القرين» (أو «المثل») صور دستويفسكي تلك الرؤية المظلمة للعالم، حيث «جوليادكين» الموظف العصبي البسيط، يسير متتبعا شخصا ما غريبا، ثم يتعرف إليه في النهاية على أنه قرينه، ذلك الذي يذهب إلى بيت جوليادكين ويسكن فيه، ويحضر دائما معه إلى عمله، وفي البداية اعتقد جوليادكين أن ما يحدث له إنما هو مجرد حلم أو كابوس أو نكتة شنيعة، لكنه، شيئا فشيئا، بدأ يشك في وجوده هو ذاته، وفي أحيان أخرى كان يفقد قدرته على التفكير والتذكر. لم يبدُ على زملاء جوليادكين في العمل أنهم لاحظوا ذلك، لكن أحدهم قال له إنهما - هو وقرينه - يبدوان مثل القطط التوائم السيامية، وتدريجيا بدأ جوليادكين الأكبر (كما أطلق دستويفسكي على الشخص الأصلي، الموظف المتواضع البسيط)، يجري حوارات مع جوليادكين الأصغر (كما أطلق عليه دستويفسكي ذلك أيضا) الذي ظهر فجأة وبدأ يطارده، والذي كان يبدو أكثر مكرا وشرا من جوليادكين الأصلي أو الأكبر، وتدريجيّا بدأ جوليادكين الأكبر يدعو جوليادكين الأصغر إلى الطعام والشراب، وأصبحت العلاقة بينهما أقل توترا، بل إنه دعاه إلى أن يبقى معه ضيفا في بيته في الصباح التالي، وقد كانا يتبادلان هويتهما على نحو غامض بحيث ظن الخادم أن الأكبر هو الأصغر والعكس بالعكس، وعبر ساعات اليوم بدأ الأصغر يتسلل إلى مكان عمل الأكبر، يأخذ مكانه، ويحظى

بالتقدير والثناء من رؤسائه لو أجاد بعض مهام ذلك العمل. تدريجيا أيضا قرر الأكبر أنه لن يستطيع الاستمرار في تحمل أن يعامل مثل «خرقة بالية». وفي سلسلة من المشاهد الليلية تبدأ المطاردات بينهما، بل إن الأكبر يرى أنه لم يعد هناك قرين واحد له، بل عدد كبير من «الجوليادكينات»، الذين يطاردونه في الشوارع، بحيث امتلأت المدينة كلها بهم.

في النهاية يأخذ «الأصغر» كل ما كان يخص الأكبر من امتيازات وممتلكات وعلاقات، في حين يوضع «الأكبر» في مستشفى للأمراض العقلية، وعبر هذه الرواية لا تعرف ما إذا كان جوليادكين الأكبر ضحية لجنون من النوع المتفاقم، أو من النوع الذي يتزايد على نحو تدريجي كل يوم، أو أنه ضحية لقرينه المشؤوم الشرير، وحيث إن الذهان غالبا ما يشتمل على تفكك في الهوية، فإن هذين الاحتمالين قد يكونان صحيحين كما يقول بيتر بيسيك [22] P. Pesic.

وهكذا فإن عبور حدود الهوية قد يؤدي بصاحبها إلى دخول عالم غريب مثير للقلق والاضطراب، عالم قد يحتوي على الحقيقة أو العقل، وكذلك الجنون.

لقد كانت الأحلام المرعبة والكوابيس والهلاوس والخداعات الحسية والإدراكية والهذاءات والمخاوف القاتلة هي التي استأثرت باهتمام دستويفسكي أكثر من غيرها، وقد كان هذا هو ما جعل البعض يطلق عليه لقب «شكسبير المصحات العقلية». ومنذ أعماله الأولى كان دستويفسكي شديد الاهتمام بحالات الاضطراب الانفعالي، فكتب العام 1846 رواية «المثل» أو «القرين» The Double، وهي تمثيل كبير لهذا الاهتمام [23].

وقد كان دستويفسكي يعد هذه الرواية تحفة أعماله، ويعدها أيضا عملا بالغ «الجودة»، وفكرتها «ممتازة»، ونحاول فيما يلي أن نقدم تحليلا لشخصية جوليادكين، وهي الشخصية المحورية في رواية «المثل». ففي هذه الرواية هناك علامات قادرة على استثارة مشاعر الغرابة لدينا، كما أنها كانت متجسدة لدى الشخصية المحورية في هذه الرواية، وقد تفاقمت هذه المظاهر والعلامات حتى بلغت مرحلة الفصام أو الجنون، ونذكر منها ما يلي:

1 - الترديد الأعمى والتكرار الآلي للكلام: Ecolalia وهو سلوك يقوم في جوهره على تلك الآلية الأساسية المميزة للغرابة؛ ألا وهي التكرار، فهنا يقوم المريض بتكرار وترجيع الكلمات التي

يسمعها من دون فهم كامل لمعناها، وقد حدث - مثلا . في أثناء لقاء جوليادكين مع الطبيب أن دار الحوار التالي بينهما :

الطبيب: قل لي من فضلك : أين تسكن الآن؟

. أين أسكن الآن يا كريستيان إيفانوفتش؟

. نعم.. أريد أن أعرف .. أظن أنك كنت في الماضي تعيش.

. صحيح يا كريستيان إيفانوفتش، كنت أعيش، نعم كنت في الماضي أعيش، هذا واقع، كنت أعيش.

كان السيد جوليادكين يجيب بذلك مرفقا كلماته بضحكة نحيلة، ولاح أن جوابه قد بث القلق والاضطراب في نفس محدثه.

قال الطبيب:

. لا .. لقد أسأت فهم سؤالي... أردت أن أقول إنني من جهتي.

. أنا أيضا أردت أن أقول يا كريستيان إيفانوفتش إنني من جهتي.

إن هذا الحوار بين جوليادكين والطبيب يكون أساسا من أمثلة هذه الاضطرابات المعرفية التي تمثلت في شكل أفكار متطايرة، وعدم فهم للأسئلة، وخروج من موضوع إلى آخر من دون ترابط، ومحاكاة صوتية من دون فهم لكلام الطبيب، مع إسهاب وتفصيل واستطراد من دون مبرر أو ضرورة، مع آلية مفرطة في الحوار والاستجابة للأسئلة، وكلها علامات واضحة على هذه الغرابة التي وقع جوليادكين في براثنها.

2 - تكرار حدوث ظاهرة «سبق أن»، أو سبقت الرؤية dega vu، وهي وهم أو خداع إدراكي يتعلق بالألفة بشيء ما، وليس بسوء التفسير له، وهذه الحالة قد تحدث خلال اليقظة الكاملة لدى الأشخاص الأصحاء، ولكنها تحدث عادة أكثر في أثناء الأزمات النفسية، وحالات الوعي والخبرات الهلوسية، وفي أثناء الإفاقة من النوبات الصرعية، وهي ظاهرة ترتبط أيضا بآلية التكرار: تكرار الأحداث والأفكار، أو الاعتقاد بأنها تتكرر، وقد ذكرها فرويد وغيره في دراساتهم عن الغرابة. ومر جوليادكين بها أيضا، حيث عبر دستويفسكي عنها قائلا: «ومن تمام المصيبة أن الجو كان

رهيبا، فالثلج يتساقط أسناخا كبيرة، ويتسرب إلى داخل معطف صاحبنا، ولم يكن في وسع المرء أن يعرف الشارع الذي تجري فيه العربة سريعة سرعة شديدة، وفجأة شعر السيد جوليادكين بذلك الشعور الذي يحس صاحبه أنه «سبق له أن رأى ما يراه الآن»، فظل بضع لحظات يحاول أن يتذكر. تُرى ألم يوجس هذا كله في الليلة البارحة، في الحلم مثلا؟.. وأخذ قلقه يزداد شدة بغير انقطاع، هو الآن في دورة القلق، إنه يحتضر. أراد أن يصرخ وهو متشبث بعدوه الذي لا يرحم. ولكن صرخته فنيت على شفتيه، ثم جاءت لحظة نسيان كامل. شعر السيد جوليادكين شعورا غامضا بأن كل ما يقع له أمر لا سبيل إلى فهمه.. أمر لا فائدة منه.. أمر لا طائل من ورائه. أمر لا شأن به. باطل، وسخف أن يحتج».

3 - غلق الأفكار Thought Blockage أو فراغات التفكير: وتتمثل هذه الحالة في حدوث توقف مفاجئ في تيار التفكير، توقف يترك فراغا، وقد تبدأ فكرة جديدة، وقد كان دستويفسكي واعيا بنمو هذه الحالة وآثارها. في حالة جوليادكين.

4 - الأفكار العدمية: بالإضافة إلى أفكار الاضطهاد والإحالة، وشعوره بكابوسية العالم، تنتاب جوليادكين كثير من الأفكار العدمية، فيتمنى أن يكون ميتا، ويشعر بعدم حقيقة العالم أو وجوده، هذه الهذاءات العدمية Nihilistic delusions يسميها الأطباء الفرنسيون بهذاءات النفي negation؛ لأن المريض ينكر وجود جسمه وعقله، ومن يحبونه، والعالم المحيط به، وقد يؤكد أنه ليس لديه عقل ولا ذكاء، أو أن جسمه أو أجزاء منه ليست موجودة، وقد ينكر وجوده كشخص، أو أنه قد مات، فالعالم قد توقف، وكل شخص آخر قد مات.

5 - الوعي المنقسم: لقد تذبذب رأي جوليادكين في نفسه وفي الآخر، قرينه، ففي الليل يكون الآخر أقرب إلى الوداعة، ويحاول التقرب إلى جوليادكين، ويحاول مساعدته على إشباع بعض رغباته المحبطة، أما في النهار فيكون شرسا محبطا

عدوانيا مرواغا، ومن ثم يتفاوت رأي جوليادكين في قرينه، فهو أحيانا طيب وأحيانا شرير، أحيانا جدير بالإعجاب وأحيانا بالاحتقار، لكن الصورة تزداد قتامتها شيئا فشيئا، وتتحول إلى شر واحتقار وشراسة وعدوان، ومن خلال الصور الهلوسية النهارية والليلية يكشف دستويفسكي عن أعماق جوليادكين وطموحاته ومخاوفه، إنه خاضع لسيطرة رؤسائه، يشعر بالذلة والهوان كلما تعامل معهم، إنه يخلق بداخله شخصا آخر يشبهه، لكنه يحسن التعامل مع رؤسائه، إنه يحقق من خلاله ما عجز عن تحقيقه في الواقع، إنه يحاول إعادة الاتزان إلى فوضى النفس الداخلية من خلال التهويمات والهلاوس والأحلام.

6 - روح هائمة في الطرقات: لم تكن هذه الخبرة الهلوسية خبرة جيدة مشبعة بالنسبة إلى جوليادكين، وربما كانت كذلك في البداية، لكنها سرعان ما أصبحت خبرة كابوسية قاتمة شديدة القدرة على إحداث الرعب والفوضى العقلية، مما جعله دائما يهيم على وجهه في الطرقات وفي الشوارع، في حين تصفعه هبات العاصفة، وتغرقه الأمطار، وخلال هذا الجو المرعب يظهر له قرينه دائما ويطارده، ومع تزايد الخوف والرعب والمطاردة يزداد انشطار النفس وانقسامها، ويزداد تصدع العقل وانشقاقه، ويختلط عالم الحلم بعالم الواقع، «إنه يركض الآن قدما على غير هدى، لا يدري أين يذهب، ولكنه كلما خطا خطوة، وكلما قرعت قدمه أسفلت الرصيف مرة، انبجس إلى جانبه عدو جديد كأنه يخرج من باطن الأرض، انبجس جوليادكين جديد، انبجس ذلك الدجال نفسه رهيبا حقيرا باعثا على التقزز والاشمئزاز كما كان، ويأخذ هؤلاء الأشخاص المتشابهون جميعا يركضون، الواحد وراء الآخر، فكأنهم سرب من الإوز يطارد بطلنا ويلاحقه، أصبح بطلنا لا يعرف إلى أين يهرب، أصبح لا يعرف كيف ينجو من هؤلاء «الجولياد كينات» الذين يجرون وراءه حتى تقطعت أنفاس بطلنا المسكين، وسرعان ما حاصره هؤلاء الأشخاص المتشابهون

مـــن كل جهة، إنهم ألـــوف، إنهم مبثوثون فـــي كل مكان. إنهم يجتاحون جميع شوارع العاصمة. وهذا رجل من رجال الشرطة يرى نفســـه مضطرا أمام هذا التراكم الفاضح إلى أن يمسك بتلابيبهم، فيقبض عليهم ويحبسهم في مركز مجاور من مراكز الشـــرطة. واســـتيقظ بطلنا وقد تجمد من الخـــوف والذعر وتخدرت أعضـــاؤه... فإذا هو يـــرى أن الواقع ليس خيرا من المنام. إن هذا الحلم الســـحري العجيب هو مركز الرواية، كما يقول «ديمتري تشيزيفســـكي»، وفيه يكمن جواب السؤال عن «مكان الإنسان» بشكل واضح. إن جوليادكين (وهنا يكمن مغزاه النموذجي أو مغزاه الاجتماعي كما يقول دستويفســـكي) ليس لـــه مكان خـــاص به، ولم يكن قد أحرز مكانـــا قط في حياته، فليس له «مجال» في حياته باســـتثناء الزاوية التي توجد خلف الخزانة أو الموقد، حيث يختفي من اضطهاد أعدائه الوهميين، وفي هذا الصدد نجد جوليادكين شبيها بشخصيات أخرى لدى دستويفسكي: الحلم في «ليال بيضاء»، و«قصة من بطرسبرغ»، وأبطال «قلب ضعيف»، والســـيد بروخاركين ومارميلادوف في «الجريمة والعقاب»، إن هناك شيئا ما غير بشرى، شيئا متشيئا في انعدام وجود مكان للشخص خاص به [24].

7 – وعـــي في فوضى: يتخيـــل جوليادكين رؤية أشـــياء وأشخاص وحيوانات وظواهر ليست موجودة، ويعاني ضعف الذاكرة، على الرغم من فيضانات التداعيات غير المحدودة، وتتجمع لديه الأفكار وتتفـــرق، وتتقارب وتتباعد، يعاني من الآخر الذي يحصل على كل شيء، في حين أن الأنا لا تحصل على أي شـــيء، ذلك الآخر الذي يظهـــر دائما «مرحا فرحا نشـــيطا على عادته، كثير الحركة، متواثب الخطى، ســـافر اللهجة، شـــديد التملق، حاضـــر البديهة، ســـريع الجواب، خفيف الساقين، يسلم عليه الجميع، ويرحبون به، ويفرحون بمقدمه»، هذا في حين يعاني جوليادكين الحقيقي الاكتئاب

والحـــزن والخمـــول، واضطـــراب الحركة، وتفـــكك الكلام والتفكير، والاصطـــدام بالآخرين وتجاهلهـــم له، ويكثر من النظـــر إلى المرآة والتحديق في ملامحه، وهو يشـــعر بغرابة كل الأشياء حوله، ويتخيل حدوث أشياء لم تحدث، فيعتقد أن الرسائل التي يكتبها تسرق منه، في حين أن واقع الأمر هو أن هذه الوسائل لم تسرق قط لأنها لم تكتب أصلا.

8 - اختـــلال الشـــعور بالشـــخصية depersonalization وبالواقـــع derealization: وقـــد تحدثنا عن هذه المشـــاعر أو الاضطـــراب في مواضع أخـــرى من هذا الكتـــاب، وهنا يفقد الشـــخص صلاته بالآخرين، ويشـــعر بأنه أصبح يشـــبه الآلة، ويقوم بأنشـــطته بطريقة ميكانيكية مملة ورتيبة، وترتبط هذه الحالـــة عادة بحالة اختلال الشـــعور بالواقع، حيث تبدو البيئة للفـــرد غريبة، غير واقعية، أو خاليـــة من كل المعاني العاطفية، وتتفاقم هـــذه الاضطرابات فـــي حالات الفصـــام والاكتئاب الحاد والهســـتيريا، وفي حالات القلق. إن هذه الأفكار غالبا ما تكون هذائية، وأحيانا ما يعرف المريض شـــذوذها، ويشكو من الاضطراب الذي تسببه له.

يقول جوليادكين لنفسه: «أنا، أنا، أنا، ما أنا، لا شيء، يمينا لست أنا، لست أنا حتما»، معبرا عن اختلال شعوره بذاته، وإحساسه بغرابة نفسه وتصرفاته، وفي أحيـــان كثيرة. كمـــا كان جوليادكين أيضا. «لا يعلم علم اليقين، أكل ما يراه حوله هو جزء من العالم الواقعي أم هو امتداد الرؤى المضطربة التي رآها في حلم؟».

9 - الإحســـاس بالحضـــور The sense of presense:

ومن الصعب تصنيف الإحســـاس بالحضور، حيث هنا يشعر الشـــخص بأنه في حضور شخص ما، أو أن شخصا ما يوجد معه، على الرغم من عدم الوجود الفعلي لهذا الشخص الثاني، وهو ليس حالـــة من الخداع الإدراكي، ومعظم الناس العاديين يكون لديهم الشـــعور بوجود شخص آخر معهم حينما يكونون في حالة وحدة، أو عندما يســـيرون في الشـــوارع المظلمة، أو يصعدون قفزا سلما شـــاحب الإضاءة لأحد المنازل في الليل،

> ففي أثناء ذلك يشعرون بأن شخصا ما يقف أو يمشي أو يجري خلفهم، وبداخلهم يحاولون السخرية من هذا الشعور، لكنهم في الواقع يتلفتون حولهم وخلفهم، بين الفينة والفينة، للتأكد من عدم وجود هذا الشخص، كما أن بعض المرضى قد يشعرون بأن هناك شخصا ما موجودا، لكنهم لا يستطيعون رؤيته، وقد لا يعرفون من هو، وقد تحدث هذه الحالة نتيجة نقص النوم، أو الجوع، أو حالات اضطراب الوعي والوجدان، كما أنها تحدث في الحالات العضوية في المخ، وفي الفصام، والهستيريا، كما أنها ترتبط بالحس الشبحي والأشباح، في مخاوف الوحدة والظلام. وقد كان جوليادكين في «القرين» يشعر بمثل هذا الإحساس، فقد كان يشعر في البداية بحضور شخص ما يوجد معه دائما، يتعقبه، لكنه لا يراه، يقترب منه بطريقة شبحية مبهمة، ثم يبتعد عنه، يحضر متلفعا بالضباب ومتسربلا بالظلام والجليد، لكنه لا يدركه، ثم تفاقمت الحالة فلم تعد مجرد شعور بالحضور؛ بل صارت إحساسا إدراكيا هلوسيا بوجوده ومشاهدته وسماعه والهرب منه.

لقد ظلت مشكلة الازدواجية والثنائية في الطبيعة البشرية تؤرق دستويفسكي، وتشكل المعالم البارزة لكثير من أعماله. وقد تردد موضوع الشخص الثاني لديه مرة أخرى في رواية «الممسوسون» (1872 - 1873)، وفي رواية «الشباب الغض» (1875)، وفي رواية «الإخوة كارامازوف» (1879 - 1880)، لكن أيا ما كانت تجليات هذه الفكرة، وأيا ما كان شكل ترددها وتكرارها في هذه الأعمال، فإن رواية «المثل» أو «القرين» تظل هي الدرة المتفردة في عقد دستويفسكي الفريد في هذا الشأن.

قرين سليمان فياض

وقرين سليمان فياض شبيه بقرين دستويفسكي، تقع عيناه عليه أولا في مرآة موجودة في غرفة نومه، يحاكي حركاته ويتابعه في كل مكان، كان ذلك القرين، هو «ذلك الآخر الموجود الواقف بمقابلي في المرآة»، ثم أصبح ذلك الآخر يضايقه ويتدخل في قراءاته، وفي تفكيره، وفي لغته، حتى يشعر بالإرهاق نتيجة مطاردته له [25].

«أحسست بالإرهاق منه، حدثت نفسي بأنني أكرهه، ذلك الآخر الذي يلازمني، أغفل عنه، فإذا به ينبهني إلى وجوده، أنساه تماما، فيصر على أن يذكرني. أجلس وحيدا أفكر بعقل وروية، فإذا به يعبث بكل أفكاري، يبددها، ويشتتها ويحيلها أحلام يقظة». هكذا تستمر عمليات المطاردة والمراقبة والتدخل التي يقوم بها ذلك الآخر، في حياة الراوي، في يقظته ونومه، في أفكاره وانفعالاته، وهو يصفه مرة بأنه «آخر»، ومرة بأنه «حيوان الغابة الغريزي»، الجانب الداخلي البدائي منه، المخيف المدمر منه، المقابل لـ «الهو» الغريزي، عند فرويد. وعندما يصف الراوي ذلك الآخر بأنه إنسان الغابة الغريزي، فإن ذلك الآخر يصفه بأنه «مهرج يرتدي قناعا»، هنا يرد في أذهاننا على الفور تمييز يونغ بين القناع الاجتماعي والظل الغريزي، هنا القرين ظل غريزي للقناع الاجتماعي.

وتردد هنا حوارات كثيرة بين الراوي وقرينه حول الخير والشر والنور والظلام والظاهر والباطن وتستمر المطاردات، ويستمر القرين. كما قال الراوي. «يخلو إليَّ إذا خلوت، هامسا، وموسوسا، وموشوشا، ومتنقلا من موضوع إلى موضوع، وفجأة، داعيا إلى كل الخواطر المقبضة، والمحزنة، والمتشائمة، والعدوانية، من دون أي رحمة».

ويشكو الراوي إلى زوجته من هذه المعاناة والمطاردة، فتطلب منه أن يكتب عنه قصة، فيفكر فيه ويكتشف أنه أغرب شخص التقاه في حياته، وأنه «أكثر من عرفت خفاء وتخفيا، وجودا وعدما، ولأن أجدادي القدماء الذين حدثتني عنهم أحجارهم عرفوه، وخافوه، وتوددوا إليه بالصورة والرمز، والنقوش والتماثيل، والأدعية والمواكب، والأحجبة والتعاويذ، والأطعمة في المقابر، في انتظار عودته، وحلوله بعد الموت، ولأنه على ما وعيت منه اليوم، ملاك وشيطان، وصعلوك وشريف، في وقت واحد، وبصورة لم يعهدها أحد بعد، سوى لحظات حدس عابرة، وربما سوى المجانين، والعباقرة، والأنبياء، وقادة الجيوش، وعلماء النفس والفنانين، والزعماء المصابين بجنون العظمة... إلخ، ولأنه نموذج فريد للغريزة والضمير معا، فقد آثرت أن أدعها، تلك التي إلى جواري (زوجته) آمنة وادعة، وأدع نفسي إلى حد ما، في دفء أمنها، ودعتها».

هنا يكتسب القرين - لدى سليمان فياض - بعدا تاريخيا ثقافيا دينيا إنسانيا، فهو يدرك أن من يطارده هو طبيعته البشرية، هو غريزته، هو ضميره، هو ظله الداخلي الموجود خلف القناع، وهو أيضا الغريب الموجود خلف هذه الواجهة المألوفة للشخصية، وهو أيضا الغريب الملازم له المرتبط، مرة بالموت، ومرة بالخلود، وتستمر المطاردة، ويدرك الراوي تدريجيا أن قرينه يشبهه جسدا، وصوتا وحركة، وفكرا، وأنه - أي الراوي - ليس إلا شخصية منشطرة منقسمة إلى قسمين يطارد أحدهما الآخر، ويتذكر طفولته وصباه، وينسب كل ما قام به من أفعال شريرة إلى قرينه، وكل ما قام به من أفعال خيرة إلى نفسه، ثم يزداد يقينه بأن «ذلك القرين الذي هو غريب عني، أكثر ما تكون الغربة، قريب مني أكثر ما يكون القرب»، وأنه مثل شيطان الجزيرة الذي ورد ذكره في قصص ألف ليلة وليلة، يركب فوق كتفه، وتستمر المطاردات، وتستمر المعاناة، ويناديه في سره، «يا غريبي، في كل مكان من البيت، والشارع والمدرسة، في النهار، أشعر بالحياة تدب في الأشياء حولي، وأرى مواكب الناس تتحرك، محدقة فيما حولها ولا تراه، متأملة في داخلها ولا تفهمه. من بينهم أرى أصدقائي وحيدين، ومغتربين مثلي. تزحف عليهم الأشياء، تتحرك وتسعى، تحاصرهم بأكف غير منظورة، مملوءة بالمغريات والمحاذير، وهم يتكلمون بلا صوت، أفواه منفرجة تثير الضحك، يتساقط منها الكلام بلا حروف، ولا معان، وجوه تحمل عيونا، وأنفا، وفما، وأذنين، وليس من يد لأحدها» [26].

هنا يكون قرين سليمان فياض، هو غريبه، هو وحيده، الإنسان الذي هو أكثر الكائنات غرابة في الحياة كما قال هيدغر، هنا الحياة تستمر، واللامعنى يحضر، والمواكب تتدافع، ويظل الإنسان غريبا، غريبا بالنسبة إلى نفسه، وبالنسبة إلى الآخرين، وإنه عندما يدرك طبيعته المزدوجة، عندما يدرك أنه ليس خالدا كما يرجو، بل إن الموت والعبث يحاصرانه في كل لحظة، وأن الإنسان أكثر الكائنات وحدة وغرابة في هذا الكون، عندما يحضر الموت في الحياة، ويكون الأصدقاء كما قال على حافة الجنون، فإنه يقرر أن يتحد بـ «قرينه»، يصبح مثله، يسلم نفسه إليه، لا يقاومه، لا يعاني ازدواجية الداخل (الغريزة) والخارج (القناع)، بل يترك نفسه يفعل ما يحب ويرغب، ويقول ما يفكر فيه، لا أن يغلفه بتبريرات وأكاذيب، يتخلص من غرابته، لكنه يشعر مع ذلك أيضا «بالفجيعة التي تحولت إلى وحدة موحشة،

ورعب حقيقي، حيث فتحت عيني وامتلأ فمي بمرارة لم تفارقني، وأنا أجهد لأزيح عن صدري كابوسا مفزعا». لقد أدرك أنه لا مهرب له من قرينه، وأن ازدواجيته قارة، وانقسامه مقيم ما بقي حيا، وأن محاولته للهروب من قرينه قد أسلمته إلى الهروب إليه، وأن وجود قرينه الخاص كـ «ظل»، كـ «آخر»، لن يكون ممكنا، لن يكون محتملا، لن يكون قائما، إلا من خلال وجوده هو الخاص أيضا كـ «أنا»، و«ذات»، و«عقل»، و«قناع»، وواجهة، وتظاهر أيضا.

أشباه أخرى وأقران

في رواية «عام وفاة ريكاردوريس»، للكاتب البرتغالي هوزيه ساراماغو (1984)، نجد أن الشخصية الرئيسية فيها هي قرين الشاعر البرتغالي المعروف فرناندو بيسوا، وقد كان - بيسوا - يكتب أعماله تحت ثلاثة أسماء مستعارة، كل منها أشبه بقرين له. هنا يعود القرين إلى البرتغال، قادما من البرازيل، بعد وفاة بيسوا، وينسج ساراماغو روايته - كما يشير فخري صالح - «بأسلوب الواقعية السحرية، مذكرا القارئ بأجواء ماركيز، وخورخي لويس بورخيس، حيث يتردد شبح فرناندو بيسوا الميت على الشخصية الرئيسية هي الرواية، ونحن نعلم من سياق السرد أن شخصية الرواية الرئيسية على نفسها من بين اختلافات الشاعر الميت فرناندو بيسوا، ومع ذلك، فإن شبح الشاعر وقرينه الشخصي يتبادلان في صفحات هذا العمل، تأمل الوجود وشروطه» [27]. إن ساراماغو - هنا - يدعونا لكي نتأمل في البرتغال والعالم في أثناء الثلاثينيات المائجة بالاضطراب من خلال عيني ريكاردوريس الذي هو الاسم المستعار لفرناندو بيسوا، الشاعر الشهير الذي يعود كشبح ويتردد على الشخصية المحورية في الزاوية، ريكاردوريس، وإن كان أحد الأسماء الثلاثة لـ «بيسوا الشاعر»، نفسه، في حياته، وقد أشار بيسوا أيضا إلى أن أسماءه هذه لم تكن مجرد أسماء مستعارة؛ بل دليل على شخصيات متعددة نمتلكها نحن جميعا، فهي بمنزلة أوجه ومظاهر لا تحصى لأنفسنا [28].

وفي قصة أخرى عن القرين هي «ذكرى رجل غير مهم»، للكاتب الإسباني خوسيه مياس، يرى أولغادو نفسه يساوم بالفرنسية التي ليست لغته الأصلية، إحدى بنات الليل على ناصية شارع لا يعرف، وتدريجيا يشعر بأن له ذاتا

أخرى موازية لحياته، لا تعيش معه في وطنه؛ بل تعيش في أرض بديلة غريبة. هكذا يتأرجح أولغادو - كما يشير فوزي فهمي - بين ثنائية وجود الشخصين في مكانين مختلفين، متماديا في العيش في وطنين بهويتين يتعامل في ظلهما مـع النقيض معا. وينطلق أولغادو في الملذات مـع أصدقاء صاخبين، ويرتاد أماكـن المتعة الليلية التي لا يجـرؤ أولغادو على الذهاب أبـدا إليها، ويزداد انفصال هذه الذات الأخرى عن صاحبها، فيرى نفسه يخنق زوجته الفرنسية، ثم يسـقط مريضا ملازما الفراش، يحاول الخلاص من ذاته الفرنسية، لكن تتنابه المخاوف الشديدة جدا، والرعب أيضا من الموت مثلما ماتت ذاته الأخرى [29]، وتستمر لديه المخاوف والهلاوس واضطرابات الوعي والوجدان.

رانك والقرين

كان المظهر الخاص برجل الرمال في قصة هوفمان عنه، بوصفه استجابة للقلق الجنسي والخوف من الخصاء لدى ناثانيل، هو ما جعل فرويد، متابعا في ذلك المحلل النفسي الشهير أوتو رانك، يطلق عليه لقب «القرين»، بوصفه نوعا من الإسـقاط الخارجي للصور والصراعات الداخلية الخاصة بالذات - وهي هنا ناثانيل - على شخص أو صورة متجسدة في الخارج، ومثل هذا الازدواج كمـا قال رانك، يجلب نوعا من التحرر الداخلي، نوعا من التخفف من العبء بإسـقاطه أو نسبته إلى شـخص موجود خارج الذات يصبح هو المسـؤول عن هذه الصور والدوافع المسببة للقلق والخوف والرعب، إنه نوع من التحرر والحرية من خلال التكرار، التكرار لمشـاعر الذنب أو الرغبات، أو القلق، التي تخفف المرء منها وجسدها في الخارج من خلال نسبتها إلى آخر، قرين، أو شبح، أو ظل، أو عمل إبداعي أو صورة أخرى من الذات.

في كتابه عن «القرين» تتبع رانك جذور هذه الفكرة في التراث الشـعبي أو الفولكلور الإنساني والسينما والأدب والتجليات الأنثروبولوجية للازدواج وغيرها، وكما يظهر ذلك في الأفكار الخاصة بالظلال Shades والانعكاسات والأشقاء والتوائم وغيرها. حيث توجد لدى بعض المجتمعات البدائية بعض الأفكار التقليدية والخرافية عن الظلال، والعلاقات بين الظل والروح، ففي جزر سليمان، مثلا يحكم على أي شخص يخطو فوق ظل الملك بالموت، وفي

مجتمعات أخرى يكون أمرا بالغ الخطورة أن تجعل ظلك يسـقط فوق جثة ميت، وأي شـخص لا ظل لـه يمكن أن يموت في الحـال أو يصبح عاجزا جنسيا، وفي الفولكلور الألماني من يرى ظله أو قرينه فإنه يرى موته [30].

لا تحدق في صورتك .. لا تحدق في المرآة

تعتقد بعض القبائل في أمريكا الشـمالية والوسـطى أن الصور تسرق الروح وهي الفكرة التي كان يعتقد فيها الروائي الفرنسـي الشـهير بلزاك أيضا، حيث كان يعتقد أن كل إنسـان يتكون جسده من عدة طبقات روحية، وأن في كل عملية تصوير فوتوغرافي لهذا الجسد تُسرق طبقة من طبقات الـروح هذه وتبدد في الفضاء، ومع اسـتمرار التصوير، ومع تكراره، تتكرر عملية السرقة للروح حتى يصبح الإنسان في النهاية بلا روح.

تكمن أرواح الموتى، كما تعتقد بعض الشعوب وكما أشار رانك، في المرايا، ومـن هنا كانت تلك العادة التي ماتزال باقية لدى بعض الشـعوب الأوروبية حتى الآن لتغطية المرايا الموجودة في المنزل الذي يموت فيه أحد الأشخاص حتى لا تظل روحه موجودة باقية داخل المنزل تسكن هذه المرايا.

وتعمـل الصورة الخاصة بالظل أو المرآة هنا، كنوع من القرين أو الشـبيه الذي يحمي ويدافع ضد الانقسام والفقد، من خلال تكرار صورة المرء، جسده، روحه، التكرار الذي قد يعني الاسـتمرار والخلـود والمقاومة للفناء، لكن هذا التكرار الذي يتمثل في القرين أو الظل أو المرآة أو الصور.. إلخ قد يمثل أيضا نوعـا من التهديد، حالة من التنبؤ بالموت، فأن تحدق في انعكاسـك/روحك/ صورتك لوقت طويل، قد تفقد هذه الروح كما حدث بالنسبة إلى نرسيس (أو نرجس) حيث تصبح الصورة المنعكسـة المتكررة هـي البديل للأصل، ويصبح الأصل، الذات، مختفيا خلف الصورة، أو ربما ميتا بداخلها.

القرين إذن حالة مزدوجة تتضمن محاولة للبقاء والخلود من خلال ذات أخرى، صورة أخرى، ظل آخر، مرآة أخرى، إبداع آخر، لكنها حالة قد تتضمن أيضا نوعا من الخوف من الموت، التهديد به، من خلال هذا التكرار الدائم للصور الذي يسرق الروح مثلما يظهر التكرار في النرجسـية بين أصل وصورة منعكسـة في مرآة أو مياه، فإن اسـتغراق هذا الأصل في صورته، غيابه فيها، عشـقه لها ينتهي بتبدد الأصل وموته أيضا. ولدى لاكان يحدث الازدواج خلال مرحلة المرآة عندما يخطيء الطفل في التعرف على نفسـه على أنه ذات واحدة، ويتعرفها على أنها منقسمة،

موجودة هنا وهنا، تفتقر إلى الوحدة، موجودة كأصل وظل، تفتقر إلى وحدة ذات أشكال ومظاهر عدة، تعود بعد ذلك عبر الحياة وتكشف عن التشظي والانقسام وعملية الإبدال والإحلال لصور وأشياء عدة من الذات لا تنتهي.

هكذا يكون القرين حالة معبرة أيضا عن آليات «اللاحسم» والفقد لليقين والتردد، يؤكد الخلود والاستمرار، وخلال هذا التأكيد، يكون أيضا نذيرا غريبا بالموت والفناء.

كذلك حال الأشباح، تؤكد حدوث الموت لكنها ترفضه أيضا فتعود إلى الحياة، ومن ثم فهو نوع من التجلي لفكرة القرين والازدواج والتردد أيضا والشبح لدى سيكسو هو الخيال السردي الخاص بعلاقتنا مع الموت، و«الأشباح» «والطيفية» مصطلحان منتشران في النظرية ما بعد البنيوية وكما أوضحنا ذلك في مواضع عدة من هذا الكتاب، ومفهوم الطيف لدى دريدا مفهوم محوري في تحليله التفكيكي للعلاقات المتنوعة الخاصة بالحضور والغياب، الماضي والحاضر، والحياة والموت، والذات والآخر، بل والآخر داخل الذات وحيث كل شيء لديه، مثل: الحقيقة والقانون، والروح القدس، يعود كي يهوّم أو يرود ويسكن كل شيء من خلال أطيافه الخاصة مثلما تعود أطياف ماركس أي أفكاره لتهوّم في أوروبا وتسكنها ليس في الحاضر فقط بل في المستقبل أيضا.

ومثلما يحدث اختلال في الشعور بالواقع وبالذات خلال عملية الحركة المتكررة في المكان، كما حدث لدى فرويد وذكرناه في الفصل السابع من هذا الكتاب، فكذلك تقوم الأشباح والأطياف بإحداث وتمزيق وعبور للحدود الزمانية والمكانية فيكون تأثيرها البالغ، فتحدث اضطرابا في النفس وفي الدلالة المعنوية والأدبية أيضا وهو اضطراب أطلق عليه دريدا اسم «الأسبقية الطيفية» التي تسبق أو تلازم كل فعل أو جريمة أو تراجيديا وحيث كل دافع إنساني يروده دافع أو فكرة طيفية سابقة عليه.

مثلما قام طيف الملك، والد هاملت في مسرحية شكسبير المشهورة، بالإيحاء بحل اللغز المتعلق بحالة التردد والعجز عن الفعل أو اللاحسم، التي وقع هاملت فيها، لكنه لم يحل هذا اللغز، فإن طيف ذلك الملك كان يعود، مرة بعد أخرى، كي يحدث الاضطراب في تلك التصورات الأولى أو الأصلية التي كانت موجودة لدى هاملت عن الحب والموت والحياة والإخلاص وغيرها. وتردد هاملت هو - في رأينا - نموذج موضح لحالات اللاحسم والفقدان لليقين، وذلك لأن تردده كان يقوم ليس بين «أن يكون أو لا يكون فقط»، في الحياة بل بين أن يكون موجودا

في عالم الواقع مرة وفي عالم الخيال مرة أخرى، وفيهما معا مرة ثالثة أيضا.

وإنــه كما قال دريدا أيضا، فإن الطيــف هو دائما «عائد بعد غياب»، لا يمكــن للمرء أن يتحكم في مجيئه أو غيابه، والتكــرار لدى دريدا هنا ليس عودة لاحقة للأصل، أو تالية لوجوده، لكنه أمر ملازم له أيضا، وبمصطلحات «لاكان»، فإنه قد يمكن النظر إلى الشبح أيضا على أنه تمثيل لخفوت الذات من خلال اغترابها في خطاب الآخر [31].

خاتمة الفصل

في قصص القرين ورواياته التي اســتعرضناها ســابقا، يمكننا أن نرى مصداقية خاصة لتلك المسلمات التي طرحها أندرو ويبر والتي استعرضناها في هذا الفصل عن فكرة القرين. ففي هذه القصص والروايات هناك حضور خاص للتكرار البصري والازدواج، حيث القرين، ذاته، نوع من التكرار المرئي للذات، تدركه هذه الذات وقد تهرب منه، أو تســعى وراءه وتلاحقه. وهناك أيضا حضور واضح لمسلمة «الكلام المزدوج»، حيث اضطراب اللغة وتشوهها وتكرارها فيما يشــبه الترديد الأعمى للكلمات والجمل والأسئلة والأجوبة، أحيانا على نحو ساخر، وأحيانا على نحو جاد. وقل الأمر نفسه عن مسلمات الاضطراب الحركي، والفضول الجســدي والمعرفي، وقوة اللعب، والإبدال، والإزاحة، والعودة القهرية للصور والكلمات والحركات والأفكار. كذلك كانت معظم أمثلة القرين التي استعرضناها من الذكور أيضا وبما يتفق مع ما ذكره ويبر من مسلمات. كما أن هذه النماذج من القرين كانت غالبا نتاجات لبيوت غير مألوفة وغير مســتقرة، ولأوطان مضطربة وأحيانا مدمرة. ولا تحضر هذه المســلمات جميعها في القصص والروايات التي اســتعرضناها بدرجة واحــدة من الحضور فقــد يحضر بعضها ويغيب البعــض الآخر لدى هذا الكاتب أو ذاك، لكن تزايد حضور العدد الأكبر منها يكشــف عن عمق هذه الفكرة وروعة تجليها كما وجدنا ذلك عند دستويفسكي، تمثيلا لا حصرا.

هكذا تجســد فكرة القرين الخوف من الوحش الذي في الداخل، مثلما تجسد أيضا فكرة الوحش الذي في الخارج، وقد يكتشف الإنسان في النهاية – كما حدث في رواية «قلب الظلام» – أن ذلك الوحش الذي ظنه موجودا في الخارج كان – في واقع الأمر – موجودا في الداخل، وأن رحلته من أجل قتل الوحش الموجود في الخارج إنما أوصلته إلى معرفة الوحش الذي في داخله

هو، وأن ذلك الوحش الموجود في الخارج، ليس وحشا، بل إنسان، وربما أقل وحشـــية وأكثر إنســـانية منه؛ ومن ثم فإنه قد يتوحد معه، وقد تتحول رقته الظاهرية إلى وحشية حقيقية مضاعفة.

ولعل ما اهتم به باحثون في هذا المجال مثل ويبر. على نحو خاص. هو القرين كشخصية تتعلق بالإزاحة والإحلال، شخصية تلازم البيئة، وتُحدِث الاضطراب فيها بوصفها جزءا منها. إنها تمثل ذلك الاعتماد المتبادل الوثيق بين عوالم الواقع والخيال، من خلال تمثيلهما معا بوصفهما قابلين للحضور معا، للمثول معا في ذلك الموقع الذي تتم خلاله المواجهة مع القرين. واعتمادا علـــى ما قدمه فرويد، قد يكـــون القرين هو الغريـــب أو الغرابة النماذجية البدائية النمطية، صورة أولية قديمـــة خاصة بالغريب والغرابة، كما توجد ملازمـــة للبيت، ومن ثم فإنه قد يجســـد ذلك الانقســـام التكويني، البيتي الأليـــف في الحالة الخاصة بالذات، أو أنه تجســـيد للرغبـــة الدائمة لدى الـــذات، لأن يكون المرء في بيته، وليـــس مجرد زائر له، حيث يرتبط القرين بالهوية المزدوجة، حيث يوجد الشخص ونقيضه، الجانب الأليف الحميم من الشـــخصية والجانب المنفر البغيض منها، الـــذات المرتبطة بالألفة والبيت، والمرتبطة بانتفاء الألفة والوحشة والغربة والغرابة، وحيث البيت - كما قلنا - مفهوم مزدوج هنا أيضا، مفهوم يجمع بين الألفة التي قد تتحول إلى عدم ألفة أو وحشـــة، وعدم الألفة التي قد تتحول إلى ألفة واطمئنان. هكذا فإن البيـــت هو أيضا مفهوم ديالتيكي يجمع بين جانبين أحدهما إيجابي والآخر ســـلبي، حيث المفهـــوم الإيجابي يدل - من بين ما يـــدل عليه - على الحياة الســـرية الغامضة الموجودة في الداخل والملازمة للألفـــة، والتي تحاول أن تحافظ عليها، ولكنها التي تعاني أيضا مخاوف مستمرة من قدوم آخر غريب دخيل خارجي يهز استقرار البيت، ويقلب الألفة إلى وحشة [32].

هذا الانقســـام الذي يحدث داخل الذات وفـــي النظام الخاص بالواقع يتم الامتداد به وإســـقاطه على شخص خارجي يُتَخَيَّل وجوده، هنا وهناك، قد يقال إن القرين - وفيما يشـــبه المفارقة - يهدم المبدأ الجمالي الخاص بالتشـــكيل أو المجاز أو التشـــبيه، ذلك العمل البارع الخـــاص بالمحاكاة، أي تكرار الواقع وازدواجه من خلال شـــيء أو شـــخص غير واقعي. ثم إن ذلك الشبح الخاص بالذات، الذي خلقته الذات، سرعان ما يصبح مصدر تهديد لهـــا، ومن ثم فإنه يقـــوض تلك المزاعم الموضوعية الخاصـــة بالواقعية، إنه

يحــوي بعض التأثيرات المماثلة أو الخاصة بالصور الفوتوغرافية الســلبية (النيجاتيف أو العفريتة كما تسمى في اللغة الدارجة في مصر مثلا) وكتابه يتكئون على تخيلات مكبوتة، أو على مصدر من الشعور بعدم الأمن والأمان العميــق، أو أنهم يحاولون - من خــلال إبداعهم - أن يحددوا مقدار الأمان الذي فيه ويؤكدوه.

وهذا الانقســام بين فردين كانا في البداية شــخصا واحدا، أو ممثلين كتوائم، سواء كانوا من التوائم الحقيقيين، أو من المماثلين للتوائم، هو خاصية مميزة للأساطير أيضا في كثير من قارات العالم، وكما أشار إلى ذلك عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي الشهير كلود ليفي شتراوس على نحو خاص، حيث أشار إلى ارتباط فكرة التوائم والقرين بثنائية الخير والشر، والنور والظلام، وبالقوى التي تقوم بالوســاطة بينهما، كما تمثلها الأرانب مشــقوقة الشفاه وغيرها من الرموز التي أشار إليها هذا العالم [33].

هكــذا يقاوم القرين التحديد الأدبي التاريخي التصنيفي، ومثله مثل كل الأشــباح، يكون خلال الوقت نفسه، شخصية تاريخية، تعيد عرض الأزمنة الماضيــة المنقضية، لكنه أيضا ظاهرة غير تاريخيــة، إنه حالة من المقاومة للتغير الزمني، من خلال خطوة خارج الزمن، ثم عودته إليه، مرة أخرى، كنوع مــن العودة الانتقامية للغائب، إنه يعود كي يقطع التطور الســردي الخطي لمضيفه؛ ومن ثم فإنه يحدث الحيرة والارتباط والتشــوش في أي سرد أدبي تاريخي مباشر[34]، ومن ثم فإن السرد المتعاقب كثيرا ما تُقطع روابطه وتُمَزَّق من خلال تلك اللحظات المتجمدة من المواجهة مع القرين.

وهكذا فإن في قصص القرين ورواياته، يمكننا أن نجد مثل هذا الحكي المزدوج، أو الســرد المزدوج، الذي يقول شــيئا ويعني شيئا آخر، يظهر شيئا ويحجب شــيئا آخر، وهــذه الآلية الخاصة بالتمويه والإخفاء، ثم الكشــف والإظهار، آلية أساســية في الأحلام والأســاطير والإبــداع الفني والأدبي، وكذلك في القصص المجســدة لتفكك الذات وانقســامها، وكما هي الحال - على نحو خاص - في قصص الأقران والأشباه والأشباح والظلال.

7

روح هائمة في المكان

«ستلاحقك المدينة وستهيم
في الشوارع ذاتها
ستدركك الشيخوخة في هذه
الأحياء بعينها
وفي البيوت ذاتها سيدب
الشيب في رأسك
ستصل على الدوام إلى هذه
المدينة
لا تأمل في بقاع أخرى
ما من سفن من أجلك
وما من سبيل
ومادامت قد خربت حياتك
هنا،
في هذا الركن الصغير
فهي خراب أينما كنت في
الوجود».

(قصيدة «المدينة»
للشاعر اليوناني
كفافيس، ترجمة نعيم عطية)

تحدثنا في الفصول السابقة، عن حالات التفكك والانقسام والازدواج التي تحدث للذات البشرية، والتي قام الأدباء بتجسيدها على نحو بارع. ونحاول في الفصل الحالي أن نستكشف أيضا بعض تجسيدات هذا الازدواج أيضا، ولكن على مستوى المكان على نحو خاص، فالأماكن الحديثة، وخصوصا المدن، أماكن تسكنها روح خاصة، روح قلقة، وربما مريضة، كذلك تعد الثقافة الحديثة أيضا ثقافة مزدوجة، ثقافة قد تدفع المرء لأن يقول شيئا ويسلك عكسه، وكذلك لأن تقول الأمم شيئا وتسلك عكسه، تدعي الديموقراطية، وتمارس القمع، تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان وتنتهك هذه الحقوق إذا تعارضت مع مصالحها. هذه محاولة لاستكشاف روح الازدواج والازدواجية وجذورها في الثقافة الحديثة، ولكن من خلال بعض النماذج الأدبية والنقدية الحداثية وما بعد الحداثية.

الحركة الغريبة في المكان

خــلال الحركة في المكان، في الأعمــال العجائبية والغرائبية قد يدور المرء في متاهة لا يعرف خلالها متى يخرج منها، إنه يقع ويقع قارئه معه، أســير التكرار، هنا قد يكون المكان واقعيا ثم إنه يصبح، فجأة، أو تدريجيا غيــر واقعي، مثلما هي الحال في أعمال كافكا مثلا. هنا حركة من المكان الواقعي إلى المكان غير الواقعي، هنا دخول إلى العالم الحلمي والكابوسي والغريب، هنا تردد بين الواقع واللاواقع، تردد متكرر بينهما قد تفقد معه الذات، وفيه، شــعورها بحدود الزمان والمــكان، هنا يحدث أيضا اختلال الشعور بالواقع واختلال الشعور بالذات.

فرويد تائها

في دراســته حول الغرابة يقول فرويد إنه كان يمشي، ذات صيف حار، في فترة بعد الظهيرة في شــوارع شبه خالية من المارة في مدينة إيطالية، وقد كانت تلك المدينة مجهولة بالنســبة إليه ثم إنه وجد نفســه فجأة في مكان من المدينة، لم يستطع أن يظل في حالة شك بشأنه لوقت طويل. لم يكن هناك ما يرى سوى نساء قد وضعن الأصباغ على وجوههن يظهرن في النوافذ الصغيرة للبيوت، ثم إنه أسرع يحث الخطى كي يترك ذلك الشارع الضيق متجها نحو المنعطف التالي، لكنه بعد أن تجول قليلا لفترة من دون أن يسأل أحدا عن طريقه وجد نفسه يعود إلى ذلك الشارع الضيق نفسه، هنا بدأ حضوره يلفت أنظار الناس هناك، فيقول: «وأســرعت مبتعدا مرة أخرى، ثم وجدت نفسي، ومن خلال انعطافة أخرى أعود إلى المكان نفسه، لكن للمرة الثالثة، على كل حال، غمرني شــعور ما، لا أســتطيع أن أصفه إلا بأنه غريب».

في المكان الغريب، يتحرك الإنسان في البداية عبر تلك المحاور الخاصة بالخبرة الإنســانية المكانية كما وصفها كانط حيث المكان والزمان هويات ثابتة تنظيمية مفروضة على الوعي، وحيث الأماكن ذات أبعاد ومســافات وزوايــا ومعالــم محددة للبعيــد والغريب والمعروف والمجهــول والمنخفض والمرتفع والواسع والضيق من الأمكنة، لكن هذه المعالم المميزة للمكان والتي

تقوم على أســـاس تصورات وحدود مفاهيم عقلية شبة محددة، أحيانا ما تضطـــرب وتتداخل حدودها، وفيهـــا يجد المرء أنه وبدلا من أن يتجه على نحو متتابع مســـتقيم يجد نفسه يعود إلى المكان نفسه الذي بدأ منه سيره أو حركته، ومع هذه العودة لا يصبح ذلك المكان الأول أو السابق أو القديم أو المألوف هو المكان نفســـه الذي كان، بل يصبـــح مكانا آخر، غريبا، غير مألـــوف، إنه قد يخرج منه، ويعـــود إليه، يظنه مألوفا فإذا به غير مألوف، هنا يجد نفسه في متاهة وعود أبدي، وتكرار لا يتوقف أو ينقطع، ومع هذه المتاهة والتكرار تحدث حالات اختلال الشعور بالواقع وبالذات وبهما معا.

هكـــذا، فإنه وفي الســـرد الواقعي العـــادي يقوم التماســـك المنطقي Cohesion الخـــاص بالذات على أســـاس حركتها الغرضيـــة الهادفة عبر الزمـــان والمكان، ويؤدي اصطفاف أو انتظام أو التزام الشـــخصيات داخل هذه المحاور الموجهة المنظمة والتزامها بها إلى تأســـيس هويتها المتماسكة المميزة، وتكشف عن طبيعتها مباشرة للقارئ.

في الأعمال المميزة والمهمة من السرد الحداثي وما بعد الحداثي تصبح حركة الذات وتوجهها عبر الزمان والمكان حركة غريبة ســـواء بالنسبة إلى الشخصية المحورية أو بالنســـبة إلى القارئ أيضا، هنا تجد الذات نفسها تدريجيـــا، أو فجأة، داخـــل - أو في مواجهة - مشـــهد آخر، هنا لا تقول الـــذات: «أنا هنا» بل: «أين أنا؟» ويتزايد ابتعاد الإنســـان عن حدود المكان والزمان ومعالمها في السرد ما بعد الحداثي مقارنة بالسرد الحداثي.

التكرار والعودة بعد غياب

لدى فرويد التكرار هو السبب الرئيسي في حدوث الشعور بالغرابة، وليس التكرار مجرد محاكاة أو نســـخ، ليس معناه أن النسخة الثانية تكرر الأصل، قد يكون معناه إعادة إنتاج لشيء جديد يخرج من الجسد أو النسخة الأصلية. في التكرار تشابه واختلاف، قد يتضمن نوعا من الهدم أو نوعا من البناء.

لكن التكرار الكامل يعني الموت، فمع التكرار أو المحاكاة ينبغي أن تكون هناك إزاحة ما، انزياح ما، اختلاف ما، بين الأصل والصورة التي تكرره.

في الموسيقى قد يكون تكرار النغمات والحركات تمهيدا للحركة الأخرى

الجديدة القادمة، وفي الأدب قد يكون تكرار بعض المقاطع والعبارات والصور تعبيرا عن ثيمات أسطورية، تؤكد دائرية الواقع والحياة والعود الأبدي لهما بشكل مغلق متكرر لا يتغير ولا ينقطع.

في التكرار استعادة Recall وتذكر لشيء ما من الماضي، شيء سبق أن حدث، شيء سبق أن كان مألوفا، ومع الاستعادة يوجد التعرف Recognition الذي يتبين جوانب التشابه كذلك والاختلاف بين الشيء المستعاد بجوانبه المألوفة وغير المألوفة، وقد يكون غير المألوف هنا هو ذلك الشعور المصاحب لهذه الخبرة بأنه لا شيء قد تغير، وأن القديم يعود كما كان في جوهره، وإن اكتسى بعض المظاهر والقشور والدعاوى الخارجية التي يزعم، من خلالها، أنه يجدد نفسه.

ويقف دافع الموت وراء التكرار، والتكرار الكامل كما قال فرويد في «ما وراء مذهب اللذة» يعني الموت، يعني شيئا وراء الحياة، وراء السرد، وراء الإبداع وذلك لأنه تتم خلاله إزالة المسافة بين النموذج الأصلي والصورة، مما قد يؤدي إلى انهيار الاثنين معا وضياع هويتهما غير المتجددة وإلى محو التفرد الذي كان ينبغي أن يكون لهما. فيصبح الحاضر صورة من الماضي، ويصبح المستقبل صورة من الحاضر والماضي أيضا، صورة تتكرر على نحو لا يتغير ولا يتجدد ولا يزدهر.

قد يكون التكرار غاية في ذاته، قد يكون إرجاء للفقد، وفي الوقت نفسه، فإن التكرار قد يكون محاولة لاستعادة الحب المفقود، الأصل المفقود، المكان المفقود، الوطن، البيت، الذي بدونه يكون الإنسان غريبا، ويسعى أيضا بغرابة في عالمه. وقد يكون التكرار أيضا هو الماضي المفقود، الفردوس المفقود، المحبوب المفقود، لأن الأنا، هكذا، بدونه، الآن وهنا تكون ناقصة، ومن خلاله، وبه، تكتمل، هكذا قد يكون التكرار أيضا محاولة لمجابهة الغياب، لمواجهة الموت والفقد ومحاولة تجاوزهما، هكذا يكون التكرار مزدوج المعنى أيضا، ثنائي الطابع ويجمع ما بين الحياة والموت، محاولة لاستعادة الغائب، المفقود - الذي مات أو غاب أو اختفى - بإحيائه مرة أخرى، بتكراره مرة أخرى، وقد ينطوي هذا الإحياء والتكرار على نسخ ومحاكاة ومطابقة شكلية مخيفة لما سبق أن فُقد وغاب وانقضى،

ومـــن هنا ومن ثم يكون هذا التكرار مخيفا، وغريبا، لأنه يعود في صورته القديمـــة المألوفة في عقولنا التي اعتقدنا أنها انطوت واختفت بفعل تغير الظـــروف والحياة. هنا عودة يغلب عليها المظهر أو الشـــكل العام للأصل من أجل تأكيد جوهره، لكن هذه العودة قد تتضمن أيضا تجديدا وإضافة وشكلا جديدا ليس هو المظهر التقليدي القديم، هنا قد تكون هذه العودة غريبة لكنها ليســت مخيفة أو مرعبــة كما هو الأمر في النمط الأول من العودة، هكذا قد يكون التكرار، كما قلنا، هو قرين الموضوع الغائب، عودة للموضوع الأول في شـــكل جديد، طرحا لتســـاؤلات حول التفرد الخاص للأصل أو الصورة، ومتضمنا الإشـــارة أيضا إلى أن الفقد أو الغياب ليس أمرا يتعذر تغييره [1].

عن البيت والوطن

كما رأينا، خلال الفصول السابقة، فقد كانت شخصيات إدغار آلان بو أشبه بروح هائمــة فــي أماكـن عــدة مـن أوروبا وأمريكا. وكذلك كان دوريان غراي أشـــبه بروح شـــاردة هائمة في أرصفة ميناء لندن وأماكنها الخفية الســـرية، وكان جيكـل أشـــبـــه بروح هائمة أيضا في ليـــل لندن الضبابي، وكذلك كان غوليادكين بطل رواية «المثل» أو «القرين» لدستويفسكي، روحا هائمـــة في المكان والزمان، في ليل بطرســـبرغ ونهارها، روح طُرِدَتْ خارج المـــكان، لكنها - أيضـــا - روح تعـــود دائمـــا إلى المـــكان، روح تحوم حول المـــكان، روح ترود المـــكان، روح تنتاب المكان، روح شـــبحية تحاول أن تقيم صلـــة بين الزمـــان والمكان، أو بين هذا الزمان وذلـــك الزمان الذي مضى، وهذا المكان وذلك المكان الذي كان، لكنه الذي لايزال في أعماقها كما كان، ونجد الأمر ذاته في بعض أعمال الروائي المصري «صنع الله إبراهيم» كما فـــي روايته «تلك الرائحة»، حيث يتكرر الواقع اليومي والتجســـيد الذهني للواقع بشـــكل دائم، وحيث الشخصية المحورية تدور دائما في دائرة مغلقة من الأســـى واليأس والإحباط، دائرة تشـــبه الطـــوق المحكم الذي يفرضه واقع شديد القسوة وسلطة شديدة الشراسة قامت بسجن الراوي وعذبته ثم وجد نفســـه بعد أن خرج من الســـجن وكأنه لم يخـــرج منه، لقد خرج

من سـجن صغير إلى سـجن كبير وفيما بينهما كانت الذات تدور وتتفكك وتكرر أفعالها وكلماتها وحركاتها بشكل دائم، وكأنها وقعت في دائرة الموت الذي يتجسـد في كل ملمح مـن ملامح الحياة. ونجد أمـرا مماثلا يدل على هذا التكرار الذي ينجم عن توالي الانتهاك لإنسـانية الإنسان بحيث يتحـول إلى قبول ما كان يرفضه في رواية أخرى لصنع الله إبراهيم وهـي رواية «شـرف». حيث الذات التي كانت تواجه الانتهاك الجسـدي لها قد استسلمت للواقع وأصبحت تتقبل هذا الانتهاك، بل وتسعى إليه.

وقـد كان المنـزل أو البيت فـي عالم الأدب، أحيانا، موقعا أو سـاحة للاضطرابات الغريبة، بألفته الظاهرة، وبحفظه لتاريخ العائلات، وبالحنين المتعلق به، وبالقلوب المتعلقة به، والملتفة حوله، بدوره كالملاذ الأخير والآمن والأكثـر حميمية وراحة وارتباطا بالحياة. لكـن ذلك كله يصبح أكثر حدة وقسوة وعنفا وتنبها من خلال ذلك الانفعال المتمثل في الرعب الناجم عن غزو أرواح أو أجناس غريبة.

ومثلما تكون هناك طبيعة مزدوجة للروح الهائمة وللشـبح، ذلك الذي يجيء ويذهب، يظهر ويختفي، ليس حيّا تماما ولا ميتا تماما، فكذلك يكون القرين، حالة مزدوجة تجمع بين الذات ونقيضها، ويكون المكان أيضا حالة مزدوجـة تجمع بين القديم والجديد، الحاضر والماضي، الإدراك والتذكر، ومن ثم فإنه يكون أيضا مكانا ذا روح خاصة، روحه كمكان كان يعج بالبشر والذكريات والآثار التي مُحيت ولكنها تركت وراءها روحا خاصة، روحا قد تظل تحوم في المكان، تهوم في المكان، تجيء دوما إلى المكان، ولو بعد حين، ولو بعد غياب.

المصطلحات والمفاهيم الشبحية

لم يعد مفهوم الشـبح متعلقا فقـط بتلك الكائنات الليلية المخيفة التي ترتاد بعض الأماكن القديمة الغامضة، لقد اتسـع نطاق المفهوم والتصور، وأصبـح متعلقا أيضـا، بتلك الأفكار التـي تنتمي إلى الماضـي، ثم ترود الحاضر أو تزوره، تنتابه، تحل فيه، تسـكنه، وربما تفعل ذلك بالنسبة إلى المسـتقبل أيضا، وكما أشـار دريدا في حديثه عن ماركس. ومثلما يجيء

الشــبح ويذهب، يظهر ويختفي، فكذلك شأن الأفكار والتصورات والرؤى، يمكنهـا أن تعود، وتهيم في العقول، والمعتقـدات والتصورات، هنا العقول الفرديـة أو الجماعية، أشـبه أيضا بأماكن تحضر إليهـا تلك الأفكار، أو الأشــباح، تهوّم فيها، تزورها، تتنابها، تسكنها، هنا الأفكار والرؤى أشباح هائمــة في المكان وعبر الزمان أيضا. هــذه إطلالة على بعض التصورات والتطورات الحديثة المتعلقة بمفاهيم الشبح والطيف والروح الهائمة.

لم تعد المصطلحات والمفاهيم المألوفة مثل: الشــبح، والطيف، والروح، وغيرها، تستخدم بالمعنى القديم المألوف نفسه، بل أصبحت هناك دلالات ثقافية ونقدية جديدة لها، وهناك عموما ثلاثة مصطلحات أساســية هنا، غالبا ما يحدث خلط بينها لدى الباحثين والنقاد، هي مصطلحات: الشبح والطيف والعائد بعد غياب، ونحاول فيما يلي توضيح بعض الفروق بينها:

1 - الشــبح Ghost: هــو روح الشــخص الميت (أو روح السلف أو الأســلاف)، غالبا ما اعتبر أنه يسكن عالما غير مرئي (الســفلي)، وأنه كثيرا مــا يهرب منه ويعود إلى عالم الأحيــاء (العالم العلــوي)، أو أنه روح ميــت تتجلى وتُظْهِر نفسها كي يراها الأحياء كصورة ظلية غامضة غير واضحة المعالم؛ ومن ثم فإنها تكون صورة مرئية وسمعية... إلخ.

2 - الطيــف : spectre: الأصــل اللاتيني للكلمة وهو Specere، أي «أن تنظــر إلى»، ويعرف الطيف هنا على أنه شيء يظهر، وله طابع غامض مخيف.

كذلــك يمكن ترجمة كلمة Phantom على أنها طيف، أو شــبح، أو وهم، أو سراب، أو خيال... إلخ وفق السياق. وهو مصطلح يشــير إلى شــيء ما أو شخص ما، يظهر للعين أو غيرها من الحواس، ولكن من دون قوام مادي، أي شــخص ما أو شيء ما له اسمه، ويظهر قوة التأثير الخاصة به، لكن دون طبيعة مادية خاصة به [2].

3 - العائد بعد غياب Revenant: هو شبح مرئي أو جثة متحركة يعتقد أنها عادت مــن موتها أو خرجت من قبرها

كـــي تثير الرعب في نفوس الأحيـــاء، وكلمة Revenant في الإنجليزية مشـــتقة من كلمة Revenans في اللاتينية التي تعني «العودة» (من الفعل Revinre) ويعتقد أن فكرة الخوف من ذلك الميت الحي، أو العائد بعد موته فكرة أكثر قدما في العقل الإنساني من ذلك الذي كتب عنها في الأدب القديم، ففي التراث الأكادي يرد التهديد التالي على لسان عشتار، إلهة الحب والحرب والجنس والخصوبة وعلى لسان أختها آرشكيغال (إلهة الموت والعالم السفلي) مرتين:

«سأجعل الموتى ينهضون من موتهم وسيأكلون الأحياء
وسأجعل الموتى يفوقون الأحياء عددا» [3]

ترتبـــط فكرة العودة من الموت عامة، بفكرة البعث والخلود، لكن العودة هنـــا تتم خلال الحياة الدنيا وليس في عالـــم الآخرة. والاعتقاد في عودة الموتـــى إلى الحيـــاة اعتقاد موجـــود وراء العديد من طقوس الاســـترضاء للموتى والتضحيـــة من أجل الحفاظ عليهم أو حفظهم والإبقاء عليهم في أماكنهم الأصلية. وفي كثير من حكايات عودة الموتى في القرون الوســـطى فـــي أوروبا، كانت تلك العودة تحدث من اجل الإيذاء والانتقام من عائلات هـــؤلاء الموتـــى أو جيرانهم أو كل من ألحقوا الضـــرر بهم أو قتلوهم، وتعد تلك التصورات الخاصة بالأشـــباح ومصاصـــي الدماء والزومبي (الأموات الأحياء) وغيرها - وكما تجســـدت في الأدب - تنويعات على فكرة العودة بعد الموت، العودة بعـــد غياب هذه. ومن الممكن لنا أن نضع كذلك الأفكار الخاصة بالغرابة والطيفية وغيرها ضمن هذا الإطار القديم والذي يظهر ويعود في أثواب جديدة دائما.

وفي الحقيقة، هناك صعوبة شديدة في الفصل التام بين هذه المفاهيم السائدة في مجال الدراسات النقدية الآن، حيث كثيرا ما يستخدم الباحثون كلمتين مختلفتين للإشـــارة إلى شـــيء واحد، وبمعـــانٍ مختلفة أيضا، فقد اســـتخدم باحثون أمثال غيربر كلمة «شبح» Ghost للإشارة إلى شبح والد هاملت الذي يظهر في مســـرحية شكسبير الشهيرة، أما الفيلسوف دريدا فقد اســـتخدم كلمة Spectre التي تعني «طيف» للإشارة إلى ذلك الشكل

الشبحي المتجسد ذاته، ولأنه كان معنيًا أكثر بالبعد الفلسفي والفكري لهذا الشبح أكثر من وجوده المادي أو المدرك حسيًا، كما فعل بعض النقاد؛ ومن ثم فإنه فضل استخدام كلمة «طيف» للإشارة إلى هذا التجلي والحضور الخاص لذلك الشبح.

وقد حدث الأمر نفسه أيضا، فيما يتعلق بكلمة Phantom في الإنجليزية، والتي تقابلها Phantome في الفرنسية، حيث يستخدمها بعض الباحثين بمعنى «الطيف»، ويستخدمونها كذلك للإشارة إلى الشيء ذي الطابع الغامض الذي لا يتجلى على نحو عياني أكثر تحديدا كما هي حال الشبح، في حين استخدمها البعض الآخر على أنها ترادف «الشبح»، ومن ذلك مثلا تلك الإشارة التي ترد كثيرا إلى تلك الشخصية الشبحية الإنسانية، الغامضة، «إيريك» التي تظهر وتختفي وتحدث الاضطراب في «أوبرا باريس» في رواية «شبح الأوبرا» الشهيرة للمؤلف الفرنسي غاستون ليرو، والتي أخرجت للسينما مرات عدة، كان آخرها للمخرج المعروف جويل شوماخر، وعن موسيقى أندرو ولبرت رايت.

على كل حال، يمكننا أن نقول هنا إنه من الأفضل لنا استخدام كلمة «شبح» للإشارة إلى ذلك المعنى المتعلق بالتجسد العياني وشبه المادي أو الجسمي وشبه الإنساني لتلك الكائنات الغامضة والمخيفة التي نسميها الأشباح، واستخدام كلمة «طيف» للإشارة إلى التجلي الخاص الذي يفتقر إلى القوام المحدد، وتكون له قوة التأثير الخاص على المكان والإنسان، كالطيف الخاص بالضوء، مثلا، وألوان الطيف، والحضور الطيفي للأشياء والأشخاص، وأيضا - وعلى نحو أكثر تحديدا - حضور أفكار الماضي وتصوراته ومعتقداته وأشكال سلوكه في الحاضر والمستقبل، على نحو طيفي، على نحو يشبه الزيارات المتكررة والانتياب والمراودة، وهذا هو المعنى الذي يفضل دريدا وأتباعه من التفكيكيين استخدامه في هذا السياق، ونفضله معهم أيضا.

ونحن نعتقد أن هذا التمييز بين مفهومي «الشبح» و«الطيف» صالح أيضا للتمييز بين نسق قديم من التفكير ونسق جديد منه، وصالح للتمييز أيضا بين مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة، فالحداثة تؤمن

بأهميـــة العقل والنظام والتحديد الأقرب إلى العلم والواقع؛ ومن ثم فهي الأقرب إلى النســـق المغلق، إلى الأشياء المجسدة المتعلقة بالعلم الوضعي والإدراك البصـــري المحدد، في حين تؤمـــن ما بعد الحداثة باللاتحديد، وانعدام الثبات، والتغير الدائم، وجوهرية الخيال؛ ومن ثم فهي أقرب إلى النســـق المنفتح، هكذا يكون الشـــبح محددا أقرب إلى الشكل الإنساني، ويمكـــن تمييزه، كما تكون الأماكن التي يقيـــم فيها محددة (البيوت)، في حـــين أن الطيف لا شـــكل له، أقرب إلـــى عالم الأفـــكار، وموطنه العقل والأفـــكار، وهو الأقرب إلى الروح الهائمـــة بين الأزمنة والأمكنة أكثر من الشبح إلى حد كبير.

الأشباح في الأدب

يقوم الشـــبح الذي يهيم في المكان بوظيفـــة التذكير، بوجود أزمة فـــي التمثيل، «تذكرني»، أي أن دوره هنا قريب من دور «الجليل»، ذلك الذي ينشـــأ عن انهيار التمثيلات لدى كانط. هكذا يظهر الشـــبح كي يذكرنا بوجود أزمة في التمثيل أو التصور للأشياء والأفكار؛ وذلك لأن أي نـــص أو أي عمل إبداعي ينبغي ألا يحاكي الواقع بطريقة حرفية، لكنه قد يكون لديـــه هدف خاص متعلق بإعادة بناء هذا الواقع أيضا بطريقة جديدة قد يصعب تمثلها، وتمثيلها، في البداية خاصة عندما «يضطرب الزمن» ويصبح كل شـــيء «ليس كمـــا ينبغي أن يكون» كما أشار هيغل.

هكـــذا يكون جانـــب كبير من قوة إحـــداث الاضطـــراب - المتمثلة في الأشباح - مســـتمدا من حقيقة أنها تنشط عند المستوى ما قبل الشعوري، الخـــاص بالنصـــوص، أي عنـــد ذلك المســـتوى الموجود بـــين الوعي وعدم الوعـــي، الأنا والآخر... إلخ، تلك المنطقـــة البينية الخاصة، الموجودة، وبين الحضـــور والغياب، التجلي والخفاء، أو قد يمكن النظر إلى هذه الأشـــباح على أنها مهمة في ضوء المســـتوى الخاص بســـيميوطيقا اللغة - كما لدى جوليا كريستيفا. وحيث اللغة تؤثر بقوة في الرؤية للواقع، وكذلك في البناء للثقافـــة، ومن ثم البنـــاء للهوية، وفي الخطاب المميز للـــذات، إيجابيًا كان

أو سلبيًا، أدبيًا كان أو سياسيًا... إلخ. ولا تكون بنية اللغة في الغالب بنية عقلانية؛ وذلك لأنها - بدورها - كثيرا ما تسكنها قوى ما، تهدف إلى تدمير بنيتها، أو تقويضها، ويُظهر الجسد الترقيعي للشبح - كنص - هذين الجانبين، جانب البناء وجانب الهدم المتمثلين في اللغة. حيث تحضر الروح الشبحية على نحو خاص في تلك المنطقة المتداخلة التي تقع ما بين الهدم والبناء أو تلك المساحة الثالثة The Third Space، كما يقول بعض النقاد، وحيث تتحرك أشباح كثيرة ما بين الواقع والنص وبالعكس. هكذا يعود مفهوم «روح النص» القديم، ولكن في شكل جديد، شكل يكون له فيه من خلاله، مادية قد تفوق ماديته السابقة.

لقد كان الموقع المفضل للأشباح، في الأدب التقليدي، هو المنازل، وقد نقل الإنتاج الأدبي المعاصر «المنزل المسكون بالأشباح» وحَوَّله إلى «بنية» عامة، بنية يمكن تطبيقها على أي سياقات اجتماعية أو تاريخية أو ثقافية أو أدبية، وهكذا أصبحت الأشباح - بالمعنى الحديث - لها المعنى التقليدي الخاص بالأشباح المخيفة المرتبطة بالماضي والموتى، وعالم الظلام والغياب، ولها أيضا المعنى الحديث الخاص بكل ما يتعلق بالماضي والموتى - جسديًا فقط - من الأفكار أو المفكرين أو الأدباء أو الفترات التاريخية، لكنه ذلك الماضي الذي يظل أيضا برغم غيابه، يعود ويسكن البيوت/ الأفكار/ الأنظمة الاجتماعية الجديدة؛ ومن ثم تظل هذه الأفكار الأشباح مخيفة، لأنه في ذلك الوقت الذي نظن فيه أنها نُسيت أو كُبِتَت، نجدها قد عادت وسكنت البيت، وأصبح وجودها، ربما مخيفا وغريبا.

هكذا قد تكون البنية العامة الخاصة بالغرابة، من حيث جمعها بين المألوف وغير المألوف، ومن حيث ارتباطها بالبيوت، ومن حيث عودتها المتكررة بعد الغياب، هي البنية العامة المميزة للأشباح أيضا، تلك التي تجمع بين الغياب والحضور، الموت والحياة، كذلك من حيث سكناها المنازل، من حيث تكرار ظهورها، من حيث تهديدها الدائم للمألوف والأليف والمستقر، من حيث إمكان أن تصبح مألوفة مرة أخرى، على الرغم من غرابتها، غير المألوفة هذه.

هكـــذا يكون الشـــبح هنا - وفي ضوء الدراســـات النقديـــة والثقافية الحديثة - ليس ببســـاطة شـــخصا ميتا أو مفقودا يعود إلى الحياة؛ ولكنه صورة اجتماعية، رمز اجتماعي، علاقة، فكرة، يمكن - من خلال فحصها - أن تقودنـــا نحو ذلـــك الموقع المفعم بالدلالات، والـــذي يقوم فيه التاريخ والذات بصناعة الحياة الاجتماعية وصياغتها.

وغالبا ما تكون الأشـــباح في الأدب ذات أشـــكال مخيفة، غرباء ينبغي في النهاية طردهم، من أجل أن يحافظ المجتمع على نظامه ومجموعة قيمه، ويرجع جانـــب من الاضطراب الذي تقوم به هذه الأشـــباح إلـــى طبيعتها «البينية»، أو الحدية، أو المزدوجة، فهي أشبه بحالة وسطى ما بين الحياة والموت، وهي تسكن حيزا مكانيّا يقع بين مكانين (الداخل والخارج)، أو زمانين (الحاضر والماضي)، أو حالتـــين انفعاليتـــين، أو حالتين اجتماعيتين (الاســـتقرار والاضطراب)، أو عمليتين معرفيتين عامتين (الشـــك واليقـــين)، إنها انتقاليـــة الطابع، «بينية» الحضور (الأمن والخوف). ومن خلال وضعها الخاص هذا، تســـتطيع الأشباح أن تطرح التســـاؤلات، أو تدفع الآخرين إلى طرحهـــا. وفقا لما قاله دريدا، فإن الطيف أو الشـــبح - بطبيعته - غالبا ما يتســـم بأنه «يعاود الظهور دائما بعد غياب»، وإنه من خلال عودته المتكررة هذه يؤسس نوعا من الموازاة الافتراضية بين الماضي والحاضر، من خلالها تكون تلك العلاقة بينهما شـــبحية وخلافية، ويحدث هذا إلى ذلك الحد الذي تكون عنده حالات وتجليات متنوعة ومختلفة تنتمي إلى الماضي متعايشـــة معا، داخل هذا الحاضر، كما قد يتم إسقاط تلك العلاقات الإشـــكالية بين الماضي والحاضر على المستقبل أيضا[4]. هكذا يزور الشـــبح ذلك المكان الخاص الموجود بين أزمنة مختلفـــة: الماضي والحاضر، أو الحاضر والمســـتقبل، ويزور أيضا الأماكـــن الخاصة بهذه الأزمنة أيضا، وحيث لا انفصال بين الزمان والمكان في ضوء ما علمناه من باختين وقبله أينشتين.

أماكن ترودها الأشباح

وليســـت الأماكن المعزولة والبيوت المهجورة والمقابر والأديار الصامتة هي فقط الأماكن المســـكونة بالأشباح، حيث يمكن اعتبار المدن الحديثة أماكن مســـكونة أيضا، أماكن ترودها الأرواح والأشـــباح، أماكن يزورها

الآخر ويسكنها، أماكن ليست أليفة على الرغم من كل مظاهر الألفة الموجودة فيها، وعلى الرغم من كل تلك الطرق الممهدة المألوفة منها، لكنها التي تفاجئنا بحوادثها غير المألوفة، وكذلك كل تلك الإضاءة المألوفة فيها، لكنها التي تنقطع أحيانا وتختفي في بعض الأماكن أحيانا أخرى فتصبح غير مألوفة، حيث وجود رجال أمن ومسؤولين ينبغي أن يحققوا الأمن والأمان للسكان، فإذا بهم أحيانا يصبحون أحيانا فاسدين؛ ومن ثم يصبحون مسؤولين عن حدوث التهديد والاضطراب وغياب الأمن والأمان.

وتكون الهوية غير المستقرة أو المتزنة - خلال هذا النوع من الأدب - شديدة الصلة بفكرة المتاهة الخاصة بالمدنية وسكانها المحتشدين المزدحمين، هنا نجد حالات الازدواج والثنائية، وانقسام الشخصيات وتعددها، هنا نجد التحولات الجسدية، وحالات اضطرابات الهوية، والأقران، والأشباه، ونجد كذلك تجليات هذه الحالات في تلك الانقسامات والتصدعات والشقوق المعمارية والجغرافية والاجتماعية في المدن. هنا نجد انفعالات الخوف والقلق والشعور بالتهديد والرعب والغرابة وروح الانحراف التي اهتم بها إدغار آلان بو على نحو خاص.

في قصة «ليجيا»، للكاتب إدغار آلان بو[5]، نجد أن الراوي بعد موت زوجته يشتري ديرا قديما في أحد الأماكن الغريبة النائية في إنجلترا، ويحسّنه من الداخل، لكنه يتركه من الخارج على حاله، ويدمن الأفيون، ويتزوج مرة أخرى، ثم يتساءل: كيف سمح أهل تلك العروس الجديدة لها - نتيجة طمعهم في ماله - بأن تزف في مكان كهذا، في غرفة أعلى الدير، ليس بها أي نظام، تقع في برج الدير العالي المبني على طراز القلاع، المخمسة الزوايا، الفسيحة الأضلاع، «في الجهة الجنوبية هناك نافذة وحيدة، تتكون من لوح كبير من بلور فينسيا غير القابل للكسر، لونه رصاصي، عندما تنفذ منه أشعة الشمس أو القمر تلون الأشياء بلون شاحب أصفر. وفوق النافذة تمتد عريشة قديمة تتسلق جدران البرج الضخمة، وكان سقف الغرفة من السنديان القاتم اللون، مرتفعا جدا، وعلى هيئة قبة، منقوشا بأغرب أنواع النقوش التي تشبه النقوش القوطية

والغاليَّـة، ومن قمة هذه القبة تتدلى سلسـلة ذهبية تنتهي بمبخرة ذهبية ضخمة من الطراز الإسلامي، لها عدة ثقوب مرتبة بشكل يخيل للرائي أن نارا متعددة تندلع منها وهي تتلوى كالأفعى».

ثـم يسـتغرق الراوي فـي وصف مـا تحويـه الغرفة مـن أرائك وشـمعدانات ذهبية وسـرير من الأبنوس الصلب يرتفع فوقه سـرادق أشـبه بأغطية الموتى. «وفي كل زاوية من الزوايـا يجثم ناووس ضخم من الجرانيت الأسود، من قبور الفراعنة في الأقصر، بأغطيتها الأثرية المـلأى بالنقوش التذكارية». ثم يصف جدران الغرفة وسـتائر نافذتها، ويتوقف أمام الغرابة الخاصة بهذه السـتائر، حيث كانت تلك السـتائر «تبدو لمن يجتاز العتبة ذات مظهر قائم بشـع، ليس إلا، لكن هذا المظهر يأخذ بالتلاشـي تدريجيّا بعـد كل خطوة، وكيفما تحـرك الناظر في أنحاء الغرفة تطل عليه بشـكل جديد، حتى يجد نفسـه محاطا بتتابع أشكال مرعبة مسـتوحاة من خرافات النورمانديين، أو بصور الرهبان المحكومين بالنوم الأبدي. ويزيد هذه الأشـكال رهبـة، ويجعلها تتموج وتتغير بسـرعة، مرور تيار هوائي خلف الستائر، مما يخلق جوّا مرعبا مزعجا في الغرفة كلها».

هكذا يصف بو تفاصيل الغرفة التي أمضى فيها الراوي الشـهر الأول من زواجه، ونحن نلاحظ أن وصفه ينتقل تدريجيّا من المكان الخارجي إلى المـكان الداخلي، ثم في انتقاله إلى المكان الداخلي يصف بعض التفاصيل العاديـة فيه، والمألوفة، على نحو محايـد، ثم ينتقل تدريجيّا إلى تفاصيل الأثاث المرعبة، وهي تفاصيل مسـتمدة من عالم الموت والخوف، كما في إشارته إلى النواويس الفرعونية، وأيضا الستائر المتغيرة الألوان والأشكال المرعبة. ثم إن الراوي يصف أحيانا تلك السـاعات السيئة المشؤومة التي قضاها مع زوجتـه الجديدة على الرغم من جمالهـا الخارجي الواضح، ثم يسـرد كيف أصبح عدوانيّا شـرس المزاج إزاءها، حتى صارت تخشاه وتتجنبه، وكيف كرهها - كما قال - «كُرها» يمت إلى الشـياطين أكثر مما ينتمي إلى عواطف البشـر، إنها الكراهية نفسـها التي عبر عنها الراوي تجاه الحيوان الأليف في قصة «القط الأسـود»، حيث لا يستطيع الراوي

فــي القصتــين أن يألف من يألفه، ثم إنه يتذكر كثيــرا زوجته القديمة - ليجيا - ويســتغرق في تعاطي الأفيــون، ويناديها خلال الليل، كأنما يريد إعادتها إلى الحياة.

ثم تمرض الزوجة الجديدة، وخلال لياليها القلقة نتيجة الحمى وارتفاع درجــة حرارة جســدها، تتحدث - وهي بين اليقظــة والنوم - عن أصوات وحــركات في البــرج، ويعزو الراوي ذلك إلى تشــوش عقلها، وكذلك تأثير الغرفة وأشباحها المتغيرة في ستائرها، ثم تشفى هذه الزوجة، لكنها تصاب بالمــرض من جديد، وفي هذه المرة يكون المرض شــديدا وطويلا، كما أنها تتحدث أيضا عن أصوات سمعتها، وحركات رأتها، وخلال محاولة نفيه تلك الأمور يشعر بمرور شيء خفاق غير منظور بخفة وسرعة بجواره، ثم «وعلى الســجادة الذهبية تحت ضوء المجرة الســاطع رأيت ظلا، ظلا شفافا غير محدد، في هيئة ملائكية، وكأنه ظل لظل. لكني كنت فريســة جرعة أفيون مضاعفة، فلم أمنح هذه الحوادث اهتماما كبيرا، ولم أحدث عنها». وتسقط قطــرات حمراء كالياقوت أو الدم في كأس كانت الزوجة المريضة تشــرب منها، ثم تتدهور صحتها ســريعا بعد ذلك وتموت، وخلال الليلة الســابقة على دفنها يســتمع الراوي لصوت ضعيف يصدر عن الســرير الأبنوســي، ســرير المــوت كما قال، ثم يرى حمرة خفيفة قد علــت خدي زوجته الميتة، وتسري في عروق جفنيها، ويتجمد الراوي من الرعب، ويعتقد أنهم أسرعوا في إعدادها للدفن، وأنها لاتزال حية، يتجمد في مكانه، لا يستطيع مغادرة الغرفة طلبا لمســاعدة من الخدم؛ ومن ثم فإنه عزم على أن يحاول بنفســه «مســاعدة الروح التي لاتزال تحوم»، لكن خلال لحظات «اختفى اللون من الخدين، وعاد وجهها أكثر شــحوبا من الرخــام، وعاد إليه جمود الجثث». ثم بعد ساعة، عادت الحياة إلى الجثة المسجاة، انفرجت شفتاها عن صف من الأســنان اللؤلئية، تورد خداها وعنقها، وغمرت الحرارة جسدها، وبدأ القلــب يخفق، وأراد أن يســاعدها، لكن فجأة - مرة أخرى، وفيما يشــبه إجبار التكرار - تغلب الموت على الحياة، ســكن الجســد وهمد، ثم تكررت عودته إلى الحياة، ثم موته، وقد كانت «كل عودة ســريعة إلى الحياة تتبدل بموت أكثر جمودا وبشــاعة، وكان كل نزع جديد يشــبه الصراع ضد خصم

لا مرئـي، ويعقـب كل صراع تغير في الشـكل»، ثم تدب الحيـاة بقوة في الجثـة الميتة فتتحرك، وتغادر سـريرها، وتتقدم نحوه كشـبح، قام الراوي بالتحديق فيه.. كانت قامة الشبح أطول من قامة زوجته الثانية. هنا يتقدم هو نحوها، ويزيح الكفن الذي يغطيها، وهنا ينهمر في فضاء الغرفة شلال غزير من الشـعر الطويل المشوّش. كان أكثر سـوادا من أجنحة الليل حين ينبت ريش الغراب! حينئذ رأيت الوجه الذي كان قبالتي يفتح عينيه شـيئا فشيئا. هنا يرى العينين السوداوين الواسعتين، عيني ليجيا، زوجته الأولى، حبه الضائع القديم، وقد عاد مرة أخرى إلى الحياة، ولكن في هيئة شـبح[6]، مثلما عادت شقيقة الراوي في قصة «سقوط بيت أشر» على هيئة شبح أيضا، وفي الحالتين كان وصف المكان دافعا ومحفزا لإثارة مشاعر الخوف في النفوس؛ ومن ثم تمهيدها لاستقبال تلك الأشباح الليلية المخيفة.

لقـد تمتع إدغـار آلان بو - كما قال بودلير - «بتلـك العبقرية التي لا مثيل لها، وهذا المزاج الفريد الذي أتاح له أن يصور بطريقة فائقة، آسرة، مرعبة، كل ما هو غريب واسـتثنائي في نظـام الحياة والفكر». وقال عنه أيضـا: «وكثيرا ما تفاجئنـا فلتات رائعة من الكلام والضـوء واللون فيما يقدمه لنا، ونلمح بغتة مدنا شـرقية وهندسـات تظهر في أقاصي آفاقه، ضبابية على البعد، حيث الشـمس تمطر الذهب، وحيث الغرابة جزء من الجميـل لا يتجزأ»[7]. وقـد كانت لدى بو نزعـة إحيائية واضحة تجعله يقيـم علاقات دائمـة بين عالمي الموت والحياة، فالمـرأة في قصة «اللوحة البيضاوية» أكثـر حيوية وحياة من تلك المرأة خارجها والتي أصبحت جثة هامدة، و«ليجيا» تعود من الموت إلى الحياة، و«القط الأسـود» يعود كذلك إلى الحياة بعد دفنه، وتعود أخت الراوي في «سـقوط بيت أشر» في نهاية القصة إلى الحياة أيضا، ولكن في صورة شبح واهن مرعب.

الروح الهائمة الحديثة

بعـد اللقاء الأول الذي حدث بين هاملت وشـبح أبيـه المقتول غدرا، قال هاملت إن الزمن الذي يعيش فيه «قد اضطرب»، وهذا الشـبح وذلك التعبير مهمان جدّا في تفسـير ما يريد النقاد قوله هنا حول تلك الطبيعة

الفكرية والأدبية للأشــباح، وكذلك حول ما يتعلــق بمفهوم الهوية، والأنا، والآخــر، والازدواجية، والمركز، والهامش، والوافــد والغريب، وغيرها من المصطلحات والمفاهيم المستخدمة الآن في النظريات الثقافية المعاصرة.

ووفقا لما قاله دريدا في «أطياف ماركس»، فإنه تتجلى لدى هاملت فعلا علامــات «الوعي القلــق» بأن الزمن مضطرب، أو أنــه ليس كما ينبغي أن يكون، كما قال هيغل، «حيث الطيفي قد يحل بنفسه كحركة تاريخية خاصة به، بل إن مراودة الأشباح والأطياف أو حلولها قد تكون هي المميزة أكثر من غيرها لوجود أوروبا نفسه». إن مأساة الأمير الدنماركي، هاملت، قد تتعلق . في جوهرها . بوجوده داخل ذلك الشــعور باســتحالة حل تلك الصراعات التي خلقها طيف والده في عقله، حيث لا يوجد حل في المسرحية، لا يوجد حل نهائي تم الوصول إليه، بل إنه ربما كان ما حدث هو أن أعيد تأســيس النظام أو ترسيخه من خلال ذلك الأثر التطهيري الخاص بمحاولة الهزيمة للشــر، ومن خــلال عمليات المــراودة والتردد والشــبحية وتداخل الأزمنة والأمكنة والأفكار وغيرها التي تظهر في المسرحية.

في المشهد الخامس من مسرحية «هاملت» يخاطب الشبح هاملت قائلا:

«أنا روح أبيك، وقد حكم عليّ بأن
أطوف في الليل زمنا وفي النهار،
بأن أتضور جوعا في اللهب
إلى أن يحترق ما اقترفته في حياتي الدنيا من آثام،
فأطهر منها
ولوم يخطر علي إفشاء أسرار سجني؛
سردت على مسامعك قصة،
أخف لفظة فيها تعذب نفسك وتجمد دمك الفتي»
ثم يطالب شبح الأب ابنه هاملت بالانتقام قائلا
«وداعا، وداعا، ياهاملت، لا تنسني» [8]

وفي ترجمة أخرى يقول الشبح لهاملت: «هاملت، تذكرني، لا تنسني». هكــذا يقول الشــبح لهاملت. ولماذا يركز الشــبح علــى التذكر، وعلى الذاكرة؟ يتســاءل دريــدا، ويجيب بأنه من دون التذكــر والذاكرة لن تكون

هناك أشــباح؛ لأنه مــن خلال التذكر والذاكرة تحضر الأشــباح، لأنه من خلال التذكر، للأب، للآخر، للغائب، أيّا ما كان، أو الحاجة لتذكره، التصور لتذكره، أو تذكره في ضوء آليات الذاكرة التي تحدثنا عنها، تحضر الأشباح، تحضــر في ضوء ما نريده منها أن تحضــره إلينا معها في ضوء ما غاب، كذلك ما نحاوله من خلالها، ما نسعى إليه كي تعيد التوازن والاتزان لذلك الزمــن الذي اضطرب، ولذلك الواقع أصبح «ليــس كما ينبغي أن يكون»، ما يغيب عنا ونتمناه. وهكذا فإن اســتحضار الأشباح والأطياف من خلال الذاكرة يتضمن أيضا نوعا من إعادة التعريف للمعرفة والثقافة، وبأشكال خاصة جديدة.

عندمــا تأمل دريدا فكــرة الطيف، وجد أنه لا يمكــن التفكير في أي نسق أخلاقي أو فكري أو سياسي... إلخ، سواء أكان ثوريا، أم لم يكن، من دون أن نــرى داخله، في جوهره، تلك التأثيرات الخاصة بالآخرين، هؤلاء الذيــن، ربما، لم يعودوا موجودين الآن، هنــا أو هناك، حيث إن تأثيراتهم قــد تحدث الآن، في الأحياء، وربما في الذين لم يولدوا بعد أيضا. وهكذا ووفقــا لما قاله دريدا فــإن بعض أفكار ماركس، التــي اعتقد البعض أنها قد مارســت تأثيرها ثم فشــلت، أفكار قد تعود في المســتقبل، وبأشكال جديدة أكثر ديموقراطية، ربما لم يفكر فيها ماركس نفســه، هنا لا تصبح الغرابــة أداة للرعب والقلق؛ بل أداة للتفكير - كما قال مارتن جي - وذلك من خــلال الابتعاد عن تلك الرؤى الطيفية الغامضة المتعددة. وهنا تصبح الغرابة ليست مجرد تخييلات نرجسية، بل تغدو نوعا من الاستعادة للبيت والإنقاذ له [9].

وهكــذا لم تعد الغرابة في النقــد الحداثي وما بعد الحداثي، كما قالوا توا، معنية أكثر بفكرة الشــبح أو الــروح الهائمة بالمعنى القديم، الذي يتعلق بأشــباح الموتى الفعليين وأرواحهم التي تغادر قبورها وأماكن رقودها وتعود لتهوِّم وتطوف وتحوِّم وتســكن البيــوت والأديار والقصور والحقول وغيرها، كمــا أنها لم تعد معنية كثيرا بفكرة المتســكع؛ كما اهتم بهــا بودلير وفالتر بنيامين. لا، ليست هذه الأشباح الغامضة هي جوهر الاهتمام النقدي الآن؛ بل الأشــباح والأطيــاف والأرواح بالمعنى الثقافي والفكري والســيكولوجي،

وخاصة كما تجلى هذا المعنى لدى إبراهام وتوروك في دراستهما عن حكاية «الرجل الذئب» التي وردت لدى فرويد، ثم كما تجلى لدى دريدا والمدرسة التفكيكية بعد ذلك، وكما أوضحناه في هذا الفصل على نحو خاص.

وليس المهم في الأشباح، هنا - كما تقول أفيري غوردون - الجانب المرئي منها؛ بل الأثر الذي تتركه، ليس المهم شكلها المادي؛ بل الجوهر الخاص بها والدلالة، قدرة الشبح - أو الفكرة - على أن يكون له حضور واقعي في الحياة، أن يلفت الانتباه إليه. ما هو مهم هنا هو أن عملية المراودة أو الانتياب أو حلول الأشباح في محل ما، مكان ما، عملية تدل على أن ما تم كبته أو إخفاؤه، أو جعله سريا أو بعيدا عن الرؤية والإدراك، قد أصبح الآن مفعما بالحياة وحاضرا، ومتداخلا، وربما مشتبكا مع كل تلك الأشكال غير الكاملة للاحتواء والكبت والقمع الموجهة - على نحو مستمر - نحو الإنسان [10]. هنا يكون الانتياب ميدانا للاضطراب وتأجج المشاعر، خاصة عندما يشعر الفرد/ الأفراد بأن كل شيء ليس في مكانه الصحيح، عندما تظهر الجروح والقروح والشقوق والفراغات والفجوات في الواقع الاجتماعي، وتتجلى مرئية، هنا وهناك، عندما يظهر الأفراد/ الجماعات الذين قصد في الماضي أن يصبحوا غير مرئيين، عندما يظهرون ويتجلون من دون أي علامة على أنهم ينوون المغادرة، عندما يصبح من الصعب أو المستحيل إبعاد المشاعر المضطربة، عندما يظهر شيء آخر ما، شيء مختلف عما كان موجودا من قبل، ويرغب في أن يحل محله. هكذا قد يشير الانتياب إلى حالة اجتماعية ونفسية [11]، مفيدة في تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية على حد سواء.

الأصول الفلسفية لفكرة المراودة

لا بد لنا أن نعود هنا إلى بعض الأفكار المهمة المتعلقة بفكرة الروح الهائمة، وروح العالم، وروح المكان، التي تعود دائما وتهوم وتحوم في مكانها، كما وردت هذه الأفكار، على نحو خاص، لدى المفكر الألماني ماكس شتيرنر (1806 - 1856).

إن المعنى الأصلي للانتياب، الزيارة، المراودة هو أن يحصل المرء، أو الشبح، على بيت، أن يدخل بيتا، بيتا يخصه، أو بيتا يحضر فيه كضيف أو زائر، أو بيتا يقتحمه كدخيل أو لص أو غازٍ... إلخ. ومثلما نقول كذلك «روح العصر»، ونعني بها الطابع الفكري والفلسفي والفني والثقافي عامة السائد في عصر ما، فكذلك هنا «الروح» أشبه بشبح مهيمن على العصر، بحيث إنك قد تجد تجليات لهذه الروح في الفن والفلسفة والأدب مثلا، لكنك لن ترى هذه الروح نفسها؛ لأنها بطبيعتها شبحية الطابع، تذهب وتجيء، تسكن وتغادر، تحضر وتختفي.

كان ماكس شتيرنر أكثر المفكرين الهيغليين الشباب راديكالية، وقد كان يشعر بالاضطراب على نحو كبير من الأشباح، حيث نظر شتيرنر إلى الوعي المعاصر على أنه وعي تزوره الأشباح والأرواح، وتسكنه، وتقوم بتغريبه أيضا. وقد كانت هذه الأشباح - في رأيه - هي الأفكار الثابتة الجامدة، التجريدات الميتافيزيقية، مثل: «الجوهر الإنساني»، و«العقلانية»، و«الأخلاقية»، والتي تم رفعها - كأفكار - إلى المستوى المطلق الخاص «بالمقدس»، فالأفكار الثابتة الجامدة هي تكوينات فرضية، مفاهيم، تصورات، تتحكم في التفكير، وهي أنماط من الخطاب المغلق والنماذج المطلقة التي تنكر الاختلاف والتعدد، إنها تعميمات تصورية تحاول أن «تمثل» الفرد أو تتحدث بالنسبة إليه أو بالإنابة عنه، ومن ثم فإنها تقوم بتغريبه، بإبعاده، تصغير شأنه وإنكار فرديته وتفرده في مقابل الدور الأكبر المنسوب إلى تلك الأفكار المطلقة. هكذا أُحبط الإنسان المعاصر - كما يقول شتيرنر - وتم تغريبه، تم جعله مغتربا، بوساطة ذلك العالم الشبحي الخاص بالأفكار الجامدة الثابتة، الذي قام الإنسان نفسه بابتكاره، وخلقه حتى يتكيف من خلاله، ويسيطر بوساطته على حياته، فإذا به يجد أن تلك المفاهيم قد أصبحت تسيطر عليه وتبعده، وتنفي تفرده. وهكذا - كما قال شتيرنر - فإن كل شيء يبدو في شكل صورة متوهمة خاصة بروح تسكنه، هو «طيف» شبحي، هكذا يكون العالم بالنسبة إليك هو «عالم من المظاهر، التي تتجول الأشباح خلفها» (12).

وما الروح التي تسكن وتتجول خلف العالم المادي، وتحول كل شيء إلى مظاهر، أو تمثيلات لشيء ما أكثر جوهرية؟ يقول شتيرنر في أن هذه الروح هي «الجوهر»، أي ذلك التعارف أو الاتفاق على أن الإنسانية ينبغي أن يكون

لها «جوهر واحد»، مركز واحد، مبادئ أخلاقية أساسية، وعقلانية أساسية تعكس، ذلك، الوجود العام للإنسان. إن هذا هو ذاته ما يجعل الإنسان غريبا ومغتربا في رأي شتيرنر، لماذا؟ لأن الجوهر الأخلاقي وكذلك العقلاني، إنما، يطرح هنا كأنه مثال مقدس، شيء ينبغي أن يسعى الإنسان دائما إلى الوصول إليه، لكن ذلك الإنسان لا يستطيع غالبا أن يصل إلى هذا المثال؛ ومن ثم فإنه يتفكك وينقسم إلى: ذات واقعية تسعى، وذات مثالية يُسعى إليها، ذات عيانية محبطة ومزدوجة في الواقع، وذات أخرى أشبه بالمستحيلات. وهكذا تتحول المثل الأخلاقية والعقلية إلى أشباح أيديولوجية يخضع لها الفرد، وإليها يسعى، لكنه لا يستطيع أبدا، أن يصل إليها، ومن ثم فإنه يشعر دائما بأنه مقموع، منقسم مزدوج، وأنه قد اغترب عن ذاته.

هكذا يكون لهذا العالم الذي نعيش فيه طابع الغرابة، إنه عالم مسكون بالأشباح التي تسكنه وتتحول فيه، وتتجول على نحو أعمق فأعمق، عالم زاخر بالأشباح التي تحركه وعلى نحو يشبه عالم فرويد الغريب، وأشبه كذلك بتلك الصورة التي قدمها عن أعضاء الجسم وأوصاله المتقطعة، والتي تظل أيضا – على الرغم من ذلك – تتحرك وترقص (من الألم)، كأنما تحركها قوة داخلية غير مرئية. هكذا، «فإن القداسة أيا ما كانت تكون غريبة، ففي أي شيء مقدس هناك جانب من الغرابة التي لا نشعر معها بالألفة التامة أو بأننا في «بيتنا»، كما أشار إلى ذلك شتيرنر، وبعده هيدغر أيضا، ومن ثم يكون الإحساس الغالب علينا هو القلق».

وما ذلك الإحساس الخاص بالقلق الذي شعر به شتيرنر؟ وما تلك الحالة من انعدام الألفة التي تكمن في المألوف؟ إنها شيء خاص بتلك الغرابة الملازمة للعالم، بأنه يشبه شيئا آخر، شيئا اعتقدنا أنه قد اختفى، مات، أو نُسِيَ، إنه شيء يتعلق بالشعور بأنه «كأن» هذا العالم قد أصبح مسكونا بقرين غريب له، شيء يعود من الماضي ويسكنه، شيء غير مألوف ولا مبالٍ، لكنه، مع ذلك كله، شيء مألوف أيضا، شيء يتكرر، شيء يكرر ذاته على نحوٍ غريب.

وهكذا ربط شتيرنر - على نحو محدد - بين الأشباح التي تسكن العالم، أطيافه، التي تعود دائما إليه وتسكنه، والآثار المتبقية من المسيحية، والتي تعود في أشكال أو أقنعة جديدة، حيث وجد داخل ما سمي بالفكر

الرومانتيكـي أشـباح الأفكار الدينيـة الخاصة بغموض الكـون وخفائه، وجدها تعود في شـكل خاص بعقلانية عصر التنوير والنزعات الإنسانية، أي من خلال أشكال الخطاب نفسها التي كان يُفترض منها أن تستبعد تلك الأفكار القديمة. بمعنى آخر، إن أشـباح النزعة الإنسـانية أشباح غريبة، وذلـك لأنها مَثَّلَتْ عودة إلى المثالية المسـيحية، تلك التـي كُبِتَتْ أو أُبْعِدَتْ أو حتى نُسـيت في أوروبا كما قال. وهكذا فإن شـبح «الجوهر الإنساني» غريب جدا بالنسـبة إلى شتيرنر، لأنه غير مألوف، ولكنه مع ذلك، مألوف أيضا، إنها الأفكار الدينية ذاتها، ولكن في شـكل إنسـاني متجدد، وتكون آلية إحلال القديم محل الجديد، واسـتبداله به، الإحلال والاستبدال هنا، هي الآلية التي تحدث من خلالها الغرابة.

لقـد دخلت الأفكار القديمة - هكذا - داخل الإنسـان، لم تعد موجودة، خارجـه، في عالم مـا وراء الطبيعة، لقد أصبحت موجـودة داخله، وهكذا أصبح هذا الإنسـان نفسـه شـبحا، أو على الأقل مكانا تسكنه الأشباح، لم تعد الأشباح الخارجية هي التي تخيفه فقط، بل أصبحت تصيبه الرعدة من أفكاره هو، من أشـباحه هو، لقد أصبح هو نفسه يخيف نفسه. هكذا أصبح الإنسـان قرينا غريبا لذاته، ففيه يتجسد المطلق والمحدود، الكلي والفردي، هكذا أصبح الإنسـان يتصـرف كأنه المتحكم في كل شـيء، القادر على كل شـيء، لقد اجتاز الحدود واغترب، وفقد ذاته الأولى الأصلية، أصبح غريبا حتى عن نفسه، وأصبح روحا تهوِّم داخل ذاته، مثلما تهوِّم داخل هذا العالم، ويهوِّم بداخلها أيضا.

وكان لأفكار شـتيرنر هذه تأثيرها الواضح في تفكير ماركس، فجعلته يعيد النظر في تلك الافتراضات المسـبقة المثالية في كتاباته المبكرة حول الجوهر والجنس البشري والتي كان قد استمدها من فويرباخ. ومثلما انتقد شتيرنر أفكار ماركس، فقد انتقده ماركس بشدة أيضا، حيث أشار - ومعه إنغلز - في «المثالية الألمانية» إلى أن النقد الفلسفي الألماني منذ شتراوس حتى شـتيرنر قد شغل نفسه كثيرا بنقد المفاهيم الدينية، وأهمل الاهتمام بالمادية الملموسـة المحسوسـة الخاصة بالعالم؛ وأنهم بشغل أنفسهم بنقد الأفكار فقط، يصبحون هم أنفسـهم من أصحاب الأفكار فقط، يصبحون

مثاليين جديرين بالنقد أيضا. هكذا صنع شتيرنر نفسه - كما قال ماركس - عالما من الأشـــباح خاصا به، ونظر إلى العالم على أنه أشبه فقط بصراع يدور بين الأشباح.

وفـــي كتابه عن «الأنا وكينونتها The Ego and its Own» يقول شـــتيرنر: انظر هنا وهناك، في ذلك العالم، وتساءل: ألا توجد روح في كل شيء حولك تحـــدق فيك! ففـــي كل زهرة صغيرة تتحدث إليك، هنـــاك روح الخالق الذي شكلها على نحو جميل، كذلك تومئ النجوم وتشي بالروح التي توجد وراء ذلك النظام كله، ومن قمم الجبال تهبط روح الجلال إلى الأرض، ومن المياه تصعد روح تواقة إلى الخرير، ومن أعماق البشـــر تتحدث ملايين الأرواح، قد تغرق الجبال، وتشـــحب الزهور، وتســـقط نجوم العالم وتتحطم، ويموت الإنسان. فماذا يبقى خلف حطام كل هذه الأجسام المرئية؟ إنها الروح، تلك الروح غير المرئية، التي تســـكن الخلود! نعم، العالم كله مسكون بالأرواح! مسكون فقط؟! مســـكون فقط بالأرواح؟! إنه نفسه عالم يمشـــي ويتجول كالأرواح، إنه عالم غريب، وطبقة وراء طبقة، يزداد غرابة، وما الجسد الخاص بتلك الروح الذي يبدو شبه متجول ومتحرك؟ إنه شبح، وما الذي يمكن أن يكون عليه شبح ما - إذن - غير ذلك الجسد الظاهر لنا؟ وهل هو روح حقيقية؟ إن العالم خاوٍ، خالٍ، إنه عدم، إنه مجرد مظهر خارجي مشابه مثير للحيرة، وحقيقته الوحيدة هي الـــروح فقط، هكذا فإن العالم هو ذلك البـــدن الظاهر للروح. «انظر حولك، هنا وهناك، ستجد عالما شبحيا يحيط بك في كل مكان، وستكون لديك دائما أطياف ورؤى، فكل شـــيء يظهر لك هو مجرد أطياف لروح تسكن العالم، إنه التجلي الشبحي للروح فقط الذي يظهر لك، والعالم بالنسبة إليك هو مجرد مظاهر، تتجول الروح خلفها، وما تراه هو الأرواح فقط» (13).

ومتحدثا عن الغرابة والقداســـة يقول شتيرنر: إنه في كل شيء مقدس يكمن شـــيء غريب محير، شيء غريب، شـــيء لا نكون على ألفة تامة به، لا نكون مطمئنين تماما. وقد كان التوق الغلاب من أجل الفهم للأشـــباح، أو لإدراك غيـــر المدرك فـــي الحياة، هو ما جعل النـــاس يتصورون وجود شـــبح ذي جسد، شبح له جسد حقيقي، شـــبح متجسد يكمن دائما خلف تلـــك الثنائية الخاصة بالطبيعتين اللتين يفكر من خلالهما معظم البشـــر،

حيث هناك ازدواجية أو ثنائية: الإلهي والإنساني، الشبحي والحسي، وهناك دائما أيضا، ذلك الشبح المتجول، الشيء الذي لا يشبه الأشياء التي نعرفها، لكنه القادر أيضا على القيام بأشياء وأفعال لا نعرفها، ولا نتوقعها. ويضيف شتيرنر: «إن كل شيء تشعر نحوه بالاحترام أو الخوف يستحق اسم المقدس. وسوف تقول لنفسك إنك ستشعر بخوف مقدس عندما تقترب منه. حتى لو كان مقترنا بالجرائم والمذابح، إنك قد تشعر بالرعب منه؛ لأن في داخله شيئا غريبا، شيئا غير مألوف بالنسبة إليك». كذلك وردت الإشارة إلى البيت المألوف والعالم الغريب لدى شتيرنر أيضا في حديثه عن علاقة الإنسان بالمقدس، وخاصة عندما يتوهم الإنسان أنه قادر على كل شيء، وأنه قد أصبح في بيته وليس غريبا في العالم (14).

لماذا اهتممنا بوضع هذه النصوص المطولة هنا من شتيرنر؟ لأنه فيما يبدو لنا، كان من أوائل الفلاسفة الذين اهتموا بفكرة الغرابة وربطها بالأشباح والخوف. ومثلما تجاهل فرويد ما قدمه نيتشه من أفكار مهمة حول الغرابة، فتعامل معها باستهانة، فإنه لم يكلف نفسه أيضا حتى مشقة الإشارة العابرة إلى ما قدمه شتيرنر من أفكار مهمة، على الرغم من أنه ينتمي إلى الثقافة الألمانية نفسها التي ينتمي إليها فرويد، النمسوي، ويكتب باللغة نفسها كذلك. كما يمكننا أن نلاحظ أيضا أن كثيرا من الأفكار التي طرحها دريدا بعد ذلك عن نقد فكرة المركزية الخاصة بالمركز الواحد أو اللوغوس الذي يدور حوله العالم، هي أمر قريب إلى حد بعيد من نقد شتيرنر لفكرة «الجوهر». هكذا انتحل دريدا فكرة نقد المركزية اللوغوس أو المركز الواحد شتيرنر مثلما انتحل فكرة المراودة والطيفية من فكرة الغرابة عند فرويد الذي انتحلها بدوره من شيلنغ وشتيرنر ونيتش، وكي ندرك هذا التطور الحديث وما بعد الحديث، الذي طرأ على تلك الأفكار الخاصة بالأشباح، والأطياف، والطيفية، وروح العالم.

الطيفية والغرابة

يدين مفهوم المراودة أو نظرية عودة الأطياف Hauntology لدى دريدا كما قلنا، بالكثير لفرويد وما كتبه عن الغرابة (1919)، وكذلك لفكرته عن «الغريب عن البيت»، حيث إن إحدى الخصائص المميزة للشبح هي قدرته

علـى العودة بعد ذهاب، فكذلك يقوم مفهوم الغرابة لدى فرويد على فكرة «عـودة المكبوت»، عودة الخوف والمخيف الذي كُبِت، كما أن تعليقات فرويد عن «عودة الموتى» تشكل نقطة البداية التي يمكن من خلالها تحليل إسهام دريدا الجوهري في النظريات المتعلقة بالمراودة والشبحية.

كذلك يشـترك فرويد ودريدا - معا - في انشغالهما واهتمامهما بالأشباح والأشـباه (الأقران)، والعائدين بعد غياب أو موت، وأيضا الأطياف، وقد أكد ذلك نيكولاس رويل أيضا حين قال بوجود تشـابهات عدة بين فكرة التفكيكية Deconstructionism التي يقوم على أساسها تفكير دريدا كله، وفكرة الغرابة لـدى فرويد. وقال رويل أيضـا إن التفكيكية تجعل النصوص المألوفة والأكثر وضوحـا، نصوصا غريبة، وذلك من خلال اسـتمرارية أو اتسـاق معين في التحليـل للنصوص، من الممكن أن يكون هو نفسـه غريبـا. لكن دريدا أيضا، وبـدلا من أن يظهـر اهتماما بالوجود الفعلي الخاص المحدد للأشـباح - كما فعل فرويد - فإنه اهتم بمنزلتها أو مكانتها البينية، من حيث إنها تهوّم وتحلق بـين عالم الأحياء وعالم الأموات، من حيث تجسـيدها لفكرة الطيفية ذاتها، ولقدرتهـا علـى المرواغة أيضا، وذلـك من أجل وصف قدرة تلك الأشـباح، أي الأفـكار التي تنتمي إلى الموتى والماضي، علـى تفكيك أو تذويب الحدود والحواجز الخاصة بالزمن المتتابع خطيا أو تقليديا. وكما ذكر كولن ديفيز فإن فرويد قد اعترف بفكرة الأشـباح من أجل أن ينزع الغموض عنها فيما يتعلق بمعتقداتنـا حولهـا، أما دريدا، فأراد أن يضع موضع المسـاءلة، ذلك التراث الفكـري كله، الذي ينتمي إليه فرويد، وكذلك ماركس وغيرهما؛ ومن ثم يتيح الفرصة التي يمكن أن يتحدث، من خلالها، ذلك الآخر الشبحي إلينا[15].

فـي كتابه «أطيـاف ماركـس» (1993) عاد «غريـب» فرويد بوصفه القرين لتلك الحالة المؤقتة أو الزمنية التي أطلق عليها دريدا اسم الطيفية Spectrality، التي هي وثيقة الصلة بالغرابة، فهي مثلها تنتمي إلى الماضي، وتعود أيضا وتظهر فجأة أو خفية، وتزور الماضي، وربما المسـتقبل. مثلها مثل تلك الأرواح الهائمة في المكان. هكذا يمكن فهم الغرابة:

1 - من الناحية البصرية: تظهر الغرابة بوصفها إشكالية خاصة بالمعرفة الطيفية، أي المعرفة التي تظهر - مثل والد هاملت - على هيئة شبح.

2 – وزمانيا: تظهر الغرابة أو تنبثق في تلك اللحظة التي يتصل فيها الماضي بالحاضر، إنها لحظة غير محددة زمنيا، غير مؤقتة زمانيا، لكنها شكل يستمر على نحو ما.

3 – وأخيرا، ومكانيا: فإنه يترتب على الغرابة، أن تحدث أو تؤسس نسخة أو صورة من ذلك الاندماج الذاتي المحصن أو المنيع ووفقا لمصطلحات دريدا، حيث يتسلل من خلالها «خارج معين» إلى «داخل معين». وتشير هذه المناعة الذاتية إلى تلك العملية التي يحدث من خلالها أن تقوم مفاهيم مثل العدالة والتسامح أو الديموقراطية، أو تتخطى القواعد القانونية والسياسية، ولكنها – مع ذلك – من الداخل والخارج، تظل متصلة بهذه القواعد على نحو متماسك أيضا»[16].

وهكذا، فإنه بينما قال دريدا في «أطياف ماركس» عن فرويد إنه كان «يصطاد الأشباح» ويدخلها مملكته التفسيرية الخاصة بالتكوين النفسي ما قبل التاريخي، وبينما نُظِر إلى ماركس أيضا على أنه كان «يصطاد الأشباح» الخاصة بالأشكال الحية الخاصة «بالرأسمالية»، فإنه – أي دريدا نفسه – قد أوحى بفكرة «الطيف» ذاته، واقترحه بوصفه المحرك الخاص بالمعرفة والبحث، وكذلك الدافع للتاريخ والفكر، وهي فكرة ترددت، على نحو ما، لدى ماكس شتيرنر قبله، كما أشرنا منذ قليل.

هكذا تخيل دريدا أفكار ماركس وهي تأتي (من الماضي) إلى المستقبل في شكل تلك الديموقراطية القادمة التي لم يتعرفها ماركس قط، لكنها المتضمنة داخل المنطق النصي الطيفي الموجود في كتابه «رأس المال». وكما اعترف دريدا في خلاصة كتابه، فإنه كان يريد تسميته: «ماركس ـ الغريب» Marx- das unheimliche، في اعتراف منه بفضل فرويد ودراسته عن الغرابة عليه، وفي إشارة منه أيضا إلى تلك العلاقة التي تربط التفكيكية – منهجه في التفكير والتحليل – بالتحليل النفسي أو السياسة واللاشعور. وكما قال أيضا، فإنه من «أجل أداء هذه المهمة فإن المنطق الطيفي هو أمر لا يمكن الاستغناء عنه أبدا»[17].

في كتابــه «أطياف ماركس» عرف دريدا «الطيــف» بأنه ذلك «الكائن الذي بلا جســد»، الذي لا يمكن الهروب منه، والذي يرود الشيء أو المكان من داخله ومن خارجه [18]، وربما قد يكون هذا الشيء الميت - الحي شبيها ببعض المخلوقات الأدبية القوطية، مثل فرنكنشــتين مثلا، وكذلك كثير من الأطيــاف التي خلقها الخيال، والتي ترود الحاضر بحثا عن حضور خاص لها، كي تكون لها قيمة رمزية جديدة أيضا.

تتحــدث نظرية «المراودة» لدى دريدا عن بعض أطياف الماركســية التي ترود أوروبا، أو تزورها، وكذلك عن الطبيعة المراوِدة المتعلقة بالأدب نفسه، كما تجلت من خلال شبح هاملت لدى شكسبير على نحو خاص. كما لاحظ دريدا في بداية كتابه «أطياف ماركس» فإن بيان الحزب الشيوعي (1848) يبدأ بإشــارة إلى مفهوم الطيفية، حيث جاء فيه: «هناك شــبح ما يهوّم في أوروبا، هو شبح الشيوعية»، وهذا الشبح هو - في الحقيقة، كما قال - غائب يعود، طيف يرجع ويتجلى ويُحدث اضطرابا في التسلســل الزمني المتتابع. وبهــذا المعنى فــإن مراودة الأشــباح، أي ذهابها وحضورهــا، هي العلامة المميزة للوجود في أوروبا، وإن الهيمنة الرأسمالية، أيا ما كانت، على الرغم من تأثيراتها، لا يمكنها أن تطرد كل أشــباح الماركسية، لا يمكنها الاستبعاد تماما لأفكارها التي تعود، أي لذلك الوجود الشبحي لها في العالم الغربي، وهذه فكــرة طورها دريدا لاحقا على أنحاء مختلفة تضمنت في جوهرها، نوعا من الاعتراف بقوة الأدب، وبطبيعته الطيفية الخاصة التي مثلها على نحو بارز طيف والد هاملت في مسرحية شكسبير المعروفة [19].

في نقده لكتاب دريدا «أطياف ماركس»، قال جون فليتشر J.Fletcher إن دريدا قد أســاء تفســير مصطلح «الغرابة»، فبالرغم من أن دريدا قد زعم أن العنوان البديل لكتابه كان ســيكون هو «ماركس - الغريب»، - Marx Das unheimliche فإنه لم يتعامل مع مصطلح «الغرابة» كما هو مســتمد مــن فرويد، بعمق كبير، ومن ثم فإنه قد ســلبه أو نزع عنه قوته النظرية. لقد اكتشف دريدا بعدا طيفيا في تفكير ماركس، أو نظرية شبحية مضادة للوجود حاول أن يتحاشــاها، لكنها ظلت تؤكد نفسها عند كل محاولة منه لطردها[20]، فلم يســتطع ماركس أن يدحض فكر شتيرنر الذي اتهمه في

كتابــه - كتاب ماركــس - «الأيديولوجيا الألمانية» بالمثالية، لم يســتطع أن يدحض ذلك الفكر من دون أن يشير إلى تلك الأرواح والأطياف - المثالية - التي حاول هو نفســه أن يطردها من فكره الخاص؛ لم يستطع ماركس أن يطردها إلا من خلال اســتحضاره لها في كل خطوة. وقد استخدم دريدا المثال الخاص بشــبح والد هاملت - الذي يعود إلى التجوال أو يسكن عقل ذلك الأمير الشاب المضطرب - من أجل أن يحدد البعد الشبحي في عالم ماركس. وحيث إن «الزمن» كان «قد اضطرب»، والعالم تعمه الفوضى وكل شــيء فيه؛ فإن النقص في البنيات المعرفية الممثلة للعالم، النقص في فهم العالم، وفي إدراكه، كان الهم الرئيسي لدى ماركس [21].

لقد انتحل دريــدا فكرة الغرابة من فرويد، وفســرها في ضوء البنية العامة لفكرة حلول الأشــباح، وســاوى بــين الغرابة لــدى فرويد، وفكرة الأشباح والأطياف، وحلولها، محلا ما، وسكنها فيه لديه.

عودة الموتى

ترتبط فكرة الأشباح والأطياف العائدة بأفكار المراودة والعودة من الموت والغرابة وغيرها، وبالنســبة إلى دريدا، تقوم نظرية المراودة Hauntology على أســاس منطق حركة الحضور الطيفي لـ «طيف» الماركسية في أوروبا، وكذلك تلك الطبيعة الطيفية للأدب التي يجســدها طيف والد هاملت في مســرحية شكســبير الشــهيرة. هذا الطيف، هو، في الحقيقة «عائد بعد غياب» Revenant شــبح يعود من الماضي كي يحدث الاضطراب في تلك الاستمرارية الخطية النمطية المتواصلة في الزمن، ومثلما أشار بيتر بوس Peter Buse وأندرو ســتوت Andrew Statt، فــإن حالة العودة بعد غياب هذه حالة تلخــص على نحو موجز بعض الاهتمامــات التفكيكية المتعلقة باســتحالة تجميــد الماضي أو الزمن تصوريا أو معرفيــا. لقد حبذ دريدا الفكــرة الخاصة بالطيف بوصفه عائدا بعد غياب، يعود كي يفكك كل تلك الأشــكال التاريخية التي تقوم على أساس إحســاس، ومثلما يعود الطيف بعد غيــاب، تعود بعض أفكار الماضي إلى الحاضــر، وتعود بعض الأفكار والانفعــالات والصور والرؤى التي كُبِتَتْ فــي الماضي، وتكون عودتها هذه

غريبــة، فهكذا تكون ثمة قرابة معرفية بين مفاهيم «الطيف» و«العائد بعد غيــاب» والغرابــة والقرين، وقد ألمح دريدا نفســه إلى ذلــك - كما ذكرنا سابقا - عندما قال إنه كان يود أن يغير عنوان كتابه من «أطياف ماركس» إلــى «ماركس ذلك الغريب» Marx - Das - unheimliche دريدا (1994)، ومــن ثم يربط بين مفهوم فرويد عن «الغرابــة» ومفهومه هو الخاص عن «الطيــف»، ذلك المفهوم البينــي، الموجود على العتبــة، عتبة الوعي، عتبة الزمــن، عتبة التاريخ، خارج الزمن، مُــزَّاح، مضطرب مفكك. وهكذا فإن «طيــف» دريــدا هذا، ليس حاضــرا، ولا غائبا، الحيــاة والموت، الحضور والغياب، ويقوم بجعل الروائح اليقينية تتأرجح وتهتز، وربما تسقط أيضا.

هكــذا يســمح لنا مفهوم الطيف لــدى دريدا بأن نتحــدث مع الموتى، وتسمح لهم بأن يتحدثوا إلينا، بل وتسمح أيضا لهم بالحضور، وتسمح لنا بمساءلتهم، ويتيح لنا الفرصة لفتح آفاق خاصة باحتمالات وبدائل جديدة للمعنى والحياة تتعلق بالحاضر وبالمستقبل أيضا.

أما مفهوم «الشــبح» لدى نيكــولاس إبراهام وماريا تــوروك فيتعلق أيضا بالعودة من الماضي، لعودة الموتى، بالسر الذي لا يمكن الإفصاح عنه مباشرة إلا من خلال الكلمات، بحالة مراودة تحمل شهادة خاصة على وجود الميت المدفون داخل الآخــر أو داخل الذات والمتعلق بآخر ولدى إبراهام وتوروك اهتمام كبير بالماضي، بجروحه، بآلامه، بصدماته، بأسراره وليس هنا اهتمام يذكر لديهما، بالمستقبل ومن ثم فإن مفهوم الطيف لدى دريدا مفهوم أكثر دينامية، وقل الأمر نفسه أيضا عن مفهوم الغرابة لدى فرويد ولكن في ضوء ما طرأ.

إن الأشباح، والموتى وغير الموتى، يمشون بيننا الآن - كما يقول ديفيز - كما كانوا يفعلون ذلك من قبل. إنهم يوجدون على شاشــات التلفزيون، وفي قاعات الســينما - في أفلام كثيرة، مثل «الشبح»، «مقابلة مع مصاصي الدماء»، «فان هلسنغ»، «الحاسة السادسة»... إلخ. وقد اقترح «جيجيك» أن عودة الموتى الأحياء تمكن تسميتها «الخيال الجوهري لوسائل الاتصال الجماهيري المعاصرة»[22].

وقد قال «لاكان» ردا على الســؤال: لماذا يعــود الموتى؟ بقوله: لأنهم لم يُدْفَنوا على نحو مناســب، أي لأن شــيئا قد حدث على نحو خاطئ فيما يتعلق بمواراتهم الثرى؛ فعودة الموتى هي علامة على اضطراب ما حدث في

الطقس، ذلك الطقس الرمــزي الخاص بدفنهم. ويعود الموتى كي يجمعوا بعــض الديــون الرمزية التي لم تُدفَــع بعد. هكذا تعود الأشــباح، ويكون ظهورها علامة على اضطــراب أو خلل في النظام الرمزي، أو الأخلاقي، أو المعرفي، وعندما يُصَحَّح هذا الخلل أو الاضطراب فإن الأشباح سترحل مرة أخرى، وقد لا تعود. ولماذا يعود الموتى؟

يعود الموتى والأشباح للأسباب التالية:

1 - لأن طقــوس دفــن بعض الموتى والحــزن عليهم لم تكتمل بعد.

2 - أو لأنها أشباح شريرة؛ وينبغي طردها.

3 - أو لأنها. مثل شبح والد هاملت. تعرف بعض الأسرار التي ينبغي كشــفها، أو تعرف خطأ ما ينبغي تصحيحه، أو ظلما شاع وانتشر، أو أمرا جللا قادرا على الإتيان بالعجائب ينبغي الخشية منه.

إن الأشباح هنا - هكذا - تُسلّم رسالة، أو تنجز مهمة، أو تُحدِث اضطرابا ما ينبغي تصحيحه. هكذا تصور قصص الأشباح اضطرابا وتدخلا وانقطاعا مؤقتا في نسيج الواقع، خللا في نظام ما، من أجل استعادة النظام الأخلاقي والمعرفي للأشــياء والواقع. هكذا قد نشــعر بغضب وبحــزن لأن الموتى قد فارقونا، لكننا قد نخاف لأنهم قد يعودون أيضا[23].

لا تظهر الحالة الشــبحية فقط - كما قال بعض النقاد - في الشــكل السردي الخاص بها؛ ولكنها تظهر أيضا في نظريات النقد الأدبي، والتحليل الثقافــي، بل حتى في علم الاجتماع. ووفقا لما قالته عالمة الاجتماع آفيري غوردون Avery Gordon، فإن زيارة الأشــباح وســكناها محلا ما، ليست خرافة تنتمي إلى ما قبل العصر الحديث، ولا هي نوع من الذهان الفردي، إنهــا ظاهرة اجتماعية عامة ذات مغــزى كبير، فمن أجل أن ندرك الحياة الاجتماعية ينبغي أن ندرك الجوانب الشبحية فيها، وتتطلب هذه المواجهة نوعا من التغيير الأساســي في الطريقة التي نعرف ونفكر من خلالها، أو نتعرف الأفكار والمعلومات، وكذلك في طريقة إنتاجها. إن صورة «الشــبح» فــي ضوء هذا المنظور، تجعل العلاقات التاريخية أكثر شــفافية، وتجعلها

قـــادرة أيضا على أن تمارس دورا متســـما بالغمـــوض فيما بين الأضداد، كالحيـــاة والموت، القابلية للرؤية والظهـــور والقابلية للاختفاء، وباختصار، يلعب الشبح دور التفعيل المؤثر أو حتى الدرامي للحضور الخاص بالغياب، فيجعل ما كان خفيًا، يبدو ويتجلى ويظهر على أنحاء مختلفة[24].

في كتابها «التفاوض مع الموتـــى» Negotiating with the dead، قالت الكاتبـــة الكندية «مرغريت أتوود» إن كل أنواع الســـرد - بل ربما كل أنواع الكتابـــة - يدفعها نوع من القلق أو الخوف الخفي، وولع ما بطبيعة الموت، رغبـــة ما في القيام برحلة ما نحو العالم الســـفلي، لإحضار شـــيء ما، أو شـــخص ما من بين عالم الأموات. وهكـــذا فإن العلاقة بين الكتابة والموت - وفقـــا لمـــا قالته آتـــوود أيضا - إنما تكمـــن في تلك الرغبـــة في القيام بالإحياء، والإبقاء حيًا، للأعماق الســـفلى العميقة الخاصة بالنســـيان من أجل استحضارها ووضعها داخل العالم الخاص بالحاضر. وهكذا فإنه في كل أنواع الســـرد، وربما كل أنواع الكتابة، يمكننا أيضا أن نشـــعر أو ندرك وجود طبيعة شـــبحية أو طيفية، وبالقدر الذي تستطيع عنده هذه الكتابة أن تجعل الأموات أحياء مرة أخرى[25].

هنا يتم الإحياء من خلال التذكر، ومن خلال الكتابة، هنا والاستحضار الماضي وعوالم النسيان، هنا يكون ما يتم استحضاره غائبا لأنه ينتمي إلى عالـــم الماضي والموت، ولأنه أصبح موجـــودا بفعل التذكر والكتابة، ومن ثم منتميا إلى عالم الحاضر. هنا نجد الحضور البيني. للماضي في الحاضر، وللنســـيان من خـــلال التذكر، ولما انقضـــى من خلال الكتابة، وبواســـطة الكتابة، وهذه ليست عملية آلية تستحضر الماضي كما كان موجودا، أو كما هـــو محفوظ في متون الكتب والتراث والذاكرة الجماعية؛ بل نســـتحضره من خلال الذاكرة الإبداعية التي تضيف وتحذف وتتخيل وتتصور... إلخ.

وكما علمتنا دروس بارتليت وتجاربه في علم النفس حول الذاكرة فإن القصة التي يرويها شخص آخر لا تكون هي القصة نفسها التي يرويها الشخص الثاني للشخص الثالث، أو التي يرويها الثالث للرابع، وهكذا، فهناك دائما آليات تحويل وتعديل وإضافة وحذف في شـــكل القصة ومحتوياتها وبداية ســـردها ونهايته، حتـــى أنه في بعـــض هذه التجارب وجد بارتليت أنه لـــم تكن هناك إلا صلات

واهية بين القصة في صورتها الأولى والصورة كما حُكِيَتْ أو سُرِدَتْ في صورتها الأخيـرة، ففـي كل مرة كان يتم تغيير ما يتم تذكره فـي ضوء ما يضفيه عليه الشخص الراوي من انفعالاته وأمنياته وأحلامه الخاصة، في ضوء ما تبقى في عقله ووجدانه من ترسيبات شبحية متعلقة بالقصة التي سمعها أو قرأها أول مرة، هكذا يكون ما نتذكره وما يعود إلينا، ليس هو الشخص الذي كنا قد عرفناه أول مرة، وليست هي الفكرة التي كانت موجودة في البداية، بل الفكرة ومعها كل ما تحمله من مخاوف وأمنيات وأحلام وغرابة وهي فكرة قد تعود أيضا ويعود معها بعض الأشخاص بعد غياب.

العائدون بعد غياب

تعـد «أوديب». وغيرها من الأعمال المسـرحية، كتلك التي كتبها توفيق الحكيـم أو علي أحمد باكثير، أو فوزي فهمي خاصة في مسـرحيته «عودة الغائب» [26] نموذجا لأشـخاص عادوا على نحو واقعي، وليس كأشـباح بعد غياب، وكان حضورهم غريبا، فهز الاستقرار الظاهري للمدينة، وقلب أمنها رعبـا. والعائدون بعد غياب هم أرواح هائمة فـي المكان، أرواح قد غادرت المكان، لكنها تحن دوما للعودة إلى المكان، أرواح، أشـباح، أطياف، خيالات، أفكار، وصور، وتصورات تظل في حالة اتصال على أنحاء مختلفة في المكان.

كتب المؤلف الألماني فولفغانغ بورشرت (1921 - 1947) في العام 1946 مسـرحية عنوانها «قطعة لا يريد مسـرح أن يمثلها ولا جمهور أن يشهدها» يحكـي فيها عن رجل من كثيرين غابوا عن ألمانيا وطالت غيبتهم، فلما رجعوا خاوية بطونهم، حافية أقدامهم إلى دورهم، تبينوا أنهم لم يرجعوا إلى دورهم؛ لأن دورهـم لم يعد لها وجود، وأصبح مأواهم هناك «في الخارج أمام الباب، وأن هناك في الخارج أمام الباب كانت ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، كان وطنهم في الليل الدامس، تحت المطر، على قارعة الطريق» [27].

فـي مسـرحية «زيارة السـيدة العجـوز»، للكاتـب الألمانـي «فريدريش دورينمـات»، تعود كلارا التي غادرت البلدة فقيرة مطعونة في شـرفها، تعود فاحشـة الثراء، تعود لتنتقم من كل من أسـاء إليها، في حين ظن أهل البلدة أنهـا قد عـادت من أجل أن تسـاعدهم. وقد بدأت حياتهـم تتغير تدريجيًا

في «جوللين» بلدتهم، بدأوا يشـــترون طعاما أجود، وشـــرابا أحسن، ويقتنون السيارات، ويجددون العمران؛ على أمل أن جانبا من ثروة تلك السيدة العجوز ســيعود عليهم - يقينا - في المستقبل، وفي ســبيل تحقيق هذا الأمل يقتلون أحــد مواطنيهم (آل)، ذلك الذي كان قد ســبق له أن خدع تلك الســيدة في شــبابها. وهي قد عادت متقدمة في الســن بيد صناعية، وســاق صناعية، تتحــرك مثل الآلة الفاقدة للروح، إلا روح الانتقام التي تقوم بدفع أهالي تلك البلدة إلى القيام بعملية قتل مشترك بينهم لحبيبها الخائن القديم [28].

كذلــك تبدو مســرحية «مهاجر برســبان» للكاتب المصــري الذي يكتب بالفرنســية جورج شــحادة وكأنها تنويعة أخرى على مسرحية «زيارة السيدة العجــوز»، حيث هناك غريب يأتي إلى بلدة ما ومعه ثروة، وتتغير حياة البلدة وتنقلب رأسا على عقب بعد مجيئه، صحيح أنه جاء ميتا، أو قتل داخل البلدة، لكنــه جاء بثروته مثل كلارا في زيارة الســيدة العجــوز، وقد كانت له علاقة قديمة بإحدى نساء القرية، مثلما كانت لـ «كلارا» علاقة قديمة حميمة بأحد رجالهــا، ثم إن انقلاب أحوال البلدتين في المســرحيتين يــكاد يكون واحدا. صحيح أن دورينمات كتب مســرحيته قبل جورج شحادة، كتبها بالألمانية، في حين كتبها شحادة بالفرنسية، لكن العوالم المشتركة بين المسرحيتين من الأمور اللافتة للانتباه على نحو واضح، كما أن الغريبين في المسرحيتين قد جاءا بعد أن كان الزمن قد اضطرب في البلدتين، ثم إنه قد ازداد اضطرابا وهياجا بعد حضورهمــا، حضورهما بعد غياب، وقد كانا مألوفين في الماضي ثم غابا، ثم جاءا وقد كان مجيئهما غريبا جدّا[29].

لكن ما الشــيء الحقيقي الذي حرك القرية بكاملها؟ يتساءل الشاعر أدونيس - مترجم المســرحية إلى العربية - ويجيب قائلا «إن الذي تحرك هو ذلك الشطر السحري في الإنســان، أعني التوقع والتطلع إلى الغريب الجديد الغامض، هو الشــوق إلى نســق جديد للحركة، إلى الحركة بعيدا عن «الطريق العام» الذي شــكل حدود القرية، الشــوق الذي دفع بالمهاجر المجهــول إلى قارة جديدة بعيدة ليعود محمــلا بالذهب» [30]. هنا الغريب حاضر كجثة، كصورة، كشبح، كماضٍ، كذكرى، غائب ولكنه كثيف الحضور أيضا على الرغم من هذا الموت المخيف.

في مســـرحية «المفتش»، من تأليف الكاتب الروســـي نيقولاي غوغول، وصلت رســـالة إلى حاكـــم إحدى المدن تفيد بقرب وصول أحد المفتشـــين لمراجعـــة الأمور فيهـــا، تنقلب الأمور رأســـا على عقب، يتظاهر ســـكانها والمســـؤولون فيهـــا بعكس حقيقتهم، هنا تتحســـن أمور النظـــام والنظافة والتعليم والصحة والشـــوارع والثقافة وغيرها استعدادا لقدوم ذلك الوافد المجهـــول، يعيدون ترتيب مجهول، متوقـــع، متوهم، متخيل، غامض، ثم إنه لا يأتـــي في النهاية علـــى الرغم من كل ما قاموا به مـــن ترتيب لأمورهم كذبا ونفاقا. وتبدأ المســـرحية بوصف حالة الذعر التي اســـتبدت بجميع شـــاغلي درجات الســـلم الوظيفي في المدينة، بدءا من الشرطي الصغير، وانتهـــاء بالحاكم الكبير، فالكل يخاف وصول المفتش، والكل يريد التســـتر على عيوبه، ونواقصه [31] ثم إنهم يعتقدون عندما يرون شخصا ما، غريبا عن البلدة، أنـــه «المفتش» المتوقع، لكنه كان مجـــرد محتال خدعهم وجمع منهم بعض الأموال، استمع منهم لفضائحهم ومخازيهم ثم هرب، ولا يصل المفتش الحقيقي إلا في نهاية المسرحية، إلا في مشهدها الختامي، بعد أن يكون المغزى الحقيقي منها قد تحقق.

أما في رواية «الشيطان والآنســـة بريم»، من تأليف الروائي البرازيلي باولـــو كويلو فيعود الغريب إلى بلدة صغيرة، حامـــلا معه الذهب والثروة، يحل بين أهل «بســـكوس» القرية المحافظة على اســـتقامة أهلها وطيبتهم، وعلـــى ميراث من الخرافات المتنوعة، يحل معه شـــيطان وســـبائك ذهب، ورغبـــة في امتحان طبيعة البشـــر، في اختبار مقاومتهم للشـــر والجريمة والإغراء والاســـتيلاء على حقوق الآخرين. والرواية أشـــبه بإعادة كتابة أو محـــاكاة متهكمـــة Parody واعية من ذلك الغريب في مســـرحية «زيارة الســـيدة العجوز» لـ «دورينمات»، بل إن إشـــارة ترد في الرواية إلى معرفة ذلك الغريب العميقة بتلك المســـرحية. هكذا تسرد هذه الرواية قصة ذلك الصراع الأزلي بين الخير والشـــر، النور والظلام، الغريب هنا يهز استقرار ذلك المكان الشـــديد التنظيم، وقلب ألفة سكانه واســـتقرارهم رأسا على عقب [32]. والغريب هنا هو الشيطان، هو الشر الذي يطلب من أهل القرية المسالمين أن يقتلوا أحد مواطنيهم نظير بضع سبائك من الذهب.

وفي مسرحية «ثورة الموتى»، من تأليف الأمريكي أروين شو، يرفض ستة جنود موتى أن يدفنوا، بعد أن يوضعوا في قبورهم، يقفون مرة أخرى داخل تلك القبور، يرفضون دفنهم، يطالبون بالقصاص ممن تسبب في قتلهم وهم لا يزالون بعد شبابا لم يشبعوا من الحياة، ثم إنهم يطالبون بإيقاف الحرب. هنا يعود الموتى إلى الحياة، ليسوا كأشباح أو أطياف، بل كجثث حية تنبعث منها الروائح الكريهة والأقوال العنيفة التي تدين كل من أوصلهم إلى هذا المصير، حيث يستفيد من موتهم القادة، ورجال الدين، ورجال الأعمال، والصحافيون، وغيرهم من أركان المجتمع، وكل هؤلاء الذين قتلوهم أول مرة، ثم حاولوا قتلهم مرة أخرى، لكن الجثث تخرج من قبورها، يرفض أصحابها الموت، يرفضون من أسلموهم للموت، إنهم يحبون الحياة، يفكرون في حياة أفضل، يحملقون فيها ويحلمون بها[33].

خاتمة الفصل

لقد قرأ دريدا مقال فرويد عن الغرابة في علاقته بتلك التأثيرات التي سماها بذر بذور المعنى dissemination من خلال الإبدال والإرجاء اللانهائي للمعنى، فلدى فرويد، كما قال دريدا، في «الغرابة» انتباه غير مسبوق لذلك النوع من التناقض الوجداني غير المحسوم، نوع من اللعب بكل ما هو بديل ومزدوج، حالة من التبادل اللانهائي للعلاقات بين الخيالي أو العجائبي وبين الواقع، حالة من الإزاحة والإحلال والاستبدال التي لا تنتهي، حالة من اللجوء إلى القلق المرتبط بالقطع والانقطاع أو الخصاء والذي لا توجد أسرار خلفه وبين العلاقات البديلة السرية، قد يتضمن التكرار أيضا نوعا من الإرجاء للفقد والخوف والتهديد هكذا تحل دائما البدائل والتعويضات والأشباه والصور الأخرى مع حدوث الانقطاع والفقد، يقول المثل المصري: «يقطع من هنا ويوصل من هنا» في إشارة مختلفة إلى أن رزق المرء لو انقطع فلا بد أنه سيعود، وأنه عندما يفقد شيئا فإن الله يعوضه بغيره حتى لو تكرر هذا القطع.

ومصطلح «اللاحسم» undecidabilty لدى دريدا، هو البديل الذي استخدمه لمصطلح فقدان اليقين أو عدم التأكد Uncertainty الذي استخدمه ينتش وبعده فرويد، وكذلك مصطلح التأرجح أو التذبذب أو التردد الذي استخدمه تودوروف وكذلك جاكسون وغيرهما.

ومصطلح «اللاحسم» أحد المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها المذهب التفكيكي في الأدب، وهناك جوانب عديدة مشتركة بين التفكيكية ومصطلح الغرابة، حيث إنهما يقومان معا، على أفكار الازدواجية والقلق والتناقض الوجداني والهدم والبناء والحقائق المتغيرة والمعاني المضطربة والمزاجية والمرجأة، حيث لا يوجد تعيين ثابت، ولا تأكد، ولا وحدة عضوية، أو حقيقة كلية، أو مركز واحد، بل أجزاء مقطعة وأعضاء منفصلة تسعى حية بمفردها، وقد تطمح إلى العودة إلى الكل الخاص بها من أجل أن تنفصل عنه من جديد أيضا، أو كما قال الشاعر العربي: قلق على قلق ومثلي يقلق... إلخ، وهذه العناصر التفكيكية الموجودة في مفهوم الغرابة ربما كانت هي أيضا ما جعلته أكثر المفاهيم شهرة في التحليل النقدي اليوم كما يقول رون باركن جونيلاس. وكما سيتبين لنا ذلك جليا خلال الفصلين التاليين من هذا الكتاب وخصوصا في الفصل الأخير، وقبل فرويد بوقت طويل استفاد القص القوطي كذلك من فكرة التكرار من أجل إحداث الشعور بالخوف والغرابة لدى القراء[34].

هكذا تكون حالة الانتياب أو المراودة أشبه بعملية وساطة، عملية تربط بين مؤسسة اجتماعية وفرد، بنية اجتماعية وذات إنسانية، بين التاريخ والسيرة الذاتية، وذلك في ضوء تعريف أفيري غوردون لها[35].

هكذا تظهر هذه الأشباح أو الأطياف عندما لا يكون ممكنا بعد، الاحتواء أو مواصلة القمع أو الكبت أو الإيقاف لذلك الاضطراب الذي تمثله هذه الأشباح، الذي تعبر عنه، تذكر به وترمز إليه، تعود على نحو متكرر كي تجعله مرئيًا، لماذا؟ لأن ما يُقْمَع أو يُكْبَت لا يموت؛ بل يظل حيًا، خاصة عندما يرتبط ذلك الكبت بالعنف والقوة والظلم، هنا تظهر الأشباح والأطياف الدالة على ما تم قمعه أو كبته، وهنا تكون أشكالها مرئية، مرئية في الحياة، أو في الفن والأدب والثقافة بشكل عام[36].

لقد كانت الأشباح في التصور التقليدي العام - وربما الحديث أيضا حاضرة دائما - ينظر إليها على أنها وسطاء بين عالم الأموات وعالم الأحياء، وسطاء يحملون رسائل، تكون مهمتهم أن يقوموا بالإخبار أو نقل تحذير معين أو نبوءة. وقبل القرن التاسع عشر - في أوروبا خاصة - لم

تكن الأشــباح مهمة في ذاتها، بقدر أهمية الرســائل المحــذرة أو النبوئية التــي تحملهــا، وعلى الرغم من أنها - أي الأشــباح - بحكم طبيعتها كانت تســتثير الخوف والدهشــة، فإن ظهورها أو إدخالها داخل العالم، لم يكن هدفه الأساسي إثارة الخوف فقط. حيث يتضمن التعامل مع الشبح. وفقا لما قالتــه مرغريت آتوود «وعيا بأن هناك دائما عتبــة، بين عالمنا والعالم الخاص به. عتبة ينظر إليها على أنها مســاحة أو حيز مكاني مألوف في مقابــل ذلك العالم البعيــد غير الآمن الخاص بالآخــر» [37]. هكذا يمثل الشــبح، الآخر، أيّا كان، الماضي، الخارج، الأفكار والمعاني الأخرى، العوالم الأخــرى، الأماكن الأخرى، الأزمنة الأخرى... إلخ، وهذه الآخرية هي التي تــؤدي إلــى المواجهة مع العوالم الأخرى، أي المســاحات - أو الحيوزات - العقليــة الخاصة بأزمنة وأشــكال مختلفة تتعلق كلهــا، في جوهرها، بما يسمى: «روح المكان».

حيث يشــير مصطلح «روح المكان» إلى تلك الجوانــب الفريدة المميزة لمكان ما، تلك الجوانــب التي غالبا ما يحتفي بها الفنانون والكتاب، والتي يتــم الاحتفاء بها أيضا في الحكايات والاحتفالات الشــعبية. إنها نســيج غير مرئــي من الثقافة يظهر في القصص والفنون والذكريات والمعتقدات والكتابــات التاريخية والجغرافية وغيرها. وقد يشــير هذا المصطلح إلى ذلك الجانــب الفيزيقي المادي الحســي من مكان ما (الجبــال، الحدود، الغابــات، الأنهار، البحار، الأســلوب المعماري، أســاليب الحرف الريفية والشــعبية، المناظر الطبيعية، وغيرها)، وقد يشــير إلى الجوانب الخاصة بالعلاقات الإنســانية بين البشــر (علاقــات القرابة والصداقــة وأرواح الأســلاف وما شــابه ذلك). وهي تلك العلاقات التي قد تستثير، مجازيا، ما يســمى بالإحســاس بالمكان Sense of place وهــو مصطلح قد ينطبق أكثر على الأماكن المدنية وشــبه المدنية، وعلى الشوارع السريعة الطويلة، والطرق الواســعة، والعمارة، والتخطيط العمراني، وعلى شــكل واجهات المحال، وطريقة تزيين الشوارع... إلخ. لكن حتى بالنسبة إلى هذه الأماكن المدنية، من الممكن للمرء أن يســتخدم مصطلــح «روح المكان» أيضا. وقد اســتخدم الرومان مصطلح «عبقرية المكان» - واستخدمه بعد ذلك جمال

حمـــدان في كتابه عن مصر «عبقرية المـــكان» - ويماثل هذا المصطلح في مضمونـــه مصطلـــح «روح المكان» الأكثر حداثة. واســـتخدم هذا المصطلح تاريخيّـــا، أيضا، للإيحـــاء بوجود كائن ما وراء طبيعـــي صغير مثل الجني أو الجنية والعفريت وما شـــابه ذلك، وكذلك استخدم هذا المصطلح أيضا للإشـــارة إلى تلك الروح الهائمة في المكان، أو الشـــبح الـــذي ينتاب هذا المـــكان ويروده[38]. وعلى الرغم من التخلي عن مثل هذه الأفكار في العالم الحديث، فإنها لا تلبث أن تظهر في صيغ مختلفة، في مفاهيم جديدة أكثر تجريدا، وأقـــل مادية، وأقل خرافية، ومنها مثلا مصطلحات: الغرابة لدى فرويد، والشبحية والمراودة لدى دريدا. هكذا حدث تحول في طبيعة النظر إلى الشبح في الثقافة والأدب، فبعد أن كان ينظر إليه على أنه أداة سردية، وسيلة لتجسيد حالة ما ترتبط بالطبيعة الطيفية لبعض الأحداث وأصبح ينظر إليه على أنه مجاز أدبي وأداة نقدية أيضا[39].

مثلما قد تكون هناك روح هائمة في المكان، ربما تكون هناك أيضا روح للمكان كما قال المفكر والروائي الفرنســـي المعاصر باسكال كينار فإنه، «لا يسكن الإنسان داخل بيته فقط، بل يسكن البيت داخل روحه أيضا».

وقـــد كانت تلك الروح الهائمة في المكان، وفي العقل والوجدان موجودة أيضا، ومتمثلة في شخصية كوبولا/ كوبوليوس الشريرة في قصة هوفمان الطويلـــة «رجل الرمال»، والتي أثارت كل تلـــك الأفكار التي طرحها ينتش وفرويد وســـيكوس وكوفمان ومولر وإليســـون وغيرهم من العلماء والنقاد، ومايزالـــون يطرحونها حتى الآن. هذه القصة القصيرة الطويلة (النوفيلا) ونقادها، هي موضوع كتابنا في الفصلين القادمين منه.

8

نص واحد غريب

«وما نظرت إلى المرآة حتى صرخت وخفق قلبي خفوقا شديدا، لأن ما انعكس لي في المرآة لم يكن وجهي، بل وجها تقطبت أساريره بضحكة شيطان آخر»

(نيتشه، هكذا تكلم زرادشت)[1]

كان الهدف الواضح من دراسة فرويد لموضوع الغرابة، هو أن يكتشف المعنى والدلالات العميقة له بالنسبة إلى نظرية التحليل النفسي. ويُعَدُّ مقاله نفسه عن هذا الموضوع أشبه بنقطة تقاطع تواجه الغرابة عندها - كظاهرة جمالية - اللغة الخاصة بالتحليل النفسي. إن الغريب هو الأجنبي أو الآخر داخل النظرية، أما المفاهيم الأخرى فهي أشبه بالطبقة العليا المألوفة، تربة الأرض وأعشابها، تلك التي كان فرويد يعود إليها دوما، وعلى نحو متكرر.

وتقوم الغرابة في جوهرها - كفكرة عامة - على أساس سلسلة من الحضور المتزامن للأجنبي والمألوف معا، المعروف والمجهول معا، الموت في الحياة، والحياة في الموت.

وهكذا يكون أي كاتب يقوم بتجسيد الصراع بين الشخصيات الرئيسية - وفقا لمـا يراه فرويد - إنما يكرر أو يعمل على حـدوث تكرار خاص بهذا الازدواج الموجود داخل فكرة الغرابة، أي الازدواج بين المألوف والغريب، حضور الشـك وفقدان اليقين من ناحية، والشعور بالألفة والتعرف من ناحية أخرى.
ونسـتعرض فيما يلي بعض المعلومات عن الكاتب الألماني الشـهير إرنست هوفمان، ثم نقدم ترجمة لقصته «رجل الرمال» (التي نشرها هوفمان العام 1816)، ونقدم في الفصل التاسع من هذا الكتاب بعض الدراسات النقدية التي أجريت على هذه القصة الطويلة، وعلى قراءة فرويد التحليلية نختتم هذا الفصل ببعض الدراسات النقدية التي أجريت على هذه القصة، وعلى قراءة فرويد التحليلية النفسية لها.

هوفمان.. ذلك الغريب

إرنست تيودور أماديوس هوفمان (1776 - 1822) مؤلف رومانتيكي ألماني للقصص الخيالية، وقصص الرعب، ومؤلف أيضا وناقد موسيقي، ورسام لوحـات فنية وكاريكاتيريـة، وقد كان المؤلف أيضا لتلـك القصة الطويلة القصيرة (النوفيلا) المسـماة «كسارة البندق، والملك الفأر» التي قام الباليه الشـهير «كسارة البندق» على أساسها. كما قام باليه «كوبولا» على أساس قصص أخرى كتبها هوفمان. وهوفمـان من المؤلفين البارزين في الحركة الرومانتيكية عموما، وقد كانت كتاباته شديدة التأثير خلال القرن التاسع عشـر. وفي ضوء إحـدى قصصه وهي «رجل الرمـال The Sandman»، قامت دراسة فرويد عن الغرابة، وهي تلك الدراسة التي أطلقت سيلا من الكتب والمقـالات عن هذا الموضوع خلال القرن العشـرين، ولاتزال تفعل ذلك حتى الآن، وربما ستستمر في ذلك نظرا إلى ما تتمتع به من خصوبة فكرية، وثراء فلسفي [2].
في شـيخوخته، رفض غوته مـا يكتبه هوفمان، واصفا إيـاه بأنه أدب له خصائص مزعجة بسبب ما تحتويه كتاباته من جنون. أما فرويد فرأى في كتابات هوفمان ذلك الاستكشـاف الجوهري الأول للغرابة في الأدب. كما أن دستويفسـكي، وبتأثير من بو أيضا، أكمل مهمة تكوين الرؤى الداخلية

الملازمة للجنون، فكتب روايته الشـــهيرة «القريـــن» (أو المثل)، وقد اعتمد هوفمان على كتابات بعض الأطباء النفسيين المعروفين في زمنه في وصف ســـمات شخصياته وتجســـيدها، كما أنه تأمل بعمق في النصوص الطبية المكتوبة حول مثل هذه الشـــخصيات، ربما حتى يتمكن أيضا من تجســـيد بعض تلك المفارقات فيها، وهو بذلك كان يواصل أيضا بعض التراث الذي قدمه ديدرو، وجوناثان سويفت قبله في هذا الشأن [3].

قبل أن نقرأ

في ضوء هذه القصـــة القصيرة الطويلة، أو هذه الرواية القصيرة جدا (النوفيـــلا) التي كتبها هوفمان عام 1816، كتـــب عالم النفس الألماني إرنســـت ينتش دراســـته حول علم نفس الغرابة العام 1906، وهي تلك الدراســـة التي أكد خلالها أهمية الإحســـاس بالشك والحيرة المعرفية في إثارة الأحاســـيس الخاصة بالغرابة، كما أنه تحدث خلال دراســـته تلـــك أيضا عن موضوعات مثـــل: الإحيائية، حركة الميت وتحوله إلى ما يشبه الحياة، وهمود الحي وتحوله إلى ما يشبه الموت، وهنا جذور فكرة الأتمتة والآلية والأوتوماتون التي في شخصية «أوليمبيا» في قصة رجل الرمال لـ «هوفمان»، والتي ستنتشـــر بعد ذلك في المســـرح، والسينما، والخيال العلمي.

كذلـــك تحدث ينتش عن عامل آخر له صلتـــه بالإحيائية والغرابة، ويتمثل هذا العامل في ميل الإنسان إلى إضفاء نوع من التناظر أو التماثل الفطري لحالته النفسية أو حتى الجسدية الخاصة على الطبيعة، فيعتقد أن أشياء الطبيعة، أشـــياءها غير الحيـــة، يمكن أن تكون حية وتتحـــرك بالطريقة نفســـها التي يتحرك الإنســـان بها، ويحدث هذا لـــدى البدائي، والأديب، والفنـــان، ومبدعين كثيرين، ويحدث كذلك لـــدى الطفل، ذلك الذي يميل إلـــى أن يملأ عالمه بالشـــياطين، وقد يتحدث ذلك الطفـــل أيضا، بطريقة جـــادة، إلـــى المقعد، أو الملعقـــة، أو قطعة من القمـــاش، أو دمية، وقد يقع فـــي حبها، مثلما فعل ناثانيل في قصـــة «رجل الرمال»، حين وقع في حب الدمية «أوليمبيا». وتمثل هذه الظاهرة شكلا خاصا من أشكال ما يسميه

علمـــاء النفس بـ «الرفيق الخيالي»، حيث يختلق الأطفال، بل بعض الكبار، شخصيات متخيلة تصبح أصدقاءهم وأحباءهم، ولأسباب كثيرة ناقشناها في كتابنا عن الخيال [4].

وتحدث أيضا ينتش عن قصة «رجل الرمال» لهوفمان، وعلاقتها بعوامل مثل: الاعتقاد بوجود الأشـــباح، ظاهرة القرين والازدواج، وغيرهما، وقد اســـتفاد فرويـــد من أفكار ينتش، وبـــدا كما لو كان مضطرا إلـــى أن يذكر ما قام به ينتش، قبله، على مضض؛ لأنه كان يحب أن يكون الرائد دائما، والأول دائما. على كل حال، هنا نموذج يتبدى لنا من خلاله كيف يمكن أن يسبق الإبداع الأدبي، ما يقدمه علماء النفس والنقاد من تصورات ونظريات، وقد قدمنا خلال هذا الكتاب تفسيرات عدة لقصة هوفمان هذه، إضافة إلى ما قدمه ينتش وفرويد وغيرهما من تفســيرات لها. وســـوف يـــرى القارئ أن بهذه القصة بعض الاســـتطرادات غير الضرورية التي قـــد تصل بنيتها أحيانا إلى حد الترهل، ولكنه ســـوف يرى أيضا كيف حاول هوفمان أن يجســـد المخاوف البشـــرية والهواجس المخيفة للإنســـان المعاصر، في عالم أصبح معظم ما فيه صناعيا، آليا، جميلا من الخارج، وفاقدا للروح من الداخل، ولســـوف يرى القارئ العزيز أيضا، بعض ديناميات عملية الإبداع، خاصة مـــا يتعلق فيها بما يحدث عندما لا يجد المبدع أذنا مصغية، أو أفقا رحبا يتلقـــى ما يكتبه، بل يصمه بالبـــرود والعبث واللامعنى كما فعلت كلارا مع ناثانيل، وكيف قد يضطر إلى أن يســـرد قصصه وأشـــعاره، ويقدم إبداعه إلى دمية صامتة لا تشـــعر أو تفكر، وهنا نجد الآخر الذي قد يكون حيا، ولكنـــه يفتقـــد الحياة، وقد يكون آليـــا غير حي، لكنه قـــادر - نوعا ما - على الاســـتجابة، هنا قد يتحول المبدع نفســـه إلى آلة، إلى أوتوماتا، دمية متحركة، يفقد روحه عندما يفتقر إلى الآخر الحميم، وقد يســـلمه فقدان الروح إلى الجنون كما حدث بالنسبة إلى ناثانيل.

هنـــا أيضا في هذه القصة التيمات الأساســـية الخاصـــة بالغرابة، مثل القرين (كوبولا وكوبوليوس)، والتلبس الشيطاني، والإحيائية والدمى، والخوف والجنون، هنا صراع العقل والوجدان، وهنا الالتباس، هنا وعي بالتفكك والازدواج واختلال الشعور بالذات والواقع، وأمور كثيرة ناقشناها في هذا الكتاب.

يقول علماء النفس الآن - في بعض دراســاتهم - إن كل إنســان يولد مزودا باستعدادات خاصة للإبداع، واستعدادات خاصة أيضا للجنون، وإن الظروف أو الشــروط الاجتماعية والإنســانية والشخصية التي سيمر بها هي التي تحدد ما إذا كان هذا الإنسان سيصبح مبدعا أو أنه سيتحول إلى مضطرب نفســيا أو مجنون، وبالطبع ليست المسألة هنا من قبيل الثنائية القطعية الجازمة التي تجعل كل إنسان إما أن يصبح مبدعا، وإما أن يصبح مجنونــا؛ وذلك لأن هناك درجات من الإبــداع، ودرجات وأنواعا أيضا من الجنون، وطبيعة الظروف التي سيعيشــها المرء، وكذلك مدى وعيه بذاته، هي التي ســتحدد ما سيؤول إليه مساره على طريق الإبداع أو نحو هاوية الاضطراب النفسي أو الجنون، وثمة فئة ثالثة تظل تتأرجح بين هذا وذاك، وفئة رابعة تقف عند خط الســواء، في دائرة الحياة العادية، التي لا يعتقد أصحابها - مثلما اعتقد هاملت - أن الزمن قد اضطرب، ولا مثلما اعتقد هيغل «أن كل شيء ليس كما ينبغي أن يكون»؛ بل يعتقدون أن «الزمن ليس مضطربا، وأن «كل شيء كما ينبغي أن يكون»، ولم يكن ناثانيل - بطل قصة «رجل الرمال» هذه - [5] من هذه الفئة الأخيرة قط.

رجل الرمال

تأليف: إرنست هوفمان

ترجمة: شاكر عبدالحميد

من ناثانيل إلى لوثاريو

لا بد أنك قد شــعرت بالضيق البالغ لأننــي لم أكتب إليك خلال ذلك الوقت الطويل الماضي. أتوقع أن تكون أمي غاضبة أيضا، كما أن «كلارا» ربمــا تعتقد أنني أعيــش هنا في حالة من الانغماس في المتع الخاصة، وأنني قد نســيت تماما ملاكي العزيز الذي انطبعت صورته عميقا داخل قلبي وعقلي. لكن هذا ليس هو واقع الأمر. فأنت حاضر دائما في أفكاري كل يوم وكل ســاعة، وفي أحلامي السعيدة دائما ما تظهر صورة كلارا العزيزة أمامي تبتســم لــي بعينيها اللامعتين كما

اعتــادت أن تفعل ذلك عندما كنت أدخل الغرفــة، لكن، آه، كيف كان يمكننــي أن أكتــب إليك وأنا تهيمن عليَّ هــذه الحالة من الكآبة التي جعلت عقلي في حالة شديدة من الاضطراب؛ لقد دخل شيء مخيف جدا حياتي!! فمثل ســحب معتمة يصعب اختراقها بواســطة أشــعة شــمس دافئة، تحوّم فوقي هواجس كئيبة تتعلق بقدر مروّع ينتظرني. ســأخبرك ماذا حدث بالنســبة إليّ، أرى أنه ينبغي لي أن أفعل ذلك، مع أن مجرد التفكير في تلك الهواجس يدخلني في نوبة من الضحك تشــبه ضحك المجانين. آه يا عزيزي لوثاريو، كيــف يمكنني أن أبدأ، وبأي طريقة يمكنني أن أجعلك تشــعر كيف أن ما حدث بي منذ أيام قليلة كان من الممكن أن يدمر حياتي فعلا؟ ولو كنت فقط موجودا هنا معي، لا بد أنك كنت ســتقدّر ذلك الأمر بنفسك: وكما هي العادة، لا بد أنك كنت ستعتقد يقينا، أنني رجل مجنون يرى الأشباح.

باختصــار، فإن ذلك الشــيء المرعب الذي حــدث، وذلك الانطباع المخيف الذي ســأحاول جاهــدا أن أجعله يتبــدد، وبلا جدوى، لا يشتمل على أي شيء أكثر من أنه، ومنذ أيام قليلة ماضية، وتحديدا فــي ظهيرة يوم الثلاثين من أكتوبر، دخل غرفتي بائع لأجهزة قياس الضغط الجوي (البارومتر) وعرض عليّ السلع تلك التي يبيعها، وأنا لم أشتر منه شيئا، بل هددته بأن ألقي به أسفل السلم، وعندئذ فإنه غادر طوعا. أنت ســتفهم طبعا أن فقط بعض التداعيات الخاصة التي تمتد بجذورها في أعماق حياتي هي التي ســتضفي معنى ما متعلقــا بأن مجرد ظهور مثل هــذا التاجر (التعس) قد يحدث أثرا ما غير ودي لديّ، وقد كان هذا هو ما حدث حقيقة. وأنا أســتجمع الآن - بكل قوتي - شتات نفسي كي أخبرك بهدوء، وأناة، بكثير من الأمور عن فترة شبابي، الأول، وبالقدر الذي سيكون كافيا لجعل كل شيء واضحا، ولا لبس فيه، بل مفعما بالحيوية لكل حواسك القوية. وبينما أبدأ حكايتي، فإنني أســمعك تضحك، وأســمع صوت كلارا أيضا وهي تقول «هذه مجرد سذاجة أطفال!».

اضحك، أتوسل إليك، اضحك مني بقدر ما تحب! أرجوك أن تفعل ذلك، لكن، يا إلهي الذي في السماء، إن شعر رأسي يقف خوفا، وإنني، وكما لو كنت - وأنا أرجوك أن تضحك مني - أقوم بذلك وأنا في حالة من جنون اليأس تشبه الحالة التي كان عليها فرانز مور في بعض كتابات شيللر وهو يتوسل إلى دانيال. ولكن دعنا نبدأ المهمة التي بين أيدينا الآن!

لقد كنا، إخوتي وإخواتي وأنا، ونحن بعدُ صغار، نادرا ما نرى أبانا خلال النهار كله، إلا وقت تناول طعام الغداء. ربما لأنه كان شديد الانشغال. أما وقت العشاء، والذي كان وبما يتفق مع العادات والأعراف القديمة، يقدم مبكرا، في الساعة السابعة مساء، وقد كنا نحن، ومعنا أمنا كذلك، نذهب جميعا إلى مكتب حجرة المطالعة الخاصة بوالدنا ونتحلق حول مائدة ما ونحتسي قدحا كبيرا من الجعة. وغالبا ما قص علينا قصصا غريبة، وقد كان هو نفسه يستثار تماما وهو يحكيها إلى درجة أن غليونه (البايب) كان يسقط من فمه؛ ومن ثم كان ينبغي لي أن أعيد إشعاله له من خلال قطعة مشتعلة من الورق أو الخشب.

وقد كان ذلك مصدرا للمتعة الكبيرة بالنسبة إليَّ. لكنه كثيرا ما كان يعطينا أيضا كتبا مصورة، ويجلس صامتا لا يتحرك في كرسيه ذي الذراعين، ثم ينفث سحبا كثيفة من الدخان، بحيث كنا نبدو وكأننا تغلفنا سحابة من الضباب، وفي مثل تلك الأمسيات كانت أمنا تستغرق في حالة من الكآبة الشديدة، ولحظة أن تدق الساعة التاسعة تقول: «الآن، أيها الأطفال، إلى السرير، إلى السرير! فرجل الرمال قادم، الآن».

وخلال تلك المناسبات كنت أسمع فعلا شيئا يمشي متثاقلا، صاعدا السلالم ببطء، من خلال وقع خطوات بطيئة، وكنت أعرف أنه رجل الرمال. وذات مرة بدت لي تلك الأصوات الخافتة مخيفة على نحو خاص، وسألت أمي وهي تقودنا خارج غرفة أبي: «أمي، مَنْ رجل الرمال، ذلك الذي يبعدنا دائما عن أبينا؟ ما شكله؟».

أجابت أمي «ليس هناك رجل رمال، يا طفلي العزيز... فعندما أقول إن رجل الرمال قادم، فإن كل ما أعنيه هو أنك قد بدأت تغفو، ولا تستطيع أن تُبْقِيَ عينيك مفتوحتين، كما لو كان هناك شخص ما قد ذر بعض الرمال فيهما».

لم تكن إجابة أمي تقنعني أو ترضيني، ومن ثم فقد تكونت في عقلي الصغير تدريجيًا، فكرة فحواها أنها تنكر وجود رجل الرمال، فقط، لأنها لا تريدنا أن نخاف منه، وذلك لأن الحالة التي كانت تنتابني حال سماعي له وهو يصعد السلالم، حالة قد استمرت معي ولم تتوقف. ومندفعا بفضول كبير لأن أعرف مزيدا من المعلومات حول رجل الرمال هذا، وصلته الخاصة بنا كأطفال، سألت أخيرا تلك المرأة العجوز التي كانت تعتني بأختي الصغيرة عن طبيعة رجل الرمال هذا، وأي نوع من البشر هو.

«أوه يا نات» أجابت المربية، «ألم تعرف ذلك حتى الآن؟ إنه رجل شرير، يتعقب الأطفال الذين يرفضون الذهاب إلى سريرهم ويقذف حفنة من الرمال في عيونهم، حتى إن عيونهم هذه تندفع مغطاة بالدماء وتقفز خارجة من رؤوسهم، ثم إنه يضع هذه العيون في كيسه ويحملها إلى ذلك القمر الهلالي الشكل ويقدمها طعاما لصغاره هؤلاء الذين يعيشون في أعشاش هناك، وبمناقيرهم المعقوفة كالبوم ينقرون عيون الأطفال الأشقياء، ويلتقطونها».

هكذا اكتست تلك الصورة الخاصة برجل الرمال الشرير بتفاصيل جديدة بالنسبة إليّ، ثم إنني كنت عندما أسمع أصوات تلك الخطوات المتثاقلة وهي تصعد السلالم في المساء مقتربة، كنت أرتجف من الخوف والذعر، أما أمي، التي لم تستطع أن تستخرج مني أي شيء مني إلا تلك الصرخة: «رجل الرمال! رجل الرمال!، فكانت تتمتم بينها وبين نفسها باكية. لقد كنت أول المندفعين إلى غرفة نومهم في تلك الليالي التي كان يأتي منها، وقد كان طيفه المخيف يعذبني حتى مطلع الفجر، وقد كنت قد أصبحت بالفعل

أكبر سـنا بدرجة كافية لتجعلنـي أدرك أن الحكاية التي روتها لي تلك المرأة العجوز عن عش أطفال رجل الرمال الصغار في القمر لا يمكن أن تكون حكاية حقيقية، لكن رجل الرمال نفسه ظل بالنسبة إليَّ طيفا مخيفا، كان ثمة رعب استثنائي خاص يهيمن عليّ عندما أسـمعه، ليس وهو يتقدم صاعدا السلالم فقط، بل وهو يفتح بقوة أو عنوة باب غرفة مطالعة والدي، ويدخلها، وقد كانت هناك أوقات يختفـي فيها بعيدا عنا، ليالي عدة، ثم إنه كان يأتي بعد ذلك، على نحو متكرر، ليلة وراء أخرى.

وقد اسـتمر هذا الأمر بضع سـنين، لكني لم أستطع قط أن أعوّد نفسي أو أجعلها تألف ذلك الشبح الغريب؛ فصورة رجل الرمال لم تشـحب قط أو تخفت بداخلي، كما أن ما كان يقوم به مع أبي قد بدأ يشـغل خيالي على نحو متزايد. وقد منعني نوع من الجبن من أن أسـأل أبي حوله، ومن ثم فقد قررت أن أستكشـف ذلك الأمر، وأرى رجل الرمال الخرافي ذلك بنفسـي، ومع مرور السنين كانت تلك الرغبة تنمو بقوة بداخلي أكثر فأكثر. لقد أخذني رجل الرمال نحو بداية الطريق الخـاص بكل ما هو غريب، وتكتنفه المغامرات، وهو شعور قد وجد، وبسهولة، مقاما له في قلب طفل صغير. هكذا لم يفتني شيء ويغلب عقلي مثل القراءة أو الاستماع إلى الحكايات الرهيبة حول الأرواح الشريرة والساحرات والأقزام وما شابه ذلك، لكـن رجل الرمال كان هو الذي فاق ما عداه أهمية بالنسـبة إليَّ؛ ومن ثم فقد كان من عادتي أن أرسـم صورا بشعة له على المناضد وخزانات الملابس (الدواليب) والجدران في كل مكان داخل المنزل.

وعندما بلغت سن العاشـرة نقلتني أمي من غرفة الأطفال إلى غرفة أخرى صغيرة تقع على ممر لا يبعد كثيرا عن غرفة أبي، وكان لايزال ينبغـي لنا أيضا أن نذهب إلـى مضاجعنا (أو أسـرّتنا) عندما تدق السـاعة التاسعة، وكنت لاأزال أستمع إلى صوت ذلك الرجل المجهول وهو يصل إلى بيتنا، ومن غرفتي الصغيرة اعتدت سماعه وهو يذهب

إلـى مكتب أبي، ثم يعقب ذلك مباشـرة أن ينتشـر عبر أرجاء المنزل بخار غريب رقيق. ومع تنامي فضولي، وكذلك شـجاعتي، تمنيت أن أتعرف إلى رجل الرمال، وأطلع على أموره، بطريقة أو بأخرى. وغالبا ما اعتدت أن أتسـلل زحفا من غرفتي إلى الممر عندما تنصرف أمي، لكني لم أسـتطع أن أكتشف شـيئا، وذلك لأن رجل الرمال قد اعتاد غالبـا أن يظل بالفعـل داخل المنزل، في ذلك الوقـت الذي أكون قد وصلت خلاله إلى المكان الذي قد أستطيع من خلاله أن أراه. وأخيرا، ومدفوعا، بدافع غلاب لا يقاوم، قررت أن أخفي نفسـي داخل غرفة أبي ذاتها، ومن هناك أنتظر حضور رجل الرمال.
وهكذا، فإنه ذات مسـاء، دلني صمت أبي وكآبة أمي على أن رجل الرمال سـوف يأتي، فتظاهرت بأنني متعب تماما، وغادرت الغرفة قبل السـاعة التاسـعة، واختبأت داخل كوة أعلى سلم البيت. لقد صـدر صرير عن باب المنزل وهو يفتـح، وعبرت خطوات صدرت عنها أصوات مكتومة من ذلك الرواق واتجهت نحو السلم، وبهدوء، فتحت باب غرفة أبـي، وقد كان أبي يجلس كما اعتاد، صامتا بلا حركة، معطيا ظهره للباب، وهو لم يلحظني، وفي لحظة كنت داخل الغرفة واختبأت خلف سـتارة ممتدة عبـر خزانة ملابس مفتوحة خلـف الباب مباشـرة، وفيها كانـت ملابس أبي تعلـق. واقتربت الخطوات المكتومة أكثر فأكثر، كما كانت هنا أصوات سعال غريبة، وأحاديث خشـنة حادة، ودمدمة من الخارج، وارتجف قلبي واهتز بفعـل الخوف والتوقع، ثم على نحو أكثـر فأكثر قربا خلف الباب، وبخطوة سـريعة وضربة قوية على المزلاج (السقاطة) انفتح الباب محدثا جلبة، استجمعت شجاعتي كلية، واختلست النظر إلى خارج مكمني بحذر، وكان رجل الرمال يقف أمام أبي في وسـط الغرفة، وكان وجهـه مرئيًا تماما في الضوء السـاطع للمصابيح، كان رجل الرمال الرهيب هو نفسـه المحامي العجوز كوبوليوس، الذي أحيانا ما كان يأتي لتناول طعام الغداء معنا.

إن أكثر الأشكال إحداثا للرعب لم تكن لتقدر على استثارة ذعر أعمق من ذلك الذعر الذي كان يسـتثيره في نفسـي كوبوليوس هذا، تخيل رجلا ضخما، عريض المنكبين، برأس كبير، غير متناسق الشكل، وبوجه لونـه كلون الغراء الأصفر، بحاجبين كثيفين رماديين، من تحتهما زوج من العيون الخضراء المتقدة التي تشـبه عيون القطط على نحو حاد، ثـم هناك أنف كبير ثقيل يتجه نازلا فوق الشـفة العليا، وفمه المنحية خطوطه في الشـكل غالبا كان ما يتشوه شكله بضحكة حقودة خبيثة تصـدر عنه، وفي تلـك الأوقات كانت تظهر بثرتـان ذواتا لون أحمر ثقيـل على خديه، ثم يخرج صوت هسـيس غريب كصوت الأفعى من بين أسـنانه المزمومة بإحكام وغالبا مـا كان كوبوليوس يظهر مرتديا سـترة رمادية باهتة تم تفصيلها علـى الطراز القديم، ومرتديا كذلك صدريـة نمطية، وبنطـالا ضيقا، ولكنه إضافة إلـى ذلك كان يرتدي أيضا جوارب سـوداء وحذاء بإبزيم مزين مجلـي، وبالكاد كانت جُمّة من الشعر المستعار الصغيرة تغطي ما يزيد على قمة رأسه، كما كانت لفات أسـطوانية الشكل من الشعر المجعد تتدلى فوق أذنيه الكبيرتين الحمراوين، وهناك أيضا جزء عريض من الشـعر رمادي اللون، يبرز إلـى الخارج خلف رقبته، بحيث كان يمكنك أن ترى إبزيما (دبوسـا) فضيًا يثبـت ربطة عنقه. لقد كانت الصورة العامـة له كريهة تعافها النفس، وقد كان الأكثر إثارة للنفور من غيره بالنسـبة إلينا كأطفال، هي يداه المغطاتان بشـعر كثير ملتف فيما يشبه العقد، ومن ثم فإننا كنا نفقد رغبتنا في أي شيء يلمسه بيديه، وقد لاحظ هو نفسه ذلك، وكان يجد متعة في أن يلمس بأصابعه، تحت هذه الذريعة أو تلك، أي قطعة صغيرة من الكعك، أو أي فاكهة لذيذة الطعم كانت أمنا تضعها خلسـة في صحن طعامنـا؛ ومن ثم فإن الحلـوى أو المربى التي كان يفترض أن تجعلنا نسـتمتع بها كانت تملؤنا فقط بالاشمئزاز والنفور، وقد كان يفعل الأمر نفسـه، في تلك الأيام الخاصة، التي كان والدنا يصب لنا فيها كأسـا صغيرة من النبيذ: لقد كان يصل بيده بسـرعة

إلى تلك الكأس حتى يرفعها إلى شفتيه الزرقاوين ويضحك على نحو شـيطاني عندما نجرؤ على إبداء غضبنا منه فقط من خلال تنهيدة مهذبة، وقد اعتاد أيضا على أن يسمينا الحيوانات الصغيرة، وعندما يكون موجودا، لم يكن ليسمح بأن يصدر أي صوت عنا، وقد كنا نلعن ذلك الرجل الشرير والبغيض الذي سعى - على نحو متعمد - إلى أن يدمر حتى أقل المتع وأصغرها بالنسبة إلينا. كما كان يبدو أن أمنا قد كانت تكره كوبوليـوس البغيض مثلما كنا نفعل؛ وذلك لأنه كان لحظة أن يظهر بنفسـه، فإن بهجتها الخاصة، طبيعتها المرحة البسيطة غير المتكلفة، كانت سرعان ما تتحول إلى حزن أو انقباض وأسى حقيقي. أما أبي فقد كان يتعامل معه بوصفه كائنا علويا سـماويا ينبغي تحمل طباعه السـيئة، وأنه ينبغي أن نجعله محتفظـا بحالة مزاجية طيبة، أيـا كانت تكلفة ذلك، وقد كان عليه أن يلقى بأدنى تلميحة أو إشـارة فقط، فتعد أطبـاق الطعام التي يفضلها، وتقـدم إليه الأنبذة (جمع نبيذ) النادرة أيضا.

عندمـا رأيت الآن هـذا الـ «كوبوليوس»، امتـلأت روحي بالخوف، وكذلك الرعب؛ لأنه من بين جميع البشر ثبت أن هذا الرجل نفسه هو رجل الرمال، لم يعد رجل الرمال الآن بعد ذلك هو ذلك الإنسان الغـول، أو البُعبُـع في الحكاية الخاصة بمرحلـة الطفولة المبكرة، والـذي كان يأخذ عيون الأطفال طعاما لعش البومة في القمر. لا، لقد كان الآن هو ذلك الوحش الطيفي البغيض الذي يجلب التعاسة والبؤس والدمار الدنيوي الدائم أينما حل أو ذهب.

وقد وقفت في مكاني ذلك كما لو كنت قد تم تثبيتي فيه، ومخاطرا بإمـكان أن أكتشـف، كما كنت أعتقد جازما، وأن أعاقب بقسـوة، ظللت هناك، في مكمني، أستمع، بينما رأسي يرتطم بالستارة، فقد استقبل أبي كوبوليوس باحترام شديد محتفيا به، ثم إن كوبوليوس قد صاح بصوت خشـن مجلجـل: «هيا، إلى العمل»، ثم تخلص من سترته وألقى بها.

أمــا أبي فقد تخلص ببطء وعبوس من عباءتــه، ثم تدثر كل منهما بـ «ســمق» أسود طويل، ولم أســتطع أن أرى من أين حصلا على هذين الثوبــين. ثم فتح أبي الأبواب ذات المصاريــع القابلة للطي في خزانة الملابس التي في الجدار، ثم إنني رأيت أن ما اعتقدت - ولوقت طويل - أنه خزانة ملابس، قد كان - بدلا من ذلك - كهفا أسود، في داخله ينتصــب موقد نار صغير، ثم إن كوبوليوس قد اقترب منه فتصاعدت نار زرقــاء متوهجة فوق ذلك الموقد. وقد كانــت الأدوات من الأنواع كلهــا ملقاة هناك، حول ذلك الموقد. يا رب يــا كريم! فلحظة أن مال أبي فوق النار، بدا منظــره مختلفا تماما عما أعرفه. لقد كان هناك ألم تشــنجي مصحوب بتقلصات قد شوهت ملامحه الرقيقة الطيبة، وحولتها إلى قناع شيطاني شائن منفر. قد أصبح شبيها بكوبوليوس، وهنا أمسك كوبوليوس بملقاطين لامعين، وبواسطتهما استخرج مواد براقــة متوهجة من داخل الدخان الأســود، ثم بــدأ يطرق هذه المواد بقوة بمطرقة كي يشــكلها، وقــد بدا لي كأنني أرى وجوها بشــرية، هنــا وهناك، في كل مكان، لكنها كانت وجوها بلا عيون، كما أنه بدلا من العيون قد كانت هناك فجوات ســوداء شــنيعة. «العيون، أحضر العيون!»، هكذا صرخ كوبوليوس في صوت بارد أجوف؛ وبســبب ذلك الرعب الهائل الذي سيطر عليَّ، صرخت بصوت مرتفع، وسقطت من مكمني على أرضية الغرفة، وأمسك كوبوليوس بي.

أيها الحيــوان الصغير! أيها الحيوان الصغيــر! تحدث كوبوليوس بنبرة متذمرة، كاشــفا عن أســنانه، ثم جذبني إلــى أعلى ودفعني نحو موقد النار، إلى درجة أن ذلك اللهب بدأ يحرق الجانب العلوي من شــعري. «من الآن لدينا عيون، عيون، زوجان جميلان من عيون الأطفال»، همس كوبوليوس وأخذ حفنة من الرماد الأحمر المتوهج بيده، وكان على وشــك أن يذرها داخل عينــي، لكن أبي رفع يديه وناشده وهو يصرخ «أيها الأستاذ!، أيها السيد!، دع ناثانيل يحتفظ بعينيه، دعه يحتفظ بهما!».

هنا ضحـــك كوبوليوس بقوة وصـــرخ: «يمكن للصبـــي أن يحتفظ بعينيه، وأن يحتفظ بقدرته على اســـتخدامهما. لكن دعنا نلاحظ الآن آليات عمل يديه وقدميه».
ومـع انتهائه من قوله هذا أمسـك بي بعنف شـديد إلى درجة أن مفاصلي قد طقطقت، ثم إنه فكك يديّ وقدميّ، وثبتها في أشكال متعددة مختلفة.
«إنها لا تبدو في وضع صحيح على أي حال! لقد كانت حالها السابقة أفضل! لقد كان الخالق يعرف ما كان يفعله!» هكذا دمدم كوبوليوس في كلامه، وأصدر صوتا يشـبه فحيح الأفعى، ثم أصبح كل شـيء مظلما حولي، وعَمَّ جسدي كله تشنج مفاجئ، فلم أعد أشعر بشيء. ثم مر تنفس رقيق عبر وجهي، واسـتيقظت كما لو كنت أصحو من نوم الموت، ثم رأيت أمي، تميل فوقي.
«هل ما زال رجل الرمال هنا؟» هكذا غمغمتُ قائلا.
«لا، يـا طفلي العزيز، قـد ذهب بعيدا، منذ وقـت طويل، وهو لن يؤذيك». هكـذا قالت أمي، ثم قبلتني واحتضنت ذلك الطفل الذي عاد إليها.
لمـاذا ينبغي لي أن أزعجك يا عزيـزي لوثاريو، بكل هذه التفاصيل الدقيقـة، مع أنـه يظل هناك الكثير والكثير ممـا ينبغي أن يقال؟ كفى! لقد تم كشفي وأنا أسترق النظر، وأساء كوبوليوس معاملتي، وقد جلب الخوف والذعر اللّ معهما حمى شـديدة رقدت خلالها مريضا عدة أسابيع. «هل مازال رجل الرمال هنا؟»، كانت تلك هي الكلمـات المفهومة الأولى التي قلتها، وقد كانت هي العلامات على أنني قد شُفيت من مرضي، وأنه قد تم إنقاذي، أما الشيء الوحيد الباقي لديّ كي أحكيه لك فهو تلك اللحظة الأكثر رعبا من لحظات طفولتي، وستكون حينئذٍ مقتنعا بأنه ليس ثمة ضعف في عيني هو الذي صور لي هذا العالَم باهتا وغير ممتع هكذا بالنسـبة إليَّ، بل إن نوعـا من المصير المظلم، بدلا من ذلك، قد أسـدل فوق حياتي،

فعلا، حجابا من الكآبة، وهو حجاب ربما سـأمزق أغلاله إربا في لحظة موتي فقط.

لم يعد كوبوليوس يُشاهد بعد ذلك، على أي حال، وقد قيل إنه غادر المدينـة، وربما كانت قد مضت سـنة بعد ذلك، وكنا جلوسـا حول المائدة في المساء، بما يتفق مع عاداتنا القديمة، التي ظلت لا تتغير، وقد كان أبي يشـعر بالبهجة وهو يحكي لنا أشياء مسلّية حول تلك الرحلات التي قام بها في شـبابه. ثم، وفجأة عندما دقت الساعة التاسـعة، سـمعنا فجأة صوت مفصلات باب المنـزل وهي تصدر صريرا، ثم وقع خطوات بطيئـة متثاقلة تحدث صوتا مكتوما عبر قاعة الدخول إلى البيت، ثم بدأت تلك الخطوات تصعد السلالم.

«هذا هو كوبوليوس» هكذا قالت أمي، ووجهها يزداد شحوبا. «نعم، إنه كوبوليوس»، أجاب أبي بصوت فاتر منكسر، ثم انسابت الدموع مـن عيني أمي، ثـم صرخت «أيها الأب، أيهـا الأب، هل ينبغي أن يكون الأمر كذلك؟». «إنهـا المرة الأخيرة» قال أبي «إنه يأتي للمرة الأخيرة، أعدك بذلـك، والآن اذهبي، اذهبي مع الأطفال، اذهبوا، اذهبوا إلى أسرتكم. ليلة سعيدة!».

وقد شعرت بأنني أتحطم تحت صخرة قاسية، واحتبست أنفاسي! وأخذتني أمي مـن ذراعي حيث كنت أقف هناك بلا حراك: «هيا، يـا ناثانيل، هيا بنا» هكذا، قالت أمـي، وإنني تركتها تقودني بهذه الطريقة، وذهبت إلى غرفتي.

بعد ذلك صاحت أمي نحوي: «الأمور على ما يرام، الأمور كلها على ما يرام. ارقد في سريرك واستغرق في النوم»، ولكني، وقد برح بي ألم خوف وكرب داخليان لا يمكن وصفهما، لم أسـتطع القيام بما يتجاوز مجرد إغلاق عيني. لقد كان كوبوليوس البغيض المنفر يقف أمامـي بعينيه النارِيتين يضحك بحقد سـاخرا مني، وقد حاولت، ولكن بلا جدوى، أن أطرد صورته من عقلي.

ربما كان الوقت قد تجاوز فعلا منتصف الليل عندما حدث انفجار

مخيف، يشـبه صـوت انطلاق النيران من مدفـع، فاهتزت أرجاء المنزل كله، وكانت هناك أصوات فوضى وتدافع، تعبر من أمام باب غرفتـي، كما أُغْلِقَ باب المنزل الخارجي بعنف، محدثا ضجة عالية «هـذا هو كوبوليـوس»، صرخت في فزع، ووثبت من سـريري، ثم سمعت صرخة حادة، إنها صرخة الكرب المبرح الحادة اليائسة، ثم اندفعت متجها نحو غرفة أبي، وقد كانت الأبواب لا تزال مفتوحة، فـي حين كانت كتل خانقة من الدخـان تتدافع إلى الخارج متجهة نحوي، وقد كانت الخادمة تصرخ «آه يا سـيدي، يا سيدي!»، وأمام الموقـد الذي يتصاعد منه الدخان كان أبي يرقد ميتا فوق الأرض، وكان وجهه ملطخا مسودا بالدخان، ومشوها على نحو بشع، وكانت أخواتـي ينتحبن ويجهشـن بالبكاء والعويل حولـه، في حين كانت أمي بجـواره غائبة عن الوعي، أما أنا فقـد صرخت بصوت عالٍ «كوبوليوس، أيها الشـيطان المجرم، لقد قتلت أبي»، ثم خارت قواي تماما.

وعندما سُـجّي والدي في تابوته بعد ذلك بيومين، تحولت ملامحه ثانية إلى تلك الملامح الهادئـة والرقيقة، التي كان عليها دائما في حياتـه، كما أنني شـعرت، في أعماق روحي، بالعـزاء لمعرفتي أن علاقتـه تلك مع كوبوليوس الشـيطاني الطابع لم تصبه، تحت أي ظروف، بلعنة أبدية دائمة.

وقـد أيقظ الانفجار الجيران، وأصبحت الأمور الخاصة بما حدث معروفة للجميع، كما أنها اسـترعت اهتمام السلطات المعنية، تلك التي رغبت في أن تسـتدعي كوبوليوس لتفسـير ما حدث، لكنه - على كل حال - اختفى من دون أن يترك أي أثر وراءه.

عندمـا أخبرك الآن - يا صديقـي العزيز - بأن بائع أجهزة قياس الضغط (الباروميتر) الذي سبق أن ذكرته، لم يكن سوى كوبوليوس الشرير المجرم نفسه، فإنك لن تلقي باللوم عليّ عندما أفسر ظهوره مرة أخرى بأنه نذير أكثر أنواع الشؤم كآبة. لقد كان يرتدي ملابس

مختلفة، لكن شــكل كوبوليوس وملامحه كانت منطبعة بشــدة في أعماق كياني بحيث يصعب أن تكون هناك أي احتمالية لأن أخطئ تعــرُّف صاحبها، بل إنــه حتى - إضافة إلى ذلــك - لم يقم حتى بتغيير اسمه! فقد سمعت أنه قد يقدم نفسه هنا على أنه ميكانيكي بارع في صنع الأجهزة الدقيقة يســكن سفوح الجبال، وأنه يسمي نفسه جيوسيبي كوبولا.

وقــد قررت أن أحصل منه على أفضل ما لديه، ثم - وأيّا ما كانت النتيجة - أن أنتقم لموت أبي.

لا تخبر أمي شــيئا عن عودة ظهور ذلــك الوحش الكريه الوضيع، وأبلغ تحياتي إلى عزيزتي كلارا، وسوف أكتب إليها عندما أكون في حالة مزاجية أكثر هدوءا. وداعا.

من كلارا إلى ناثانيل

الحقيقــة أنك لم تكتب إليَّ منذ وقت طويل، لكني أعتقد - مع ذلك - أنني موجودة معك، أســكن أفكارك كلها، وذلك لأنك لا بد كنت تفكر فيّ عندما انتويت أن ترسل خطابك الأخير إلى أخي «لوثاريو»، لكنك وجهــت خطابك إلــيّ بدلا من أن توجهه إليه، وفــي حالة من البهجة الكبيــرة فتحت الخطاب ثم أدركت توّا الخطــأ الذي في كلماته التي تقــول «آه، يا عزيــزي لوثاريو». وقد كان ينبغي لــي ألا أقرأ أكثر من ذلك، وأن أعطي الخطاب لأخي، لكنك اعتدت أن تغيظني بقولك إنني أمتلــك طبيعة أنثوية هادئــة، رابطة الجأش تماما، وإلى حد أنه حتى لو انهار المنزل فإنني، ومثل شخصية تلك السيدة في إحدى القصص، ســأتوقف، وألمس الستائر بنعومة كي أعدل من شكلها قبل أن أهرب، ومن ثم فإنــه بالكاد، يمكنني إقناعك بــأن بداية خطابك قد حركت مشــاعري على نحو عميق تماما. لقد كنت أتنفس بصعوبة بالغة، في حين بدأ رأســي في الدوران. آه، أيها الحبيب ناثانيل، ما تلك الأشياء المفزعة التي ظهرت في حياتك؟ إن كوني بعيدة عنك لا يعني ألا أراك

ثانيـــة: لقد مزقـــت تلك الفكرة نياط قلبي مثـــل خنجر ملتهب، هكذا واصلت قراءة الخطاب وقد كان وصفـــك للبغيض كوبوليوس مرعبا، وقـــد عرفت الآن فقط، أن والـــدك العزيز لقي حتفه نتيجة مثل ذلك الموت المخيف، أما لوثاريو، الذي أعطيته خطابك. فقد حاول أن يهدئ من روعي، لكنه لم ينجـــح في ذلك إلا قليلا. لقد كانت صورة التاجر الكريه جيوســـيبي كوبولا تطاردني في كل مكان، وإنني أشعر بالخجل إلى حد كبير عندما أعترف إليك بأنه كان قادرا حتى على أن يحدث الاضطراب في نومي أنا أيضا، ذلك الذي كان دائما عميقا، ونادرا ما حـــدث الاضطراب فيه من خلال أي من تلك الأنواع كلها من الأحلام الغريبة. ولكن في الحال، وحالما جاء اليوم التالي، رأيت كل شيء على نحـــو مختلف، لا تغضـــب مني، أيها الحبيب الغالـــي، حتى لو اضطر لوثاريو إلى أن يخبرك بذلك، فإنه على الرغم من هواجســـك الغريبة من أن كوبوليوس على وشـــك أن يلحق بك الأذى، بطريقة أو بأخرى، فإنني الآن، مرة أخرى، هادئة ومبتهجة مثلما كنت كذلك دائما.

دعنـــي أقل لك ما أعتقده، بشـــكل مباشـــر: إن كل تلك الأشـــياء الشبحية والمخيفة التي نتحدث عنها، إنما تحدث فقط في داخلك أنـــت، وإنه لا يوجد إلا دور صغير للعالـــم الخارجي الواقعي فيها، وإنه ربما كان كوبوليوس العجوز بغيضا ومنفرا بدرجة كافية، ولكن ذلـــك قد يعود في جوهره، إلى أنه يكره الأطفال إلى درجة تجعلهم يشعرون بمشاعر بغض مماثلة نحوه.

لقـــد توحد رجل الرمال المخيف الذي فـــي حكاية الطفولة المبكرة، على نحو طبيعي في عقلك، خلال طفولتك، مع شخصية كوبوليوس العجـــوز. ومـــع أنك لم تعد تعتقـــد في حقيقة رجـــل الرمال، فإن كوبوليوس، ظل بالنســـبة إليك وحشـــا شـــبحيًا وخطرا، على نحو خاص، بالنســـبة إلى الأطفـــال، كما أن تلك الأشـــياء الغريبة التي كان يقوم بها ليلا، مع والدك، لم تكن في الحقيقة أكثر من تجارب خيميائية ســـرية، كانا يقومان بها معا. وبالكاد كان يمكن أن تشعر

أمك بالســـرور، بالنســـبة إلى مثل تلك التجــارب؛ وذلك لأن كمية كبيـــرة من النقود كانت تتبدد، دون شـــك، فيها، وإضافة إلى ذلك، وكمـــا هو مفترض، ومتوقع، دائما بالنســـبة إلى مثل تلك التجارب المعملية، فإن والداك، الذي اســـتغرقته مثـــل تلك الرغبة الخادعة فـــي الوصول إلى الحقيقة العليا، وســـيطرت عليه، كان قد أصبح غريبا عن عائلته. لقد ســـبب والدك - بالتأكيد - الموت لنفسه من خلال لامبالاته الخاصة تلك، وإنه لا ينبغي أن نلوم كوبوليوس على ذلك. وقد سألت بالأمس عالم كيمياء متبحرا في علمه عمَّا يقطن بجوارنا، عما إذا كان مثل ذلك الانفجار المباغت المميت أمرا ممكنا في مثل تلك التجارب الكيمائية، فقال «آه، بالطبع»، ثم طفق يصف لـــي بطريقته الخاصة كيفيـــة حدوث مثل هذا الانفجـــار، وبأنواع الأمثلة والأسماء كلها، وهي أسماء كثيرة وغريبة الجَرْس، وطريقة النطق كنت عاجزة تماما عن تذكرها، بعد ذلك، والآن، فإنني أتوقع أن يصيبك الضيق من عزيزتك كلارا فتقول : لا يمكن حتى لشعاع واحد من ذلك العالم الغامض الذي يحير البشـــر بأسلحته الخفية أن يختـــرق ذلك القلب البارد، ذلك القلب الذي يبتهج فرحا بفاكهة خادعة براقة، ولا يظن أن سما قاتلا كامنا فيها.

يـــا محبوبـــي ناثانيـــل، ألا تعتقـــد - إذن - أنه حتى تلـــك القلوب المبتهجة، البسيطة، غير المتكلفة، اللامبالية، من الممكن أن تسكنها أيضا هواجس قوى مظلمة مخيفة تسعى جاهدة أن تدمر أعماقنا؟ سامحني لو أنني، أنا الفتاة البسيطة (الساذجة) فقط، قد حاولت أن أشـــير، وبطريقة بسيطة نوعا ما، إلى ما أعتقده فعلا حول مثل تلـــك الصراعـــات الداخلية. إنني على يقين مـــن أنني لن أجد في النهاية، الكلمات الصحيحة، وإنك ســـتضحك مني، ليس بسبب ما أعتقد أنه غباء مني؛ بل لأن الطريقة التي أقول بها ما أعتقده هي طريقة خرقاء تماما.

ربما هناك فعلا بعض القوى المخيفة الظلامية التي تشدنا إليها، والتي

تقودنـــا عبر ممر مدمـــر تكتنفه المخاطر، ممر ربما كنـــا نحن، وعلى نحو ما، غير قادرين على الســـير فيه، لكن، ولو كان الأمر كذلك، فإن تلك القوى لا بد أنها ســـتتخذ بداخلنا شكلا خاصًا بنا، وإننا سنتحول إليهـــا، نصبح مثلها، وتصبح هي نحن، ومـــن دون ذلك، لن نصغي إلى مـــا تمليه علينا، وإلا فإنه لن يكون هنـــاك أي حيز بداخلنا يمكن لهذه القوى أن تقوم من خلاله بممارســـة عملها الخفي. لكننا لو كنا نمتلك عقلا راسخا، عقلا يقوى من خلال قدرته على العيش في بهجة، فإننا ســـنكون دائما قادرين على تعرف جوهر ذلك الأثر الضار غير الودي، ومـــن ثم يكون على تلك القوة الغريبـــة أن تخضع لذلك الصراع الذي لا بد أن نفترض حدوثه، وذلك قبل أن تتخذ ذلك الشـــكل الذي تكون عليه، والذي هو - كما قلت - مجرد صورة مرآوية ما، لأنفسنا.

«وما هو مؤكد أيضا» - كما صاغ لوثاريو الأمر - هو أن هذه القوة النفسية المظلمة، ولحظة ما أن نخضع لها ونستسلم، فإنها غالبا ما تتخذ أشـــكالا أخرى يلقي بها العالم الخارجي في طريقنا ويقربها إلينـــا، وإلى الحد الذي تســـتمد منه تلك الروح التـــي تبدو وكأنها تحرك تلك الأشكال، طاقتها المشتعلة من خلالنا نحن أنفسنا، ومن خـــلال علاقتهـــا الوثيقة بنا، ثم إنه ومن خـــلال تأثيرها البالغ في قلوبنا، تمتلك تلـــك القوى القدرة على أن تلقي بنا في الجحيم، أو أن ترفعنـــا إلى جنات الفردوس، وهـــذا مرجعه إلى أن هذه القوى إنما هي فقط «أشباح الأنا» الخاصة بنا».

ولســـوف ترى - يـــا محبوبي ناثانيل - أنني قـــد تحدثت كثيرا إلى أخي لوثاريو، حول تلك القوى والطاقات المظلمة، وأنا أطرح، عليك، الآن فقط، تلك الاستنتاجات الأساســـية التي توصلنا إليها - ليس بطريقة سهلة - وذلك لأنها تبدو لي بالغة العمق، وأنا لم أفهم تماما كلمـــات لوثاريو الأخيرة، أو خلاصة ما توصـــل إليه، لقد أدركت - بشكل عام فقط - بعض ما يقصده، وما يقصده، يبدو لي، مع ذلك، حقيقيًا تماما، كُنْ على يقين بأن تلك الأشـــكال القادمة من الخارج

ليـــس لها أدنى تأثير فيك، إنه فقط ذلك الاعتقاد بأن لها مثل تلك القوة مـــا يضفي عليها ويمنحها مثل ذلك التأثيـــر، وما لم يكن كل سطر كتبته في خطابك قد تحدث عن ذلك الاهتياج الشديد العميق الذي تشـــعر به، وما لم تكـــن تلك الحالة التـــي تعانيها قد حركت أعمـــاق روحي بقوة، ما لم يكن الأمر كذلك؛ فإنني كنت ســـأضحك من تلك الصوره الخاصة برجل الرمال المحامي، وبائع البارومترات كوبوليوس، لكـــن ابتهج يا ناثانيل، كن مبتهجا! لقد قررت أن أصبح الروح الحارســـة لك، وإنه لو تجرأ كوبـــولا - ذلك المنفر - أن يرزح بثقله على أحلامك فإنني ســـأعتبره - ســـاخرة منـــه - غير جدير بالاهتمام! إنني لا أخشـــاه، ولا أخاف من يديه المرعبتين. يمكنه أن يظهر كمحام أو كرجل رمال، لكني لن أتركه يفســـد عليَّ متعة تناول الكعك الذي أحبه، أو أن أجعله يسلبني عينيّ.

المخلصة لك دائما، يا أيها الحبيب الغالي ناثانيل

من ناثانيل إلى لوثاريو

لقد حدث الأمر بالتأكيد بســـبب شـــرودي الذهني الغريب،، لكني مازلت أشعر بالأسف لأن كلارا قد فتحت خطابي إليك وقرأته، وقد ردت عليه بخطاب فلسفي شديد العمق، أثبتت خلاله - بالتفصيل - أن كوبوليوس وكوبولا يوجدان فقط بداخلي، وأنهما شبحان يتعلقان بـ «الأنا» الخاصة بي، وأنهما ســـيختفيان فورا ويتحولان إلى رماد، لحظة أن أعـــرف حقيقتهما. إن المرء لم يكـــن ليعتقد أن مثل ذلك العقل الذي يشع غالبا من خلال هاتين العينين اللامعتين المبتسمتين مثـــل حلم جميل عزيز، يمكنـــه أن يكون قادرا على القيام بمثل ذلك التحليل الحكيم الجدير بنظار المدارس. لقد لجأت إليك، وتحدثتما عني. وافترض أنك ألقيت عليهـــا محاضرة في المنطق، بحيث إنها كانت قادرة على تمحيص كل شـــيء وتمييزه على نحو صحيح، ليكن الأمر كذلك، وعلى نحـــو افتراضى، دعنا نقل، إضافة إلى ذلك، إن

بائع أجهزة الضغط الجوي جيوسيبي كوبولا ليس هو البتة المحامي العجوز كوبوليوس. لقد حضرت مجموعة من المحاضرات مع أستاذ جديد للفيزياء وصل توّا، وهو ليس إلا العالم الشـهير سـبالانزاني وهو إيطالي الجنسية. وقد كان قد عرف كوبولا لسنوات كثيرة، وهو يقول إنك تسـتطيع - على كل حال - أن تقول من خلال صوته إنه فعلا من سكان سـفوح الجبال، لقد كان كوبوليوس ألمانيا، ولم يكن ذلك ليجعلني - على كل حال - مستريحا تماما. ويمكنك أن تستمر فـي اعتقـادك - ومعك كلارا - بأنني مجرد حالم يشـعر بالكآبة، لكني لا أسـتطيع أن أتخلـص أبدا، من ذلك الانطبـاع الذي تركه وجه كوبوليوس الملعون بداخلي. وأنا أشـعر بالسرور الآن، لأنه قد غادر المدينة، كما أخبرني بذلك سـبالانزاني. وبالمناسبة، فإن هذا الأستاذ صاحب غريب، إنه رجل قصير القامة ممتلئ الجسم، عظام وجناته ناتئة مرتفعة، له أنف نحيل، وشـفتان بارزتان مقلوبتان إلى الخارج، وعينان تومضان قليلا، لكن صورة تشـودويكي في روزنامة برلـين للجيب التي طبعها كاغليسـترو قد تعطيك فكرة عن شـكل سبالانزاني أفضل من وصفي هذا له.

منـذ وقـت قريب، صعـدت السـلالم داخـل بيت البروفيسـور سـبالانزاني، وأدركت وجود سـتارة كانت مشدودة بإحكام، هناك، عبـر باب زجاجـي، وفوقهـا كان هناك بصيص مـن الضوء، ولم أعرف، حتى أنا نفسـي، كيف أن أنظر عبر ذلك الباب. وقد كانت هناك امرأة طويلة، نحيلة جدا، كاملة من حيث نسـبها وتناسـبها، ترتـدي ملابس رائعـة، كانت تجلس في الغرفة بجـوار (منضدة) صغيرة، كانت ذراعاها راقدتين على المنضدة، ويداها مضمومتين، وقد كانت جالسة في مواجهة الباب، ومن ثم فقد استطعت أن أرى وجهها الملائكي كله، وقد بدت وكأنها لم تلحظ وجودي، كان هناك شـيء ثابت ولامع يتعلق بهما، وإنني قد أستطيع أن أقول، تقريبا، إنهـا كانت فاقدة لحاسـة الإبصـار، وكما لو كانت تنـام وعيناها

مفتوحتان. وقد انتابني، بسببها، شعور محير غريب تماما، ومن ثم فإنني قد تسللت بهدوء، بعيدا نحو غرفة إلقاء المحاضرات المجاورة لها، وقد عرفت، بعد ذلك، أن تلك الشخصية التي رأيتها كانت هي أوليمبيا، ابنة سبالانزاني، التي احتجزها وحجبها، وعلى نحو لا يصدق وجدير بالاستنكار، هناك، بحيث لا يستطيع أي إنسان أن يقترب منها. لكن ربما كان هناك - بالطبع - شيء غريب خاص يتعلق بها، فلربما كانت ضعيفة العقل، أو شيئا من هذا القبيل.
لكن لماذا أكتب إليك عن هذا الأمر؟ بينما كان يمكنني أن أخبرك بهذا الأمر على نحو أفضل، من خلال تفاصيل أكثر، ووجها لوجه، وذلك لأنك لا بد أن تكون قد عرفت أنني سأكون معكم بعد أسبوعين، إنني أود أن أرى ملاكي العزيز الجميل، كلارا ثانية. حينئذ سيمكنني أن أطرد بعيدا ذلك المزاج السيئ (كما اعترفت به) الذي أوشك أن يتغلب عليّ بعد أن قرأت خطابها الحكيم المزعج ذلك، وهذا هو السبب الذي يجعلني لا أكتب إليها اليوم. أرسل إليكما آلاف التحيات.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر غرابة ومجافاة للعادي من الأمور، قد يمكن اختراعه من ذلك القدر الذي أصاب صديقي المسكين، الطالب الشاب ناثانيل، الذي أخذت على عاتقي مهمة أن أحيطك به علما. فهل سبق لك، أيها القارئ العزيز، أن شعرت بأي شيء يستحوذ عليك ويمتلك قلبك تماما، ويأخذك، يأخذ أفكارك وحواسك بعيدا عن كل شيء آخر، وحيث كل شيء يضطرب، ويصبح عكرا، ويغلي بداخلك، فيدفع الدم المتدفق الحار، عبر أوردتك، فتصبح خدودك ملتهبة بلون أحمر، وتصبح نظرتك غريبة، كما لو كنت تبحث عن أشكال ما في مساحة خالية غير مرئية لعينيك، وكذلك يتفكك كلامك فيصبح مجرد تنهدات أسيانة مقبضة؟ ثم يسألك أصدقاؤك: «ماذا حل بك أيها الصديق العزيز؟ ما الذي جرى؟» ثم عندما ترغب في أن تصف لهم الصورة التي في عقلك بكل ألوانها الحية، وكذلك الضوء والظل الخاصان بها، فإنك مجهوداتك تذهب

كلهــا هنا أدراج الرياح، وقد يبدو الأمر، ذلك، وكأنك قمت بتجميع كل مــا قد حدث معا - كل ذلك المدهش، العظيم، الشــنيع، المبهج، الشــبحي، وإنك تعبر عنه، من خلال الكلمة الأولى نفســها، بحيث تســتطيع أن تؤثر فيَّ، لكن كل كلمة، كل شــيء داخل مجال الكلام، يبدو - هنا - لا لون له، باردا، ميتا.

وإنك قد تكون بحثث وبحثت، وتكون قد تلجلجت وتهتهت، في حين تصطدم أسئلة أصدقائك الواقعية الرزينة بالنار التي بداخلك مثل هبــات ريح جليدية، فتهدد هذه النار حتى توشــك أن تنطفئ، أما إذا قمــت - على كل حال - منذ البداية بما يقوم به رســام مصور جســور، أي بالوضع، ومن خلال ضربات قوية بالفرشاة، لمخطط، أو شكل عام يتعلق بالصورة التي تحملها بداخلك، فإنك ستستطيع بعــد ذلك، أن تتقــدم نحو وضع الألوان من خــلال صبغات يزداد توهجها شــيئا فشــيئا، ومن ثم فقد تجرف أصدقاءك انفعالاتهم الناتجــة مــن رؤيتهم لتلــك البهجة الصاخبة الحية من الأشــكال المتنوعــة وتطوح بهم، كما أنهم - مثلك - قد يشــاهدون أنفســهم وســط تلك الصورة التي خرجت من بين شــغاف قلبك! ولا بد لي أن أعترف إليك - أيها القارئ العزيز، بأن أحدا لم يســألني فعلا عن القصة الخاصة بالشــاب ناثانيل، لكن، وبلا شــك أنك تعرف، فإنني أنتمي إلى ذلك الجنس الغريب من المؤلفين، أي هؤلاء الذين عندما يحملون بين جوانحهم شيئا مما قد قمت بوصفه توا، فإنهم، وفيما يبدو، يسمعونه، كل من يقابلهم، العالم كله تقريبا، ويسألهم: ما الأمر؟ أخبرنا به! ومن ثم فإنني قد شعرت بدافع قهري بداخلي لأن أتحدث إليك حول حياة ناثانيل التعسة: لقد امتلأت روحي بكل ما هو غريب وعجيب فيها، ولكن، ومن أجل هذا الســبب نفســه، كذلك، فإنه ينبغي علي أن أقوم بالتكوين في داخلك للإطار العقلي الصحيح المناسب لاستقبال تلك الأشياء التي تتجاوز في عجائبيتها كل الدرجــات العادية، قــد عانيت كثيرا كي أســتهل قصة ناثانيل

بطريقــة أصيلة دالة ومحكمة، مثل: «كان يا مكان»، أو «حدث ذات مرة» - إنها البداية المحببة بالنسبة إلى أي قصة، لكنها بداية رزينة رصينة أيضا، أو ربما أقول «في تلك المدينة الصغيرة التي اســمها كــذا»، إنها بداية أفضل قليلا، على الأقل إنها تعود بنا إلى البداية، أو، كما حدث الأمر، فإنني قد بدأت القصة من منتصفها.

«اذهب إلى الشــيطان..» صاح الطالــب ناثانيل، بعينين مملوءتين بالغضب الشديد والذعر، عندما ظهر بائع أجهزة قياس الضغط الجوي جوســيبي كوبولا.. لقد كتبت ذلــك - في الحقيقة - في وقــت بدا لي فيه أنني أدركت شــيئا مضحكا فــي عينيْ الطالب ناثانيل الجامحتين، إن قصته هي - على كل حال - قصة مسلية.

هكذا وجدت نفســي فــي النهاية غير قادر على أن أجد شــكلا ما، أيّا كان، يكون مناســبا للتعبير، ويقوم بتجســيد حتى أضعف الانفعــالات المتجســدة في رؤيتــي الداخلية؛ ومن ثــم فإنني قد قــررت ألا أبدأ هذا الأمــر البتة، ولذلك، فتقبــل - أيها القارئ الرفيق - هذه الرســائل الثلاث، التــي كان صديقي لوثاريو طيبا بدرجة كافية، حتى إنه قام بتوصيلها إليّ، بوصفها مخططا عاما للصورة التي أحاول الآن، جاهدا، خلال مســار الســرد، أن ألقي مزيدا من الألوان عليها. وربما مثل رســام بارع للصور الشخصية (البورتريه)، قد أنجــح في التقاط أكثر من صورة بهذه الطريقة، بحيث إنك، ومع أنه لم تتح لك الفرصة لمعرفة الشــخص الأصلي صاحب هذه الصورة، فإنك، مع ذلك، قد تعتقد أن الصورة مفعمة بالحياة، وأنك ربما كنت قد رأيت فعلا، ذلك الشــخص صاحبها مــرات بعينيــك الحيتين. وربما قد تعتقد أيضــا بعد ذلك - أيها القارئ العزيز - أنه ليس هناك شــيء أكثر عجائبية أو جنونا من هذه الحياة الواقعية نفسها، وأن كل ما قد يستطيع الشعراء القيام بــه هو أن يلتقطوا هذا الأمر بوصفه انعكاســا قاتما مظلما وقد تجسد في مرآة باهتة.

وكل ما يمكن إضافته إلى هذه الرسـائل الثـلاث هو أنه، وبعد موت والـد ناثانيل، أن كلارا لوثاريو، وقد كانـا طفلين لزوجين ذوي قربى بعيدة، وقد ماتا أيضـا وتركا هذين الطفلين يتيمين، أن والدة ناثانيل قد أخذتهما، بعد ذلك إلـى منزلها. وقد أدركت كلارا وناثانيل وجود علاقـة حميمة دافئة تربـط بينهما، ولم يُظْهِر أي إنسـان على ظهر البسـيطة أدنى اعتراض على وجود مثـل هذه العلاقة؛ ومن ثم، فإنه عندمـا غادر ناثانيل البلدة كي يواصل تعليمه في مدينة (ج) فقد كانا مخطوبـين أحدهما للآخر، و(ج) هي المكان الذي كان ناثانيل موجودا فيـه عندما كتب خطابـه الأخير، في حـين كان يواظب على حضور المحاضرات التي كان البروفيسور سبالانزاني، الشهير يلقيها هناك.

إننـي أتمنى الآن - بصـدق - أن أواصل قصتي دون تردد، لم تكن صورة كلارا هي التي تقـف مفعمة بالحيوية أمام عيني، الآن، في تلك اللحظة التي لم أسـتطع أن أبعد نظرتـي المحدقة عنها، كما كانت هي الحال دائما عندما كانت تنظر إليّ بوجهها ذي الابتسامة العذبة. ربما لم يكن ممكنا أن نصف كلارا بالجميلة، وقد كان ذلك رأى كل هـؤلاء الذين تكون مهمتهـم فهم الجمال، لكن حتى لو قام المهندسون المعماريون بامتداح طبيعة النسبة والتناسب في شكلها، وإذا وجـد المصورون أنه قد تم تشـكيل عنقهـا وكتفيها وصدرها تقريبا، على نحو بسـيط غير مبالغ في زخرفته، فإنهم جميعا ربما كانوا مفتونين بشعرها المجدلي الرائع، كما أنهم سيودون أن يثرثروا كثيرا حول بشـرتها ومظهرها العـام، ولا بد أن أحدهم - على كل حال - من أصحاب الرؤى الحقيقية، سـيود أن لو تكون لديه تلك الفكرة الغريبة الخاصة بالمقارنة بين عيني كلارا وبحيرة ما رسمها الفنان روسـديل في إحدى لوحاته [6]، فوقها سـماء زرقاء صافية خالية من السحب، وغابات وأراضٍ خضراء عامرة بالزهور، الحياة الكاملة المتعددة الألوان والمشـاهد الطبيعية الخصبة التي تكون قد انعكسـت فيها. وقد يذهب الشـعراء والموسيقيون إلى ما هو أبعد

مـــن ذلك – على كل حـــال – ويقولون: «أية بحيـــرة، وأي انعكاس؟ إننا عندما ننظر إلى كلارا نســـمع صوت النغمات السماوية تتدفق ناحيتنـــا خارجة من عينيهـــا، فتنفذ إلى أعمـــاق قلوبنا، تلك التي ستســـتيقظ وتزداد حركتها بين جوانحنـــا، وإننا إذا كنا – حينئذ – غير قادرين على الوقوع حقيقة في أسر أي أغنية كاملة، فإن ذلك يكون مرده إلى أنها – بشكل عام – قليلة الأهمية بالنسبة إلينا، وإن تلك الحقيقة التي لا نخطئ قراءتها هي تلك الابتسامة التي تتموج حول فم كلارا، عندما نتجرأ على أن نغني شيئا أمامها يفترض أنه أغنيـــة، في حين لا يكون في واقع الأمـــر أكثر من نغمات متداخلة عكـــرة يُقذف بها». هكذا كان لـــكلارا مثل ذلك التأثير فيهم.. لقد كانـــت تمتلك ذلك الخيـــال الفعال المفعم بالطاقـــة الخاص بطفل ســـعيد بريء، وذلك القلب الأنثوي شـــديد الرقة واللطافة، وكذلك نـــوع من الفهم الحـــاد الواضح للأمور. ولم تكـــن تتوافر لأصحاب الخيـــال الجامح فرصٌ كبيرة للنجاح معهـــا؛ وذلك لأنه، مع أنها لم تقل ذلك على نحو، مفصل، فإن ذلك الهذر يكون – في أية حال من أحواله، غريبا عن طبيعتها. وقـــد كانت عيناها اللامعتان، وكذلك ابتســـامتها الرقيقة المتهكمة، تقول لهم: «أصدقائي الأعزاء، كيف أمكنكم أن تعتقدوا أنه ينبغي لي أن أنظر إلى تخيلاتكم الشـــعرية العابرة بوصفها كائنـــات واقعية حقيقية تمتلك القدرة على الحياة والفعل؟». ولهذا الســـبب وُصِمَتْ كلارا بواســـطة كثير منهم بأنها: باردة، متحجرة المشـــاعر، نثرية الميول واقعيـــة المزاج، لكن آخرين غيرهم، وهم هـــؤلاء الذين كانوا ينظرون إلى الحياة بعيون صافية واضحة، قد شـــعروا بعاطفة ما غير عادية نحو تلك الفتاة المرحة، الذكية، البســـيطة، ولكن لم يشعر بمثل هذه العاطفة، ناحيتها، كما فعل ناثانيل نفسه. ومن جانبها، تعلقت كلارا بمحبوبها بكل روحها، وقد كانت أول مجموعة من السحب تمر فوق حياتها، هي تلك التي ظهرت عندما ابتعد ناثانيل عنها ورحل بعيدا عن البلدة، فأي بهجة

تلـك التي حملتها فجعلتهـا تحلق، عندما عـاد ناثانيل إلى البيت وظهر في غرفة أمه؟ كمـا وعد لوثاريو في خطابه الأخير، ومثلما تمنى ناثانيل، واعتقد أنه سـيحدث، فإنه عند رؤيته الأولى لكلارا بعـد عودته، تبـددت من عقله كل تلك الأفـكار الخاصة بالمحامي كويوليوس وانقشـعت، وكذلك تلك الشـجون التـي أثارها خطاب كلارا السابق إليه.

وقد كان ناثانيل على حق - على كل حال - عندما أخبر لوثاريو أن حياته قد تأثرت بشـكل سيئ بفعل تاجر أجهزة الضغط الجوي ذلك الكريه كوبولا، وهي حقيقة تبدو واضحة لكل إنسـان، خاصة عندما كشـف ناثانيل في الأيام الأولى، بعد عودته، عن تحول كلي في شـخصية، ربما كان سـيهبط تدريجيا، وينحدر نحو حالة من التهويمات المقبضة الكئيبة، ثم يتصرف بعد ذلك مباشـرة بطريقة غريبة تماما، مقارنة بطرائقه المألوفة في السـلوك. لقد أصبح كل شـيء، الحياة كلها، بالنسبة إليه، حلما، وشعورا منذرا بشر يوشك علـى الوقوع، لقد تحـدث ناثانيل - باسـتمرار - عن كيف أن كل واحد منا يعتقد نفسه حرًا، يكون - في الواقع - ألعوبة معذبة في يـد قوى غامضة، وأن المقاومة هنا لا طائـل من ورائها، وأن علينا أن نخضع مسـتكينين لإملاءات القدر. وقد استمر يؤكد كثيرا أنه مـن الحماقة الاعتقاد أن التشـكيلات الإبداعية فـي الفن والعلم هـي نتاجات إرادتنـا الحرة: فالإلهام الـذي - وحده - يجعل تلك الإبداعـات ممكنة، لا ينبع أو يتقـدم من داخلنا، بل إنه يحدث من خلال قوة عليا ما توجد خارجنا.

وقد وجدت كلارا أن تلك التخييلات الغامضة، خاصة عندما تصل إلى حالاتها القصوى، تكـون بغيضة ومنفرة، لكن محاولة تفنيدها بدت لها - أيضا - لا جدوى منها. وفقط عندما تقدم ناثانيل نحو إثبات أن كوبوليوس هو في الحقيقة قوة شـريرة ما قد استحوذت عليه وتلبسـته منذ أن كان يختبئ ويستمع إليها في الماضي، خلف

تلك الستارة، في غرفة أبيه، وأن ذلك الشيطان الكريه كان مستمرا بعد ذلك، وعلى نحو مخيف في محاولاته لتحطيم هناءة حبهما، هنا فقط أصبحت كلارا أكثر جدية، وقالت «نعم يا ناثانيل، أنت على حق، إن كوبوليوس قوة شريرة غير ودودة. وهو يستطيع القيام بأشياء مرعبة، إنه يشبه قوة شيطانية قد خطت ودخلت - على نحو مرئي - في حياتنا، ولكن ذلك قد حدث فقط لأنك قد فشلت في أن تطرده من عقلك، فمادمت تعتقد فيه، فإنه يستمر في الوجود والفعل. إن قوته تكمن، فقط، في اعتقادك فيه».

ولشعوره بالسخط الشديد من اعتقاد كلارا الجازم بأن الشيطان موجود، كقوة بداخله فقط؛ كان ناثانيل على وشك أن يقدم شرحا تفصيليّا لنظريته الغامضة حول الشياطين والقوى الوحشية الأخرى، وفي تلك اللحظة، وفي حالة من الغيظ، ألقت كلارا ببعض الملاحظات غير المناسبة، وقطعت المحادثة التي كانت تدور بينهما، وفي تلك اللحظة، قام ناثانيل بالتسرية عن نفسه بأن استغرق في فكرة فحواها أن مثل تلك الأفكار العميقة هي - وكما كانت دائما - بعيدة عن أن تدركها تلك القلوب الباردة الجامدة. ومع ذلك، فإنه ولكونه غافلا عن أنه بذلك يضع كلارا ضمن البشر الأدنى مرتبة، فإنه لم يتوقف عن محاولاته لأن يُدخل كلارا إلى قلب هذه الأسرار في الصباح الباكر التالي، فبينما كانت كلارا مشغولة بإعداد طعام الإفطار، وقف ناثانيل إلى جانبها وقرأ على مسامعها بعض المدون في كتبه الغامضة، إلى درجة أن كلارا قد سألته: «لكن، يا عزيزي ناثانيل، لنفترض أننى اعتبرتك قوة شريرة لها القدرة على التأثير السيئ في القهوة التي أعدها، إننى لو افترضت ذلك، وكما تريد أنت مني ذلك، فإنني سأهمل كل شيء، وأقف وأنظر إلى عينيك وأنت تقرأ، ومن ثم فإن القهوة ستغلي كثيرا، ولن يحصل أيٌّ منا على أي طعام للإفطار»، هنا أغلق ناثانيل كتابه بقوة، وأسرع مغادرا غرفته وهو في مزاج بالغ السوء.

فـــي الأيام الســـابقة، كانت لديه موهبة متدفقة قـــادرة على تخيل القصص المبهجة والمفعمة بالحيـــاة، قصص كان يتمنى أن يدونها، وأن يجعل كلارا تســـتمتع بها، بكل جوانحها، أما الآن، فإن قصصه قـــد أصبحت أكثـــر كآبة، أصبحت غير مفهومة، وغير ذات شـــكل محدد، وقد كان يشعر بأن كلارا لم تنجذب قط إلى هذه القصص الأخيـــرة، حتى عندما كانت تتحفظ - علـــى نحو واضح - عن أن تقـــول له ذلك. وقد وجدت كلارا - في الغالـــب - أن ذلك الملل لا يمكن تحمله، وعندما كانت تشـــعر بذلك، فإن ضجر العقل وسأمه الـــذي لا يقهـــر، والذي كانت تعانيه، إنمـــا كان يتبدى في الطريقة التـــي تتكلم بها، وكذلك النظرة التـــي تتجلى في عينيها. لقد كانت قصـــص ناثانيل مملة تمامـــا حقا، كما أنه قد تزايـــد لديه - على نحو واضـــح - ذلك الضيق من اســـتجابة كلارا البـــاردة الواقعية غيـــر المبالية بهذه القصص، فقد كانت غير قادرة على التغلب على ذلك المزاج الســـيئ الذي هيمن عليها وســـيطر، بسبب تلك النزعة الملغـــزة الغامضة المقبضة المملة الخاصة بناثانيل، وبالقصص التي كان يقرأهـــا على مســـامعها، ومن ثم، ومـــن دون أن يلحظا ذلك، فقـــد أصبحا - وعلى نحو متزايـــد - غريبين أحدهما عن الآخر. وقـــد كانت صورة كوبوليوس - وكما كان ناثانيل نفســـه يقول ذلك، وهـــو في حالة من الارتباك - تنمو مبهمة غامضة في خياله، وفي قصصـــه، وحيث كان كوبوليوس يظهر دائما كمندوب أو أداة مهلكة شـــريرة في يد الشـــيطان، وغالبا ما كان الأمـــر يتطلب منه - من ناثانيـــل - جهدا كي يضفي الحياة، وكذلك المظهر الخارجي القابل للتصديق، عليه، ثم إنه، أخيرا عثر على الفكرة التي يســـتطيع من خلالها تحويل كآبته المقبضة المنذرة بالشر، والمتعلقة بأن كوبوليوس قد يمزق أواصر بهجة حبه إلى موضوع لقصيدته: لقد صور نفسه، ومعـــه كلارا، وهما يجمع بينهما حب حقيقي، يوحدهما، ولكن، في التـــو واللحظة، كما لو كانت هناك يد ســـوداء قـــد امتدت فوقهما

ومحت مشـــاعر البهجة والســـرور التي كانا يشعران بها، وإنه عند النهاية، وبينما كانا واقفين أمام المذبح في الكنيسة لعقد زواجهما، ظهر كوبوليوس المرعب ولمس بيده عيني كلارا الجميلتين، فاقتُلعتا من محجريهما وانطلقتا مثل شــرارتين دمويتين حمراوين، اندفعتا مشـــتعلتين وحرقتا - ســـطحيًا - صـــدر ناثانيل. هنا أمســـك به كوبوليوس، قيد حركته وألقاه في حلقة مشتعلة من النار، وقد كانت تلك النيران متأججة وتتحرك بسرعة العاصفة، ومن ثم فإنها دفعته بعيدا بعنـــف وصخب، لقد كان الأمر في مجمله أشـــبه بحالة من الاضطراب والفوضى الشـــديدة، وأشبه بما يحدث عندما يضرب إعصار بقوة أمواج البحر المكســـوة بالزَّبد، فتهدر تلك الأمواج مثل زمجرة عملاق أبيض الشعر يكون منهمكا في صراع عنيف. وخلال حالة الفوضى والاحتياج هذه، سمع ناثانيل صوت كلارا وهي تقول لـــه: «هل ترى؟ لقد خدعك كوبوليوس، لم تكن تلكما العينان اللتان أحرقتا صدرك عينيَّ، لقد كانتا قطرات متوهجة ســـاخنة من دماء قلبـــك أنت - إننى مازلت أحتفظ بعينـــيّ، إن عليك فقط أن تنظر إليّ!». هنا فكر ناثانيل بينه وبين نفسه قائلا: «هذه هي كلارا التي أعرفها، وأنا ســـأظل حبيبها إلـــى الأبد». ويبدو أن هذه الفكرة قد دخلت بنفسها إلى حلقة النيران واحترقت بداخلها، فإذ بها تتوقف، وإذا الفوضـــى والهرج والمرج الملازمة لها تخمد وتســـكن، هنا نظر ناثانيل إلى عيني كلارا، لكنه وجد الموت يحدق فيه في هدوء، وعلى نحو بارد، من داخلهما.

بينمـــا كان ناثانيل يؤلف قصيدته هذه، كان شـــديد الهدوء، رابط الجـــأش، متمالكا نفســـه، وقد كان يصقل كل بيت ويحســـنه، وقد مكنته قيود الوزن الشعرية من أن يستمر في عمله، من دون كلل أو ملل، حتى أصبح كل شـــيء في القصيـــدة واضحا ومتناغما، ولكنه عندما انتهى من قصيدته وقرأها لنفسه - بصوت مرتفع - انتابته مشـــاعر الرعب، وصرخ بقوة قائلا: «أي صوت مروع هذا؟!»، وقبل

أن يمضي وقت طويل على كل حال، فإنها بدت بالنسبة إليه ليست أكثر من قصيدة جيدة ثم أنه وصل إلى حالة من الاعتقاد بأن ذلك المزاج البارد المهيمن على كلارا قد يتأجج مشتعلا بواسطة هذه القصيدة، هذا مع أنه في تلك اللحظة لم تكن لديه أي فكرة واضحة عما سيؤدي إليه تأجج انفعال كلارا، لو حدث، أو ما الغرض الذي تحققه هذه العملية التي يزعجها من خلالها ويضايقها بصور مرعبة تتنبأ بمصير مخيف ودمار ماحق للحب الذي يربط بينهما.
وقد جلس ناثانيل وكلارا في حديقة أمه الصغيرة، وقد كانت كلارا في مزاج مفعم بالبهجة؛ وذلك لأن ناثانيل، خلال تلك الأيام الثلاثة السابقة التي كان يكتب فيها قصيدته، لم يعذبها بأحلامه وهواجسه، كذلك كان ناثانيل نفسه، يتحدث بمرح حول أشياء سارة في الحياة، حتى أن كلارا قد قالت: «الآن فقط قد استعدتك إليَّ مرة أخرى، الا ترى كيف أننا قد طردنا الآن، كوبوليوس البغيض بعيدا عنا؟».
في تلك اللحظة فقط تذكر ناثانيل أنه يحتفظ في جيبه بالقصيدة التي أراد أن يقرأها على مسامعها، فأخرج الأوراق وبدأ يقرأها عليها، وقد افترضت كلارا أنها ستكون - كما هي العادة - شيئا مملا، ولكنها - منصاعة إليها - بدأت في هدوء، في حياكة شيء كالجورب كانت تحمله، ولكن، ومع ظهور سحب يزداد سوادها تدريجيًا في القصيدة، أسقطت الجورب الذي كانت تحيكه، ثم حدقت في ناثانيل في دهشة جامدة، خالية من الإحساس. أما ناثانيل فاستمر يقرأ بلا هوادة، في حين كانت إثارية الانفعال المتأججة بين جوانحه تصبغ وجنتيه بلون أحمر مضيء، كذلك كان الدمع الهتون يسح من عينيه حتى أكمل في النهاية قصيدته وتأوه معبرا عن شعوره بالإنهاك الشديد. ثم إنه أمسك بيد كلارا، كما لو كان قد ذاب أو تضعضعت حواسه نتيجة تعاسة لا فكاك له منها، تنهد قائلا: «آه!، يا كلارا، كلارا!».

هنـــا ضمته كلارا بحنان إلى صدرها وقالت له برقة، ولكن بطريقة بطيئة وجادة تماما: «ناثانيل، يا عزيزي، يا ناثانيل العزيز، ألقِ بهذه القصة المخبولة المجنونة التي لا معنى لها في النار!».
هنا انتفض ناثانيل مرتدا إلى الخلف، وهو في غضب عارم، وأبعد كلارا عنه بعنف وصرخ: «أوه، أيتها الآلة المتحركة البغيضة، الفاقدة للحياة»، ثم إنه اندفع إلى الخارج وقد جرحت كلارا جرحا عميقا، وانسـكبت دموع مريرة من عينيها، وقالت وهي تنشج: «واحسرتاه عليّ، إنه لم يحبني قط، لأنه لم يفهمني قط».
أما لوثاريو - شـقيق كلارا - فخطا مسـرعا إلى داخل التعريشة، ثم إن كلارا قد وجدت نفسـها مضطرة إلى أن تحكي له ما حدث، وقد كان يحب «لوثاريو» شـقيقته بمجامـع قلبه، ومن ثم فإن كلمة قد ذكرتها - وهي تشـكو إليه ما فعلـه ناثانيل - قد صدمته مثل جمرة مشـتعلة، إلى درجة أن ذلك الضيق الذي كان يشعر به سرّا منـذ وقت طويل نحو ناثانيل - ذلك الحالم الغامض - قد اشـتعل وتفجر بداخله فتحول غضبا عارما، ومن ثم فإنه جرى نحوه ولحق بـه، وبكلمات قاسـية وجه إليه اللوم على سـلوكه الذي يفتقر إلى الإحسـاس نحو أختـه الحبيبة، ورد عليه ناثانيـل، الذي أغضبته كلمـات لوثاريو، بكلمات مماثلة، فقد نعت لوثاريو ناثانيل بالمجنون، والأحمق المغـرور، ورد ناثانيل على كلامه ذلك بأن نعته بالصاحب العـادي، النكرة، الجدير بالازدراء، هكـذا أصبحت المبارزة بينهما أمـرا لا يمكن تجنبه. وبما يتفق مع العـرف المتعارف عليه هناك، اتفقا على أن يواجـه أحدهما الآخر صباح اليوم التالي خلف تلك الحديقة بسيوف طويلة مستدقة الأطراف حادة الشفرات، وبجبين مقطب مكفهر تسللا في صمت خارجين من ذلك المكان، وقد كانت كلارا قـد سـمعت اتفاقهما العنيف ذلك، ومع حلول الغسـق رأت الشـخص المنظم للمبارزات يحضر السـيوف المفولية الحادة، وقد حدثها قلبها بما يوشك أن يحدث.

وعندما وصل لوثاريو وناثانيل إلى موضع المبارزة، كان عليهما أن يخلع كل منهما سترته في صمت كئيب، ثم ومن خلال ميل إلى القتال متعطش إلى الدماء كان يتأجج في عين كل منهما، كانا على وشك أن يهاجم أحدهما الآخر، وفي تلك اللحظة اندفعت كلارا من باب الحديقة، ومن خلال نشيجها، صرخت بصوت مرتفع: «أيها الرجلان المتوحشان البغيضان، اقتلاني أنا أولا قبل أن يهاجم أحدكما الآخر! وإلا فكيف سيمكنني أن أستمر باقية على قيد الحياة في هذا العالم إذا قتل محبوبي أخي، أو قتل أخي محبوبي؟!».

هنا أسقط لوثاريو سلاحه وحدق في الأرض، كما أن الحب كله الذي حمله ناثانيل تجاه كلارا الرقيقة، خلال أيام شبابهما، قد بعث حيًا وأينع في قلبه مرة أخرى، فأسقط سلاحه القاتل من يده وجثا عند قدمي كلارا وهو يقول لها: «هل يمكنك أن تسامحيني، يا كل من بقي لي، يا محبوبتي كلارا؟ وهل يمكنك أن تسامحني، يا أخي الأثير لوثاريو؟».

وقد تأثر لوثاريو بألم صديقه العميق، ومن ثم عادت المياه إلى سابق عهدها مرة أخرى بين هؤلاء الثلاثة، فاحتضن كل منهم الآخر، وهطلت من عيونهم الدموع مدرارا، وأقسموا على أن يظلوا متآلفين متحدين معا، في حب وإخلاص دائمين، وعلى ألا ينفصلوا بعضهم عن بعض، أبدا.

لقد بدا الأمر لناثانيل كأن عبئا ثقيلا كان يرهق كاهله، ويشده إلى الأرض بإحكام قد رفع عنه، وكما لو أنه، بالعقل، قد قاوم قوى الظلام التي ظللته بجناحيها، وأحاطت به، وأنه بذلك قد أنقذ وجوده الكلي من ذلك الدمار الذي كان يهدده، ثم إنه قضى أياما ثلاثة جميلة مع أصدقائه الأعزاء قبل أن يعود إلى مدينة (ج)، حيث انتوى أن يدرس لمدة عام واحد آخر، على أن يعود إلى موطنه، بعد ذلك، إلى الأبد.

لم تكن أمه قد أخبرته بأي شـــيء من بين كل تلك الأمور الخاصة بكوبوليـــوس؛ وذلك لأنهم عرفوا أنها لم تكـــن لتقدر على التفكير فيـــه من دون أن يصيبها الرعـــب، خاصة لأنها - مثل ناثانيل - قد اعتبرته مسؤولا عن موت زوجها.

وقد شـــعر ناثانيل بالدهشة الشـــديدة عندما عاد إلى الغرفة التي كان يســـتأجرها، ووجد أن ذلـــك البيت كله قد احترق، وأنه لم يبق منه ســـوى جـــدران متفحمة جرداء مازالت واقفة منتصبة وســـط الـــركام، ومـــع أن تلك النيران كانـــت قد اندلعت فـــي ذلك المعمل الخـــاص بالكيميائي الـــذي كان يعيش في الطابـــق الأرضي، وأن المنـــزل قد احترق من أســـفله إلى أعلاه، فإن أصدقاءه الشـــجعان رشيقي الحركة قد نجحوا في الوصول إلى غرفة ناثانيل، التي تقع في الطابق العلوي، وأن ينفذوا بســـرعة كتبه ومخطوطاته وأدواته، ثم إنهم نقلوا كل شـــيء ســـليما، لم يلحقه ضـــرر، إلى منزل آخر، واستأجروا غرفة فيه، وإليها انتقل ناثانيل فورا كي يشغلها.

لـــم يبدو الأمـــر الخاص بأنه قد أصبح يعيش فـــي الجانب المقابل للبروفسور ســـبالانزاني أمرا جديرا بالدهشة على نحو خاص من جانب ناثانيل، كما أنه لم يعتقد بوجود شـــيء مهم عندما لاحظ أن نافذة غرفته تطل مباشـــرة على الغرفة التي كانت أوليمبيا، ابنته، تجلس فيها وحيدة، دائما، ومن ثم فإنه اســـتطاع أن يتعرف شكلها على نحو واضح، ولو أن القســـمات المميزة لوجهها ظلت أيضا غير واضحة بالنســـبة إليه. علـــى كل حال، فإنه قد ذهـــل في النهاية، عندما عرف أن أوليمبيا قد كان يمكنها أن تجلس ســـاعات طويلة جدّا، غير منشـــغلة تماما بأي شـــيء، بجـــوار منضدتها الصغيرة، متخذة الوضع الجسمي ذاته الذي يشبه الوضع الذي اكتشفها من خلالـــه، عندما رآها للمرة الأولى، من خلال ذلك الباب الزجاجي، كما أنه لفت انتباهه، وذهل، من حقيقة أنها كانت تجلس في هدوء، محدقـــة نحوه بنظـــرة ثابتة لا تتحرك. وقد وجد نفســـه مضطرا

أيضا إلى أن يعترف بأنه لم ير في حياته مثل هذا الشــكل الجميل الذي كانت أوليمبيا عليه، ومع ذلك، ولأن كلارا كانت تشــغل قلبه، فإنـــه ظل غير مبالٍ تماما تجاه أوليمبيـــا الثابتة الوضع، الجامدة: كل مـــا كان يفعلـــه هو أنه كان يلقي - بـــين الفينة والفينة - بنظرة ســـريعة عابرة من فوق كتابه إلى ذلك التمثال الجميل، هذا كل ما كان يحدث.

وذات يوم، وبينما كان مشغولا بالكتابة إلى كلارا، سمع دقة خفيفة مهذبـــة على بابـــه، وفُتح الباب بناء على طلبـــه، ومنه ظهر كوبولا، البغيـــض المنفر، وهو ينظر إليه. وشـــعـر ناثانيل بأنه يرتجف حتى أعماق نفســـه، وتذكر ما أخبره به سبالانزاني حول صاحبه الريفي هـــذا. على كل حال، فإنه عندما تذكـــر الوعد المقدس الذي أخذه على نفسه أمام محبوبته فيما يتعلق برجل الرمال كوبوليوس، فإنه شـــعر بالخجل من مخاوفه التي تشبه مخاوف الأطفال، فاستجمع شتات نفســـه بكل وقته، ثم قال، بتهذيب وهدوء بقدر ما استطاع: «ليس في نيتي أن أشـــتري أي بارومتر يا صديقي العزيز، ومن ثم ارحل من فضلك».

في تلك اللحظة دخل كوبولا - بخطوات ســـريعة متلاحقة - داخل الغرفة، وتشـــوه فمه الواســـع بتكشـــيرة قبيحة، ثـــم برقت عيناه الصغيرتـــان بحدة من تحـــت أهدابه الطويلـــة الرمادية، وقال في صوت خشـــن أجش: «ليس البارومتر، ليس البارومتر، ما أريد بيعه إليك، إنَّ لديَّ أيضا عيونا جميلة، عيونا جميلة».

هنا صرخ ناثانيل، وهو يشـــعر بالرعب: «أيها الرجل المجنون، كيف يمكن أن يكون لديك عيون كي تبيعها؟».

لكن كوبولا كان قد وضع فعلا أجهزة قياس الضغط الجوي جانبا، ثم وصلت يداه إلى الجيوب الواســـعة لمعطفه، وأخرج منها منظاري يـــد، وأيضـــا زوجين من النظـــارات أو العوينات، ووضـــع ذلك كله علـــى منضدة ناثانيـــل وقال «هذه، هذه، نظـــارات كي تضعها على

أنفك، إنها عيوني، عيوني الـ «جميلة!»، وخلال ذلك كله كان كوبولا يستخرج مزيدا ومزيدا من النظارات، بحيث أصبح سطح المنضدة كلــه يتلألأ ويطلق شــررا، ويلتمع ببريق زجاجي له شــكل غريب: هكذا كانت هناك ألف عين تحدق وتطرف، ترتعش، تُغمض وتُفتح، ونظراتها المحدقة مثبتة على ناثانيل تتفرســـه، لكنه لم يستطع أن يحـــول عينيه بعيـــدا عن تلك المنضدة، حيث اســـتمر كوبولا يلقي مزيـــدا ومزيدا من العوينـــات فوقها، وقد تقافـــزت تلك النظرات الســـريعة كلها، في فوضى جامحة، وانطلق منها ضوء أشعة حمراء كالدم نحو صدر ناثانيل. ولأنه كان قد فقد شـــجاعته، نتيجة ذلك الذعر غير القابـــل للتحكم فيه، فإنه صرخ: «توقف، كف عن هذا! أيها الرجل الرهيب!».

وقد كان كوبولا منهمكا في الوصول إلى جيبه لاســـتخراج مزيد من العوينات spectacles، هذا مع أن المنضدة كانت كلها مغطاة بأنواع منها، لكن ناثانيل أمسك بذراعه بشدة في تلك اللحظة. أما كوبولا فحـــرر يده بلطـــف من قبضة ناثانيل وهو يضحك ضحكة خشـــنة كريهـــة، ثم قال بطريقته المعهودة في الكلام: «آه، هذه ليســـت لك، لكنهـــا عوينات جميلة»، ثم جمع كل تلك النظـــارات كلها، ووضعها بعيـــدا، ثم ومـــن جيب فرعي فـــي معطفه، اســـتخرج كمية كبيرة مـــن أجهزة التليســـكوب من الأحجام جميعهـــا، ولحظة أن اختفت النظارات، أصبح ناثانيل هادئا تماما، وأصبحت كلارا حاضرة بقوة في عقلـــه، وأدرك أن ذلك الطيف الذي أصابه بالرعب الشـــديد، ربما قد يكون قد ظهر من داخل عقله هو، وأن كوبولا هذا قد يكون خبير بصريات جديرا بالتقديـــر، ومتخصصا في الميكانيكا، بارعا فـــي مجاله، وليس بالضرورة أن يكـــون هو ذلك الطيف العائد بعد غياب، أو ذلك القرين المتوهم للبغيض كوبوليوس. وكذلك، فإن تلك العدسات التي كان كوبولا يضعها راقدة فوق المنضدة، لم يكن هناك شـــيء - إضافة إلى ذلك - جدير بالملاحظة حولها، أو شيء شرير

خبيث كذلك الذي حدث عندما كانت العوينات أو العيون الصناعية هي الموضوعة فوق المنضدة. وكي تعود الأمور إلى حالتها الطبيعية مرة أخرى، عقد ناثانيل العزم على أن يشتري فعلا، من كوبولا، تليسكوبا صغيرا نظيفا من ذلك الذي يوضع في الجيب، ثم إن من أجل أن يختبره، نظر من خلاله إلى الخارج، عبر نافذة غرفته.

لم يستخدم ناثانيل في حياته - من قبل - «منظارا» يمكن أن يجعل الأشياء تبدو لعينيه أكثر دقة ووضوحا كما هي الآن. وعلى نحو لا إرادي نظر داخل غرفة سبالانزاني، وكانت أوليمبيا، تجلس كالمعتاد هناك أمام مائدة صغيرة، ذراعاها راقدتان فوقها، ويداها مضمومتان. الآن فقط استطاع ناثانيل أن يشاهد وجه أوليمبيا الجميل، كانت عيناها وحدهما تبدوان له ثابتتين وميتتين وجامدتين، على نحو غريب، ومع ذلك فإنه ومع تحول الصورة المنعكسة من خلال المنظار لأن تصبح حادة ومحددة الملامح أكثر فأكثر، بدا الأمر كأن أشعة من ضوء القمر قد بدأت تنبعث من داخل عينيها. لقد كانتا - في تلك اللحظة - كما لو كانتا تكتسبان قوة الإبصار، كما أن نظراتهما الخاطفة قد أصبحت أكثر دفئا، ومفعمة أكثر بالحياة. وقد وقف ناثانيل أمام النافذة، كما لو كان قد جمد في مكانه، فقد كان ذاهلا غائبا عن الوجود، يتأمل جمال أوليمبيا السماوي.

وقد أيقظه من تلك الحالة الشبيهة بالحلم العميق التي استغرق فيها حركة نافدة الصبر بالقدمين، وكحة بدا صاحبها كأنه ينظف حلقه، وقد كان ذلك هو كوبولا الذي كان يقف وراءه: ويقول «ثلاث دوقيات». لقد كان ناثانيل قد نسي تماما تاجر البصريات هذا، ومن ثم فإنه قد دفع بسرعة المبلغ المطلوب، هنا سأله كوبولا بصوته المنفر الأجش، وبابتسامته المستهزئة المتهكمة «هل هي كذلك، ها؟ عدسات جميلة، أليست هذه عدسات جميلة؟».

«نعم، نعم، نعم»، أجاب ناثانيل في ضيق، ثم أضاف: «وداعا، يا صديقي العزيز!».

وغــادر كوبولا الغرفة، لكن من دون أن ينســى أن ينظر إلى ناثانيل عدة نظرات جانبية ســريعة غريبة، ثم ســمعه ناثانيل يضحك بعد ذلك، وهو في طريقه إلى الســلم. هنا فكر ناثانيل قائلا: «نعم آه، حســنا، إنه يضحك مني لأنني لا بد قد اشــتريت هذا التليسكوب الصغير بثمن مرتفع جدا، بثمن باهظ من دون شك!»، ثم إنه لحظة أن نطــق ناثانيل هذه الكلمات على نحــو خافت، فإنه كما لو كانت هنــاك زفرة مــوت عميقة قد تردد صداها علــى نحو مرعب بين جنبات غرفته، ثم إن موجة من الخوف قد ســيطرت عليه وجعلته يحبس أنفاســه، لكنه كان هو نفســه الذي زفر هذه التنهيدة، وقد أدرك هو نفســه ذلك جيدا، ومن ثم فإنه قال لنفســه: «إن كلارا - من دون شــك - على حق في اعتباري تَفِهــا يخاطب الأرواح، ومع ذلك، فإن الأمر الشــاذ، بل البالغ الشذوذ أيضا، هو أنني ربما قد كنت قد اشتريت هذه العدسات من كوبولا بثمن باهظ تماما، وهي فكرة لاتــزال تملأني بكل تلك المخاوف، وأنــا لا أرى أي مبرر لها البتة على الإطلاق».

ثــم إنه جلس كي ينهــي خطابه إلى كلارا، لكــن لمحة خاطفة عبر النافــذة جعلته متأكدا من أن أوليمبيــا لاتزال تجلس هناك أيضا، وفــي لحظة وثب من مكانه، كمــا لو كان مدفوعا بقــوة لا تقاوم، وأمسك بـ «تليسكوب» كوبولا، ولم يستطع أن ينتزع نفسه بعيدا عن ذلك المشهد المغوي الخاص بـأوليمبيا، واستمر هكذا حتى استدعاه صديقه وزميل دراســته سيغموند من أجل تلك المحاضرة التي كان البروفسور سبالانزاني سيلقيها.

لقد كانت الســتارة التي أمام تلك الغرفة القدرية مشدودة بإحكام، ولم يستطع ناثانيل أن يلحظ وجود أوليمبيا من خلال الباب، كما أنه لم يســتطع خلال اليومين التاليين أن يكتشف وجودها في الغرفة، وبصعوبة، كان يستطيع أن يبتعد عن نافذته، بل كان يحدق عبرها، علــى نحو متواصل، من خلال تليســكوب كوبولا، وفي اليوم الثالث

وضعت الستارة بحيث كادت تغطي النافذة كلها. وفي حالة تامة من اليـأس، ومندفعا بفعل رغبة متأججة بداخله، انطلق ناثانيل بعيدا عن المدينة في اتجاه الريف، وقد كانت صورة أوليمبيا تحوم أمامه، وتحلق فـي الهواء فوقه، تبرز من بين أشـجار الدغل، وتنظر إليه مـن بين جدول الماء المتعرج بأعـين وامضة لامعة. أما صورة كلارا فانمحت تماما من عقله، فلم يعد يفكر سـوى في أوليمبيا، ثم إنه انتحب بصوت مرتفع وهو يقول: «واحسرتاه يا نجمة حبي المجيدة، إنك ما إن توجت حياتي حتى تلاشـيت مباشـرة وتركتني في ليل معتم بلا أمل ولا رجاء!».

وعندما كان على وشـك أن يعود إلـى غرفته، تنبه لوجود ضوضاء تتـردد أصداؤها، وضجيج أيضا في بيت سـبالانزاني. وقد كانت الأبـواب لاتزال مفتوحة، وأشـياء من جميـع الأصناف تحمل إلى داخل ذلك البيت، وقد نُزِعَتْ النوافذ كلها التي في الطابق الأرضي، وكانت الخادمات المنهمكات في أعمالهن مغبرات يكنسن الأرضيات بمقشات كبيرة، ومن داخل البيت كان يخرج صوت ضربات ودقات متكررة بمطـارق يقوم بها نجارون ومنجـدون، وتوقف ناثانيل في ذهول تام، ثم جاء سـيغموند وهو يضحك، وقال له: «حسـنا، ماذا تعتقد أن صاحبنا سبالانزاني العجوز يود أن يفعل؟».

وقـد أكد له ناثانيل أنه ليسـت لديه أدنى فكـرة عما يحدث، وأنه لا يعرف أي شيء، أياً ما كان، حول هذا الأستاذ، لكن أنه أدرك بدهشة بالغـة أن هناك صخبا هائـلا يحدث في ذلك المنزل الذي يكون عادة صامتا ومقبضا، ثم إنه عرف من سـيغموند، أن سبالانزاني ينوي أن يقيم احتفالا كبيرة يتضمن حفلة موسـيقية، وحفلة راقصة في اليوم التالـي، وأن نصف الجامعة ثـم قد تمت دعوتهم إلـى هذه الحفلة، وقد تناثرت الأقوال، هنا وهناك، وأشـارت إلى أن ابنة سـبالانزاني، أوليمبيـا، التي أخفاها أبوها، دوما، وعلى نحو متسـم بالقلق البالغ، بعيدا عن عيون الناس جميعهم، ستظهر، أمامهم، للمرة الأولى.

فيمـا بعد وجـد ناثانيل بطاقة دعـوة تنتظره، ثـم عندما وصلت العربـات التي تجرهـا الخيول، وبدأت الأضـواء في الوميض في الغـرف المزينة، فإنه ذهب إلى بيت «الأسـتاذ»، وقلبه يدق بصوت مرتفع، وقد كانت الصحبة كبيرة العدد ومتألقة، ثم ظهرت أوليمبيا ترتدي ملابس شـديدة الثراء، وعلى درجة عالية من الذوق أيضا، وقد اجتذب وجهها ومظهرها الإعجاب، لكـن ظهرها المقوس - نوعـا ما - وكذلك خصرهـا النحيل الدقيق، بـدوا كأنهما نتيجة لعملية شد لجسدها من خلال أربطة محكمة، وقد كان هناك شيء ما يسترعي الانتباه في إيقاع مشيها وسرعته، وكذلك الوضع الذي اتخذه جسـدها، شـيء وجده كثيرون غير مريح، لكن ذلك كله قد عُـزي إلى ذلك الانضباط أو التحفظ المفروض عليها بفعل حضور كل هذه الصحبة معها.

ثم بدأت الحفلة الموسـيقية، وقد كانـت أوليمبيا هي التي تعزف على آلـة البيانو، مـن خلال تمكن بارع، وقد أدت أيضـا - ببراعة مماثلة واقتدار - أغنية أوبرالية بصوت كان واضحا ومحددا تقريبا، ويشـبه صوت الناقوس، وقد ابتهج ناثانيل فصار مسـلوب الرشد، فوقف في الصف الخلفي من الحفل، وفي ظل ضوء الشـموع المبهر لم يسـتطع أن يميـز تماما قسـمات وجـه أوليمبيا، ومن ثم فإنه أمسـك خفية بتليسـكوب كوبولا، ونظر إليها عبر الغرفة. آه! لقد أدرك حينئذٍ كيف أنها تحدق نحوه أيضا بعينـين مفعمتين بالرغبة، وكذلك أن كل نغمة غنتها كانت ممتزجة بنظرة حب كانت تشعل الطريق الممتد بينها وبين قلبه! وقد بدت التعاقبات النغمية السـريعة بالنسبة إليه أشبه ببهجة الروح السـامية العليا التي يتغير مظهرها بفعل الحب، فيكتسب هالة المجد والفخار. وبعد اللحن الختامي Cadenza انطلق الصوت الطويل الحاد المرتعش مرتفعا في فضاء الغرفة، فشعر كما لو كان قد عانقته ذراعان دافئتان، فلم يسـتطع أن يمنع نفسه فصرخ بصوت مرتفع في ألم ونشوة: «أوليمبيا».

هنا تحول الجميع برؤوسهم ونظروا نحوه، وضحك بعضهم منه أيضا، في حين بدا وجه عازف الأرغن الكنسي مستاء أكثر من غيره، ولم يقل سوى: «الآن، الآن!».
وانتهت الحفلة الموسيقية، وبدأت الحفلة الراقصة. «أن أرقص معها!» كان ذلك هو الهدف الذي هيمن على ما عداه من رغبات، لدى ناثانيل، لكن كيف يستجمع شجاعته كي يطلب «منها» ذلك الطلب المألوف في مثل تلك الحفلات، أن ترقص معه؟ ومع ذلك - وهو نفسه لم يعرف كيف حدث هذا - فعندما بدأ الرقص، وجد نفسه يقف بجوارها، أوليمبيا التي كانت لاتزال وحيدة، وقادرة بصعوبة على التمتمة، بكلمات قليلة فقط، قد غاب عنها معناها، هنا أمسك ناثانيل بيد أوليمبيا، وقد كانت يدها باردة كالثلج، فشعر ببرودة تشبه الموت تسري مخيفة في أوصاله، ثم إنه نظر إلى عينيها، وقد كانت تنظر أيضا نحوه بعينين مملوءتين بالحب والرغبة، وفي تلك اللحظة، بدا كما لو أن نبضا ما قد بدأ يسري وينبض في تلك اليد الباردة، وكما لو أن تيارا من دماء الحياة قد بدأ يتدفق فيها، وفي قلب ناثانيل أيضا، كان الفرح بالحب يسري بداخله على نحو متألق، هكذا احتضن أوليمبيا الجميلة، حلق معها نحو ذلك الحشد الراقص.
لقد كان يعتقد - حتى تلك اللحظة - أنه راقص بارع، لكن ذلك الإيقاع الدقيق الفريد الذي كانت أوليمبيا ترقص من خلاله، والذي دفعه على نحو متكرر بعيدا تماما عن طريقته المعتادة في الرقص، أجبره على أن يتعرف مدى النقص الذي كان مميزا لرقصه الخاص، ومع ذلك، فإنه لم يعد يرغب في أن يرقص مع أي امرأة أخرى، أيا ما كانت، كما شعر بأنه قد يود أن يقتل أي شخص يتجرأ ويقترب من أوليمبيا كي يدعوها إلى الرقص. ومع ذلك فإن هذه الدعوة قد حدثت مرتين فقط، ولدهشته فإن أوليمبيا قد غادرت مكان جلوسها بعد ذلك، لكنه نجح في أن يجتذبها - مرة بعد الأخرى - إلى باحة الرقص.

ولو أنه كان قادرا على أن يلحظ أي شيء، غير أوليمبيا الجميلة، فإنه كان سيرى بالضرورة مشهدا غير سار يحدث هناك أيضا، حيث كان الضحك الذي يُكتَم بصعوبة منتشرا بين الشباب الموجودين، في هذا الركن أو ذاك، من أركان الغرفة، وقد كان ضحكا موجها نحو أوليمبيا على نحو خاص، أما ناثانيل، الذي توهج بالطاقة بواسطة الرقص، وكذلك كمية الخمر التي احتساها، فقد تخلى تماما عن تحفظه، ثم إنه جلس بجوار أوليمبيا، ويده في يدها، وبشغف بثها حبه لها بكلمات غير مفهومة لأي منهما، ومع ذلك فإنها، ربما، قد فهمت ما قاله؛ وذلك لأنها قد حدقت على نحو ثابت في عينيه، وتنهدت مرة بعد أخرى قائلة «آه، آه، آه!»، في حين قال ناثانيل نتيجة لذلك: «آه أيتها المرأة الجميلة السماوية، يا شعاع الضوء المنبعث من أرض الحب الموعودة، آه يا قلبي الذي انعكس عليه وجودي كله!»، وكلمات كثيرة أخرى من هذا القبيل، لكن أوليمبيا لم تقم فقط إلا بمجرد التنهد مرة بعد أخرى وهي تقول «آه، آه!»، وقد مر البروفسور سبالانزاني مرات كثيرة بهذا الثنائي السعيد، وابتسم لهما بطريقة راضية فريدة.

إن ناثانيل قد وجد نفسه الآن، في عالم آخر تماما، فإنه بدا له - فجأة - أنه هنا، أن الجزء السفلي من جسم البروفسور سبالانزاني قد أصبح ينمو بشكل معتم مظلم، وملحوظ، ومخيف.

ثم نظر ناثانيل حوله وأجفل على نحو محفوظ عندما رأى أن مصدري الضوء اللذين تُركا مضيئين في الغرفة قد بدآ يخفتان حتى أوشكا على الانطفاء، وقد كانت الموسيقى والرقص قد توقفا منذ وقت طويل، وصرخ ناثانيل في يأس جامح: «انصرفوا! انصرفوا!»، ثم قَبَّلَ يد أوليمبيا، ثم مال نحو فمها وتقابلت شفتاه الشغوفتان بشفتيها الباردتين كالثلج! وبمجرد أن لمس يد أوليمبيا الباردة حتى شعر برعب داخلي يتلبسه ويسيطر عليه،

لقد تذكر فجأة الملحمة الخرافية الخاصة بالعروس الميتة، لكن أوليمبيا جذبته بقوة نحوها، وعندما تبادلا قبلة، بدت شـفتاها كأنهما يدب فيهما دفء الحياة.

وقد مشي البروفسور سبالانزاني ببطء عبر الغرفة الخالية، وكانت أصداء خطواته تتردد عميقة مكتومة، أما شكله الخارجي فكان له، بفعل الظلال المتقطعة، مظهر غريب يشبه الشبح. أما ناثانيل فقد همـس إلى أوليمبيا قائلا: «هل تحبينني؟ هل تحبينني يا أوليمبيا؟ فقـط قولي لـي هذه الكلمة: فقـط هل تحبيننـي؟»، هنا نهضت أوليمبيـا على قدميها وتنهدت فقط قائلة: «آه، آه». فتبعها ناثانيل، ثم وجدا نفسيهما يجلسان أمام البروفسور، ذلك الذي قال لناثانيل مبتسما«: لقد استمتعت بمحادثة فريدة مفعمة بالحياة مع ابنتي... حسـنا، إذن، يا سـيدي ناثانيل، إذا كان يطيب لك أن تتحدث إلى ابنتي القليلة الفهم، فأنت مرحب بك، لزيارتها.

هكذا غادر ناثانيل منزل البروفسـور وسعادة كلية تشع في صدره. وقد كانت حفلة سـبالانزاني هي الموضـوع الوحيد للمحادثات أو الحـوارات، خلال الأيام التالية. ومع كل ما قام به البروفسـور من أجـل جعل هذه العلاقة علاقة راقية تماما، فإن طرائف محلية من كل نوع كانت تُحكى عن تلك الجوانب غير المتسـمة بالكفاءة، والتي تنم عن شـذوذ، والتي كانـت جلية للعيان فيها، وقـد وُجِّه هجوم خاص نحـو أوليمبيا، تلك الصامتة، الجامـدة جمود الموت، والتي نسـبوا إلى عينيهـا الجميلتين - مع ذلك - غبـاء تامّا، واعتقدوا أنهم اكتشـفوا - من خلال ذلك - السـبب الذي جعل سبالانزاني يخفيها عن عيونهم وقتا طويلا. وقد اسـتمع ناثانيل إلى ذلك كله، وكان الغضـب يتملكه في الداخـل، لكنه ظل - مع ذلك - محتفظا بصمته، وذلك لأنه فكر في أنه «ما الجانب المهم الذي يستطيع عن طريقـه أن يبين لهؤلاء الزملاء أن غباءهم الخاص هو الذي يمنعهم من تعرف طبيعة أوليمبيا العميقة والرائعة؟».

وذات يـوم قال له صديقه سـيغموند: «قدم لـي معروفا يا أخي، وأخبرني كيف لفتى ماهر مثلك أن يفتن بدمية خشـبية ذات وجه شـمعي، مثل تلك التـي هناك؟!»، وكان غضب ناثانيل يوشـك أن يتأجـج جامحا، ضد صديقه، لكنه كظم غيظه في نفسـه، وأجابه قائلا: «أخبرني أنت يا سـيغموند، كيف؟ فـإذا كانت القاعدة هي أننا ندرك الجمال بسرعة حيثما ظهر، فإن شخصا مثلك لا بد أنه سيفشـل في الاستجابة لسحر مثل سـحر أوليمبيا السماوي، ومع ذلك فإنني أشـعر بالامتنان لهذه الحقيقـة، وذلك لأنها تعني أنك لن تكون منافسـا لي، وإذا كان ذلك قد حدث، فإن واحدا منا كان سيسقط مضرجا في دمائه».

وقـد أدرك سـيغموند جيدا تلك الحالة التـي كان صديقه عليها، ومـن ثم فإنه قد حَـوَّل - بمهارة - دفة المحادثـة في اتجاه آخر، بعد أن عَبَّرَ عن رأيه الذي فحواه أنه ليس في الحب تفسـير مقنع لأذواق النـاس: ثم أضاف «ومـع ذلك، فإن الأمـر الغريب هو أن كثيرا منا يتمسـكون تقريبا بالرأي نفسـه فيما يتعلق بـ أوليمبيا»، نحـن لا نعتبرهـا مريضة، يا أخـي، ولكنها تبدو، بالنسـبة إلينا، جامدة وفاقدة للروح. إن شـكلها الخارجي متناسق تماما، وكذلك وجهها، هذا حقيقي! وربما قد توصف بالجميلة، ما لم تكن عيناها تفتقدان الحياة تماما هكذا، بل إنني يمكن القول أيضا إنها عمياء، إنها تمشي مشية قياسية منظمة على نحو غريب يلفت الانتباه، كما أن حركاتها جميعها، تبدو كأنها متحكم فيها بواسـطة آلية الساعة المنظمـة، أما عندما تعزف الموسـيقى أو تغني فإنها تفعل ذلك من خلال طريقة متكررة منظمة فاقدة للبهجة والروح، تشـبه ما تقوم به الآلة. كما أنها ترقص بالطريقة نفسـها أيضا. لقد اكتشفنا أن أوليمبيا هذه «غريبة» تماما، ونحن ليست لنا علاقة بها، فهي تبدو، بالنسـبة إلينا، مثل مخلوق حي، لكن يظل هناك سبب ما يجعلنا لا نسبر أغواره أو نفهمه جيدا».

أمــا ناثانيل فكظم مشــاعر المرارة التي كادت تســيطر عليه وهو يســتمع إلى هذه الكلمات، فتحكم في الجانــب الحاد من طباعه، وقال بشــكل جاد تماما: «إن أوليمبيا قد تبدو غريبة تماما بالنسبة إليكم - أيها البشــر العاديون الباردو المشــاعر، أما بالنســبة إلى الذين يمتلكون قلوب الشــعراء، فإنها تتجلى وتكشف عن دخيلتها، وهكذا فإن نظرة الحب من عينيها قد انبعثت نحوي أنا وحدي، ثم تدفقت عبر عقلي وحواسي، وفي حب أوليمبيا وحده وجدت ذاتي مرة أخرى. أما بالنســبة إليك فإن ما قامت به عندما ابتعدت عن ثرثرتكــم وهذركم الفارغ الذي يمتع ذوي الطبائع الســطحية، أمر غير مناســب. إنها لا تقول ســوى كلمات قليلة، هذا حقيقي، لكن هذه الكلمــات القليلة تبدو أيضا مثل كلمــات هيروغليفية مبهمة أصيلة، تنبع من عالــم داخلي ممتلئ بالحب والمعرفة العليا النابعة من الحياة الروحية المســتغرقة في تأمــل الخلود، الذي يكمن وراء هذا العالم، ولكن، وبسبب ذلك كله، لا تفهمون شيئا، ومن ثم تذهب هذه الكلمات كلها هباء».

«ليحرســك الله، يا أخي العزيز» قال سيغموند ذلك برقة، وتقريبا فــي حالة من الخوف، «لكن ما يبدو لي هو أنك تنطلق في مســار مشؤوم. يمكنك أن تعتمد عليَّ إذن ... لا، لن أقول أكثر من ذلك!».

وفجـأة بدا سيغموند، البارد، العادي، بالنسبة إلى «ناثانيل» صديقا مخلصا تماما، ومن ثم فإنــه أمســك بيــده الممتدة إليه وســلم عليه بحرارة.

لقد نسي ناثانيل تماما وجود فتاة تدعى كلارا، كان غارقا في حبها من قبل، كما اختفت صور أمه، ولوثاريو، وغيرهما من ذاكرته، لقد عاش فقط من أجل أوليمبيا، وقد كان يجلس معها كل يوم ساعات طويلة، ويســتغرق في تخييلات وتهويمات تتعلق بحبه لها، وكذلك العاطفة التي تظللهما، والعلاقة الروحية الوثيقة التي تجمع بينهما، وقد كانت أوليمبيا تصغي إلى ذلك كله بإخلاص شديد.

ومـــن داخل أعماق طاولـــة الكتابة الخاصة به (المكتب) اســـتخرج ناثانيل كل شـــيء كان قد كتبه من قبـــل: قصائد، وكتابات خيالية، رؤى، وروايات، وحكايات، قصاصات يومية كانت تتزايد يوميًا على نحو عشـــوائي، ســـوناتات ومقطوعات صغيرة وقصائد غنائية، ثم قرأها جميعا لـــ أوليمبيا حتى نهايتها، وعبر ســـاعات طويلة، من دون أن ينالـــه التعـــب أو العناء، فهو لم يحظ مـــن قبل، بمثل تلك المســـتمعة العجيبة، فهي لم تكن تحيـــك الملابس أو تغزل الخيوط، ولم تكن تحدق بنظرها إلى خارج النافذة، ولم تكن تطعم عصفورا فـــي قفص، ولم تكن تلعب مع كلب تحمله بين ذراعيها في حضنها، أو مـــع قطة تحبها، كما أنها لـــم تكن تحرك يديها أو أصابعها، في قلق وهي تمســـك بمنديل أو أي شـــيء آخر، وهي لم تجد قط أنه من الضروري أن تكتم تثاؤبا من خلال سعلة مفتعلة؛ باختصار، لقد كانـــت تجلس بلا حراك، في حين أن نظرتهـــا المحدقة مثبتة على عيني محبوبها، وهي ترنو إليه، على نحو مفعم بالحيوية والشغف، بنظرة كانت تشتد، تتزايد شيئا فشيئا، وفقط عندما نهض ناثانيل وقَبَّلَ يدها، ومن دون شـــك، فمها، فإنها قالت «آه، آه»، ثم أضافت: «ليلة سعيدة، يا عزيزي!».

عندما عـــاد ناثانيل إلى غرفته كان مبتهجـــا، ومن ثم صاح: «آه يا ذات الجمـــال الرائع العميق، أنت فقـــط، أنت فقط التي تفهمينني على نحو تام».

ثم إنه شـــملته رجفة بهجة عميقة عندما تأمل ذلك التناغم الرائع الذي يوحد بين طبعه وطبع أوليمبيا، ويجمعهما - على نحو واضح - يومـــا بعد يوم، وقد بدا له أيضا أن ما تقوله أوليمبيا عن إنتاجه الأدبي، وعن موهبته الشـــعرية عموما، إنما يأتي من أعماق وجوده هو ذاتـــه، وأن صوتها، كان فعلا صوت تلك الأعماق نفســـها، وأن ذلـــك لا بد أن يكون هو الأمر في حقيقتـــه؛ وذلك لأن أوليمبيا لم تقل قط سوى تلك الكلمات، التي ذُكرت من قبل، لكن حتى ناثانيل

نفســـه، وفي بعض لحظات الرزانة - عندما يســتيقظ في الصباح مثــلا - كان قادرا على أن يدرك مقدار ما كانت عليه أوليمبيا من ســلبية وصمت، لكنه - على كل حال - كان يقول لنفسه بعد ذلك: «أي معنــى للكلمات؟». إن نظرة خاطفة من عينيها المقدســة تقول مــا يفوق كثيرا ما قد يقوله أي حديث يدور فوق هذه الأرض، وهل يستطيع طفل سماوي علوي أن يكيف نفسه مع تلك الدائرة الضيقة التي تدور بفعل تلك الظروف البائسة المدمرة الخاصة بهذه الأرض الدنيا؟».

وقد كان البروفســور سبالانزاني يبدو مبتهجا تماما بتلك العلاقة التي تطورت بين ابنته وناثانيل، وقد أرسل إشارات كثيرة إلى هذا الأخير، تدل على رضاه عن هذه العلاقة ومشــاعره الطيبة نحوه، ثم إنه عندما تجرأ ناثانيل في النهاية لأن يلمح - بشكل واضح - إلى رغبته في خطبة أوليمبيا، تهلل وجه سبالانزاني كله بابتسامة كبيــرة، وقال إنه يمنح الفرصة كاملة لابنته لتقرر ما تريد. وهكذا فإن ناثانيل، وقد شجعته هذه الكلمات، وحرَّكته الرغبة المتأججة فــي قلبه، قرر أن يرجو أوليمبيــا أن تقول له - على نحو واضح، وبــلا تحفظ، وبكلمات بســيطة - خلاصة رأيهــا في ذلك الحب الــذي تكنــه له عندما أخبرته - منذ وقت طويــل - أنها تريد أن تكون له وحــده، وإلى الأبد. ثم إنه بحث عن الخاتم الذي أعطته أمه له عندما غادر البلدة، حتى يســتطيع أن يقدمه إلى أوليمبيا كرمــز لإخلاصه لها، ولفجــر ينبلج ويتعلق بحيــاة جديدة تجمع بينهمــا، وفي أثناء بحثه عن الخاتم، رأى خطابات كلارا ولوثاريو، فألقــى بها جانبا دونما أدنى اهتمام، ثم وجد الخاتم، ووضعه في جيبه، وانطلق يعدو في اتجــاه غرفة أوليمبيا، وعندما صعد إلى السلم ووصل إلى الجانب العلوي المنبسط منه، سمع صوتا غريبا يهــدر في صخــب، وقد بدا ذلك الصوت كأنــه يصدر من مكتب ســبالانزاني، وقد كان هناك ضرب بالأقــدام على الأرض، ولغو

ولغـط، ودفع وضربات مكتومة ناحية الباب، مع أصوات متداخلة تقسم وتحلف وتسب وتلعن: «دعك من هذه الفكرة ! دعك من هذه الفكرة، أيها الحقير، أيها الوغد! هل هذا ما خاطرت بحياتي من أجله؟ ها، ها، ها، ها! هذا ليس ما اتفقنا عليه! لقد صنعت العينين! لقد صنعت الدمية الميكانيكية المنظمة كالساعة أيها الأحمق التعس، عليك اللعنة أنت وآلية ساعتك! أيها الكلب الملعون، صانع الساعات الملعون، صانع الساعات، لترحل معك! أيها الشيطان، توقف، يا مخرج عروض العرائس! أيها الحيوان، توقف، اذهب بعيدا، دعك من هذا».

لقد كانت تلك الأصوات المرتفعة هكذا والمنهكمة في شجار، هي أصوات سبالانزاني، ومعه البغيض كوبوليوس، وعندما سيطر خوف مجهول على ناثانيل، اندفع إلى داخل المكتب، وقد كان البروفسور يمسك بما يشبه امرأة من كتفيها، في حين يمسك الإيطالي كوبولا بها من قدميها، وكانا قد سيطر عليهما غضب عارم، يجذبانها ويشدانها بقوة من أجل أن ينتزعها أحدهما من الآخر، أما ناثانيل فتراجع إلى الخلف في ذعر عندما تعرف إلى أوليمبيا في هذا الشكل الأنثوي، ثم إنه اندفع متأججا بغضب جامح كي ينقذ محبوبته، وفي تلك اللحظة تحول كوبولا نحوه بوجه مخيف، فانتزع الشيء الشبيه بالمرأة من يديّ البروفسور وضربه بها ضربة مروعة، فسقط إلى الخلف بعنف وفوق المائدة، تلك كانت أشياء مثل بعض الأدوات الكيميائية (المعوجة) والزجاجات والأسطوانات الزجاجية موضوعة عليها، فوقعت جميعها، كما تحطمت الأواني الزجاجية وتفتتت إلى ألف قطعة، أما كوبولا فوضع الشيء الشبيه بالمرأة على كتفه، ثم، وهو يضحك ضحكة، انطلق يعدو بسرعة هابطا السلم، حتى إن قدميّ تلك المرأة اللتين كانتا تتدليان على نحو منفر خلف ظهره، كانتا ترتطمان بذلك السلم محدثتين جلبة وصوتا خشبيا مكتوما.

توقــف ناثانيل، وقد جمده الرعب، لقد رأى الأمر بوضوح تام، رأى وجه أوليمبيا الشمعي الشاحب شحوب الموت، وهو يخلو من عينين فيــه، ومــا كان فيه - بدلا منهما - مجرد فجوتين ســوداوين، لقد كانت دمية ميتة!».

أما سبالانزاني فقد كان يتدحرج مترنحا فوق الأرض، وقد أصابت قطع الزجاج المتكســرة رأســه وصدره وذراعيه بجــروح كان الدم يتدفق منها كما لو كان يتدفق من نافورة، لكنه، وبكل ما يمتلك من قوة، استجمع شــتات نفسه وصاح «اتبعه، تعقبه، ماذا تنتظر؟ لقد سرق كوبوليوس مني دميتي الآلية الأوتوماتون الأجمل. لقد كلفتني عشــرين عاما من العمل! لقــد غامرت بحياتي مــن أجلها! وتلك الدواليــب الصغيــرة الميكانيكية فيها، وآلية الكلام، والمشــي، كلها ملكــي، ومن صنيعتي! أما العينان فمســروقتان منك! أيها الحقير الملعون، تعقبه! اســتعد أوليمبيا لي ثانية منه، وهاتان هما ! هاتان هما العينان!».

عند هذه النقطة رأى ناثانيل عينــين ذواتي نقاط دامية بداخلهما ترقدان على الأرض وتحدقان فيه، ثم أمســكهما سبالانزاني بيده غير المجروحة، وقذف بهما نحو ناثانيل، فارتطمتا بصدره.

هنا اجتاح الجنون ناثانيل وأنشب فيه مخالبه القوية الملتهبة فمزقه وهاجــم عقله بعنف فطفق يضحك ويقــول: «ها، ها، ها! دائرة من النار! من النار! در بســرعة! در! من النار! در بسرعة! در! دائرة من النــار! بمرح! ببهجة وجذل! دمية متحركــة ها، بمرح وجذل! دمية متحركة ها، دمية متحركة جميلة، در بسرعة! در!» ومع صيحته تلك قذف بنفسه بقوة فوق البروفسور، وأمسك بحلقه، وأوشك أن يقتله خنقــا لولا أن هذه الجلبة كانت قد جذبت أنظار حشــد من الناس في الخارج، فاندفعوا إلى داخل البيت، وأبعدوا عنه ناثانيل الشديد الغضــب، ومن ثم أنقذوا البروفســور وبدأوا علــى الفور يعالجون جروحــه. أما ســيغموند، صديــق ناثانيل، وعلى الرغــم من قوته

البدنية الواضحة، فإنه لم يستطع أن يكبح جماح صديقه المجنون الذي استمر يصيح بصوت مخيف «در بسرعة، دمية متحركة، در!» Spin, Spin بقبضتي يديه المضمومتين بقوة، هنا وهناك، وأخيرا نجحت تلك القوة المتوحدة لمجموعة من هؤلاء القوم في التغلب عليه وطرحه أرضا وتقييد حركته على نحو محكم، ثم إن الكلمات التي كان يصيح بها قد انحلت وصارت غامضة حتى أصبحت مثل خوار حيوان مخيف، ثم إنهم أخذوا ناثانيل بعد ذلك، ذلك الذي كان واقعا في براثن جنون مخيف متأجج، إلى مصحة للأمراض العقلية.

أيها القارئ العزيز، قبل أن أواصل حديثي فأخبرك بما حاق بعد ذلك بتعس الحظ ناثانيل، يمكنني أن أخبرك كذلك، وعلى افتراض أنك تشاركني اهتمامي، بمصير صانع الآلات والكائنات الآلية المخلقة البارع سبالانزاني، بأنه قد شفي تماما من جروحه، وأنه قد أجبر على مغادرة الجامعة؛ وذلك لأن حكاية ناثانيل قد أحدثت اضطرابا كبيرا هناك، وقد اعتبرها الجميع نوعا من الخداع الذي لا يمكن التسامح معه، والذي جعل دمية خشبية، بدلا شخص حي، تتسلل وتدخل خلسة إلى جلسات الشاي المحترمة التي كانت تعقد هناك (والتي شاركت أوليمبيا فيها بنجاح كبير)، وحتى المتاجرون في القانون قد قالوا أيضا إن تلك الخدعة كانت متقنة، وإن كل ما كان يتضمنه ذلك من خداع يستحق اللوم إنما كان يتم علانية أمام الناس؛ ومن ثم فإنهم قد أدركوا - على نحو بارع - أن أحدا فيما عدا هؤلاء الطلاب شديدي الذكاء قد اكتشف هذا الخداع، هذا مع أن الجميع الآن يتظاهرون بالحكمة، ويزعمون أنهم يتذكرون تلك الأشياء التي كانت تبدو لهم جديرة بالشك، لكنهم لم يُقدموا أيضا، وعلى نحو واضح، أي شيء له قيمة حقيقية يدل على ذلك، فهل كان الأمر جديرا بالشك بالنسبة إلى أي فرد، مثلا، ووفقا لشهادة بعض المتأنقين المعتادين حضور جلسات الشاي تلك، لو كانت أوليمبيا تقوم بالعطس والتثاؤب أكثر

مـــن غيرها؟ لقد أدت أوليمبيا، وهذا ما أكده رجل مهذب متأنق، ذلك الصوت الخاص بآلية الدمية الميكانيكية التي تستعد للعمل، وكانت هناك في الوقت نفســـه صرخة طويلة حادة ملحوظة، وما شابه ذلك، أما أستاذ الشـــعر والبلاغة فأخذ مقدارا صغيرا من السـعـوط بيده، ثم أغلق صندوق الســعوط بقـــوة، محدثا صوتا عاليـــا، ثم نظف حلقة في رزانة وقال: «يـــا رجال الطبقة الراقية ونساءها، ألا ترون أين تكمن المشكلة؟ إن الأمر كله مجرد أليغورة (عظة مجازية)، اســـتعارة طويلة ممتدة! هـــل تفهمونني؟ وكونوا عاقلـــين وهادئين»، لكـــن عقول كثير من هـــؤلاء القوم المحترمين المنتمين إلى الطبقة الراقية لم تســـتطع أن تهدأ، فقد ضربت تلك الحكايـــة الخاصة بالدمية المخلقة أعمـــاق أرواحهم؛ ومن ثم ظل يتســـلل إليهم، خفية، في الحقيقة، نوع من عـــدم الثقة الملحوظة في الشـــكل الإنساني. ومن أجل أن يصبحوا مقتنعين تماما بأنهم لم يقعوا في حب دمية خشـــبية، كان كثير من الشـــباب الغارقين فـــي الحب يطلبون من محبوباتهم أن يغنين ويرقصن بشـــكل أقل من ذلك الشـــكل التام المعتاد، وأيضا أنهن خلال قيامهن بالقراءة ينبغـــي لهـــن أن يقمن برتـــق الملابس وحياكتهـــا، واللعب مع كلب صغير، وما شـــابه ذلك، ولكن، والأكثـــر أهمية من ذلك كله، أنهن ينبغي لهن ألا يكتفين فقط بالاســـتماع، بل ينبغي لهن أن يتحدثن أيضا، وبالطريقة التي تشير إلى أن ما يقلنه إنما يدل على تفكير حقيقي، وأيضا على وجود مشـــاعر وراء هذا التفكير والكلمات، وفـــي ضوء هـــذا النظام أصبحت علاقات حـــب عديدة أكثر قوة ومتانـــة، بينما انحلت علاقات، وروابط أخـــرى، وتفككت بهدوء، وقـــد كانوا يقولون: «إنك لن تســـتطيع أن تتكهـــن بالطريقة التي ستصير إليها الأمور»، ومن أجل مواجهة كل أنواع الشكوك، كانت هناك كمية لا يمكـــن تصديقها من عمليات التثاؤب والعطس في حفلات الشاي تلك كلها.

وكما ذكرنا، فإنه كان على سـبالانزاني أن يغادر المدينة كي يتجنب أي تحقيق قانوني معه بسبب الخداع الذي قام به حين أدخل دمية مخلقة إلى المجتمع البشري، كذلك كان على كوبولا أن يغادر أيضا.
أمـا ناثانيل فاسـتيقظ كما لـو كان واقعا في براثـن حلم مهيمن مخيف، وفتح عينيه، وشـعر بإحساس من البهجة، لا يمكن وصفه، يتدفق بداخله، ويصحبه دفء سـماوي علـوي، لقد كان يرقد في سـرير في غرفته ببيت أبيه، وكانـت كلارا تميل فوقه، وكانت أمه ولوثاريو يقفان قريبين منه.
«أخيرا، أخيرا، يا محبوبي ناثانيل، قد شفيت من مرضك المخيف. أنـت لي مرة أخـرى الآن!»، هكذا قالت كلارا مـن أعماق روحها، وأخذت ناثانيل بين ذراعيها. على كل حال، فإن دموعا حارة تدفقت من عينيه، معبرة عن البهجة الصافية، والأسى أيضا، وتنهد بصوت مرتفع وهو يقول «يا كلارتي العزيزة!».
أما سـيغموند، الذي كان قد قاسـى ويلات صديقه وشاركه فيها، فقد جاء إليه، وسلم عليه ناثانيل بيده وقال: «يا أخي المخلص، أنت لم تتخل عني قط».
هكذا تبدد كل أثر للجنون وانقشع، ثم أصبح ناثانيل أكثر قوة في ظل تلك الرعاية الشـاملة التي أحاطته بها، وكذلك أحباؤه وأصدقاؤه.
هكذا دخل الحظ السـعيد في ذلك الوقت إلى المنزل، ثم مات خال مسن بخيل له، وترك لأم ناثانيل قدرا معتبرا من المال، إضافة إلى أمـلاك صغيرة في منطقة جميلة ليسـت بعيدة عـن بلدتهم، وقد حدث ذلك في الوقت الذي رغبت الأم فيه، ومعها ناثانيل وكلارا - وقد كانا يرغبان في الـزواج - ومعهم لوثاريو، أن ينتقلوا إلى ذلك المـكان الجديد. لقد أصبح ناثانيل أكثـر رقة وبراءة مما كان عليه من قبل، ثم إنه أدرك - للمرة الأولى - حقيقة ما كانت عليه كلارا مـن طبيعة رائعة وبريئـة. ولم يقم أحد بعد ذلـك بالتلميح - ولو بشكل بعيد تماما - إلى ما قد حدث في الماضي. فقط عندما كان

سـيغموند على وشك الرحيل، حدث أن قال ناثانيل: «في أمان الله يا أخي! لقد كنت أسلك طريقا مخيفا، لكن عندما حان الوقت جاء مـلاك وقادني إلى الطريق الصحيح! آه، لقد كان ذلك الملاك هو كلارا». ولم يشأ سيغموند أن يدعه يستطرد في هذا الحديث خوفا من أن تُبعَث فيه تلك الذكريات المؤلمة العميقة، من جديد.

هكذا حان الوقت لأن ينتقل هؤلاء الأشـخاص السعداء الأربعة إلى تلك الأملاك الصغيرة التي ورثتها الأم، وقد كانوا يجوسـون خلال شـوارع المدينة في منتصف النهار، وكانوا قد اشتروا أشياء كثيرة، وكان البـرج الطويل الخاص بأحد المباني العامـة في المدينة يلقي بظلال ضخمة فوق منطقة السـوق. وهنا قالت كلارا: «دعنا نصعد ذلـك البرج مرة واحدة فقـط... وننظر من خلالـه عبر الجبال». وبسـرعة فائقة صعد ناثانيـل وكلارا معا البـرج، وذهبت الأم مع خادمـة لها إلى البيـت، أما لوثاريو فلم يرغب فـي صعود كل تلك الدرجات التي تؤدي إلى قمة البرج؛ ومن ثم فإنه فضل أن ينتظرهما أسـفله. هكذا وقف العاشـقان، ذراعا في ذراع، في قاعة العرض (الغاليـري) العليا من البرج، وحدقا نحو الخارج، نحو غابة يتضوع أريجها، ونحو جبال زرقاء تشـرئب مثـل مدينة عملاقة خلف تلك الغابة.

«انظر فقط إلى تلك المجموعة من الشـجيرات الرمادية القصيرة الجميلـة التي تبدو كأنها تتحرك وتتقدم نحونا»، قالت كلارا ذلك، ووضـع ناثانيل يده على نحو آلي في جيبه الجانبي، ووجد بداخله «تليسكوب» كوبولا، وحدق من خلاله، وكانت كلارا تقف أمام العدسة مباشرة، فانتابته رعدة وقشعريرة، وسيطرت عليه، وشاحبا كالموت حدق فـي كلارا، ثم في التو بدأت عيناه تـدوران في محجريهما، وبدوتـا كما لو أن نارا تومض وتختفـي، ثم تتوهج خلفهما، ثم بدأ يزأر على نحو مرعب مثل حيوان أسـير، ثم وثب عاليا في الهواء، في حين كان يضحك بشكل شنيع مرعب، ثم إنه صرخ بصوت حاد:

«حشـــوة، دمية متحركة، قصة ملفقة، دمية متحركة، حشوة»، وبقوة كبيرة أمسك بكلارا، وحاول أن يقذف بها من فوق البرج.
ولأنهـا كانت فـــي حالة من الخوف القاتل، تشـبثت بــــ «درابزين» شرفة البرج، وقد سمع لوثاريو ذلك الهياج الخاص بذلك المجنون، وسمع صرخة كلارا التي تنم عن الخوف، وتدفقت هواجس مخيفة بداخله، فانطلق يعدو صاعدا ســـلالم البرج، وقد كان باب المستوى الثاني المنبســـط في البرج مغلقا، وتزايـــدت صرخات كلارا أعلى فأعلى، ولشعوره بالتشتت الشديد بسبب احتدام الخوف والغضب بداخله، ألقى لوثاريو بنفسه على الباب، فانفتح.
ثم أصبحت صرخات كلارا، شــيئا فشــيئا، أكثر ضعفا: «النجدة، ســـاعدوني، ســـاعدوني»، ثم تبدد صوتها في الهـــواء. أما لوثاريو فصرخ قائلا: «لقد ضاعت، قتلها رجل مجنون»، وقد كان باب قاعة العرض مغلقا أيضا، وقد منحه اليأس قوة فخلع الباب بمفصلاته.
يا إله الســـماوات، كانت كلارا. بينما يمســـكها ناثانيل الذي يهذي، تتدلى معلقة في الهواء من فوق شـــرفة قاعـــة العرض، وقد كانت تمسك بالدرابزين الحديدي للشـــرفة بيد واحدة، وبسرعة الضوء أمسك لوثاريو أخته بشـــدة وجذبها إلى الخلف، وفي الوقت نفسه وجـــه لطمة قويـــة بقبضته المحكمة إلى وجه ذلـــك الرجل المجنون الهائج، فتراجع إلى الوراء بقوة، وترك ضحيته.
ثم انطلق لوثاريو نازلا درجـــات البرج، وكانت أخته الفاقدة للوعي بين ذراعيه، لقد أُنقذت، أما ناثانيل فكان يدور داخل قاعة العرض، يهذي ويثب عاليا في الهواء، ثم يصرخ: «قصة ملفقة حشوة، دائرة من النار، قصة ملفقة، حشوة، دائرة من النار!».
وقد هرع الناس وجاءوا عندما ســـمعوا تلك الصرخات الوحشـــية وتجمعوا أسفل البرج، ومن بينهم برز - على نحو عملاق - المحامي كوبوليوس، الذي كان قد وصل توا إلى المدينة وتوجه مباشـــرة إلى منطقة السوق. وقد أراد بعض الناس أن يدخل البرج ويسيطر على

ذلــك الرجل المجنــون، لكن كوبوليوس ضحك وقــال : «لا تزعجوا أنفسكم، إنه ســوف ينزل بنفسه فورا»، ثم حدق والجميع معه إلى أعلــى. أما ناثانيل فتوقــف فجأة كأنما قد تجمد فــي مكانه، ثم انحنى إلى أســفل ومال، وتعرف على كوبوليوس، ثم بصرخة عالية شــقت الفضاء قال: «ها! عيون جميلة! عيون جميلة!»، ثم قفز من فوق الشرفة إلى الأرض.

وبينمــا كان ناثانيل يرقد على أرضية الشــارع الممهدة وقد تحطم رأسه، اختفى كوبوليوس بين الحشود.

بعد ذلك بعدة ســنوات، كان يمكنك أن ترى كلارا، في مكان قصي من الريف، تجلس مع رجل شــغوف محب لها، يدها في يده، أمام باب ذلك البيــت الريفي الجميل، وهناك طفــلان جميلان يلعبان عنــد قدميها، ومن ذلك المشــهد كان يمكنك أن تســتنتج أن كلارا قد وجدت – في النهاية – تلك الســعادة المنزلية الهادئة التي كانت ملائمة تماما لطبعها المرح المبتهج المميز، تلك السعادة التي لم يكن ناثانيل – ذلك الذي كان مستغرقا في هذيانه الداخلي – ليقدر أنه يمنحها، أبدا، سعادة مثلها.

9

رؤى نقدية متعددة

«ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنس - استوحش - لاسيما مع قلة الأشغال والمذاكرين... والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع، وقد عاينوه أو صوره لهم واصف صدوق اللسان، بليغ في الوصف، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق»

(الجاحظ، متحدثا عن الجان والأشباح، كتاب الحيوان) [1]

نستعرض، فيما يلي، أهم الدراسات النقدية الحديثة التي أعادت النظر والفحص للأفكار الأساسية التي جاءت في مقال فرويد نفسه، وكذلك في قصة هوفمان التي قام على أساسها ذلك المقال، والتي قدمنا ترجمة كاملة لها في هذا الكتاب.

وقد كتب هذه الدراسات النقدية كل من:

1 - ديفيد إيلسون: أستاذ الأدب الفرنسي والأدب المقارن، ورئيس قسم اللغات الأجنبية بجامعة ميامي، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، ومؤلف كتب كثيرة عن بروست، وألبير كامي، والكلمات، والعالم، وغيرها. وقد كتب كثيرا حول هذا الموضوع في كتابه: الأخلاقيات والجماليات: من الجليل إلى الغريب (2001) [2].

2 - هيلين سيكسو (1937 - ...): كاتبة مسرحية، وشاعرة، وفيلسوفة فرنسية، وناقدة أدبية مشهورة، وقد كتبت هنا دراسة بعنوان: «السرد المتخيل وأشباحه: قراءة في مقال فرويد حول الغرابة» (3).

3 - سارة كوفمان (1934 - 1994): ناقدة وفيلسوفة فرنسية، من تلميذات دريدا. لها كتابات مهمة حول ينتش، وفرويد، وكانط، وروسو، وغيرهم. وقد انتحرت في العام 1994، ودراستها هنا بعنوان: «القرين هو/ والشيطان، غرابة رجل الرمال» (4).

4 - ليز مولر: محاضرة في قسم الأدب المقارن بجامعة كوبنهاغن، لها بضعة كتب مهمة، منها كتابها «نظرية فرويد في الأدب»، ودراستها التي اعتمدنا عليها هنا بعنوان: «رجل الرمال: الغرابة كمشكلة من مشكلات القراءة» (5).

5 - نيل هيرتز: أستاذ متفرغ بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة جون هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية، مهتم بأشكال الجليل في الأدب، وكذلك بتاريخ التصوير الفوتوغرافي، ودراسته هنا عنوانها هو: «فرويد ورجل الرمال» (6).

أولا: ذلك الواقع الذي يحاكي الخيال

يرى إليسون أوجه تشابه كثيرة بين ناثانيل، الشاعر، وبين أوليمبيا الدمية المخلَّقة، فيقول، «ليست فقط حياة ناثانيل، وجسد أوليمبيا الآلي، هما ما قد تم تكوينهما وبناؤهما حول مشكلات الحضور والغياب للعينين، وكذلك الموضوع المتكرر الرئيسي الخاص بالرؤية عموما، لكن أيضا هناك ذلك المشهد المسخي الغروتسكي الخاص بفصل وإعادة تنظيم أطراف ناثانيل عندما كان صغيرا واكتشفه كوبليوس في مكمنه، الذي يرهص ويتنبأ بمصير أوليمبيا وقدرها المحتوم التالي في القسم الأخير من القصة، خاصة عندما انتهى الصراع والعراك بين سبالانزاني وناثانيل حولها في النهاية بتمزيقها أو بتحويلها أوصالا مفككة متقطعة لا يمكن تنظيمها أو تجميعها في كل أو كلية مرة أخرى.

هكـــذا فإن ناثانيل، الذي أعجب بأوليمبيـــا، واعتقد أنه يحبها، والذي جعلها موضوعا لانفعاله الخادع، هو أيضا يشـــبهها كثيرا. إن التشابه بين الشاعر الشاب والأوتوماتون (الكائن المخلق الآلي) ربما كان أحد التأثيرات الغريبة التي توحي بها هذه القصة.

ويفرد إليسون جانبا مهمّا من بحثه - حول الغرابة وفرويد - لموضوع القريـــن والعينـــين، فهو يـــرى أن العينين، في قصة هوفمـــان، هي مبدأ الحياة، لكنها أيضا مبدأ الحياة الاصطناعية، فالبطل يخلق - نرجســيّا - مخلوقاته من خلال عينيه، لا يتكاثر بأعضائه، وهو يجعل كلارا غريبة عنـــه، ويفك ارتباطه بها عـــن طريق قراءة قصائده لهـــا. كلارا العاقلة، الواضحة، الواقعيـــة، لا تتناغم مع مخلوقات ناثانيـــل وأعماله الخيالية التي يتفق معها أكثر قرينه الصامت، مرآته، موضوع إسقاطاته أوليمبيا، الأوتوما، الآلية، المخلقة.

إن ناثانيـــل يخلق هنا من خـــلال المحاكاة، يتكاثر مـــن خلال المحاكاة والازدواج والحياة المزدوجة، القرين، المثل، الشبه، الذي لا يكون بالضرورة صورة مرآوية حرفية له، بل تعبير مجازي خيالي مجسد لمخاوفه وأحلامه، مـــن خلال قوة التمثيل للرؤية، الانقســـام والازدواج الذي ينتمي إلى المرايا والظلال وغريزة الموت، فالعين هنا مصدر شـــيطاني للحياة، قوة شيطانية خاصة بالازدواج. وعلى عكس ما قاله فرويد، يقول هوفمان في هذه القصة إن ناثانيل إذا فقد عينيه سيستعيد نشاطه الجنسي، لا أن يفقده، سيصبح واقعيّـــا، لا خياليّا. وليس رجل الرمال هنـــا بديل الأب القادر على العقاب والإخصـــاء - كما نظر إليـــه فرويد - بل إنه قرين خيالي شـــيطاني يتيح الفرصة للاطلاع على الأسرار، والكشف عن الخفي والمخبوء والخيالي.

إن القريـــن ليـــس حيّا وليس ميتـــا، لقد صمم، وأنتج مـــن أجل أن يكمل الحياة، كي يكمل الحي، كي يجعله خالدا، وهو أيضا النذير بالموت. كما أشار إلى ذلك فرويد ورانك من قبله. إنه يخفي، من خلال كماله واكتماله، الحضور الخاص للموت، من خلال خلقه لما يرجو أن يكون الأقران الخالدة المجسدة له، الأشـــباه الخالدة التي يحاول الإنسان أن يهرب من خلالها من الحقيقة التي فحواها أن الموت موجود فعلا - من قبل - في الحياة، وأن إحســـاس الغرابة الخاص بالقرين إنما ينشـــأ عن كونه لا يســـتطيع إلا أن يستثير أو يستحضر معه تلك الحقيقة التي يحاول الإنسان - بلا جدوى - أن ينساها: الموت.

لقد كان هوفمان يعرف أن الغرابة هي منطقة خاصة بالموت، أي بما لا يمكن الإحاطة به أو احتواؤه، بالموت المتكرر، وهي تلك المنطقة التي دخلها فرويد في العام 1919، بعد سكرة الموت الطويلة الخاصة بالحرب العالمية الأولى، لكنها أيضا المنطقة التي دخلها ينتش قبله أيضا، ودخلها فلاسفة ومحللون نفسيون، ثم دخلها فرويد كي يكتشف وجودها في الخيال الأدبي الرومانتيكي المكتوب قبل عصره بمائة عام، كما ذكرنا ذلك في مواضع كثيرة سابقة في هذا الكتاب.

إن ترددات فرويد المتعددة، تأرجحاته، تعريفاته، وإعادة تعريفاته، خطابه المزدوج، المتناقض وجدانيًا ومعرفيًا، حذره، وعدوانيته، كلها دلائل - كما يشير إليسون - على حيرته المعرفية، عدم تأكده الناتج من انقساماته الداخلية كمحلل فيما يتعلق بموضوع مراوغ، ويهرب دوما من التحديد، مثل الغرابة، مما يعكس كذلك ذلك النمط المتلفظ به تحت تلك البنية الواضحة أو الصريحة، بنية السطح التي في حكاية هوفمان الغريبة.

هكذا يحاكي مقال فرويد قصة هوفمان الطويلة، وهكذا مَثَّل ذلك المقال نوعا من التردد والشك والالتباس بين السيطرة العقلية على الأحداث والتشظي أو التفكك غير القابل للتحكم فيه بداخلها، وربما كان ذلك راجعا - في المقام الأول - إلى أنه كان يرى نفسه داخل القصة، وأنه لم يستطع أن يبعد أو يستبعد نفسه عن ذلك السرد المنطقي الذي كان هوفمان يقدمه، أو عن نفوذه الساحر الذي هيمن من خلاله على أحد كبار مفكري القرن العشرين بواسطة شخصيات خيالية تنتمي إلى قرن قبله. لقد سيطر نص هوفمان على فرويد وتلبسه، هيمن عليه، انتابه، تكرر ظهوره لديه، حضر على الرغم من غيابه، في حين غاب فرويد على الرغم من حضوره، ومن ثم كان كل ما استطاعه فرويد هو أن يعيد ويكرر، لا أن يُغيِّر فعلا ويُجدِّد. ومثلما كرر بعض أفكار ينتش على الرغم من نبرة التعالي التي أشار من خلالها إليه، فإنه كرر أيضا كثيرا من أفكار هوفمان وثيماته كأمثلة دالة على الغرابة - كما يراها هو - في حين أنها كانت في الواقع الأمثلة الخاصة بهوفمان، وقد جاءت إليه كأشباح، انتابت عقله، وسكنت مقاله.

وأقرب الشخصيات إلى فرويد داخل القصة - فيما يرى إليسون - هي شخصية كلارا، ذات التفكير المنطقي الواضح، إنها تبدو كأنها ترهص بمجيء فرويد، الأب الحقيقي للتحليل النفسي، إنها تتحدث إلى محبوبها،

ناثانيل، بأسلوب تحليلي نفسي لا يمكن تجاهله، لقد كانت تتحدث عن الغرابة أيضا قبل أن يتحدث عنها فرويد بمائة عام تقريبا، إنها تطمئن ناثانيل فيما يتعلق بمخاوفه من كوبوليوس، ويقوم تحليلها لحالته على أساس تمييز واضح، ومؤكد لديها، بين «الداخل» الخاص بعقل ناثانيل الميال إلى الاكتئاب والمولد للأفكار بعضها من بعض، وبين الواقع «الخارجي»؛ ومن ثم فإنه - في رأيها - يمكنه أن يجد العزاء والسلوان من أحزانه، ويُشفى من أخيلته المخيفة لو استطاع أن يعرف أن مخاوفه - تلك - مجرد مخاوف متخيلة، وأن يعرف أن ما رآه - عندما اختبأ في غرفة أبيه - ليس له أي أساس من الواقع، لكنه كان نتيجة لإسقاطاته المتخيلة.

هنا سعى نحو الحقيقة، لكن هذا الدافع الغلاب الغريب قد ترتب عليه أيضا دمار العائلة والبيت. ويفترض أن كلارا ووالدة ناثانيل هما من حملا على عاتقيهما مهمة حماية المنزل الذي دمره الوالد، ومعه ناثانيل وكوبوليوس، وغيرهما من الرجال، أمثال كوبولا وسبالانزاني، والذين تشابكت جهودهم معا وتراكمت معه فأنتجت بدعة، دمية غير حقيقية، لا هي حية ولا ميتة، نوعا من الخداع الذي تمثله أوليمبيا، أوتوماتون لا تحتوي على أي تشابه حقيقي مع أي امرأة حقيقية، يتجاوز تشابه تلك المواد الوامضة المشعة التي كانت في مدفأة والد ناثانيل مع الذهب الحقيقي.

وإنه حتى بعد تقطيع أوصالها، وإبعادها وطردها، ظلت أوليمبيا حية، بقيت شبحا بين الأحياء، عقبة في طريق الوصول إلى نهاية مقنعة للاستدلال الأخلاقي والمنطق. إن تمزيق أوصالها لا يعني نهايتها أو موتها؛ لأنها لم تكن أصلا حية حتى تموت، بل لقد فُكِّكَت؛ ومن ثم قد تمكن إعادتها من جديد، وهي قد عادت من خلال أعمال فنية أخرى فعلا، في المسرح مثلا. هكذا - كما يشير إليسون - لا يمكن للكائنات الآلية أن تموت، فالموت الموجود وراءها، لا يموت، بل يعاد تكوينه بوصفه نوعا من التكرار الجحيمي/المتجدد، والذي يكون في العادة، غريبا.

يقول ديفيد إليسون أيضا: إنه عندما ننظر من قرب إلى قصة هوفمان، ودراسة فرويد عنها، سوف نجد نوعا من التشابه الغريب بينهما، عند ذلك المستوى الذي يمكن تسميته بالدافعية اللاشعورية الكامنة خلف أو وراء الحوار القهري الخاص بمشكلة «التأطير» Framing والإغلاق السردي لدى الكاتبين، كما أنهما معا، يحاولان جاهدين - باستماتة - وضع

الغرابــة والإحاطة بها داخل بنيــة منطقية، ففي حالة فرويد، مثلا، هناك مجهوداته المســتميتة، للتمييز بين الأشكال الممكنة المختلفة من الغرابة في الفــن والحياة، ولكن تصنيفنا لظاهرة كالغرابة، على نحو محدد، قد يعمل علــى إبطال الجانب الخــاص بالقوة الهائمة غير المســتقرة الخاصة بها، والمميزة لها.

وهكذا فإن الغرابة هي قوة هائمة، تتجاوز الحدود، لا تســكن في بيت واحــد يؤديها؛ بل تخرج من بيت إلــى آخر، ومن إطار إلى آخر، من مجال إلى آخر، من الفــن إلى الحياة، ومن الحياة إلى الفن، ثم الأدب، ثم العلم، ثم تعود مرة أخرى إلى أحد بيوتها السابقة، كأنها ترفض التأطير والأسر، وكأنها لا تســتطيع أن تجــد ذاتها إلا في اغترابها؛ لأن اســتقرارها يعني موتها، لأنها لو اســتقرت لم تعد بعد غريبــة، هنا تحولت كلارا في قصة هوفمان من الوقوع تحت أسر مشاعر الغرابة التي كانت تنتابها وهي تفكر فــي ناثانيل وتتعلق به، ولا تســتطيع أن ترتبط بــه، لكنها لا تصبح غريبة بالنســبة إليه؛ بل أليفة ومألوفة معــه وله، تحولت إلى أليفة مع زوج آخر، أليفة لشخص آخر، ولم يمكن هذا ممكنا إلا بغرابة وغربة لحقتا بناثانيل، غربة الموت والبعد، غربة قد يتحول معها شــخصه إلى شــبح، ينتابها في ليلها وأحلامها، لكنه - حتى نهاية القصة - كان شبحا غائبا، غير موجود حتى الآن - على الأقل. بالنسبة إليها، في صمتها، وهناءتها الظاهرة.

والخلاصة التي ننتهي إليها من دراسة إليسون على قراءة فرويد لقصة «رجل الرمال»، هي:

1 - إنهــا قــراءة للقراءة، أي قراءة لمــا توصل إليه فرويد من قراءته لقصة هوفمــان تلك، إضافة إلى أنها أيضا قراءة للقصة، ولكن من منظور جديد أثارته القراءة الأولى التي قام بها فرويد.

2 - خلال دراســته هذه ينتهي إليســون إلــى القول إن ناثانيل الشــاعر، الشخصية المحورية في القصة، هو أشبه بـأوليمبيــا الفتاة الدمية المخلَّقــة، الجميلة التي تفتقر إلى الــروح، وإنه يبــدو مثلها كأنه يقوم بفعــل جميل، في حين يفتقر ما يقــوم به في واقع الأمر إلى الروح، وإنه يُســقط أفــكاره وانفعالاته ورؤاه المفككة عليهــا، كما أنه يعيش من

خلالها الحياة المزدوجة للقرين، للشخص الذي يكون ظاهره غيــر باطنه، الذي يكون ما يقوله غير ذلك الذي يفعله. كما أن فرويد نفسه في دراسته حول هذه القصة قد فعل الأمر نفسه أيضا.

3 - إن مقـــال فرويد نفســـه يحاكي قصـــة هوفمان، بما فيها من تردد وشـــك والتباس وتفكك وتداخل بين مستويات السرد، لكنه أيضا مثل شـــخصية كلارا، العقلانية الواضحة المنطقية، فهو يحاول أن يفـــرض طبيعته المنطقية على نص، ليس بطبيعته كذلك، ومن ثم كانت قراءته لهذه القصة تفتقر إلى الروح.

ثانيا: الغرابة وأشباح السرد

في دراســـتها التي كرستها لقراءة قصة رجل الرمال، لتيودور هوفمان، وكذلك قراءة فرويد لها، تقول هيلين سيكسو: «هناك شيء (بري) متوحش في الغرابة، إنه جو متأجج، قد يجعل الروائي بلا حماية أو أســـلحة يدافع بها عن نفسه، إنه يهيمن عليه ويحاصره».

والغرابة في رأي سيكســـو هي مركب أو مزيج يتدفق ويعمل على تكاثر الصدوع داخل السرد، ويشير إلى تلك الفجوات التي نحتاج إلى تفسيرها، فلا شيء أكثر مراوغة أو مخاتلة من البحث عنها، من ذلك السعي وراءها، والذي تشـــكل حركتـــه تلك المتاهة التي تحرض على القيام بهذا الســـعي، وتدفعه، إنه ذلك الإحساس بالغربة أو الغرابة الذي يفرض سره الضروري في كل مكان. وينجز ذلك بعض الاكتشافات، من خلال ذلك القرين الخاص بالمؤلف؛ ألا وهو التردد Hesitation، فنحن نواجَه هنا - إذن - بنص معين، بالنص ومعه الظل المتعلق بتردد مؤلفه وتأرجه، ومعهما قرينهما الدال على المغامرة أو الطيش، وهنا تقترب سيكسو كثيرا من مفهوم تودوروف للغرابة كما عرضناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

إنهـــا تقول إن ما يتكشـــف حتمـــا داخل النص أمام عينـــي القارئ هو نوع من «مســـرح العرائس»، فيه تُقَدَّم الدمى الحقيقية أو الزائفة، والحياة الحقيقيـــة، وكذلك الحياة التي تحاكَى، من خلال معدّ مســـرحي (أو قائم بالإعداد) مهيمن على عمله، لكنه أيضا صاحب نزوات وتقلبات.

ليســت هناك بؤرة محددة للغرابة، كما ترى سيكســو ليســت هناك نواة محددة للغرابة، الغرابة موجودة دائما على الأطراف الخاصة بشــيء ما، وقد ربطهــا فرويد بمفاهيم أخرى تتماثل معــه (المخيف، المرعب، المغلق، المعذب، الغريب)، أو فرد داخل عائلة، لكنه في واقع الأمر ليس عضوا في هذه العائلة، إنــه غريب على العائلــة، وعن العائلة، وفي العائلة. وترى سيكســو كذلك أن هناك خصائص أدبية عدة في مقال فرويد موضع الاهتمام تجعله أقرب إلى القص الســردي منه إلى المقال العلمي، ومنها: ذلك الاشتغال والدأب الطويل المتعلق بالمشاعر والانفعالات الشخصية، وذلك التوزيع وإعادة التوزيع الدرامي للأحــداث في ضوء وجهات عدة من النظر، وذلك التشــويق، وتلك المفاجآت والمآزق، وهذه كلها خصائص تعمل بشكل سردي، وقد اتخذ المؤلف - فرويد - خلالها صفة السارد للأحداث، تلك الخاصية لا يستطيع المحلل أن يتخذها.

وتتفق هيلين سيكسو مع كثير من الباحثين في أن فرويد قد حول قصة رجل الرمال في الاتجاه الخطي المنطقي المباشر فيما يتعلق بالتأويل لحالة ناثانيــل، ونظر إلى هذه القصة كأنها نوع من دراســات الحالات المرضية، كما يحدث في العيادات النفسية، حيث تبدأ روايته لها من ذكريات الطفولة الخاصة بناثانيــل إلى حالة الهتر والخبل التــي أصابته، ثم تجيء نهايته المأساوية بعد ذلك. هكذا تدخل فرويد في القصة مرات عدة: فمرة يحاول أن يجعــل غير المنطقي والخيالي منطقيًا وعقلانيًا (أي تحويل الغريب إلى مألوف)، ومــرة يحاول أن يقيم علاقات وروابــط واضحة لتأويل أحداث معينة، في حين لا تكون تلك العلاقات موجودة في ذاتها داخل النص.

كذلك أخفى فرويد - على نحو واضح - ما كان يتأجج في نسيج النص من توترات وشكوك؛ بأن حذف منه واقتطع - على نحو ما - تلك الانقطاعات الموجودة في العرض، وكذلك هذا الســرد الخاص داخل النص، وفعل الأمر نفســه فيما يتعلق بالتتابع وتعاقب الساردين ووجهات النظر. وقد أدت هذه التدخلات - مــن جانب فرويد - إلى إقامة نوع من التعارض والمواجهة بين ناثانيل ورجل الرمال، وهي مواجهة موجودة ومتكررة في القصة، لكنها، هنا لدى فرويد، أقل إثارة للدهشة من حالتها داخل النص الذي كتبه هوفمان.

وترى سيكســو - كذلك - أن الأداء الصامت أو البانتومايم، الموجود على نحــو مثير للاهتمــام في قصة هوفمان، هــو ذاته - كما تشــير كوفمان - العنصر الذي يفسر ذلك السحر الموجود في هذا العمل الإبداعي، هذا البوح

عبر التأويل من خلال الرسائل، وصولا إلى المشهد الملحمي، هذا الاستدخال البالغ للشخصيات والذوات والازدواج أو المضاعفة للواقع العادي من خلال واقع غير عادي (مما يجعل غير ممكن قراءة القصة على أنها تنتمي إلى أحد العالمين: الواقعي والخيالي، حصريًا، دون الآخر). وهذا البانتومايم، الذي يجعل القارئ يتراوح ويتردد بين عالمي الواقع والخيال، هو ما رفضه فرويد أو استبعده. لقد كان يستبعد دوما كل ما يشير إلى الشك أو فقدان اليقين.

لقد خلق السرد الخيالي، هنا، أنواعا جديدة من الغرابة، وهذا السرد الخيالي ذاته هو الشيء الغريب نفسه، ولو كان لامرئ أن يعتبر الغرابة مثل شوكة يمكن أن توجَّه، كي تشير مرة ناحية الغرابة، ومرة ناحية القلق، فإن هذا المرء سيمكنه أن يرى - عند الطرف الأبعد من الغرابة - سردا خياليا يشير إلى المجهول، عند الخبرة القصوى، بين كل جديد، ونوعا من المشاركة والعلاقة مع الموت.

هكذا يكون السرد الخيالي، بوصفه رصيدا أو مخزونا للمكبوت، هو الذي يقاوم أكثر من غيره التحليل، ومن خلال ذلك يجتذبه. ووحده الكاتب هو الذي «يعرف»، ولديه الحرية أيضا لأن يحرض الغرابة ويستثيرها، أو يخفيها ويقمعها. بمعنى آخر، فإن الكاتب وحده هو الذي لديه الحرية لأن يكشف الغطاء عن المكبوت، أو يقوم بمزيد من الكبت له، ولكن هذه «الحرية» هي أيضا التي تتحدى التحليل؛ وذلك لأن دروبها الخفية أو السرية التي ينبغي أن تظل «مكبوتة» غير متاحة إلا لصاحبها، بوصفها نوعا آخر من الغرابة، تشبه كل ما ينبغي أن يظل سريا وخفيا، وما يحاول الناقد أن يفعله هو أن يكشف الغطاء عن بعض محتويات ذلك الخفي، ألا يجعلها غريبة؛ بل مألوفة، وآمنة، ومؤكدة، وقد تكون هذه المحاولة ذاتها غريبة؛ لأنها قد تكشف ما هو مخبوء، ليس داخل عقل المؤلف ووجدانه، وضد أسراره وغرائبه؛ بل ما هو موجود داخل عقل الناقد وصندوق أسراره أيضا، ولأن كل نص يتعامل مع الغرابة هو نص خفي، وكل نص يتعامل مع الغرابة هو أيضا نص يتعامل مع الغياب ومع الموت، ونص يعود دوما، كما أنه يكرر ظهوره وغيابه.

هكذا يمكننا القول - كما تشير سيكسو - إن الغرابة وقرينها (السرد الخيالي) لا يختفيان أبدا على نحو كامل، فالغرابة تعيد «العرض» والتقديم والتمثيل لنفسها، إنها التي لن تقدم نفسها - إليك - في الوحدة والصمت والظلمة، هنا يكون السرد

ليـــس نتاجا خياليا محضا، ولا واقعيّا صرفا، بل حالة تقع في منزلة بين المنزلتين الخاصتـــين بالواقع الخيالي، هو «إخفاء للموت، توقع لحالة انتفاء التمثيل، دمية، جسد مهجن يتكون من اللغة والصمت، بحيث إنه، وخلال تلك الحركة التي تحوله، والتي تتحول من خلاله، يبتكر البدائل، وكذلك الموت».

هكذا يمكننا تلخيص ما عرضناه ســـابقا من رأي هيلين سيكسو حول موضوع الغرابة، وحول دراسة فرويد حولها فيما يلي:

1 - إنهـــا اتفقت مـــع كثير من الباحثـــين الذين رأوا أن فرويد قد حاول - من خلال دراســـته - أن يفرض نوعا من التأويل المنطقي العقلاني الواضح على حقبة هوفمان، وأنه تجاهل كثيرا من الجوانب الموجـــودة بداخلها، والتي تفتقر إلى المنطق أو العقل أو الوضوح.

2 - إن المهم في تفســـير القصة ليـــس الجانب الواقعي منهـــا فقـــط، ولا الجانـــب الخيالي فقط؛ بل ذلـــك التردد والتأرجح والالتباس والغموض الموجود بينهما.

3 - إنه ليســـت هناك نواة أو بـــؤرة محددة للغرابة، وإن الغرابة موجـــودة على الأطراف الخاصة بشـــيء ما، وإنها أشبه بالغريب داخل العائلة وعنها.

4 - إن طبيعة الســـرد الخاص بهـــذه القصة ربما أكثر أهمية من موضوعها.

ثالثا: القرين والشيطان والغرابة

وفقـــا لما تقوله ســـارة كوفمان في دراســـتها عن «القرين والشـــيطان» فإن فرويد في دراســـته حـــول «الغرابة» قد اســـتخدم ثنائية خاصة فيما يتعلق بمســـتوى المنهج، حيث اســـتخدم التحليل اللغوي فيما يتعلق بأصل الفكـــرة العامة للغرابة، ثم إنه قام - ثانيا - بتحليل الخصائص والأشـــياء والانطباعـــات والخبرات والمواقف التي تعمل علـــى ظهور «الغرابة» ذاتها، وقد حاول فرويد هنا أن يصل إلى نوع من الوحدة الخاصة التي تجمع بين هذين النوعين من التحليل بخدعة ماهرة. أما في القسم الثاني فقد أجاب فرويد خلاله عن عدد من الاعتراضات التي قد تســـتثار في مواجهة هذه الوحدة المدعاة بين منهجي الدراسة الخاصة به أو تدمرها.

في دراســتها، هذه، حول «رجل الرمال»، تقول ســارة كوفمان إن هذه الحكاية التي كتبها هوفمان حكاية مركبة؛ فهي تبدأ بالرسائل التي يتبادلها ناثانيل ولوثاريو وكلارا، حيث لم يوجه فرويد إلا النزر اليسير من الاهتمام لشــخصيتي لوثاريو وكلارا، كما تســتمر القصة من خلال خطاب مباشر يتوجه من خلاله المؤلف إلى القارئ، ثم تتكشــف القصة في النهاية وتنحل عقدتها بواسطة أكثر أعراف السرد تقليدية - وربما ابتذالا.

إن وجــود شــخصيات عدة في القصة لها وجهــات نظر مختلفة حول حكاية ناثانيل التي يرويها حول نفســه، وهي وجهات من النظر، أحيانا ما تكون متناقضة، وأحيانا ســاخرة، تســهم كلها في إطالة أمد هذه الحيرة المعرفيــة حتى نصل إلى نقطة النهاية الخاصــة بالقصة، وهكذا فإنه إذا كان منظــور كلارا - خطيبــة ناثانيل، كما يوحي بذلك اســمها - منظورا «واضحا»، بســيطا، واقعيًا، وإذا كانت وجهة نظرها وجهة يشــاركها فيها أخوهــا لوثاريو، أيضا، وكذلك بقية الأفــراد المحيطين بها، إذا كانت هذه الوجهة من النظر وجهة تتم عن فهم وإدراك عميقين، يتعارضان مع منظور ناثانيل، ذلك الحالم، الرؤيوي، المجنون، الذي يخلط بين الأحداث المتخيلة والواقعيــة، والذي يرى «القرين»؛ إذا كان الأمــر كذلك، فإن منظور كلارا هذا لم يوضع داخل القصة بوصفه منظورا يشــمل الحقيقة كلها، ومن ثم فإن القارئ لم يستطع إلا أن يتوحد معها أكثر من توحده مع ناثانيل.

ففــي تلخيصه للقصة قال فرويد إن كلارا - ومعها ناثانيل - ومن فوق قمة البرج الذي صعدا إليه أو تســلقاه، قد رأيا شــيئا غريبا يتحرك عبر الشــارع. وقد فحص ناثانيل ذلك الشيء مســتخدما منظار كوبولا المكبِّر للأشياء، وعندما ظنَّ أنه كوبوليوس وهو يمشي في الشارع، انتابته نوبة من الجنــون. هذا ما يقوله فرويــد، في حين أن الموجود في قصة هوفمان هو مجرد وصف لاقتراب شكل غير مميز من ذلك المكان الذي كان يوجد فيه ناثانيل وكلارا، وقد كان ذلك شيئا غامضا، على نحو كافٍ لإثارة تخييلات أي إنسان، وكافٍ أيضا لإسقاط هذه التخييلات عليه.

لقد كان الاستخدام لهذا التليسكوب هو الذي أثار جنونه، أكثر من ذلك المظهــر - أو الظهور - الخاص بكوبولا، فمن خلال ذلك المنظار، بدا وجه كلارا، خطيبته التي اعتقد أنه لا بد أن يتزوجها في النهاية، بدا له وجهها مرعبا، كأنــه رأس ميدوزا حقيقي، كما تخيله في قصيدته. ولعل هذا هو

السـبب الذي جعله يحاول رميها من فوق البرج. فذلك المنظار أمسـك به ناثانيل، «ومن خلاله حدق، وكانت كلارا تقف أمام العدسة، فانتابته رعدة وقشعريرة وسيطرت عليه، وشاحبا كالموت حدق في كلارا».

وكمـا جاء في نهاية القصيدة التـي كان ناثانيل يكتبها، فإنه حدق في عينـي كلارا، لكنه وجد الموت يحدق فيه بهـدوء من خلالهما، فمن خلال المنظار المكبر تصبح رؤية الإنسان للواقع رؤية محرفة، مشوهة فقط.

وحيـث إن الكاتب يسـتخدم شـخصيات متعددة لكل منهـا منظارها، منظورها في وجهة نظرهـا، رؤيتها الخاصة، فإن هذه الرؤية للواقع غالبا مـا تكون كذلك محرفة، على نحو ما، وقـد كان كوبولا يطلق على عويناته التي يبيعها «العيون المبهجة» أو الجميلة، حيث لا ترى عين ما الحقيقة أكثر مـن الأخرى، وحتى مع أن منظورا ما قد يكون أكثر جدارة من غيره بنهاية سـعيدة (زواج سعيد مثلا، كما حدث بالنسبة إلى كلارا) فإنه ليست هناك عين أو منظور أو وجهة نظر أكثر حقيقة مما عداها من الوجهات الأخرى.

ولعـل ما يبدو مثيرا للاهتمام وغريبا في نص هوفمان - تقول سـارة كوفمان - هو أنه لا توجد حالة من الجنون في جانب منه، وحالة من العقل في الجانب الآخر، بل إن ما يوجد هنا، هو حدودهما الخاصة غير المحددة على نحو واضح، حيث يصبح كل منهما مادة وموضوعا لمنظور خاص.

إن هذا التضبيب للحدود وجعلها مبهمة، تلك الحدود التي بين السوي والمَرَضي، المتخيـل والواقعي، هو ما يضع «رجل الرمال» بين تلك الأعمال التي تنتج الغرابـة من النوع الأول (الغرابة الخيالية) أكثر من النوع الثاني (الغرابـة الحياتية)، لكن حب الجدال كان هو مـا منع فرويد من التعرف علـى ذلك أو الاعتراف به، فعندما واجه حالة عدم التحديد التي في نص هوفمـان، فإنه اختار وجهـة نظر ناثانيل، ولا يعني ذلـك بالطبع أن رؤى ناثانيل ليست من نتاج «الخيال» أيضا.

وربما كان ذلـك التحول الخاص بالهوامش والحـدود، هو الذي يبدو - بالنسـبة إلى هوفمان - الوظيفة الجوهرية للأدب، حيث ينطوي التميز الخـاص للكاتب هنـا على ضرورة ألا يحاكي الواقع الموجود سـلفا أو من قبل، بل أن يمثل الواقع من خلال تعدد أو كثرة من المناظير المكبرة المحرفة للرؤية، وحيث يكون كل منظار، أو وجهة نظر منها، عنصرا مكونا أساسـيّا لواقع مختلف. وهكذا، فإن كل شخصية من الشخصيات التي في الأعمال

السـردية الخيالية، هي أشـبه بنوع من الإسقاط الخارجي للرؤى المتعددة للفنان أو الكاتب، وقد كان فرويد يعرف أن هوفمان قد اعتبر شـخصياته المتخيلة صورا مسـتمدة من انطباعاته التـي تلقاها، وأنه احتفظ بها في «الغرفة المظلمة» الخاصة بلا شعوره حتى طُورت لاحقا. وهكذا فإن جنون ناثانيل جنون خاضع للعمليات نفسـها التي يقـوم عليها الإبداع أو الخلق لـدى هوفمان، حيث يقوم الجنون والإبداع لديهمـا - ناثانيل وهوفمان - على أساس إجبار قهري داخلي يعزى إلى وجود قوة خارجية ما.

هكذا يظل هناك تفاوت - كما تقول كوفمان - بين الكلمة الميتة والباردة والمملـة من ناحيـة، وبين الحيوية المتوهجة للرؤية مـن ناحية أخرى، هذا التفـاوت هو ما يفسـر ذلك التعقيد البنيوي للقصـة. لقد وضع هوفمان فـي البدايـة تخطيطات تقريبية عامـة لرؤيته الداخليـة، من خلال تلك الخطابات التي في بداية القصـة، ثم إنه أضاف بعد ذلك ألوانا متوهجة أكثر فأكثر مـن أجل أن ينتج، وبأكبر صدق ممكـن، «تلك الصورة.. التي تجيء من أعماق قلبه».

قد يمكن القول كذلك إن ناثانيل - من خلال الكتابة - قد كوَّنَ ذكرياته بدلا من أن يسـتعيدها، فمن المسـتحيل هنا التمييز بين السـرد الخاص بذكريـات طفولته وتخييلاته الخاصة، ومن المسـتحيل كذلك التمييز بين الحكايـة الخاصة بالماضي والقصة المتخيلة حول المسـتقبل. إن السـرد الخـاص بذكريات الطفولة - هنـا - هو بالفعل نوع من الأدب الموجود من قبل، مثلما هي حال القصيدة الخيالية التي تخيل فيها ناثانتيل مسـتقبله، والتي هي نوع من التكرار الخاص من أجل عقاب الذات للماضي.

«لقد كانت شخصية (كوبوليوس) الكريهة - كما اضطر ناثانيل إلى أن يعترف - تنمو كئيبة معتمة في خياله.. وفي حكاياته التي يظهر كوبوليوس فيهـا كعنصر مهلك في يد القدر، كان الأمـر يتطلب - غالبا - جهدا من أجل إضفاء الحياة والبهجة عليه».

وإنـه من أجل أن يجعل رؤاه المخيفة تسـود وتهيمن من خلال التكرار الرمزي لها، فإنه كان يسيطر على المستقبل من خلال التنبؤ، وأيضا التوقع السـادي المازوخي له؛ وذلك لأن المستقبل الذي تخيله كان في الواقع نوعا مـن التكرار والاتفاق المثير للدهشـة، وفيما يشـبه المصادفة، بين التخيل والواقع، وبين الماضي والحاضر.

وبينمـــا كان ناثانيــل يؤلف قصيدتــه هذه، كان شـــديد الهدوء، رابط الجأش، متمالكا نفســـه وقد كان يصقل كل بيت ويحسنه، وقد مكنته قيود الوزن الشعرية من أن يستمر في عمله من دون راحة حتى يصبح كل شيء في القصيدة واضحا ومتناغمـــا، ولكنه عندما انتهى من قصيدته وقرأها لنفســـه - بصوت مرتفع - انتابته مشاعر الرعب، وصرخ بقوة قائلا: «أي صـــوت مـــروع هذا؟!»، وقبل أن يمضـــي وقت طويل علـــى كل حال، فإنها بدت بالنســـبة إليه ليس أكثر من قصيدة جيـــدة. ثم إنه فكر في أن مزاج كلارا الهادئ لا بد أن يســـتثار ويتأجج بفضل هذه القصيدة، هذا مع أنه، وفي الوقت نفســـه، لم تكن لديه أي فكرة واضحة عمًّا ســـتؤدي إليه هذه الاستثارة التي قد تشعر بها كلارا، أو الهدف الذي يمكن تحقيقه من خلال إثـــارة الاضطراب لديها من خلال الصور المرعبة التي تنبئ بمصير مرعب ودمار ماحق لحبهما.

إن نشاط ناثانيل الأدبي، الذي هو - ضمنا - نشاط هوفمان نفسه، لا يمكن فصله عن تلك التيمات أو الموضوعات الرئيسية المتكررة الأخرى في القصـــة: تلك التيمات المتعلقة برجـــل الرمال، وكذلك الخوف من أن يفقد المرء عينيه، ومن الدال هنا الإشـــارة إلـــى أن الأدب قد تم إدراكه على أنه نوع من الأدب الرؤيوي أو الكشـــفي لو اســـتخدمنا مصطلحات يونغ، أدب رؤيوي، كما أن نشـــاط ناثانيل الأدبي ليس منفصلا عن علاقاته بالنساء، فما الذي كان يبحث عنه في المرأة، ســـواء أكانت هـــي كلارا أم أوليمبيا؟ مجرد شـــخص طيّع سهل الانقياد، أو مستمع سلبي لقصائده، وهذه متعة نرجسية واضحة.

ويكرر هذا النوع من النتاج الأدبي الوافر، يكرر ويحاكي نشاطه الرمزي الـــذي كان يقوم به كطفل خلال الفتـــرات التي كان كوبوليوس يتوقف فيها عن زيارة والده، حيث كان يرســـم صورا لرجل الرمال في أشـــكال مختلفة كثيرة، «فقد كان يرســـم على الموائد والدواليـــب والجدران وكل مكان في المنزل.. أكثر الصور غرابة وشناعة». ولم يجعله ذلك النشاط يسيطر على رعبـــه من رجل الرمال من خلال الرســـوم الكاريكاتيرية المحقرة له فقط، لكنـــه - هذا النشـــاط - كان يقصد من ورائه الوصـــول أيضا إلى نوع من التعذيـــب الذاتي المازوخي: متعة تنبع فيما وراء مذهب اللذة، متعة يكافئها ويثمنهـــا بطلنا الخاص، فمع أن رجل الرمال هو إنســـان كريه، شـــخصية

غريبة وشنيعة ومرعبة ومخيفة، وإنه كان يهرب شعوريًا من مواجهته أو حضوره معه، فإنه - لا شعوريًا - كان يفكر فيه ويتمنى حضوره، وفي الليل كان يستدعيه، يستحضره فيعود رجل الرمال إلى أحلامه.

لقد كان ناثانيل يستمتع كثيرا بحكايات الساحرات والعفاريت والمخلوقات الشريرة، من الأنواع كلها، وحقيقة أنه كان يفضل تفسير مربيته السادي لحكاية رجل الرمال على تفسير أمه لها الأكثر تطمينا وتهدئة، كانت حقيقة تنبع من تلك المتعة نفسها التي كان ناثانيل يستمدها من كل ما هو سلبي، ومن كل ما هو مخيف. فقد كان إدراكه للواقع مرتبطا دائما بكل أشكال القدر السيئة: ذلك القرين الخيالي الذي يكرر الواقع، يضفي عليه لونه الخاص، وهكذا فإن ناثانيل، الذي أمل أو طمح في أن يحظى بنظرة خاطفة أو لمحة لرجل الرمال، قد اكتشف فقط كوبوليوس المحامي، ثم إنه خلع عليه كل تلك الخصال المرعبة المميزة لرجل الرمال، وخلق صورة من خلالها، كانت ذات تأثير مرعب فيه، وهي صورة كان من غير الممكن أن تتفق مع أي كائن بشري حقيقي «رجل الرمال المرعب، هو أيضا المحامي العجوز كوبوليوس، الذي كان أحيانا ما يأتي لتناول طعام الغداء معنا، لكن أكثر الأشكال إثارة للرعب، لم تكن لتقدر على أن تستثير في داخلي رعبا أعمق مما كان يستثيره في داخلي هذا الـ «كوبوليوس»».

والخلاصة أنه في دراستها هذه حول قراءة فرويد لقصة رجل الرمال، طرحت سارة كوفمان الأفكار التالية:

1 - إن الغرابة هنا تمثل نوعا من المتعة المازوخية التي يتلذذ المرء خلالها بتعذيب نفسه، إنها نوع من الإشباع الذي ينشأ عن القلق ذاته بكل ما يحتويه من عودة إلى الموضوع ذاته، وتكرار للقلق المصاحب له، ثم تكرار المتعة المترتبة على التخلص منه، وإبعاده بإسقاطه على أشياء وكائنات أخرى.

2 - هنا - في دراسة فرويد - ثنائية تتعلق بمنهج التحليل اللغوي الذي استخدمه فيما يتعلق بأصل فكرة الغرابة من ناحية، وتتعلق كذلك بتحليل الخصائص التي تعمل على ظهور الغرابة ذاتها من ناحية أخرى، لكن فرويد وقع في أثناء ذلك في التبسيط العقلاني لموضوع الغرابة، و«قصة» هوفمان هذه، فقد أهمل الاهتمام بدلالة الرسائل

الموجودة في القصة، وأهمل ارتباط هذه الرسالة بوجهات النظر المختلفة التي تتبناها الشخصيات فيما يتعلق بما يقع في القصة من أحداث.

3 - وقع فرويد كذلك في أخطاء تتعلق بتفسير بعض أحداث القصة وتأويلها، وخصوصا فيما يتعلق بمشهد نظر ناثانيل من منظاره إلى وجه كلارا، وما أصابه ذلك من رعب نتيجة لتشوه الوجه لوجوده على مقربة منه، في حين قال فرويد إن ذلك كان راجعا إلى رؤيته كوبوليوس يتقدم نحوه.

4 - هناك علاقة لا يمكن إنكارها بين أنشطة ناثانيل الأدبية وأنشطة هوفمان كاتب القصة؛ ومن ثم بين مستويات الواقع والخيال لديهما أيضا.

رابعا: الغرابة كمشكلة أمام القراءة

في دراستها المعنونة: «رجل الرمال: الغرابة كمشكلة أمام القراءة» (2005)، اعتبرت ليز مولر مقال فرويد حول الغرابة فيما يتعلق بتفسير قصة رجل الرمال لهوفمان، أكثر العروض الموجزة قدرة على شرح الأفكار الأساسية لما أسمته هي الحفريات (الأركيولوجيا) التحليلية النفسية للنصوص، حيث إن هذه القصة ذاتها يمكن اعتبارها المثال الأدبي الرئيسي المميز للغرابة، وكذلك من حيث إن هوفمان في معالجته الخيالية لمادته - كما قال فرويد - «لم يقم بالخلط الجامح بين عناصرها بحيث لا يجعلنا قادرين على إعادة تركيب أو تكوين النظام الأصلي الذي كانت عليه». وتمثل هذه الملاحظة بداية من حاشية طويلة تلخص - كما تقول مولر - المسلمة الأساسية للنقد التحليلي النفسي التقليدي؛ وذلك لأن الفكرة الخاصة بالنص الأصلي، قد حُرِفَتْ من خلال معالجة المؤلف الفنية لها، ولكنها تظل، مع ذلك، قابلة للاستعادة والتركيب. وهكذا، فإن النسخة التحليلية التي قدمها فرويد لقصة «رجل الرمال» هي النسخة الأشبه بالشرط السابق للسرد نفسه، هكذا يقدم النقد التحليلي النفسي ذاته - إلينا - بوصفه عملية تَمَعُّن وكَشف لما خفي من الخيال التحريفي للمؤلف، ثم القيام بعملية إعادة بناء، ومن خلال تلك الآثار التي تركها خلفه ذلك «التنظيم الأصلي» للعناصر، هكذا يرمم القارئ التحليلي النفسي النسخة الكامنة، الخفية، غير الخاضعة للمراقبة، من النص.

وقد تبنى فرويد - كقارئ لهذه القصة - موقفا سلطويا تجاهها، قام من خلاله باختزالها إلى موضوع خاص بالمعرفة التحليلية النفسية، هكذا بدا تحليله وكأنه حركة ارتدادية أو نكوصية اتجهت من سطح النص إلى أعماقه النفسية، وقد حدث ذلك من خلال حركة اتجهت من الغموض والخلط الجامح الموجودين داخل النص، إلى التماسك والقابلية للفهم الناتجين بعد انتهاء التحليل النفسي له.

وهكذا فإن فرويد، ومع تقدمه في تحليله للقصة، لم يقم إلا بإحلال النص الواضح محل النص الكامن أو الضمني له، أي مكان المحتوى الخيالي الذي يسمح لنا بفهم مناخ الغرابة الذي يستثيره هذا النص، والذي لا يوازيه أي شيء غيره.

وتركز ليز مولر تحليلها على «العين» كتيمة أساسية في النص، وتقول إنها تتفق مع سارة كوفمان وغيرها ممن قاموا بتحليل النص، على أن ما أهمله فرويد من جوانب داخل النص - في تحليله - بوصفها جوانب أو أبعادا غير مهمة في الغرابة فيه، هي - في واقع الأمر - الجوانب المهمة في التعامل مع المشكلة الخاصة بالسرد الخيالي والنزعة السردية الخيالية فيه.

في قراءة فرويد للقصة، كانت «العين» هي مجازا أو استعارة تتعلق بالفروق بين الجنسين، فالعين تمثل لديه بديلا لعضو الذكورة، العضو الذي يهدد ناثانيل، وفقا لعقدة أوديب، بإزالته هكذا تفهم العين في ضوء التقابل الثنائي بين الذكورة والأنوثة، أو بين الامتلاك والفقد، أو الحضور والغياب، لكن لو قرأ امرؤ قصة «رجل الرمال»، ولم يعتمد على التلخيص الذي قدمه فرويد لها، فسيجد أن تلك الثنائية الرمزية - التي طرحها فرويد - بين امتلاك العين وفقدها، هي ثنائية لا تحيط أبدا بالكلية الخاصة بصورة العين ورمزيتها في النص. إن امتلاك العينين - وفقا لفرويد - يرتبط بالحياة والدفء، وفقدهما يرتبط بالموت والبرودة، فلم يستطع ناثانيل أن يفهم أن أوليمبيا هي آلة ميتة مخلقة إلا بعد أن رأى وجهها وقد أصبح محجرا عينيها خاليين وسط ذلك الوجه.

لقد حول فقدان العينين أوليمبيا إلى قناع مخيف للموت «لقد رأى - ولكن وبوضوح شديد هذه المرة - أن ملامح وجه أوليمبيا الشمعية الشاحبة، شحوب ملامح الموت، تخلو من وجود عينين، وقد كان موجودا، بدلا منهما، مجرد فجوتين سوداوين، لقد كانت - في الحقيقة - دمية ميتة».

فدون نظرة محبوبها التي تمنحها الحياة، كانت يدا أوليمبيا وشـفتاها باردة كالثلج، لقد كانت البرودة تشـع ـ أو تنطلق ـ من جسدها البارد جدًا، وهـي برودة وُصِفَـتْ بأنها «برودة مميتة مرعبـة»، وعلى العكس من ذلك كانـت أمه، وكذلك خطيبته كلارا، توصفان بالـدفء المنعش الباعث على الحياة والمجدد لها.

ليس هناك شيء جديد جدير بالذكر هنا حول ارتباط العينين بالحياة والـدفء، وارتباط فقدانهما بالموت والبرودة، لكن المهم - كما تشـير ليز مولـر - ليس ذلك التقابل القطبي الثنائي بين امتلاك العينين وفقدانهما؛ بل تلك المسـافة التي توجد بين هاتين الحالتين، أي تلك الحالة الثالثة أو الشرط الثالث، الذي يهز استقرار هذا التقابل الضدي الثنائي بين الحياة والموت، لقد طرحت تلك الثنائية السكونية الخاصة بالعينين ومحاجريهما الخاليـين منهما من خلال المظهر الخـاص بنوع خاص من العيون: العيون المقتلعة من محاجرها: العيون التي لا تنتمي إلى جسد محدد، العيون التي لا تنتمي - على نحو مؤكد - إلى شخصية بعينها، لكنها العيون التي تتوزع وتدور فيما بين شخصيات متعددة ومختلفة وعلى أنحاء مختلفة.

ويرتبط موضوع «العيون المقتلعة» بالطبـع بالدمية أوليمبيا، التي قيل إن عينيها قد سـرقتا من ناثانيل، لكن نظـارات كوبولا المقربة (والمحرفة للصور) هي أيضا «عيون بلا أجساد»، من نوع ما، «عيون جميلة»، في حين يصيح كوبولا وهو يقدم سـلعته كي يبيعها: «عيون جميلة»، واستمر يغطي مائدة ناثانيل بالعيون الزجاجية، العدسات.

عندما شـاهد ناثانيل «عيون» صانع العدسـات، سيطر عليه الرعب، ولكنه مع ذلك، اشـترى منه بعض تلك العيون التي بلا أجساد، وخصوصا ذلك التليسكوب الذي حدد مصيره وعاقبته في النهاية.

إذن كان امتـلاك العينين يرتبط بالدفء، وغيابهمـا يرتبط بالبرودة، فقد ارتبطت هذه العيون التي بلا أجسـاد بالنار واللهب والشـرر الدافئ، بالانسـفاع أو الشـياط والاحتراق «دائرة من النار! من النار! هكذا صاح ناثانيل وهو يـرى عيني أوليمبيا، وجهها الخالي مـن العينين، وهي ترقد على الأرض تحدق فيه». والنار في هذه القصة عامل حاسم في التحولات وعمليـات العبور مـن حالة إلى حالة، ومن مرحلة إلـى أخرى، وبالعكس، فالنار تحول كل شـيء إلى نقيضـه، فالطفل ناثانيل، الذي كان يختبئ في

غرفة الدراسة الخاصة بأبيه، رأى أباه وهو يميل فوق شعلة نار زرقاء، وقد حولت تلك النار ملامح أبيه الطيبة الهادئة إلى ملامح شيطانية، شائنة، فبدا وجهه مثل وجه كوبوليوس الشرير. وفي النهاية، مات الوالد محترقا في انفجار، احترق حتى الموت في مكتبه، في حين كان يشارك كوبوليوس تجاربه الغريبة، «وعلى أرضية الموقد الذي يتصاعد منه الدخان كان أبي يرقد ميتا وقد احترق وجهه، واسودت ملامحه وتشوهت على نحو بشع»، ولكن «بعد يومين من ذلك الحادث، وعندما سُجي جسد أبي في كفنه، كانت ملامحه مرة أخرى رقيقة وطيبة كما كانت دائما خلال حياته».

هكذا تبدو النار - هنا - وكأنها وسيط وهمي مضلل خادع، فخلال تأججها كان وجه الأب الطيب يشبه وجه كوبوليوس الشرير، وربما كانت تلك النار هي التي أوحت إلى ناثانيل بوجود ذات أخرى للأب، ذات شيطانية خفية.

يطلق على العيون التي بلا أجساد أيضا اسم المنظار أو النظارة المقربة Spyglass، وهذه هي الترجمة الإنجليزية لكلمة Perspektiv الألمانية، فالتليسكوب الذي اشتراه ناثانيل من كوبولا يحتوي على عين تمكن حامله من النظر خلسة، أو التجسس على الآخرين، أن يرى من خلالها ما لا يستطيع أن يراه بالعين المجردة، إنها عدسات، مرايا، يرى من خلالها المرء نفسه، إن العيون التي بلا أجساد هي عيون وليست عيونا، إنها عيون صناعية، عيون مشوهة للحقائق ومحرفة لها، ترتبط بالرؤية الأبعد والاستبصار، وترتبط بالعمى والتحريف، بالحياة كما بالموت. ولقد وجه ناثانيل تليسكوبه نحو نافذة أوليمبيا وهو «ولم يحظ في حياته بمثل تلك النظارة التي تحضر الأشياء أمام عينيه بمثل ذلك الوضوح والحدة».

هنا العيون التي بلا أجساد أداة ناقلة (وعاء) للرغبة المرتكسة أو المنحرفة؛ كما تقول مولر وذلك لأن ناثانيل هو مختلس للنظر، محب للنظر خلسة إلى الآخرين Voyeurer، تستحوذ عليه الرغبة في أن يرى ما هو مخبوء أو مخفي هناك وراء الأبواب المغلقة والستائر المسدلة.

وفي خطابه الثاني إلى لوثاريو تحدث ناثانيل عن كيف نظر خلسة إلى غرف البروفيسور سبالانزاني، وهذا المشهد نفسه هو حالة (مجرد حالة) من التكرار للمشهد الصدمي الخاص بطفولة ناثانيل الذي أشار إليه في خطابه الأول، حيث أشار إلى أنه كان مدفوعا برغبة غلابة

لأن يرى «رجل الرمال»، حيث تسلل الطفل خلسة إلى غرفة دراسة أبيه، واختبأ خلف ستارة، ومن مكمنه رأى أباه والمحامي الشرير كوبوليوس مندمجين في تجارتهما الغامضة، ومن جوانب عدة فإن هذا المشهد هو مفتاح أساسي في حل اللغز الخاص بالعيون التي بلا أجساد، وكذلك المصير المحتوم لناثانيل وذلك لارتباطه الوثيق بعملية التخليق للدمية الجميلة أوليمبيا.

وعندما نظر ناثانيل إلى غرفة البروفيسور سبالانزاني رأى امرأة شابة، ابنته أوليمبيا، كان وجهها يشبه وجه ملاك، ولكن مكان عينيها كان خاليا، على نحو غريب.. لم تكن قادرة على الرؤية. وعلى نحو متأخر فقط أدرك ناثانيل أن أوليمبيا هي النسل أو النتاج الخاص لكوبوليوس كوبولا الذي شاهده ناثانيل، حيث كان الرجلان يقتتلان حول أوليمبيا، الدمية المخلقة التي صنعاها معا «العمل الذي استغرق صنعه عشرين عاما»، وقد انطلق كوبوليوس يجري وهو يحمل الدمية الخشبية، في حين ألقى سبالانزاني أوليمبيا الفاقدة للعينين على ناثانيل.

وتصنع هذه المشاهد التي تبدو، هنا، مفككة غير مترابطة - عندما توضع معا - نمطا خاصا متكاملا، فالمشهد الخاص بالنار الذي شاهده ناثانيل من مكانه، في غرفة والده، ليلا، كان مشهد تحول، خلق، تكوين، ومن مكمنه خلف الستارة رأى أباه وكوبوليوس يحاولان خلق حياة من المادة، وقد كان نوع الحياة التي نتجت من هذه العملية هي أوليمبيا: التي دبت فيها الحياة عندما سُرقت عينا ناثانيل ووضعتا في داخلها. إن العيون المقتلعة تتولد منها حياة صناعية وهمية، ثانوية، غير أساسية، لا تكون حياة لا موت. ووفقا لفرويد فإن التيمة الخاصة بأوليمبيا هي التيمة الخاصة بتداخل الحياة مع الموت، اختلاط الحي بالميت، والواقعي بالاصطناعي، وهي لدى فرويد لا يمكن أن تكون مسئولة عن الغرابة في سرد هوفمان أو قصته؛ وذلك «لأن المؤلف نفسه قد تعامل مع حكاية أوليمبيا بلمسة خفيفة من السخرية، وقد استخدمها لكي يضفي نوعا من الفكاهة على التفكير المثالي الخاص بذلك الشاب ناثانيل حول محبوبته، لكن السخرية هنا ليست موضوعا مستقلا، يمكن عزله عن التيمة الخاصة برجل الرمال، فالتيمة الخاصة بأوليمبيا تتداخل داخل القصة كلها، حيث يتكرر ارتباط الحياة بالموت في علاقتهما بالدمية المخلقة هنا، حتى بعد أن تفككت

أوصـــال أوليمبيا. فعند نهايــة القصة، وعندما أعــاد ناثانيل علاقته مع كلارا، فإنهما صعدا معا إلى البرج، وصرخ بصوت مرتفع: «دمية خشبية»، وفي نوبة جنون حاول أن يلقي بنفسه في تكرار - ولكن بطريقة عكسية - لمشهد التحريك الإحيائي، أي المشهد الذي أضفى من خلاله ناثانيل الحياة على أوليمبيا، الميتة، وهنا يضفي، هو نفسه، الموت على كلارا الحية.

لقد أســـاء فرويد تفســـير ما رآه ناثانيل عندما نظر من تليسكوبه فوق البرج، فافترض أن رؤيتــه كوبوليوس المخيف يتحرك هي التي أوقعته في نوبة جنون، لكن الحقيقة هي أنه لم يكن كوبوليوس هو الذي رآه ناثانيل، لم يكن هو الأب المهدد بإخصائه، لقد كانت هي كلارا، كانت كلارا تقف أمام المنظار المقـــرب، ومثلما رأى بمنظاره المقرب أوليمبيـــا الدمية تتحول إلى امرأة حية، فإنه رأى - بالتليســـكوب - كلارا وهي تتحول الآن إلى مخلوق آلي ميت، «دمية خشـــبية» كمـــا صاح، وكما حدث عندمـــا انجلت حقيقة أوليمبيا، له فوقع في براثن نوبة من الجنون، فقد حدث الأمر نفسه عندما رأي كلارا دمية خشبية.

هكذا تَحَلَّق حشـــد من الناس أســـفل البرج، ومن بينهم برز كوبوليوس فجـــأة، وظل ناثانيل واقفا صامتـــا في مكانه، وبكلمـــات قالها «آه، عيون جميلة ! عيون جميلة»، ألقى بنفسه من فوق شرفة البرج.

إن ثمـــن الرغبة في بعث الحياة قد يكون هو الموت، لكن الموت نفســـه لا يستطيع أن يضع نهاية لنمط التكرار هذا الذي يتحكم في السرد. لقد ترتب على فشـــل ناثانيل فـــي أن يضع حدودا مميزة بين الحـــي والميت، والواقعي والحقيقي والاصطناعي، تحركه الدائم بينهما فيما يشبه العدوى أو المرض.

هكذا يكمن ســـر الغرابة هنا في حالة (الما بين)، أي تلك الحالة التي ما بـــين الحي والميت، الحقيقي والاصطناعي، الـــذي ليس كاملا وليس ناقصا، الـــذي يرى ولا يرى، ومثلما تُضاف إلى الحياة - من خلال الإســـقاط - إلى الأعمال الفنية التي تفتقر إلى الحياة، فكذلك الحياة نفسها محاطة بالموت. لقد كان ما استطاع أن يراه ناثانيل من خلال منظار كوبولا، هو ما لم يستطع فرويد أن يراه. لقد اســـتطاع أن يرى مرة أخـــرى عن طريق التكرار، عندما نظر إلـــى كلارا، عودة غريبة لأوليمبيا في كلارا، للميت في الحي، والجامد في المتحرك، والصناعي في الإنســـاني، والبارد في الدافئ، باختصار للموت في الحياة، وكأن ما كان قد أرهص به وتنبأ في قصيدته قد ظهر أمامه حيّا

«نظــر ناثانيل إلى عيني كلارا، لكن ما كان ينظر برفق إليه من خلال عينيها كان هــو الموت»، هكذا أصبحت العيون التي بلا أجســاد لدى ليز مولر رمزا للمنطقة الشــبحية أو المنطقة البينية التي بين الرؤية وفقدان البصر، الحياة والموت، الطبيعي والاصطناعي، المنطقة التي في قلب التعدد والازدواج.

ليست هناك - هنا - حياة على أحد الجانبين، وموت على الجانب الآخر، لكــنَّ هناك حياة في الموت، وموتا في الحيــاة. ليس هناك - هنا - عمى في أحد الجانبين وإبصار في جانب آخر، بل هناك عمى داخل الإبصار، وإبصار داخــل العمى، وليس هناك - هنا - اصطناعية في جانب وطبيعية في جانب آخر؛ بل هناك اصطناعية في الطبيعي، وطبيعية في الاصطناعي، ومن خلال ذلــك كله تتخلق الغرابة وتتجســد، ثم إنها تؤكد من خلال الشــك والفقدان لليقين حضورها القار العميق في الحياة العادية، وفي الفن والأدب كل يوم.

ووفقــا لما وصلت إليه ليز مولر من دراســتها تلــك، فإنه نتيجة لذلك الغمــوض الذي بــين «الرؤية» و«العمــى»، والحقيقة والخداع، في ســرد هوفمــان؛ كانت تلك العين/العيون المقتلعة هي المجاز أو الاســتعارة الدالة على هذا المحو أو الطمس للحدود بين كل تلك الأبعاد.

هكذا تكون هذه العين التي فوق ســطح الســرد، هي الحد القائم بين الداخل والخارج، بين الــذات والآخر، بين البصيرة والعمى، لكن ما حدث في هذه القصة، هو ذلــك الانهيار إلى هذا الحد، فتداخلت مناطق الموت مــع الحياة، والعمى مــع البصيرة، والخوف مع الطمأنينــة، والخيالي مع الواقعي، والصناعي مع الطبيعي، لقد كانت تلك العين هي وســيلة العبور دائما من حد إلى آخر، وبالعكس.

ومثلما طرح كانط في الماضي فكرة «انهيار التمثيلات»، وكما أشرنا إليها بالتفصيل في كتاب سابق لنا عن «الفن والغرابة»، وأشرنا إليها باختصار في الفصل الأول من الكتاب الحالي، فإن ليز مولر قد اســتفادت من هذه الفكرة أيضا وطورتها، فقالت إن العين المقتلعة في نص هوفمان كانت وســيلة العبور الدائــم الذي أحدث اضطرابا في التمثيــل الخاص بتلك الثنائية القائمة بين الحيــاة والموت، مما جعلنــا غير قادرين على إقامة تمييــز واضح بين العالم الواقعي والعالم المتخيل. هكذا يكون الســرد، طبيعة الســرد، والنص الأدبي نفسه، هو الوســيلة التي أحدث من خلالها هوفمان هذا الأثر الغريب لدينا، بشــكل يفوق ما كان يمكن أن يحدثه المضمون الذي يحتويه النص لو قُدِّم من

خلال ســرد آخر. وقد كانــت العين - العين المقتلعــة تحديدا - هـي المجاز أو الاســتعارة التي تمكن هوفمان من خلالها من إحــداث ذلك الأثر الغريب لقصته. هكذا لا يكون الأثر الغريب مســتمدا من أي مضمون أو مادة خاصة بعينها بقدر ما يكون مســتمدا من الطريقة التي قُــدِّم هذا المضمون أو هذه المادة من خلالها. هنا قد نتذكر ما قاله بعض النقاد والفنانين من أن الفن ليس مجرد مضمون معين؛ بل الطريقة التي يتم من خلالها تمثيل هذا المضمون.

والخلاصة التي نخرج بها من دراسة ليز مولر هذه أنها:

1 - تتبنــى دراســتها مــا يســمى بالتحليــل النفســي الأركيولوجي لحفريات (طبقــات) النصوص الأدبية، حيث هناك طبقات واضحة، وأخرى غامضة فيه.

2 - إن فرويد في تحليله لـ«نص» هوفمان قد أبرز المستوى (الطبقة) الأعلى، والعقلانية الواضحة الخاصة بالســطح فيه على حســاب الطبقات الأخرى الخفيــة اللاعقلانية، الغامضة منه؛ ومن ثم فإنه تحليل اختزالي وجامد.

3 - تركز مولر على مجاز العين واســتعاراتها في قصة هوفمان بشــكل يفوق التركيز الجنســي الخاص بها، الذي اهتم به فرويد، كما أنها تقول إن فقدان العينين ليس مرتبطا بموضوع الخصــاء كما طــرح ذلك فرويد، بــل بالدلالات المتعددة للعين كرمز للحياة والرؤية والإبداع والحب والحياة، وإن الأكثــر أهمية هنا أيضا ليــس هو دلالة العين الخاصة بالمــوت والحياة؛ بل دلالاتها التي تقع في منزلة بين منزلتي الحيــاة والموت، ومن ثم فإنها اهتمت برمزية العيون المقتلعة من محاجرها، من حيث ارتباطها بالنار والتحول، والانتقال من مرحلة إلى أخرى، وكذلك بوصفها عيونا صناعية، عيونا مشــوهة للحقائق ومحرفة لها، ترتبــط بالعمى والتحريف والموت، كما بالحياة، باختلاس النظر والرغبة في المعرفة.

4 - يكمن ســر الغرابة هنا - في رأي مولر - في الحياة الحديثــة المعاصرة في تلك الحالــة التي بين الحي والميت، الحقيقي والصناعي، والمتحرك والســاكن، المفرد والجمع، والطبيعي في الاصطناعي، الموت في الحياة.

5 - تتفق ليز مولر مع سارة كوفمان وغيرها في أن طبيعة السرد والنص الأدبي نفسه الذي قدمه «هوفمان» هو ما خلق أثر الغرابة أكثر من مضمونه.

خامسا: رجل الرمال والدافع القهري للتكرار

وفقا لما قاله نيل هيرتز في دراسته «حول الغرابة» في قصة «رجل الرمال»، فإن الدافع القهري للتكرار هو المفهوم الذي يعطي الوحدة والمبدأ العام، واللمسة الخاصة لمقال فرويد عن الغرابة، وكذلك لكل ما كتبه حول غريزة الموت. فمنذ البداية كان فرويد مشغولا بمجموعة من الظواهر التي تكرر وتعيد نفسها مرة بعد الأخرى: ظهور المحتويات الطفولية للأحلام، الأعراض العصابية، حالات التحول والرغبات، اللاشعور والإشباع الخيالي وعلاقة المرضى بالمعالجين لهم ... إلخ.

هكذا فإن الشعور بالغرابة قد يتم توليده وتنميته عن طريق تذكير المرء، وتذكره، بالدافع القهري للتكرار، وليس بما يتم تكراره ذاته، إنه مبدأ عام، أسلوب مميز لحدوث الظاهرة، أكثر من كونه متعلقا بمضمون الظاهرة ذاتها، ويصبح هذا الوعي بالعملية ذاتها، المتكررة هذه، وعيا بغرابتها، قبل أن يكون وعيا بجانب من جوانب مضمونها، ذلك الذي كان مكبوتا، والذي يعود الآن إلى الوعي. إن هذا الظهور المفاجئ، الانبثاق للتكرار، هو الذي يخيف، ربما لأنه يوقظ شيئا كان ينبغي أن يظل نائما - كما قال فرويد - في اللاوعي، مكبوتا فيه، هناك، في غابات النسيان، لكنه يعود الآن في شكل متكرر ومخيف، وقد يبدو هذا التكرار أحيانا، مثل حالة من المراوغة، والموارية، التي تكمن داخل الاختلاف، حيث لا يمكن الفصل - هنا - بين الوعي بعملية التكرار هذه، والوعي بالمضمون، أو الموضوع، أو الشيء الذي يتكرر حدوثه أو ظهوره، فالتكرار يصبح مرئيًا عندما يكتسي اللون الطابع الخاص بالشيء الذي يتكرر، والذي يوظف - هذا الشيء - بدوره، بوصفه لغة حية أو قوية، تجسد نوعا من الاتساق البلاغي الخاص لشيء كان يمكن أن يظل - على نحو آخر - صامتا، مكبوتا، مسكوتا عنه.

هكذا يكون التكرار نوعا من الإعلان أو الإفصاح المجازي عن مسكوت عنه، ومكبوت يعاود الظهور، مرة بعد أخرى، بأشكال رمزية ومجازية وغريبة دالة عليه، وهو نفسه - كمبدأ أو مضمون - يجسد هذه الغرابة في تنويعاتها المختلفة، ويطرحها في مواجهة واقع يستدعيها، ويتيح الفرصة لظهورها على الرغم من إنكاره الدائم لها.

هنــاك قراءتان - كمــا يعيد هيرتز تذكيرنا - لقصــة هوفمان قدمهما فرويد، حدثت الأولى على مســتوى السطح الواضح، حيث أعطى تعبيرات ســريعة انتقائية لحبكة القصة، وقد تحركت هذه القراءة - على نحو متتابع - مــن الطفولة الخاصة بالبطل - ناثانيل - حتى وصلت إلى نوبات الجنون التــي هاجمته وأوصلته إلى الانتحار في النهاية، وهنا، عند هذا المســتوى، هناك حديث عن حكاية رجل الرمال الذي كانت الأمهات يخفن به أطفالهن حتــى يناموا، وكذلك شــعور ناثانيل بالخوف من المحامــي كوبوليوس الذي يهدد عينيه هو نفسه، وموت والده وهو يجري معه تجارب غامضة، وتتطور الأحداث بأشــكال لافتة، مفاجئة، فنرى كيف حل كوبولا صانع العدســات محل كوبوليوس المحامي الشرير، وكيف أن الغرابة في القصة جوهرها تلك الحكاية القديمة الخاصة برجل الرمال، وما كان يســتثيره في عقل الطفل مــن مخاوف مرتبطة بســرقة العينين، وكيف أن فرويد قــد رفض ما قاله ينتش من أن مصدر الغرابــة المتعلقة برجل الرمال هو تلك الحالة الخاصة من الحيرة المعرفية، أو عدم اليقين والشك فيما إذا كان شيء ما يكون ساكنا ظاهريًا، هو شــيئا يتحرك فعلا أو لا. لقــد أصر فرويد - على نحو متكرر - على رفض هذا التفســير، وقال إن هذا النوع من الشك والحيرة المعرفية إنمــا يتولد لدى القارئ للقصة منذ الصفحات الأولى منها، وإنه تتولد لديه الشــكوك منذ البداية حول ما إذا كان الكاتب يأخذه إلى العالم الواقعي أو إلى عالم خيالي من خلق هوفمان نفســه، ثم إنه قال أيضا إن تلك الشكوك تتبدد لدى القارئ عند نهاية القصة، حيث يدرك أن كوبولا صانع العدسات هو نفســه كوبوليوس المحامي، وهو أيضا رجل الرمال الذي في الحكايات. بمعنى آخر، إن إحســاس ناثانيل بأن هذا الرجل هــو «المتحكم المرعب في قوى الظلام، والمتلاعب بها» هو أمر صحيح داخل المستوى الخيالي الخاص بالقصــة، ونحن لا يُفتــرض منا - كما قال فرويد متهكمــا - أن ننظر إلى الإنتاجات التي يقدمها لنا خيال رجل مجنون، وإنه من خلال سيطرة عقولنا الواعية، نكون قادرين على اكتشاف الحقيقة الدالة على الاتزان.

هذا فيمــا يتعلق بالمســتوى الأول، أو التأويل الأول للقصــة، أما التأويل الثاني لها فقد قدمه فرويد في حاشــية طويلــة مكثفة على نحو لافت أيضا لمقاله، حيث قال إن تلك الحقيقة الرزينة، الدالة على العقل، التي تكمن خلف نتاجات خيال المجنون، تلك البنية الكامنة الضمنية فيها، إنما تتعلق بما يسمى

«التنظيم الأصيل» Original Arrangement لعناصر القصة، وهنا فإننا، وبدلا من ذلك المسار الخطي للسرد، من خلال الكشف عبر الزمن للمصير الذي ينتظر ناثانيل، نجد أن ما عرضه فرويد هو سلسلة من البنيات المتكررة التي تم تنظيمها بشكل معين كي تعرض لنا وتظهر تلك القوى الموجودة داخل عقل ناثانيل، ذلك الذي قام بخلقها وتطويرها كي تجسد لنا ذلك التناقض الوجداني لديه نحو أبيه، والذي يقسم شخصيته إلى شخصيتين: تتعلق إحداهما بالأب المحب العطوف الذي قتل، في حين تتعلق الأخرى بشخصية كوبوليوس الشرير الذي ينبغي أن يوجه إليه اللوم بسبب ذلك الحدث العنيف الذي أدى إلى موت الوالد، ثم تحدث هذه المزاوجة ويعاد إنتاجها مرة أخرى عند المقارنة بين شخصيتي سبالانزاني (الميكانيكي أو المهندس والد الدمية أوليمبيا) وكوبولا (الذي يدمر الدمية)، ويرتبط ذلك كله بسلسلة من العلاقات الثلاثية، فيها يوقف رجل الرمال مساعي ناثانيل لإنجاح حبه وعلاقته بكلارا، خطيبته أولا، كما أنه يخطف أوليمبيا التي كان ناثانيل يحبها، ثم يدفعه نحو الانتحار عند عودة الحياة إلى مجاريها بينه وبين كلارا.

وقد رأى فرويد أن هذين التأويلين للقصة ليسا متناقضين، بل مرتبطان أحدهما بالآخر ارتباط المستوى السطحي لها بالمستوى العميق، حيث إن عقدة الخصاء كما قال، «هي التي ولدت القصة الخيالية الخاصة برجل الرمال، وإن القارئ، حتى لو كان شديد الاقتناع بواقعية القصة، بل خصوصا عندما يكون شديد الاقتناع بها، يشعر بوجود شعور غريب ما يصدر عن تلك «العودة للمكبوت» ويتجسد عبر السرد.

والسرد لدى هوفمان سرد مقتحم أو مندفع، إنه سرد مفعم بالحيوية، متحول، قُلَّب، باذخ، متقن، زاخر بالسجع والتكرارات اللفظية والتلميحات والإشارات الأدبية الضمنية، والتغيرات في الإيقاع التي تشعر القارئ بالإجفال والمفاجئة، كما أن هناك، فيه، ذلك التجسيد للمزاج الشخصي المتقلب، ولديناميات الكشف والتطور التدريجي شبه الموسيقية. وإضافة إلى ذلك، فإن هذا السرد المتدفق حيوية، يصور في لحظات خاصة، بعض المضامين المهمة في العمل بطرائق شتى، كان تجاهل فرويد لها أمرا محيرا؛ وذلك لأن ما قد يكون مثيرا للقلق والاضطراب في هذه القصة إنما يتعلق بالمستوى الخاص بالسطح فيها، بالطريقة التي تم السرد من خلالها فيها، مثلما هو متعلق بمضمونها، أو المستوى العميق الخاص الذي يخفيه هذا السطح أيضا.

ثم يركز هيرتز في دراسته على نوعين من هذه التأثيرات الناتجة من البراعة الفنية لدى هوفمان، هما:

1 - بنية القصة: فقد أضفت خدعة هوفمان أو حيلته الماكرة الخاصة باستخدام شكل الرسائل في الكتابة، منزلة غريبة على هذه الرسائل التي تبدأ بها القصة، فمثلها مثل أية شواهد توثيقية موجودة في السرد، ومصاحبة له، تكون هناك درجة أعلى من التصديق والمصداقية لها؛ ومن ثم يميل القارئ إلى الاستمرار في قراءتها من خلال إيهام خاص بأنها واقعية. كما أن الراوي إنما يقدم - هنا فقط - تأويله الخاص لها. ولأن الرسائل هنا قد سبقت السارد، الراوي، فإن ما يقوله عنها وحولها، يبدو أن له الأثر الخاص بجعل القارئ يسترجعها، ويتكيف معها، ثانية، ويضفي عليها نوعا من الواقع التوثيقي، ويتذكر - أيضا - الجانب المتخيل فيها، وكذلك حاجة الراوي إليها لإضفاء المصداقية على ما يكتبه.

2 - إن هذا التركيب البنيوي المعقد الذي يشتمل على نوع من الإرجاء الزمني داخل النص، يجعل القارئ في حيرة من أمره، يجعله غير متأكد مما إذا كان ما يقرؤه سردا واقعيا أو سردا متخيلا، أو مزيجا من الواقع والخيال؟ وهنا أمر وثيق الصلة بما قاله فرويد حول الفعل. أو الحدث. المرجأ deffered action، وقدرته على إضفاء المعنى والقوة المَرَضية الطابع على خبرات الطفولة وتخييلاتها. وليست هذه البنية الزمنية القائمة على الإرجاء منذ الصفحات الأولى للقصة هي المميزة لها فقط؛ بل أيضا محتوى خطاب ناثانيل الأول، أو رسالته، تفسيره لعملية شبه الخصاء التي توقع أن تُجرى له على يد كوبوليوس، هذا النوع من الاستحضار الحالي لخبرات ماضية، مرجأة، متأخرة، لكنها مخيفة وعنيفة تجيء في الحاضر، وتحضر عبر الذاكرة، عبر الرسائل، هي أيضا أمر مميز لهذه البنية.

داخل القصة هناك تشابه ما بين ذلك الكشف التدريجي لمصير ناثانيل ونوع التطور في السرد والتفصيل فيه، أي بين القوة الدافعة المحركة الموجهة لناثانيل والمهيمنة عليه، والقوى الدافعة للسارد أو الراوي. وهناك أثر

مماثـل خلقه اختيار هوفمـان، وكذلك معالجته للأسـلوب أو طريقة الأداء، حيـث تعـرض لنا . القصة على نحو متسـق. ذلك الحـس المرضي والمعاناة، وكذلك الكوميديا الخاصة بالجوانب السـيكولوجية الشيطانية من خلال لغة تعتمد على مفردات وموضوعات مسـتمدة من الجماليات الرومانتيكية، كما لو كان هوفمان قد بدأ من الموضوع المشترك الذي يهيم فيه الشعراء والعشاق والمجانين (وفقا لمقولة شكسبير الشهيرة) ويولعون، ثم قام بالتجميع معا، لكل تلك الصور والنسـخ المفككة المتناثرة من هذه الشخصيات المتماثلة (الشاعر والعاشـق والمجنون)، وقدمها في نوع مـن التداخل الدلالي والتراكم الخالص لتلـك الأمثلة من الشـخصيات؛ حتى يصيب القارئ بالحيـرة، مثلما أصابت نظارت كوبولا المكبرة ناثانيل أيضا بالحيرة حينما وضعها أمامه على المائدة.

في نهاية دراسـته يقول هيرتز إن هناك تعبيرا في الفرنسـية لا يوجد له مقابـل دقيق في الإنجليزية، وهـو mise en abyme، وهو يعنـي «الإلقاء في الجحيم»، أو «الرمي في الهاوية السحيقة»، وهو يشير إلى ذلك الإيهام بالتراجع أو الارتداد اللانهائي للخلف الذي يمكن أن يخلقه الكاتب أو المصور الرسـام، أو المصور السينمائي أيضا، إنه أمر شبيه بالمتاهة التي تعود في حلقات ودوائر تصغـر وتصغر في كل مرة حتى تختفي، إنه نوع من التكرار داخل العمل الفني للبنية الأكبـر، وفي صور مصغرة، ويتم إطلاقها بحيث تبدو سلسـلة لا تنتهي من عمليات الكناية أو المجاز المرسـل التي لا تنتهي، فيها تكني الحلقة الأصغر عن الحلقة الأكبر، والأصغر منها عنها، وهكذا، وفيها تحاكي عملية الرمي في الجحيم أو الهاوية السحيقة هذه، عمليات التكرار الجامحة غير المتحكم فيها، تلك التي تبدو هنا وكأنها تحمل ناثانيل كالدوامة معها، وتنقله من سطح هناءته الظاهرة إلى جحيم تعاسته اللانهائية، نحو موته، أو نهايته المحتومة.

هكذا تكـون القراءة الأدبية لهذا العمل هي الجانب الناقص في قراءة فرويد له، هكذا تكون قراءة فرويد له ناقصة، هكذا تكون قراءته له غريبة عنه إلى حد ما.

إن ما جعل هذه القصة مثالا جيدا على المفارقة الرومانتيكية والتهكم، وكذلـك قدرتها على إحداث الاضطراب الخـاص بالغرابة، ليس ما ذكره فرويد فقط، بل أيضا قدرتها وقابليتها للتفسير من خلال هذين الإطارين أو النموذجين التفسـيريين: قدرتها على التحول والظهور داخل مقتضيات وحدود التفسـير السيكولوجي/الشـيطاني، وكذلك داخل حدود التفسير

الأدبي، بـل ووجودها أيضا، على تلك الحدود مـا بين هذين النوعين من التفسيرات، ومن ثم فإنها تؤكد - على نحو ما - تلك الفروق بين التفسيرات السيكولوجية والأدبية، وكذلك بعض أنواع العلاقات المشتركة بينهما أيضا. لقد أبرز فرويد وأكد الجانب المظلم الشيطاني من القصة، لكن ثمة جوانب إبداعية وأدبية وفنية مضيئة أخرى فيها لم ينتبه لها أو يهتم.

وبشكل عام، هناك خمسة اعتبارات في رأي هيرتز قام هوفمان بتقديم هذه القصة من خلالها بشكل مركب:

1 - إن السرد لدى هوفمان سرد مفعم بالحيوية، سرد متقن، باذخ، وفيه كذلك تجسيد للمزاج النفسي المتقلب المضطرب.

2 - إنه قدم عددا من التأويلات المتصارعة لمصدر الطاقة التي تدور خلال القصة، أو داخلها، والتي تدفع الشـخصيات نحو الفعل أو التعبير، هل هي نوع من الخلق للذات أو أنها تشع من مصدر خارجي؟ وهل القصة سيكولوجية (تنبع من مصدر داخلي) أم شيطانية (تنبع من مصدر يقع فيما وراء الطبيعة)؟

3 - إنـه نتيجة لمعالجات هوفمـان التي تقوم غالبا على الإرجاء والأفعـال المؤجلة، وكذلك طرائق السـرد المعقدة، فإن القارئ قد يشـعر بالارتباك والحيرة، بأن حياة ناثانيل، وكتابته، وكذلك الراوي الذي يحكي القصة، وكتابة هوفمان نفسها، وكذلك ولع القارئ المستقبل لها، كلها أمور مدفوعة بفعل الطاقة نفسها وتأثيرها، ومدفوعة كذلك نحو التمثيل لهذه الطاقة، صبغها ورسمها من خلال حدود يصعب تبينها، وذلـك من أجل جعلها تترك أثـرا، يكون - بقدر الإمكان - غيـر قابل للمحو أو الطمس، وهـذه كلها أمور تتجاوز تلك القراءة المحدودة الخاصة التي قام بها فرويد.

خاتمة الفصل

لقد أجمع هؤلاء النقاد على أن فرويد قد تبنى وجهة منطقية عقلانية من النظـر والفهم والتحليل لنص هو بطبيعته، ولغرابته، ليس كذلك، أي أنه ليس منطقيّـا ولا عقلانيّا أبدا كذلك، كما أنهم أكدوا أن الجانب المنسـي الخفي، المكبوت، المسـكوت عنه في دراسـة فرويد، أهم من تلك الجوانب التي أعلن

عنهــا أو صرح بها. واتفــق هؤلاء النقاد كذلك على أن مــا أهمله فرويد من جوانــب داخل نص هوفمان بوصفها جوانب غيــر مهمة في موضوع الغرابة، هي الجوانب التي كانت ربما الأكثر أهمية من الجوانب التي اهتم بها فرويد.

ووفقا لما قاله ســتيف فايــن S.Vine، فإن المرء قد يبــدو له أنه يعرف الغرابــة، لكنــه، وفي الوقت نفســه، لا يكون قد عرفهــا. إن المرء لا يمكنه أن يعــرف الغرابة؛ وذلــك لأن تأثيرها يعمل على جلــب المألوف في إهاب الغريــب، الدخيل، الآخر، وطابعه. إن المرء قــد لا يتعرف الغريب أو يحيط بالموضوع الغريب، وبدلا من ذلك، فإنه قد يحدث له الاضطراب بســبب قوة الغرابة وتأثيراتها في إحداث الاضطراب الخاص في قدرة المرء على تعرُّف مشــاعره الخاصة به، والأشياء التي قد تستثير لديه مشاعر الغرابة أيضا. وبشــكل عام، تحدث الغرابة – وفقا لما قالته فرنسواز ميلتزر F. Meltzer – «عندما يشعر المرء بأنه .. ليس في بيته، ليس في العالم الذي يعرفه، بل إنه غريب ضائع، في عالم شاسع ممتد موحش وغريب أيضا» (7).

لقد كان فرويد يبحث في الأدب عن مادة للتحليل النفسي، لكن النقاد الجدد – أو بالأحرى الناقدات الجديدات صاحبات الاتجاه النسوي المتميز في النقد الحديث – من اللائي استعرضنا تحليلاتهن هنا في هذا الفصل على الرغم من ميولهن التحليلية النفســية التي أعادت ذلك الأدب المنسي، المســتبعد، المخفي، المسكوت عنه، المكبوت والغريب في دراسة فرويد، إلى مجال الأدب والجماليات الذي هو الميدان الحقيقي للغرابة، كما أشار إلى ذلك فرويد نفســه، حين قال إن هوفمان هــو الكاتب الذي نجح في إنتاج التأثيرات الغريبة أفضل من أي كاتب آخر، لكنه رفض ما قاله ينتش قبله مــن أن التأثيرات الغريبة لدى هوفمان مســتمدة من تلاعبه داخل النص بفكــرة الأوتوماتا، أو الكائن الآلي المخلــق، الدمية، وفضَّل فرويد بدلا من ذلك التركيز على التخييلات الليلية الكابوسية المتعلقة برجل الرمال، التي كانت – وفقا لما قاله – تجســد مخاوف ناثانيل الطفولية أو اللاشــعورية، وهي تلك المخاوف التي لم تنته إلا بموته.

هذه، على كل حال، محاولة ما، قمنا بها، لتقديم بعض الأفكار الحديثة المرتبطة بموضوع «الغرابة في الأدب» إلى القارئ العربي العزيز.

الهوامش

الفصل الأول

(1) وليم شكسبير الملك لير (ترجمة جبرا إبراهيم جبرا) بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

(2) ألف ليلة وليلة، الجزء الثالث، بيروت: دار مكتبة الحياة، الجزء الثالث (من دون تاريخ نشر).

(3) وقد عرض الدكتور جابر عصفور هذه الفكرة في ندوة حضرتها في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي في مدينة مسقط في سلطنة عمان حول مستقبل الثقافة العربية، وقد ضاع من ذاكرتي تاريخ الندوة ولكن بقيت الفكرة.

(4) Collins, Jo, & Jon Jervis, J (2008) Introduction In: Collins & Jervis (eds) Uncanny Modernity, Cultural Theories, Modern Anxities N.Y: Cambridge Univ. McMillan press, 4-5.

الجدير بالذكر هنا أن هذا الجزء الخاص بمعنى الغرابة وما يرتبط به وكما ورد في هذا الفصل، سبق لنا أن عرضناه أيضا في كتابنا عن «الفن والغرابة: مقدمة في تجليات الغريب في الفن والحياة» والذي صدر عن دار ميريت بالقاهرة في العام 2010، ونظرا إلى أن هذا الكتاب الأخير غير متاح للكثيرين من الكتاب العرب فقد قدمنا تلخيصا للفصل الأول منه في الكتاب الحالي وعلى نحو مختصر.

(5) المصدر السابق.

(6) Freud, S. (2003) The Uncanny: Penguin Books. (Originally published 1919).

(7) Royle, N (2003) The Uncanny. Manchester: Manchester univ. Press, 4

(8) Freud, op. Cit.

(9) المصدر السابق.

(10) Johnson L.R (2010) Aesthetic Anxiety, Uncanny Symptoms in German literature and Culture. Amsterdam: Rodopi 9-10.

(11) المصدر السابق.

(12) Vidler A. (1992) Architectural Uncanny, essay on the Modern Unhomely. Cambridge: The MIT. Press

(13) Punter, D (2006) Shape and shadow. (in:D Punter, ed) A Companion to the Gothic. London: Blackwell 193-205.

(14) Freud, op.cit.

(15) Winchell, J. (1997) Century of uncanny, the Modest Terror of A Theory. Paradoxa, Vol, 3, No.3520-4.515-

(16) Cannon, D (2010) Subjects Not-at-Home, Forms of the uncanny in the Contemporary French Novel. Amsterdam Rodopi, 9.

(17) Freud, op.cit.

(18) وقد صرح لنا بتفضيله لهذه الترجمة لهذا المصطلح في لقاء معه في القاهرة في حضور الصديق الفنان التشكيلي د. عادل السيوي في صيف العام 2010.

(19) وقد استخدم د. حسن المودن هذه الترجمة لهذا المصطلح في دراسات عديدة له عن الأدب المغربي أو العربي عامة، ربما كان أشهرها دراسته عن قصص الكاتب المغربي محمد غرناط. واستخدمها كذلك الناقد الدكتور محمد برادة في تقديمه لترجمة الصادق بوعلام لكتاب تودوروف الشهير عن الأدب العجائبي وفضل بوعلام هذه الترجمة أيضا لهذا المصطلح.

(20) شاكر عبد الحميد (2010) الفن والغرابة – مقدمة في تجليات الغريب في الفن والحياة. القاهرة: دار ميريت للنشر والمعلومات – وطبعة خاصة من مكتبة الأسرة – مواضع متفرقة.

(21) ابن منظور، محمد بن مكرم المصري (1988) لسان العرب المحيط. بيروت: دار الفكر.

(22) المرجع السابق نفسه.

(23) المرجع السابق نفسه.

(24) الجاحظ (1986). كتاب الحيوان، الجزء السادس، تحقيق عبد السلام هارون - 107.

(25) أبو حيان التوحيدي (1981) الإشارات الإلهية، تحقيق: عبد الرحمن بدوي. الكويت وكالة الكويت للمطبوعات.

(26) Vidller، op.cit.

وانظر أيضا:

- Melbank A (2009) Chesterton and Tolkein.. N.y: t&t

- مدكور ثابت (1994) الكسر النسبي في الإيهام السينمائي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب: مواضع متفرقة.

(27) صالح سعد (2001) الأنا والآخر. ازدواجية الفن التمثيلي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة: 174-175.

(28) Cannon, op. cit, 9-10.

(29) Newman, S (2005) power and politics in postcultaralist Thought . N.Y: Routledge.

(30) Heidegger, M (1962) Being and Time. London: Translated by: John Macquassie N,Y: Harper& Raw. (5985-)

(31) Ellison, D-(2001) Ethics and Aesthetics in European Literature from the sublime to the uncanny N.Y. Cambridge Univ. press.

(32) http://en.wikipedia.org/wiki/sublime/philosopy.

(33) Kant, E (1960). Observations on the feeling of the beautiful and sublime, Berkeley: Univ. of California press.

(34) Freud, op, cit.

(35) Holland, D. (2004). Gothic and Gender: An Introduction. London: Blackwell, 33-66.

وانظر أيضا:

Burke E (1990) A philosophical Enquiry into the origin of our ideas of the sublime and beautiful .N.Y: Oxford Univ. press (originally published 1859).

(36) Shaw, P. (2006). The Sublime. London: Routledge, 126 -127.

(37) المصدر السابق.

(38) Freud, op,cit.

(39) المصدر السابق.

(40) Masschelein, A (2002) The Concept-as-Ghost, Conceptualization of the uncanny in the Twentieth century theory . Mosaic, March,101.

(41) شاكر عبد الحميد، الفن والغرابة، مواضع متفرقة.

(42) Ellison, D. op.cit.

(43) Punter. Op.cit.

(44) Jentsch, E (1906) On the Psychology of the uncanny In Collins & Jervis, Eds (2008) op. cit , 216-228.

وانظـــر أيضا عرضا مفصلا لأفكار ينتش عـــن الغرابة في كتابنا «الفن والغرابة»، الذي صدر عن مكتبة الأسرة، القاهرة، 2010.

(45) Freud,op,cit.

(46) Winchell, J. op.cit.

(47) Ronen, R (2009) Aesthetics of Anxiety N.Y: Sunny press 43-44.

(48) المصدر السابق.

(49) المصدر السابق.

(50) Stern, L (1997) I Think Sebastian, therefore I… Somersault Film and the Uncanny, paradoxa, 3-3-4-348-366.

الفصل الثاني

(1) Miller K (208) Doubles. Studies in literary History. London: Faber & Faber, 21-25

(2) Ellison, D (2001) Ethics and Aesthetics in European Literature, from Sublime to the Uncanny N.Y. Cambridge Univ. press 53.

(3) Cooppan, V. (2009) Worlds within, National Narratives & Global Connections in Postcolonial Writing. Stanford: Stanford Univ. Press 71-77.

(4) Ibid, 133-134.

(5) فرانـــز كافـــكا (1994) المســـخ (ترجمة: أحمد عمر شـــاهين)، القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع.

(6) فرانـــز كافـــكا (2009) القضية (ترجمة: مصطفى ماهـــر). القاهرة: المركز القومي للترجمة.

(7) إدغار آلان بو (1986) القط الأســـود وقصص أخرى (ترجمة خالدة ســـعيد) بيروت: دار الآداب، الطبعة الثانية.

(8) المرجع السابق.

(9) إدغار آلان بو (1997) القلب الواشي. (ترجمة: طاهر البربري) مجلة «نزوى» العمانية، العدد التاسع، يناير 1997 - 197 - 198.

(10) Wuletich- Brinberg, S (1988) Poe, The Rationale of the Uncanny. N.Y: Peter Lang.

(11) المصدر السابق.
(12) المصدر السابق، 8.
(13) المصدر السابق، 8-9.
(14) انظر المقدمة المهمة التي كتبها الشاعر الفرنسي الشهير تشارلز بودلير للترجمة التي قام بها هو نفسه لقصص إدغار آلان بو وترجمتها خالدة سعيد، ضمن مجموعة القط الأسود (1986).
(15) Freud, S. (2003) The Uncanny. London: penguin Books (first published, 1919.)
(16) المصدر السابق.
(17) Royle, N, (2003) The Uncanny. Manchester: Manch. Univ. Press 4
(18) Stern, L (1997) I Think Sebastian, Therefore.... Iam. Somersault Film and the Uncanny, Paradoxa, 3-3-4-348-366.
(19) Freud, op, cit
(20) Freud, op, cit.
(21) تزفيتن تودوروف (1994) مدخل إلى الأدب العجائبي (ترجمة الصديق بوعلام) القاهرة: دار شرقيات للنشر 48-50.
(22) Jackson, R (1981) Fantasy, The Literature of Subversion. London: Methuen.
(23) تودوروف، المرجع السابق (ترجمة الصديق بوعلام).
(24) Jackson, Op.cit.
(25) تودوروف، المرجع السابق (ترجمة الصديق بوعلام).
(26) تودوروف، المرجع السابق (ترجمة الصديق بوعلام).
(27) Cannon, D (2010) Subjects Not-at-Home, Forms of the Uncanny in the Contemporary French Novel. Amsterdam Rodopi, 9.
(28) Berrshim, (2010). Gothic Hauntings, Melanchology Crypts and Textual Ghosts. N.Y: Palagrave, Macmillan, 1-4
(29) Abraham, N. & Torok, M (1968) The Wolfmans Magic Word: Acryplonymy, trans. N. T. Rand Minneapolis: Unicip Minnerata Press.
(30) تودوروف، المرجع السابق (ترجمة الصديق بوعلام). ص 50.
(31) Cooppan, V. (2009) Worlds Within, National Narratives & Global Connections in Postcolonial Writing. Stanford: Stanford Univ. press.
(32) Ibid.
(33) Royle, N (2003) The Uncanny. Manchester: Manchester Univ. Press, 4.
(34) Punter, D (2006) Shape and Shadow. (in:D Punter, ed) A Companion to the Gothic. London: Blackwell 193-205.
(35) Abraham, N. & Torok, M(1968) The Wolfmans Magic Word: Acryplonymy, trans. N. T. Rand Minneapolis: Unicip Minnerata Press.

(36) Jose B. Monleon (1990) A Specter Is Haunting Europe: A Sociohistorical Approach to the Fantastic. Princeton: Princeton University Press.

(37) عبـد الفتـاح كليطـو (2006) الأدب والغرابة، دراسـات بنيوية في الأدب العربي. بيروت: دار الطليعة.

(38) المرجع السابق.

(39) المرجع السابق.

(40) محمـد بن عبد العظيم بن عـزوز (2009) الغرابة بين التلقي والدلالة في السرد العربي القديم. الرياض: كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحافية.

(41) حسن المودن، الكتابة والغرابة المقلقة في قصص محمد غرناط (داء الذئب، 1996، نموذجا).

(42) المرجع السابق نفسه.

الفصل الثالث

(1) روبرت لويس ستيفنسون (2008)، دكتور جيكل ومستر هايد، (ترجمة جولان حاجي)، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.

(2) Hessel, S. (2010) Fear itself: Reasoning the Unreasonable (ed), N,Y: Rodopi.

(3) https://en.wikipedia.org/wki/fear.

(4) الباحث العربي http://Baheth.info

(5) أبو هلال العسكري (1981) الفروق في اللغة بيروت: دار الآفاق الجديدة.

(6) المرجع السابق نفسه.

(7) Cavallaro D. (2002) The Gothic Vision: Three Centuries of Horror, Terror and Fear: N.Y Continuum,16.

8) Carrol, N (1990) The philosophy of Horror, or paradoxes of the heart. N.Y: Rautlege.

(9) Beville, M (2009). Gothic – Postmodernism: Voicing the Terrors of Postmodernity. Amesterdam: Rodopi, 24-25.

(10) المصدر السابق.

(11) المصدر السابق، 43.

(12) Cavallaro, op.cit, 2-5.

(13) Beville, op.cit.

(14) Burke E (1990) A Philosophical Enquiry into the Origin of Our Ideas of the Sublime and Beautiful. N.Y: Oxford Univ. Press (originally published 1859).

(15) http://www.gothic.cc/site/Literary_articles/21.html

(16) الواقعية الفيكتورية، يقصد بها الإشارة إلى الفترة من 1837-1901 والتي ترتبط باسـم الملكة فيكتوريا والتي شهدت أيضا نهضة في الصناعة والتعليم قام جانب كبير منها على أسـاس نهب ثروات المستعمرات، وفي الرواية التي أصبحت أكثر شـعبية من الشعر، وكان أشـهر من كتبوا القصص والروايات

القريبـــة والخيالية وربما المخيفة في تلك الفتـــرة: رودريارد كيلبنغ وجوزيف كونراد وستيفنســـون ود. هـ. ويلز وهـــي روايات تقع على حافة الواقعية، ذات ملامح رومانتيكية، لكنها ليســـت خيالية، تقوم على أساس الحبكة والتشويق، التشويق الذي يرتبط بالشك وفقدان اليقين.

(17) Cavallaro, op.cit, 2 – 5.

(18) Beville, op.cit.

(19) شـــاكر عبدالحميـــد (2009) الخيال: من الكهف إلـــى الواقع الافتراضي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة.

(20) Beville, op.cit.

(21) http://en.wikipedia.org/wiki/The_Horla

(22) المرجع السابق.

(23) Cavallaro, op.cit, 27-38.

(24) المصدر السابق.

(25) المصدر السابق.

(26) ت.س. إليـــوت (1996) قصائـــد (إعداد وترجمة وتقـــديم وهوامش ماهر شفيق فريد) الإسكندرية: دار ومطابع المستقبل.

(27) Beville, op.cit,69-72.

(28) إليوت، مرجع سابق.

(29) إليوت، مرجع سابق.

الفصل الرابع

(1) Wilkins, D et. al, (2005) Art Past Art Present N.Y: Upper Saddle River, 166.

(2) Lorraine, T.E. (1990). Gender, Identity and The Production Of Meaning. Oxford: Westview Press: 25-36.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق.

(5) Apollon, W. & Feldstein, R. (1996) Lacan, Politics, Aesthetics. N.Y: State Univ. of New York: 47-49.

(6) Lorraine, op.cit.

(7) المصدر السابق.

(8) شـــاكر عبد الحميد (2001) التفضيل الجمالي: دراســـة في ســـيكولوجية التذوق الفني. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الفصل الثالث.

(9) المصدر السابق.

(10) Newman, S (2005) Power and Politics in post-culturist Thought. N.Y: Routledge, 129-130.

(11) المصدر السابق، 130.

(12) المصدر السابق، 131.

(13) Winchell, J. (1997) Century of Uncanny, the Modest Terror of Theory. Paradoxa, Vol, 3, No.3-4, 515-520.

(14) المصدر السابق.

(15) Simeon, P. & Abugel J. (2006) Feeling Unreal Depersonalization Disorder and The Loss of Self. N.Y: Oxford Univ. press, 54-56.

(16) المصدر السابق.

(17) المصدر السابق.

(18) المصدر السابق، 49.

(19) المصدر السابق، 38، 79.

(20) إبراهيم أصلان، وردية ليل (1999). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة. 99 - 101.

(21) Simeon, D. & Abygel, J. (2008) Feeling Unreal: Depersonalization Disorder and the Loss of the Self, Cambidge: Oxford University Press.

(22) Sierra, Mauricio (2009) Depersonalization: A New look at a Neglected Syndrome N.Y: Cambridge: Cambridge Univ. press 61-65.

(23) Simeon, D. & Abygel, J. op.cit, 54-55.

(24) Dryden, l (2003) The Modern Ghothic and literary Doubles, Stevenson, wilde and wells.N.Y: Palgrave , 59-60.

(25) Davies, l.,(2003), Foreword to Linda Dryden , ibid.

(26) Hessel. S. (ed), (2010) Fear Itself: Reasoning the Unreasonable. N.Y: Rodopi.

وانظر أيضا:

Homi K. Bhabha, (1994), The Location of Culture. N.Y: Routledge.

(27) Dryden, op. cit, 43-46.

(28) المصدر السابق.

(29) Cavallaro D(2002) The Gothic Vision Three Centuries of Horror , Terror, and Fear. N.Y. Continuum 30.

(30) Dryden, op. cit, 47-48.

(31) إبراهيـم عبدالمجيد (2001). تحت المظلة 2000، ضمن «مجموعة سـفن قديمة». القاهرة: دار ميريت للنشر والمعلومات.

(32) Kristeva, J.(1991) Strangers to Ourselves. Trans by: leon Routdiez. Colombia: Colombia Univ. press, (188-190).

الفصل الخامس

(1) Thiher, A(2004). Ravels in Madness, in Medicine and Literature. Michigan: Michigan Univ. Press.

(2) روبرت لويس ستيفنسون (2008)، دكتور جيكل ومستر هايد، (ترجمة جولان حاجي)، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.

(3) فرانز كافكا (2002) الآثار الكاملة مع تفسيراتها (الذات. المحاكمة) (ترجمة: إبراهيم وطفى) دمشق، دار الحصاد للنشر 269.
(4) شـــاكر عبد الحميد. الفروق بين الجنسين في أساليب التعلم والتفكير. مجلة دراسات نفسية، 1998، 8، 2-3.
(5) شاكر عبد الحميد (1997) الأدب والجنون، القاهرة: دار غريب للطبع والنشر.
(6) Dryden, L.(2003) The Modern Gothic and literary Double Stevenson, wilde, and wells. N.Y.Palgrave, 38-42.
(7) المصدر السابق.
(8) المصدر السابق.
(9) المصدر السابق، 38 - 40.
(10) Miller K(208) Doubles. Studies in Literary History. London: Faber & Faber, 21-25.
(11) المصدر السابق.
(12) المصدر السابق 49.
(13) المصدر السابق.
(14) المصدر السابق.
(15) Hegel, G.W. (1999) Aesthetics, Lectures on Fine Arts. Cambridge: Univ. Press, 553-4. (Originally Published 1835).
(16) Pesic, P. (2003) Seeing Double, Shared Identities in Physics, Philosophy and Literature. Cambridge: Mass, The MIT Press.
(17) Through Miller, op. cit,32.
(18) خورخـــي لويس بورخيس (2009)، النمر الآخر، شـــعر (ترجمة محمد عيد إبراهيم). الشـــارقة: اتحـــاد كتاب وأدباء الإمارات. قصيـــدة «أنا وبورخيس، 222-223»
(19) المرجع السابق، قصيدة «كل شيء ولا شيء»، 224-226.
(20) المرجع السابق، قصيدة «مرثية بورخيس»، 229-230.
(21) Miller op. cit.
(22) بول جونســـون (1998). المثقفون (ترجمة: طلعت الشـــايب). القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع.

الفصل السادس

(1) أوفيـــد مـــن خلال باســـكال كينـــار (2007) الجنس والفـــزع. (ترجمة: روز مخلوف) دمشق: دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع. ص184.
(2) Warner, M (2007) Fantastic Metamorphoses Other World Oxford: Oxford Univ. Press، 162.
(3) خوزيه ساراماجو (2008) الآخر مثلي (ترجمة: بدر الدين عرودي) القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز.
(4) Davies, L (2009) Telling Them Apart, Conrad, Stevenson and the Social Double In Dryden, L.(2003) The Modern Gothic and Literary Double Stevenson, Wilde, and Wells. N.Y: Palgrave 52-71.

(5) المصدر السابق.
(6) المصدر السابق.
(7) المصدر السابق.
(8) المصدر السابق.
(9) المصدر السابق.

(10) Warner op. cit, 163.

(11) المصدر السابق، 164.
(12) المصدر السابق.
(13) المصدر السابق، 165.

(14) Weber, A (2003) The Doppelganger. The Double Visions in German Literature. N.Y: Clarendon press, 1-5.

(15) Weber, A. op. cit.

(16) Weber, A. op. cit.

(17) Dryden, et al (2009) Robert Louis Stevenson & Joseph Conrad, Writer of Transition. Texas: Texas Tech Univ. Press، 5859-.

(18) إدغار آلان بو (1986) وليم ويلسون في: القط الأسود (ترجمة خالدة سعيد).

(19) روبـــرت لويس ستيفنســـون، (2008)، دكتور جيكل ومســـتر هايد، ترجمة جولان حاجي، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.

(20) أوسكار وايلد (1988) صورة دوريان جراي (ترجمة: لويس عوض) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، مواضع متفرقة.

(21) Conrad, J. (2007), The Secret Sharer, N.Y: FQ Publishing.

(22) Pesic, P.(2003) Seeing Double, Shared Identities in Physics, Philosophy and Literature. Cambridge: Mass, The MIT Press.

(23) فيـــودور دستويفســـكي (2008)، روايـــة المثـــل أو القرين (ترجمة ســـامي الدروبي): القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(24) شاكر عبد الحميد (1997) الأدب والجنون، القاهرة: مكتبة غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

(25) ســـليمان فياض (1982) القرين ولا أحد. القاهـــرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مختارات فصول.

(26) المرجع السابق نفسه.

(27) فخـــري صالح (2010) خوســـيه ســـاراماغو، الروائي المدهـــش والروائي المثقف، جريدة الحياة اللندنية، العدد 17243 - بتاريخ 20 يونيو 2010.

(28) خوزيه ســـاراماجو (1999)، عام وفاة ريكاردو ريس. (ترجمة: محمد فهمي عبداللطيف). القاهرة: دار الهلال، رواية الهلال.

(29) فـــوزي فهمي (2010) أيهما الوجه الحقيقي؟ دراســـة نقدية منشـــورة في جريدة الأهرام المصرية بتاريخ 31 مايو 2010.

(30) Ruth Parkin - Gounelas (2001). Literature and Psychoanalysis Intersexual Readings. N.Y.: Palgrave.

وانظر أيضا:

Rank, O. (2009) Double: A Psychoanalytic Study. North Carolina: University of North Carolina Press.

(31) المصدر السابق.

(32) Weber op. cit 6-10.

(33) كلود ليفي شتراوس (1986) الأسطورة والمعنى (ترجمة: شاكر عبدالحميد). بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، انظر الفصل الثالث خاصة.

(34) Weber op. cit, 6-10.

الفصل السابع

(1) Elizabeth B. (1993). Risky Resemblances: on Repetition, Mourning, and Representation. In: S. W. Goodwin and E. Bronfen (eds) Death and Representation. Baltimore and London: The Joln Hopkins Press. 103 -129.

وانظر أيضا

Wenstein London, P. (2005) Unknowing the Work of Modern Fiction. London: Cornell University Press.

(2) Del villano, B (2007). Ghostly Alterities, Spectrality and Contemporary Literatures in English, NY: Ibiden Verlag.

(3) http://en.wikepedia.org/wiki/revernant_(folklore).

(4) Ratmoko, D. (2006) on Spectrality. Santasies of Redemption in the Western Canon. N.Y: Peter Lang.

(5) إدجار آلان بو (1986) القط الأســـود وقصص أخرى (ترجمة خالدة سعيدة بيروت: دار الآداب، الطبعة الثانية «قصة ليجيا».

(6) المرجع السابق.

(7) مقدمة بودلير لكتاب بو، القط الأســـود وقصص أخرى (ترجمة خالدة سعيد) – مرجع سابق.

(8) وليم شكســـبير «مســـرحية هاملت» (ترجمة جبرا إبراهيم جبرا) بغداد: دار المأمون.

(9) Newman, s (2005). Power and Politics in Post-cultural Thought. N.Y. Routledge, 120-122.

(10) المصدر السابق.

(11) Del villano, op.cit, 1-4.

(12) Sterner, M (2006) The Ego and its own, eds by: D.lopold N.Y: Cambridge univ press.

(13) المصدر السابق.

(14) المصدر السابق.

(15) Royle, N (2003) The Uncanny. Manchester: Manchester Univ. Press, 4.

(16) Coopan,V, (2009) Worlds Within Stanford: Stanford Uniu Press 15-17.

(17) Derrida, J(1994) Specters of Marx: The State of the Debt, the Working of Mourning, and the New International. Trans. By Peggy Kamuf N.Y: Routledge.

(18) المصدر السابق.

(19) المصدر السابق.

(20) Newman, opcit.

(21) المصدر السابق.

(22) Berthin, (2010). Gothic Hauntings, Melanchology Crypts and Textual Ghosts. N.Y: Palagrave, Macmillan, 1-4.

(23) Davies (2007) Haunted Subjects Deconstruction, Psychoanalysis and the Return of the Dead. Basingstoke: Palgrave McMillan.

(24) Gordon, A.(2008) Ghostly Matters: Haunting and the Sociological Imagination. Minnesota: University of Minnesota Press .

(25) Atwood, M (2002) Negotiating with the Dead, A Writer on Writing .N.Y: Cambridge Univ. Press book,162.

(26) فوزي فهمي (1989) مسرحية عودة الغائب. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(27) فردريش دورينمات (1964) زيارة السيدة العجوز (ترجمة: مصطفى ماهر) القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، سلسلة المسرح العالمي، مقدمة المترجم، ص 4.

(28) فردريش دورينمات، زيارة السيدة العجوز، سبق ذكره.

(29) جورج شحادة (1973) مهاجر برسبان (ترجمة أدونيس) الكويت: وزارة الإعلام، سلسلة من المسرح العالمي.

(30) من مقدمة أدونيس لمسرحية جريرسبان لجورج شحادة، ص 5.

(31) نيقولاي جوجول (1993) المفتش (ترجمة: هاشم حمادي) الكويت: سلسلة المسرح العالمي، وزارة الإعلام.

(32) باولو كويلو (2010) الشيطان والآنسة (ترجمة جواد صيداوي وبسام حجار)، بيروت: شركة المطبوعات للنشر.

(33) آروين شو (2005) ثورة الموتى (ترجمة: فؤاد دوارة) القاهرة: المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، سلسلة روائع المسرح العالمي.

(34) Ruth Parkin – Gounelas (2001). Literature and psychoanalysis Intersexual Readings. N.Y.: Palgrave.

(35) Radway, J. (2008) Foreword to Avery F. Gordon Ghostly Matters, op.cit.

(36) المصدر السابق.

(37) Attwood, Opcit.

(38) http://en.wikipedia.org/wiki/Spirit_of_place

(39) Berthin, op.cit.

الفصل الثامن

(1) فريدريك نيتشه (من دون تاريخ) هكذا تكلم زرادشت (ترجمة: فليكس فارس) بيروت: دار العلم للملايين، 108.
(2) http://en.wikipedia.org/wiki/E.T.A.Hoffmann.
(3) Wuletich – Brunberg, G (1988) Poe, The Rationale of the Uncanny N.Y: Peter Lang.
(4) Jentsch, (1906) On the Psychology of the Uncanny. In Collins & Jervis , eds, 2008, 216-228. Uncanny Modernity Cultural Theories, Modern Anxities. Cambridge. Camb. Univ. Press.
(5) Hoffmann. E.T.A. (1982) Tales of Hoffmann. Selected and translated with an introduction by: J. Hollingdale. London: Penguin Books, 85-125.
(6) روزديل (1625 – 1682) فنان هولندي كان مولعا برسم الحقول والبحيرات والمناظر البحرية والطبيعية عامة.

الفصل التاسع

(1) الجاحظ (1986). كتاب الحيوان، الجزء السادس، تحقيق عبد السلام هارون.
(2) Ellison, D (2001) Ethics and Aesthetis in Eurapean Literature from the Sublime to the Uncanny .N.Y: co Cambridge. Camb. Univ. Press.
(3) Cixous,H (2005) Fiction and its phantoms: A Reading of Freud's Das unheimliche, The Uncanny In: Steve Vine (ed) Literature in Psychoanalysis, A Reader. N.Y: Palgrave 84-96.
(4) Kofman, S (2005) The Double is/and the Devil - the Uncanniness of the Sandman, In Steve vine, ibid, 68-83.
(5) Miller, L (2005) The Sandman, The Uncanny as a Problem of Reading , In: Steve Vine, op. cit. 97-110.
(6) Hertz, N (2009). Freud and The Sandman, in: Hertz, The End of Line: Colorado: The Davies Group, 113-134.

المؤلف في سطور

د. شاكر عبدالحميد

- من مواليد أسيوط - جمهورية مصر العربية.
- وزير الثقافة الحالي في جمهورية مصر العربية.
- يعمل أستاذا لعلم نفس الإبداع في أكاديمية الفنون - وزارة الثقافة المصرية.
- شغل منصب نائب رئيس أكاديمية الفنون.
- شغل منصب عميد المعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون.
- شغل منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة.
- كتب أكثر من عشرين كتابا مؤلفا أهمها: «الطفولة والإبداع» (في خمسة أجزاء) - «الأدب والجنون» - «الأسس النفسية للإبداع الأدبي للقصة القصيرة» - «العملية الإبداعية في فن التصوير» - «التفضيل الجمالي» - «الفكاهة والضحك» - «عصر الصورة» - «الخيال». وقد صدرت الكتب الخمسة الأخيرة من هذه القائمة عن سلسلة عالم المعرفة في الكويت.
- ترجم أكثر من ثمانية كتب أهمها: «بدايات علم النفس الحديث» - «الأسطورة والمعنى» - «العبقرية والإبداع والقيادة» - «سيكولوجية فنون الأداء». وقد صدر الكتابان الأخيران عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت أيضا.
- متخصص في دراسات الإبداع الخاص بالأطفال والكبار.
- له دراسات عديدة في النقد الأدبي والتشكيلي.

هذا الكتاب

«الغرابة» ليست مصطلحا أحادي البعد، بسيط المعنى؛ بل مصطلح متعدد الأبعاد، مركب المعاني، متنوع الدلالات، ومن معانيه: حضور الموت في الحياة وحضور الحياة في الموت. ومن معانيه أيضا ظهور المألوف في سياق غير المألوف، ومن معانيه كذلك: ظهور غير المألوف في سياق مألوف، وتحول الساكن إلى متحرك، والمتحرك إلى ساكن، عودة الموتى إلى الحياة، ودخول الأحياء عالم الموتى، وثمة معانٍ أخرى ستتجلى لنا خلال هذا الكتاب.

يشتمل هذا الكتاب على تسعة فصول: قدم المؤلف خلالها تحديدا لغويا وفلسفيا وسيكولوجيا لمعنى الغرابة، وقارن بينه وبين المعاني الخاصة بمفاهيم أخرى تلتبس معه أحيانا مثل الغربة والاغتراب والتغريب وغيرها. ثم طرح بعض التصورات الخاصة حول تلك العلاقات الممكنة بين عالم الأدب - القصة القصيرة والرواية خاصة - ومفهوم الغرابة، ثم عمد إلى التركيز أيضا على تلك العلاقات الموجودة بين إحساسات الخوف والفزع والرعب من الإحساسات المخيفة وبين الإحساس بالغرابة. ثم تحدث بعد ذلك عن مفهوم الذات وتطورها نحو السواء أو نحو التفكك والاختلال والمرض. وأيضا الجذور الفلسفية والسيكولوجية والأدبية لفكرة الازدواج. كذلك تم التركيز في هذا الكتاب على فكرة القرين أو الشبيه في الأدب. وفي الكتاب أيضا حديث عن «روح المكان»، وعن الروح المهوِّمة في المكان، وعن مفاهيم الأشباح والأطياف والمراودة وعن معاني هذه المفاهيم القديمة والحديثة وعلاقتها بموضوع الغرابة في الأدب خاصة.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 353 - 8
رقم الإيداع (2011/792)